جان بول سارتر

وقف التنفيذ

دروب الحرية - 2 -



ترجمة سهيل ادريس

جان بول سارتر

دروب الحرية - ٢

وقف التنفيذ

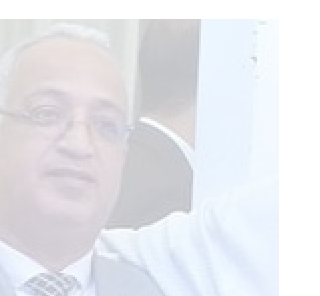
نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل إدريس

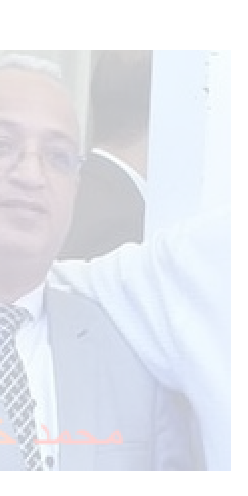


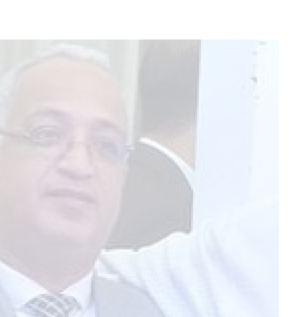
منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى

شباط (فبراير) ١٩٦١







الجمعة ٢٣ ايلول

الساعة السادسة عشرة والنصف في برلين ، الخامسة عشرة والنصف في لندن . كان الفندق يشعر بالضجر فوق رابية ، وكان خالياً مزهواً وفي داخله شيخ . وكانوا يفكرون في انغوليم ، وفي مارسيليا ، وفي غاند،وفي دوفر: « ماذا تُراه يفعل ؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة ، فلماذا لا يهبط ؟ » وكان جالساً في الصالة ذات الشبابيك نصف المغلقة ، وعيناه ثابتتان تحت حاجبيه الكثيفين ، وفمه مفترّ بعض الانترار ، كما لو انه كان يبتعث ذكرى قديمة جداً . وكان قد كفّ عن القراءة ، وكانت يده الهرمة المبقعة التي ما تزال تمسك بالاوراق ، تتدلى على ركبتيه . والتفت نحو هوراس ويلسون وسأل « كم هي الساعة ؟ » فقال هوراس ويلسون : « الرابعة والنصف تقريباً . » ورفع الشيخ عينيه الكبيرتين ، وضحك ضحكة صغيرة محبّبة وقال : « ان الطقس حارّ » وكان حرّ أحمر زافر مليء بنثار مذهّب قد سقط على اوروبا ؛ فكان الناس يشعرون به على ايديهم ، وفي اعماق عيونهم ، وفي شُعابهم ؛ وكانوا ينتظرون مشمئزين من الحرّ والغبار والقلق . وفي باحة الفندق ، كان الصحفيون ينتظرون ، وفي الساحة الخارجية ، كان ثلاثة سائقين

ينتظرون جامدين ازاء مقاود سياراتهم ، وعلى الجانب الآخر من الزين ، كان بروسيون فارعو القامة مرتدون الثياب السود ينتظرون جامدين في باحة فندق دريسن ، ولم يكن ميلان هلينكا ينتظر بعدُ . انه لم يكن ينتظر بعد منذ امس الاول . فقد حلّ ذلك النهار الطويل الأسود الذي تخلله يقين ساطع : « لقد تخلوا عنا ! » ثم عاد الزمن يجري ، لحسن الحظ ، ولم تكن الايام تعيش نفسها لنفسها بعدُ ، فهي ليست بعدُ الا أعداء ، ولن يكون ثمة بعدُ ابداً الا أعداء .

وفي الساعة الخامسة عشرة والنصف ، كان ماتيو ما يزال ينتظر ، على حافة مستقبل مريع ؛ وفي اللحظة نفسها ، الساعة السادسة عشرة والنصف ، لم يكن لميلان بعد من مستقبل . ونهض الشيخ ، فاجتاز القاعة متصلب الركبتين ، بخطوة مزهوّة واثبة ، وقال «ايها السادة! » وابتسم بحفاوة ؛ ووضع الوثيقة على الطاولة وملّس أوراقها بقبضته المضمومة ؛ وكان ميلان قد انزرع امام الطاولة ؛ وكانت الجريدة المنشورة تغطي مساحة القماشة المشمّعة كلها . وقرأ ميلان للمرة السابعة :

« لم يستطع رئيس الجمهورية ، ومعه الحكومة ، ان يفعلا شيئاً غير ان يقبلا عروض الدولتين الكبيرتين ، حول أساس موقف يُتخذ في المستقبل . ولم يكن باقياً علينا ان نفعل شيئاً آخر ما دمنا قد بقينا وحدنا . » وكان نفيل هندرسون وهوراس ويلسون قد اقتربا من الطاولة ، فالتفت الشيخ نحوهما ، وكان يبدو انه وديع مستسلم فقال: « ايها السادة ، هذا ما بقي علينا ان نفعله . » وكان ميلان يفكر : « لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل . » وكانت تدخل من النافذة ضجة مختلطة ،فكان ميلان يفكر : « لقد بقينا وحدنا . »

وارتفع من الشارع صوتٌ فأريّ : « ليعش هتلر ! »

فعاد ميلان الى النافذة وصاح :

— انتظر قليلاً ، ريثما أهبط .

وحدث فرار مجنون واصطفاق نعال ، وفي نهاية الشارع التفت الشقي وفتش في وزرته ثم أخذ يدير ذراعه حول رأسه . وانبعث صوت نقرتين جافتين على الجدار . فقال ميلان :

ــ انه ليبكنشت الصغير يقوم بدورته .

وانحنى : كان الشارع خالياً ، كأيام الأحد . وكانت اسرة شونهوف قد علقت على شرفة بيتها أعلاماً حمراً وبيضاً مع صلبان معقوفة . وكانت جميع مصاريع البيت الأخضر مغلقة . وفكر ميلان : « ليس لنا مصاريع . » وقال :

ــ يجب ان نفتح جميع النوافذ .

فسألت انا : ــ لماذا ؟

ــ حين تكون النوافذ مغلقة ، فهم يصوبون الى الزجاج .

فهزت أنا كتفيها وقالت :

ــ مهما يكن من أمر ..

وكانت اغانيهم وصرخاتهم تصل في موجات كبيرة مبهمة . وقال ميلان :

ــ انهم ما يزالون في الساحة .

وكان قد وضع يديه على قضيب الاستناد ، وهو يفكر : « لقد انتهى كل شيء . » وبرز في زاوية الشارع رجل ضخم ، كان يرتدي « روكساكاً » ويعتمد على عصا . وكان يبدو عليه التعب . وكانت تتبعه امرأتان أحنت ظهريهما حزم كبيرة .

وقال ميلان من غير ان يلوي :

ــ لقد عادت أسرة جاغرشميت .

وكان افرادها قد هربوا مساء الاثنين ، ولا بد أنهم اجتازوا الحدود ليلة الثلاثاء . اما الآن فهم يعودون مرفوعي الرأس . واقترب جاغرشميت من البيت الأخضر ورقي الدرجات المسطحة . وكان وجهه

رمادياً من الغبار ، وعليه بسمة غريبة . وأخذ يبحث في جيوب سترته حتى أخرج مفتاحاً . وكانت المرأتان قد وضعتا حزمهما على الارض وراحتا تنظران اليه . وصاح به ميلان يقول !

– انك تعود إذ يزول الخطر !

فقالت أنّا بحيوية : – ميلان !

وكان جاغرشميت قد رفع رأسه ، فرأى ميلان والتمعت عيناه الصافيتان .

– انك تعود إذ يزول الخطر !

فصاح جاغرشميت : – نعم ، أعود . اما انت ، فسوف ترحل!

وأدار المفتاح في القفل ودفع الباب ، فدخلت المرأة على أثره . والتفت ميلان وقال :

– جبناء قذرون !

قالت أنّا : – انك تستثيرهم .

قال ميلان : – انهم جبناء ، من عرق الألمان القذر . لقد كانوا منذ عامين يلحسون نعالنا .

– هذا لا يمنع . إن عليك الا تستثيرهم .

كفّ الشيخ عن الكلام ، وظل فمه مشقوقاً كما لو انه كان يتابع في صمت الادلاء بآرائه عن الموقف. وكانت عيناه الكبيرتان المستديرتان قد غامتا بالدمع ، وكان قد رفع حاجبيه ، وهو ينظر الى هوراس ونفيل في هيئة استفهام . وصمتوا ، وتحرك هوراس حركة مفاجئة ثم أدار رأسه ، ومشى نفيل حتى الطاولة ، فتناول الوثيقة وتأملها لحظة ثم دفعها في استياء . وبدأت على الشيخ هيئة التململ ، فباعد ذراعيه علامة العجز والاستسلام . وقال للمرة الخامسة : « لقد وجدتني بازاء موقف غير متوقّع على الاطلاق ، وكنت أظنّ اننا سنناقش بهدوء العروض التي كنت أحملها .. » وفكر هوراس : « يا للثعلب القديم ! من

اين تراه يجيء بهذا الصوت ، صوت الجد العجوز ؟ » وقال : « حسناً يا سيدي الرئيس : سنكون في فندق دريسن بعد عشر دقائق . »

قالت أنا : — لقد جاءت لرخن . ان زوجها في براغ ، وهي ليست مطمئنة .

— ليس لها الا ان تنزل عندنا .

فقالت أنا في ضحكة مقتضبة :

— أتظن انهـــا ستكون اكثر اطمئناناً .. مع مجنون مثلك يقف على النافذة ليشتم الناس في الشارع ؟

فنظر الى رأسها الصغير الرقيق الهادىء ذي الملامح المشدودة ، والى كتفيها الضيقتين والى بطنها الهائل . وقال :

— اجلسي . إني لا احب ان اراك واقفة .

فجلست وشبكت يديها على بطنها ؛ وسحب الرجل بعض الصحف وهو يتمتم : « باري — سوار الأخيرة . بقي لديّ نسختان ، فاشترهما . » وكان قد صاح حتى بُحّ صوته . وأخذ موريس الصحيفة . « وجّه رئيس الوزارة شمبرلن الى المستشار هتلر رسالةً سيجيب عليها هـــذا الأخير ، كما يُتوقع في الاوساط البريطانية . وعلى هذا ، فان اللقاء الذي كان منتظراً ان يتم هذا الصباح قد أجّل الى ساعة اخرى . »

وكانت زيزيت تنظر الى الصحيفة من فوق كتف موريس . وسألت :

— هل من جديد ؟

— لا . لا يزال الوضع كما هو .

وقلب الصفحـــة فرأيا صورة مظلمة تمثّل ما يشبه قصراً من قصور القرون الوسطى ، في قمة رابية ، ذا بروج وأجراس ومئات من النوافذ .

قال موريس :

— انه غودسبرغ .

فسألت زيزيت : — ان شمبرلن إذن هناك ؟

ـ يبدو أنهم ارسلوا نجدة من رجال الشرطة .
قال ميلان : ـ نعم . دركيان . وقد اصبحوا الآن ستة . وهم متمترسون في مخفر الدرك .
وانصبّت شحنة من الصراخ في الغرفة . فارتعشت أنّا ، ولكن وجهها ظلّ هادئاً . وقالت :
ـ ما رأيك بان نتلفن ؟
ـ نتلفن ؟
ـ نعم . نتلفن لبريسكنيس .
فأراها ميلان الجريدة من غير ان يجيب : « تقول برقيـة لوكالة د. ن. ب. بتاريخ الخميس ان السكان الالمان في مناطق السوديت قد استولوا على الحكم حتى الحدود اللغوية . »
قالت أنّا : ـ ربما كان ذلك غير صحيح . لقد قيل لي ان هذا لم يقع الا في « ايجر » .
فضرب ميلان الطاولة بقبضته :
ـ تفه ! يطلبون مزيداً من النجدة !
وبسط يديه ، وكانتا ضخمتين معقّدتين ، مع بقع سمراء وندوب: لقد كان حطّاباً قبل ذلك الحادث . وكان ينظر اليهما وهو يباعـد أصابعه . فقال :
ـ بوسعهم ان يجيئوا . اثنين او ثلاثة . واؤكد لك اننا سنتسلى خمس دقائق .
قالت أنّا : ـ بلى هم سيأتون وعددهم ستمئة »
وخفض ميلان رأسه ؛ كان يحسّ أنه وحيد . وقالت أنّا :
ـ إسمع !
وأصغى : كانوا يُسمعـون بمزيد من الوضوح ، ولا بدّ أنهم قد بدأوا المسير . وكان يرتجف من الغضب . وغمضت عليه الامور وأخذه

الصداع . واقترب من الطاولة وأخذ يلهث ، فسألته أنا :
ــ ماذا تفعل ؟
وكان قد مال على درج الطاولة وهو يلهث . وانحنى اكثر قليلاً وهمهم من غير ان يجيب . وقالت له :
ــ يجب ألاّ تفعل ذلك .
ــ ماذا ؟
ــ يجب الا تفعل . أعطني هذا .
والتفت : كانت أنا قد نهضت ، وكانت تستند الى الكرسي ، والجدّ بادٍ على وجهها . وفكر في بطنها ؛ ومدّ لها المسدس وقال :
ــ كما تريدين . سأتلفن لبريسكنيس .
وهبط الى الطابق الأرضي . وفي باحة المدرسة ، فتح النوافذ ثم تناول التلفون .
ــ اعطني المخفر ، في بريسكنيس . آلو ؟
وكانت اذنه اليمنى تسمع خشخشة جافة . وكانت اذنه اليسرى تسمعهم « هم » . وضحكت اوديت ضحكة غامضة : « لم أعرف على الضبط قط اين تقع تشيكوسلوفاكيا . » قالت ذلك وهي تغرز أصابعها في الرمل . وبعد لحظة حدثت خربشة ، وقال صوت :
ــ نا ؟
وفكر ميلان : « انني اطلب نجدة ! » وكان يضمّ السمّاعة بكل قواه . وقال .
ــ هنا برافنيتز ، أنا المعلم . نحن عشرون تشيكياً ، وهناك ثلاثة ديموقراطيين ألمان يختبئون في جوف كهف ، والباقي في « هنلين » ؛ وهم محاطون بخمسين شخصاً من « الفرقة » الحرة اجتازوا الحدود مساء أمس وجمعوهم في الساحة . وان المختار معهم .
وساد صمت ، ثم قال الصوت في وقاحة :

– بت ! دوتش سبريشن .
فصاح ميلان – : شوينكوبف !
وأعاد السمّاعة ثم عاد يرقى السلّم وهو يعرج . وكانت ساقه تؤلمه.
ودخل الغرفة فجلس .
وقال : – انهم هنا .
وأقبلت عليه أنّا . فوضعت يديها على كتفيه وقالت :
– حبيبي الغالي !
قال ميلان – : القذرون ! كانوا يفهمـــون كل شيء ، وكانوا يتضاحكون في الطرف الآخر من الخط .
وجذبها بين ركبتيه . وكان البطن الضخم يلامس بطنه . وقال :
– ها نحن الآن وحيدان .
– لا أستطيع ان أصدق ذلك .
ورفع رأسه على مهل ونظر اليها من تحت الى فوق . كانت جادّة وقاسية في العمـــل . ولكن كان فيها من النساء هذا : ينبغي دائماً ان تثق بأحد . وقالت أنّا :
– ها هم اولاء !
وكانت الاصوات تبـــدو كأنها أقرب : لا بدّ انهم يسيرون في عرض في « الغراندروي » . ومن بعيد كانت صيحات الجماهير الفرحة تشبه صرخات ذعر .
– هل الباب محصّن ؟
فقال ميلان : – نعم . ولكن بوسعهم ان يدخلوا من النوافذ او ان يتجاوزوا الحديقة .
قالت أنّا : – واذا صعدوا ؟...
– لا حاجة بك الى الخوف . بوسعهم ان يحطّموا كل شيء من غير ان ارفع اصبعاً واحداً .

وأحسّ فجأة شفتي أنّا الحارتين على خدّه :
— يا حبيبي الغالي . اعرف انك انما تفعل ذلك من أجلي أنا .
— ليس من أجلك . فأنت انا . وانما من أجل الطفل .
وانتفضا : لقد دُقّ الباب . وصاحت أنّا :
— لا تذهب الى النافذة .
ونهض ، فتوجّه الى النافذة . كانت اسرة جاغرشميت قد فتحت كل نوافذها . وكان العلم الهتلري متدلياً فوق الباب . وحين انحنى ،رأى طيفاً صغيراً ، فصاح :
— أنا هابط .
واجتاز القاعة وقال : — انها ماريكا .
وهبط السلّم،وراح يفتح الباب.مفرقعات،صراخ ، موسيقى من فوق السطوح: كان ذلك يوم عيد. ونظر الى الشارع الخالي فانقبض قلبه . وسأل :
— ماذا أتيت تفعلين هنا ؟ هل هو يوم عطلة في المدرسة ؟
قالت ماريكا : — امي هي التي ارسلتني .
وكانت تحمل سلة صغيرة فيها تفاح وحلوى .
— ان امك مجنونة . لا بد ان تعودي الى البيت .
— هي تقول بانكم لن تصرفوني .
وبسطت له ورقة مطوية أربع طيات . ففتحها وقرأ : « لقد فقد الاب وجورج رشدهما . فأرجوكم ان تحتفظوا بماريكا حتى المساء . »
فسألها ميلان : — اين ابوك ؟
— لقد وقف خلف الباب مع جورج . وهما يحملان فأسين وبندقيتين . (وأضافت في شيء من الاهتمام) وقد أخرجتني امّي من الحديقة ، وقالت انني سأكون في وضع افضل عندكم ، لانكم متعقلون .
قال ميلان : — نعم . نعم . انني متعقل . هيّا ، إصعدي .
الساعة السابعة عشرة والنصف في برلين ، السادسة عشرة والنصف

في باريس . انخفاض خفيف في شمال اسكتلندا . وظهـر السيد فون دورنبرغ على درج الـ « غران اوتيل » ، فأحاط به الصحفيون ، وسأل بياريل : « أتراه سوف يهبط ؟ » وكان السيد فون دورنبرغ يمسك ورقة في يده اليمنى ؛ ورفع يده اليسرى وقال : « لم يتقرر بعد ما اذا كان السيد شمبرلن سيرى الفوهرر في المساء . »

قالت زيزيت : — هنا . كنت ابيع زهوراً هنا ، في عربة صغيرة خضراء .

فقال موريس : — كنت في موضع طيّب .

وكان ينظر بوداعة الى الرصيف والطريق ، وكان هذا هو ما جاءوا ينظرون اليه منذ بدأت تتحدث عنه . ولكن ذلك لم يكن يعـني له شيئاً . وكانت زيزيت قد تركت ذراعها . وكانت تضحك وحدها ، بلا ضجة ، وهي تنظر الى السيارات تجري . وسأل موريس :

— وهل كان معك كرسيّ ؟

قالت زيزيت : — احياناً . كرسيّ يُطوى .

— لا بدّ ان ذلك لم يكن شيئاً طريفاً دائماً .

قالت زيزيت : — كان ذلك طيباً في الربيع .

وكانت تحدثه بصوت منخفض ، من غير ان تلتفت اليه ، كما لو لو كان ذلك في غرفة مريض ؛ وكانت منذ لحظة قد أخذت تتحرك حركات متميّزة بكتفيها وظهرها ، ولم تكن تبدو طبيعية . وكان موريس متضايقاً ؛ فقد كان ثمة عشرون شخصاً على الاقل امام واجهة ، فاقترب واخذ ينظر من فوق رؤوسهم . وظلّت زيزيت في نشوتها على حافة الرصيف ؛ ولحقت به بعد برهة وأخذت ذراعه من جديد . وكان على صفيحة زجاجية ذات حافة مائلة طرفان من جلد أحمر وحولها زبدٌ أحمر شبيه بمنفضة للمسحوق . وأخـذ موريس يضحك ، فهمست زيزيت :

— انك تضحك ؟

فقال موريس وهو يقهقه : — انها أحذية .
والتفت رأسان او ثلاثة ، فقالت له زيزيت « هس » وسحبته . قال موريس :
— ماذا ؟ لا أظن اننا في قداس !
ولكن كان مع ذلك قد خفض صوته : كان الناس يتقدمون وهم يسترقون الخطى بعضهم خلف بعض ، وكان يبدو عليهم انهم متعارفون ، ولكن احداً لم يكن ليتكلم . وهمس :
— لقد مضى خمسة اعوام تقريباً من غير ان أجيء الى هنا .
وأرته زيزيت مطعم «مكسيم » بافتخار ، وقالت له في جوف اذنه :
— إنه « المكسيم » .
ونظر موريس الى المكسيم وصرف رأسه بحيوية : لقد سبق ان حدثوه عنه ، وكان عبارة عن قذارة ، فهنالك كان البورجوازيون يعبّون الشمبانيا عام ١٩١٤ ، بينما كان العمال يقاتلون . وهمهم بين أسنانه :
— اية نتانة !
ولكنه كان يشعر بالانزعاج ، من غير ان يدري السبب ، وكان يمشي بخطى صغيرة ، وهو يتهادى ؛ وكان الناس يبدون له رخاص العود ، وكان يخشى ان يصدمهم .
وقالت زيزيت : — هذا ممكن ، غير أنه مع ذلك شارع جميل ، ألا ترى ذلك ؟
قال موريس : — إنه لا يسحرني ، وهو بحاجة الى هواء .
فهزّت زيزيت كتفيها وأخذ موريس يفكر في جادة سانت اوان : حين كان يغادر الفندق في الصباح ، كان بعض الأشخاص يتجاوزونه وهم يصفرون وعلى ظهورهم اكياس ، وهم منحنون على مقاود دراجاتهم . وكان يشعر بالسعادة : كان بعضهم يتوقفون في سانت —

دنيس ، بينما يتابع آخرون طريقهم ، وكان الجميع يتجهون وجهة واحدة ، كانت الطبقة العاملة تسير . وقال لزيزيت :

— اما هنا فالمرء موجود بين البورجوازيين .

وخطوا بضع خطوات في رائحة ورق مجلوب من ارمينيا ، ثم توقّف موريس وطلب المعذرة ، فسألته زيزيت :

— ماذا تقول ؟

فقال موريس منزعجاً : — لا شيء . لا اقول شيئاً .

وكان قد اصطدم بشخص آخر ؛ وبالرغم من ان الآخرين كانوا يسيرون خافضي النظر ، فقد كانوا يتدبرون امرهم دائماً لتجنّب الصدمة في آخر لحظة ؛ ولا بدّ ان هذه قضية عادة .

— هل تأخذني ؟

ولكنه لم تكن لديه الرغبة بعد في ان يتابع سيره ، فقد كان يخشى ان يحطّم شيئاً ما ، ثم ان هذا الطريق لم يكن يؤدي الى اي مكان ، فلم يكن له اتجاه ، وكان ثمة أشخاص يصعدون ثانية نحو الجادات ، بينما يهبط آخرون نحو السين ، ويظلّ غيرهم ملتصقي الأنوف بالواجهات : لقد كان ذلك يحدث اندفاعات محلية ، ولكنه لم يكن يحدث حركات جماعية ، وكان المرء يحسّ نفسه وحيداً . ومد يده فوضعها على كتف زيزيت ؛ وكان يضغط بقوة على اللحم الريان عبر القماش . وابتسمت له زيزيت ، وكانت منبسطة النفس ، وكانت تنظر الى كل شيء بنهم من غير ان تفقد هيئتها العارفة ، وكانت تحرك بلطف أليتيها الصغيرتين . ودغدغ عنقها فضحكت وقالت :

— كفى يا موريس !

وكان يحب كثيراً الالوان القوية التي كانت تضعها على وجهها ، والأبيض الذي كان يشبه السكر ، والأحمر الجميل على الوجنتين . وكانت تنبعث منها عن قرب رائحة العسل . وسألها بصوت منخفض :

ـ هل انت مسرورة ؟
قالت زيزيت وعيناها تلتمعان :
ـ انني اذكر كل ما أراه .
وترك كتفها وعادا يسيران في صمت : لقد عرفت بعض البورجوازيين الذين كانوا يأتون ليشتروا زهورها ، وكانت تبتسم لهم ، بل كان فيهم من حاول ان يلامسها . وكان ينظر الى رقبتها البيضاء فيحس انه طريف ، وتأخذه الرغبة في ان يضحك ويغضب .
وصاح صوت : ـ باري ـ سوار .
فسألت زيزيت : ـ هل نشتريها ؟
ـ انها النسخة نفسها التي اطلعنا عليها منذ حين .
وكان الناس يحيطون بالبائع ويتنازعون الصحف في صمت . وخرجت من الجمع امرأة ذات كعبين عاليين وقبعة منتصبة في أعلى الرأس يتلوى المرء ضحكاً لمرآها . وقد فتحت الجريدة وأخذت تقرأ وهي تنطنط . واسترخت جميع ملامحها وارسلت تنهدة طويلة .
قال موريس : ـ انظري الى المرأة ...
فنظرت اليها زيزيت وقالت :
ـ لعل رَجُلَها سيرحل .
فهز موريس كتفيه : لقد كانت تبدو من الغرابة بحيث توحي بأنها قد تكون حقاً شقية بهذه القبعة وهذا الحذاء السمكي . وقال :
ـ وإذن ؟ إن رجلها ضابط .
قالت زيزيت : ـ حتى ولو كان ضابطاً ، فقد يفقد جلده كسائر الرفاق .
ونظر اليها موريس في غضب :
ـ انك تضحكيني بضباطك . لا عليكِ الا ان تتذكري حرب ١٩١٤ ، وما اذا كانوا قد فقدوا فيها جلودهم .

قالت زيزيت : — تماماً . كنت أحسب ان كثيراً منهم قد ماتوا فيها .
فقال موريس : — انما مات الفلاحون ، ونحن الآخرين .
فالتصقت زيزيت به وقالت :
— اوه ! موريس ، أتعتقد حقاً بان الحرب ستنشب ؟
قال موريس : — ما يدريني انا ؟

في ذلك الصباح بالذات ، كان واثقــاً من ذلك ، وكان الرفاق واثقين مثله . كانوا على شاطيء السين ، وكانوا ينظرون الى صف الآلات الرافعة ومجارف الرمل ؛ وكان ثمة فتيان بقمصان قصيرة الأكمام، وشباب أشدّاء من جينفيليه كانوا يحفرون خندقاً لسلك كهربائي ، وكان واضحاً ان الحرب ستنفجر . ومهما يكن من أمر ، فان ذلك لم يكن ليغيّر فتيان جينفيليه تغييراً كبيراً : فانهم سيكونون في مكان ما من الشمال ليحفروا الخنادق تحت الشمس ، تهدّدهم القنابل والرصاص ، كما تهددهم اليوم الانهيارات والسقطات وجميع حوادث العمل ؛ وسوف ينتظرون نهاية الحرب كما كانوا ينتظرون نهاية بؤسهم . وكان ساندر قد قال : « اننا سنخوضها ، ولكن حين نعود ، سنحتفظ ببنادقنا . »

اما الآن ، فهو ليس واثقــاً من شيء بعد ؛ ففي سانت — أوان كانت الحرب قائمة بلا انقطاع ، ولكن ليس هنا . كانت السلم قائمة هنا : فهنا واجهات ، واشياء مترفة معروضة ، وأقمشة ملوّنة ، ومرايا ينظر فيها الناس ، وكل الترف والراحة . صحيح أن هيئة الناس كانت حزينة ، ولكن ذلك قائم منذ ولادتهم . لماذا تراهم يقاتلون ؟ انهم لا ينتظرون بعد شيئاً ، كانوا يملكون كل شيء . انه لا بد مشؤوم الا يأمل المرء شيئاً آخر غير ان تستمر الحياة الى ما لا نهاية كما بدأت ! وقال موريس فجأة موضحاً :

— ان البورجوازية لا تريد الحرب . انها تخشى النصر ، لأنه سيكون نصر الطبقة العاملة .

ونهض الشيخ ، فصحب نفيل هندرسون وهوراس ويلسون حتى الباب : ونظر اليهما لحظة بهيئة تأثر ، وكان يشبه جميع الشيوخ ذوي الوجوه المتهدمة الذين كانوا يحيطون ببائع الصحف في شارع رويال ، وباكشاك الصحف في بال مال ستريت ، والذين لم يكونوا يطلبون شيئاً آخر غير ان تنتهي حياتهم كما ابتدأت . وكان يفكر بهؤلاء الشيوخ ، وبأولاد هؤلاء الشيوخ ، وقال :

– وبالاضافة الى ذلك ، أرجو ان تسأل السيد فان ريبنتروب عما اذا كان المستشار هتلر يجد مفيداً ان تجري بيننا محادثة أخيرة قبل سفري ، لافتاً انتباهه الى ان قبولاً مبدئياً يؤدي بالنسبة للسيد هتلر الى ضرورة إطلاعنا على اقتراحات جديدة . وارجو ان تلح بصورة خاصة على اني مصمم ان افعل كل ما هــو ممكن بشرياً لتسوية النزاع عن طريق المفاوضات ، لأنه يبدو لي غير معقول ان تغرق شعوب اوروبا التي لا تريد الحرب في نزاع دام من اجل قضية تحقق الاتفاق بشأنها الى حد بعيد . حظاً طيباً .

وانحنى هوراس ونفيل ، وهبطا السلم ، وكان الصوت الفخم ، الخائف ، المنكسر ، المتمدن ، ما يزال يرن في مسمعهما ، وكان موريس ينظر الى بشرات الشيوخ العذبة ، المتهدمة ، المتمدنة ، والى بشرات النساء ، ويفكر في اشمئزاز بأنه لا بد من فصدها .

لا بد من فصدها ، وسيكون ذلك أبعث على الاشمئزاز من سحق البزاق ؛ ولكن لا بد من الانتهاء الى ذلك . سوف تصطف الرشاشات في شارع رويال ، ثم يظل الشارع بضعة ايام متروكاً ، مع زجاج محطم ، وواجهات مثقوبة بشكل أنجم ، وطاولات مقلوبة عند أرصفة المقاهي ، بين شظايا الكؤوس ؛ وستدور طائرات في السماء فوق الجثث ؛ ثم يرفع الأموات ، وتوقف الطاولات ، ويستبدل الزجاج ، وتستعيد الحياة سيرها ، فيعمر الشارع رجال أشداء ذوو رقاب حمر وسترات

جلدية وقبعات . ومع ذلك ،فان الأمر كان هكذا في روسيا ، وقد سبق لموريس ان رأى صوراً لجادة نوفسكي ، وكان العمال وقد استولوا على هذه الجادة المترفة ، يتنزهون فيها ، ولم تكن القصور والجسور الكبيرة لتدهشهم بعد .

وقال موريس في انفعال : — أطلب المعذرة .

كان قد ارسل ضربة مرفق في ظهر سيدة عجوز نظرت اليه نظرة مغيظة . وأحس بالتعب والانحطاط : فتحت أعمدة الاعلانات الكبيرة ، وتحت الأحرف الذهبية المسودة المعلقة بالشرفة ، وبين دكاكين الحلويات وحوانيت الأحذية ، وأمام أعمدة كنيسة المادلين ، لم يكن من الممكن تصور جمع غير هذا الجمع ، يضم كثيراً من السيدات العجائز المكردحة ، ومن الاولاد في ثيابهم الكحلية . كان النور الحزين المذهّب ، ورائحة البخور ، والأبنية الساحقة والأصوات العسلية ، والوجوه القلقة المستنيمة ، وحفيف النعال الذي لا أمل له بالزفت ، كل ذلك كان يجري معاً ، وكل ذلك كان واقعياً ؛ اما « الثورة » فلم تكن الا حلماً . وفكّر موريس وهو يرسل نظرة حاقدة الى زيزيت : « ما كان ينبغي لي أن أجيء . فليس هذا مكان عامل . »

ولمست يدٌ كتفـه ، فاحمر وجهه سروراً إذ رأى برونيه . وقال برونيه وهو يبتسم :

— مرحباً يا صغيري العزيز .

قال موريس : — مرحباً ، رفيق .

وكانت قبضة برونيه شديدة كانبةً كقبضته ، وكانت تشد بقوة . ونظر موريس الى برونيـه وأخذ يضحك في غبطة . كان يستيقظ : كان يُحس بالرفاق حوله ، في سانت — اوان ، في ايفري ، في مونتروي ، في باريس نفسها ، في بلفيل ، في مونتروج ، في لافيلات ، يتماسكون بالذراع ويهيئون انفسهم للضربة القاسية . وسأله برونيه :

— ماذا تفعل هنا ؟ هل انت عاطل عن العمل ؟

فشرح موريس في شيء من الضيق : — بل هي عطلتي بأجرها . لقد ارادت زيزيت ان تأتي لأنها كانت تعمل هنا في الماضي .

وأضاف موريس : — إنه برونيه . لقد قرأت مقاله هذا الصباح في « الاومانيته » .

فنظرت زيزيت الى برونيه بشجاعة ومدت له يدها . انها لم تكن تخشى الرجال حتى ولو كانوا بورجوازيين او زعماء الحزب . وقال برونيه وهو يشير الى موريس :

— لقد عرفته منذ كان صغيراً . وكان في « الفوكون » الحمر في الجوقة ، ولم اعرف احداً قط ناشز الصوت مثله . واخيراً اتفقنا على ان يتظاهر فقط بالغناء في اثناء الاستعراضات .

فضحكوا ، وقالت زيزيت :

— وبعد ؟ هل ستنشب الحرب ؟ لا بد انك تعرف ذلك ، انت ، فان مركزك يخولك هذا .

وكان سؤالاً بليداً ، سؤال امرأة ، ولكن موريس حمد لها ان تطرحه . وكان برونيه قد اصبح جاداً فقال :

— لا ادري ان كانت الحرب ستقوم . ولكن ينبغي خصوصاً ألا نخاف منها : فعلى الطبقة العاملة ان تعرف ان امكان تجنبها لا يكون بقبول التنازلات .

وكان يتحدث جيداً . وكانت زيزيت قد رفعت نحوه عينين مليئتين بالثقة ، وكانت تبتسم بعذوبة وهي تصغي اليه . ولكن موريس شعر بالانزعاج . لقد كان برونيه يتحدث كالجريدة ، ولم يكن يضيف شيئاً على ما تقوله الجريدة . وسألته زيزيت :

— اتعتقد ان هتلر سوف يخاف اذا كشفوا له عن انيابهم ؟

وكان برونيه قد تلبّس هيئة رسمية ، ولم يكن يبدو عليه انه فهم

ان المطلوب هو رأيه الشخصي ، وقال :

ـ هذا ممكن جداً . ومهما يكن من أمر ، فان الاتحاد السوفياتي الى جانبنا »

وفكر موريس : « طبعاً ، فان زعماء الحزب لا يمكن ان يتصرفوا هكذا، ببساطة، للتعبير عن آرائهم امام عامل صغير من عمال سانت-اوان.» غير انه كان مع ذلك خائباً . وقد نظر الى برونيه فتلاشت فرحته تماماً: كان لبرونيه يدان فلاحيتان قويتان وفك قاس وعينان تعرفان ما تريدان؛ ولكنه كان يضع ياقة وربطة عنق وبذلة من الفلانيل، وكان يبدو مرتاحاً وسط البورجوازيين .

وكانت واجهة مظلمة تعكس صورتهم : وقد رأى موريس امرأة ذات شعر منفوش ورجلاً قوي البأس ، قبعته الى خلف ، يكاد يتفجر في دراعته ، وهما يتحدثان الى سيد . ومع ذلك ، فانه ظل هناك ، ويداه في جيبه ، ولم يكن يعزم على ترك برونيه .

وسأله برونيه : ـ الا تزال في « سانت ـ مانديه » ؟

فأجاب موريس : ـ لا ، بل في « سانت ـ اوان » . انني اشتغل عند « فلايف » .

ـ آه ، كنت أحسبك في سانت مانديه . مُحيكَم ؟

ـ بل ميكانيكي .

قال برونيه : ـ حسناً . حسناً . وإذن ! الى اللقاء ، يا رفيق .

فقال موريس : ـ الى اللقاء ، يا رفيق .

وكان يُحسّ الضيق ، وخيبة غامضة . وقالت زيزيت وهي تفترّ عن كل أسنانها :

ـ الى اللقاء يا رفيق .

ونظر اليهما برونيه وهما يبتعدان . وكان الجمع قد انغلق عليهما من جديد ، ولكن كتفي موريس الهائلتين كانتا تعومان فوق القبعات . ولا

بد أنه كان يمسك زيزيت من قامتها : فقد كانت قبعته تلامس شعرها ، وكانا يتهاديان بين المارة ، ورأسه الى رأسها . وفكّر برونيه : « انه فتى طيب . ولكني لا احب انفجاراته . » واستعاد سيره ، وكان رصيناً ، وكان يشعر بندم يقفّ له شعره . وفكرّ : « ما كان عساي ان أجيبه ؟ » لقد كانوا في سانت ـ دنيس ، وفي سانت اوان ، وفي سوشو ، وفي كروزو ، مئات الوف ينتظرون وفي عيونهم القلق والثقة نفسها . مئات الوف من الرؤوس الشبيهة بهذا الرأس ، رؤوس طيبة مستديرة قاسية ، مقدودة في غير اتساق ، رؤوس من القطع الكبير ، رؤوس حقيقية لرجال كانوا يتجهون نحو الشرق ، نحو غودسبرغ ، نحو براغ ، نحو موسكو . وبمّ كان يمكن إجابتهم ؟ كل ما كان ممكناً عمله الآن ، هو ان يحموا . ان تحمى فكرتهم البطيئة الصلبة من جميع القذرين الذين كانوا يحاولون ان يضلّلوها . فاليوم الأم بونينغ ، وغداً دوتين امين سر نقابة المعلمين ، وبعد غد « البيفرتيون » : ذلك كان نصيبه ؛ وهو سينتقل من شخص الى آخر ، وسيحاول ان يسكتهم . سوف تنظر اليه الأم بونينغ نظرة مخملية ، وستحدثه عن « فظاعة إراقة الدماء » وهي تحرّك يديها المثاليتين . لقد كانت امرأة ضخمة في حوالي الخمسين من عمرها ، ذات وجه أحمر ، مع زغب ابيض على الوجنتين ، وشعر قصير ، ونظرة ناعمة تشبه نظرة كاهن وراء نظارتيه ؛ وكانت ترتدي سترة رجل مزينّة القفا بشريط وسام الشرف . « سأقول لها : لن تبدأ النساء بارتكاب الحماقات ؛ ففي حرب ١٩١٤ ، كنّ يدفعن ذكورهم من اكتافهم الى الحافلات ، بينما كان ينبغي لهن ان يستلقين على خطوط السكة ليمنعن القطار من الذهاب . واليوم اذ يمكن ان يكون للقتال معنى ، فهأنتنّ تنظمن جمعيات للسلام ، وتعملن لتخريب معنويات الرجال ! » وظهر وجه موريس مرة اخرى ، فهزّ برونيه كتفيه في

ضيق : « كلمة ، كلمة واحدة تنير لهم الطريق أحياناً ، ولكني لم اعرف ان اجدها . » وفكر في ضغينة : « انها غاطة امرأة ، فان النساء يملكن فن طرح اسئلة بليدة . » خدّا زيزيت الطحينيّان ، وعيناها الصغيرتان الفاجرتان ، وعطرها اللئيم ؛ سوف يذهبن لجمع تواقيع وتواقيع ، ملحّات عذبات ، تلك اليمامات الراديكاليات الضخمات ، واليهوديات التروتسكيات ، والمعارضات التابعات لحزب المستقلين ؛ سيدخلن كل مكان .. بوقاحتهن الملعونة ، فيهبطن على فلاّحة تحلب بقرتها ، ويضعن في يدها الضخمة المبتلة قلم حبر : « وقّعي هنا ان كنت ضد الحرب . » لا حرب بعد الآن ، بل مفاوضات دائماً ؛ السلام اولاً . وماذا تراها ستفعل ، «زيزيت» هذه ، اذا بُسط لها قلم حبر بصورة مفاجئة ؟ أتراها قد احتفظت بردود فعل من صفتها هي من السلامة والصفاء بحيث تتيح لها ان تضحك على هاتيك السيدات اللطيفات ؟ لقد جرته في الأحياء الجميلة ، وكانت تنظر الى الحوانيت في انتعاش ، وهي تلصق على وجنتيها طرفاً من الحمرة ... مسكين انت ايها الفتى الصغير ، لن يكون الأمر حلواً اذا تعلّقتْ بعنقه لتمنعه من الذهاب ؛ انهم ليسوا بحاجة الى هذا ... « مثقف . بورجوازي !» اني لا أستطيع ان اطيقها لأن على وجهها جصاً ، ولأن يديها متأكلتان. ومع ذلك ، فلا يستطيع جميع الرفاق ان يكونوا عازبين . وكان يشعر بالتعب والثقل ؛ وفكر فجأة : « اني ألومها ان تضع الأحمر ، لأني لا احبّ الأحمر الرخيص » . « مثقف . بورجوازي . » يُحبّون جميعهم وجميعهن ، كل واحد وكل واحدة ، من غير تمييز . وفكر : « ليس عليّ حتى ان اريد ان احبّهم ، فان ذلك ينبغي ان يتم هكذا ، بالضرورة ، كما يتنفّس الانسان . » « مثقف . بورجوازي : معزول الى الأبد . » فمها عملت ، فلن تكون لنا الذكريات نفسها ابداً ؛ كان جوزيف مرسيه ، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً المصاب

بسفلس وراثي ، استاذ التاريخ الطبيعي في « ليسيه بوفون » وفي كلية سيمينيه ، يصعد شارع الرويال وهو يلهث ويلوي فمه بانتظام مع فرقعة رطبة ؛ وكان وجعه في جنبه الأيسر ، وكان يشعر بأنه بائس ويفكر بين الفينة والفينة : « اتراهم سيدفعون راتب الموظفين المجنّدين ؟ » وكان ينظر الى قدميه حتى لا يرى جميع هذه الوجوه القاسية ، فصدم رجلاً طويلاً احمر يرتدي بذلة من الفلانيل الرمادي دفعه فاصطدم بواجهة ؛ ورفع جوزيف مرسيه عينيه وفكر : « اية خزانة ! » وكان خزانة ، جداراً ، وحشاً من هذه الوحوش القاسية التي لا تحس ، يشبه « شاميرليه » معلم الرياضيات الابتدائية الذي كان يهزأ به في الصف ، وكان احد اولئك الأشخاص الذين لا يشكون قط في شيء ولا في انفسهم ، والذين لم يكونوا يوماً مرضى ، والذين لا عاهات لهم ، والذين يتلقون النساء والحياة بملء ايديهم ويمشون باستقامة نحو اهدافهم وهم يدفعونك لتصطدم بالواجهات . وكان شارع رويال يسيل بعذوبة نحو السين ، وكان برونيه يسيل معه ، وكان احدهم قد صدمه ، وقد رأى حشرةً ذات أنف متآكل تفر منه ، وهي ترتدي طاقية وياقة بورسلانية زائفة ، وكان يفكر في زيزيت وموريس ، وكان قد وجد من جديد ضيقه القديم المألوف ، وخجله امام هذه الذكريات التي لا تقبل التفكير ، والبيت الأبيض على حافة المارن ، ومكتبة الأب ، ويدي الام الطويلتين المعطرتين اللتين كانتا تعزلانه عنها الى الأبد .

وكان مساءً جميلاً مذهباً ، ثمرةً من ثمرات ايلول . وكان ستيفان هارتلي منحنياً على الشرفة يتمتم : « الاندفاعات الواسعة البطيئة للجموع المسائية . » جميع هذه القبعات ، هذا البحر من اللباد ، وبضع رؤوس عارية كانت تطفو بين الموجات البشرية ، وفكر : « كأنها زمج الماء » . وفكر في انه سيكتب : « كأنها زمج الماء . » رأسان

اشقران ورأس رمادي ، جمجمة جميلة حمـــراء ، فوق الرؤوس الأخرى ، ادركها الصلع ؛ وكان ستيفان يفكر : « الجموع الفرنسية » فيتأثر لذلك . جمعٌ صغير من رجالٍ قصار ، بطوليين ومسنّين . سوف يكتب : « ان الجموع الفرنسية تنتظر الأحداث في هــدوء وجدارة . » وفي الصفحة الاولى من « نيويورك هيرالــد » بأحرف ضخمة : « لقد استمعت الى الجموع الفرنسية » رجال قصار لا يبدو عليهم انهم مغتسلون جيداً ، قبعات نسائية كبيرة ، جمع صامت ، هادىء ومتسخ ، تذهّبه ساعة هادئة لمساء باريسي بين المادلين والكونكورد ، لدى الغروب . سوف يكتب : « وجه فرنسا » . وسوف يكتب : « وجه فرنسا الخالد » تجمّعات منسربة ، وتمتمات يُخيَّل انهـا جادة ومندهشة ، سيكون مبالغاً فيه ان يكتب « مندهشة » . فرنسي طويــل احمر ، اصلع بعض الشيء ، هادىء كغروب شمس ، بعض انعكاسات شمسية على واجهات السيارات ، وبعض صرخات ، وفكــر ستيفان : « التماعات اصوات » ثم فكر : « لقد كُتب مقالي . » وقالت سيليفا من وراء ظهره :

– ستيفان !

فقال ستيفان بجفاء ، ومن غير ان يلتفت :

– انني أعمل .

قالت سيلفيا : – ولكن ينبغي ان تجيبني يا عزيزي . فانه لم يبق على الباخرة « لافاييت » الا اماكن من الدرجة الاولى :

قال ستيفان : – خذي في الدرجة الاولى ، خذي غرفاً ممتازة : فقد تكون « لافاييت » آخر باخرة تسافر الى اميركا حتى تاريخ بعيد .

وكان برونفيه يسير بهدوء ، وكان يستنشق رائحة ورق مجلوب من ارمينيا ، ورفع رأسه فنظر الى احرف ذهبية مسودّة معلقة بشرفة ؛ وانفجرت الحرب : كانت هنا ، في اعماق هــذا الميْع المضيء ،

مسطورة كأنها بديهة على جدران المدينة الجميلة القابلة للكسر ؛ كان ذلك انفجاراً ثابتاً يمزق شارع رويال الى قسمين ؛ وكان الناس يمرون خلاله من غير ان يروه. وكان برونيه يراه . لقد كان موجوداً هنا دائماً . ولكن الناس لم يكونوا يعرفون ذلك بعد . وكان برونيه قد فكّر : « ستسقط السماء على رؤوسنا ؛ » وقد أخذ كل شيء يسقط، وكان قد رأى البيوت كما كانت حقاً : سقوطاً موقفاً . كان هذا الحانوت الجميل يحمل أطناناً من الحجارة ، وكان كل حجر ، وهو مشدود الى الاحجار الاخرى ، يسقط في المكان نفسه ، بعناد ، منذ خمسين سنة : بضعة كيلوات اخرى بعد ، ويُستأنف السقوط . وسوف تستدير الاعمدة وهي تصطك فتصاب بكسور مريعة ذات شظايا ؛ وستنفجر الواجهة ، وستنهار حمولات من الحجارة في الكهف وهي تسحق رزم البضائع . إنهم يملكون قنابل زنتها اربعة آلاف كيلو . وانقبض صدر برونيه . منذ لحظات فقط كان على هذه الواجهات المنتظمة بسمةٌ انسانية ، ممزوجة بمنثور المساء الذهبي . ولكنها انطفأت : مئة الف كيلو من الحجارة ؛ وكان رجال يسيرون تائهين بين ركام مجمّد. جنود بين الانقاض ، وربما قُتل هو . ورأى اثلاماً مسودّة على وجنتي زيزيت المجصّصتين . جدران مغبّرة ، وشقق جدران ذات ثقوب فاغرة ، ومربّعات من ورق زرق وصفر ، هنا وهناك ، وصفائح من برص ، بلاطات حمر بين الردوم ، وبلاطات محطمة يتخللها العشب الطفيليّ . ثم اكواخ من خشب ومعسكرات . وستبنى بعد ذلك ثكنات كبيرة رتيبة كالتي تقوم على الجادات الخارجية . وانقبض صدر برونيه وفكر في ضيق : « أحب باريس » . وانطفأت البديهة دفعة واحدة ، وتشكلت المدينة من جديد حوله . وتوقّف برونيه ، واحس انه مسكّر بعذوبة مائعة وفكر : « حبذا لو لم تكن هناك حرب ! حبذا لو أمكن ان لا تكون حرب ! » وكان ينظر بنهم الى ابواب كبيرة ، والى

واجهة « بريسكول » التي تبعث بالشرر ، والى بُسُط معمل « ويبر » للجعة . وشعر بالخجل بعد برهة ، واستعاد سيره وفكر : « أحب باريس أكثر مما ينبغي . » مثل بيلنياك ، في موسكو ، الذي كان يحب الكنائس القديمة اكثر مما ينبغي . ان « الحزب » على حق في ان يحذر المثقفين . ان الموت مكتوب في الناس ، والدمار مكتوب في الاشياء ؛ وسيأتي رجال آخرون يبنون باريس من جديد ، يبنون العالم من جديد . سأقول لها : « تريدين السلم إذن بأي ثمن ؟ » وسأحدثها برقة وانا انظر اليها بإحداد وسأقول لها : « يجب على النساء ان يتركننا وشأننا ، فليس هذا الوقت مناسباً لكي يأتين فيزعجن الرجال بحماقتهن . »

قالت اوديت : — اود لو اكون رجلاً

ونهض ماتيو معتمداً على مرفقه . وكان قد اسمرّ الآن تماماً . فسألها باسماً :

— لكي تمثلي دور الجندي ؟

واحمر وجه اوديت وقالت بحيوية :

— اوه لا ! وانما أجد من الحماقة ان تكون المرأة امرأة في هذه الفترة .

فقال موافقاً : — لا بد ان ذلك ليس مناسباً جداً .

وكانت قد اتخذت هيئة الببغاء ، مرة اخرى ؛ وكانت الكلمات التي تستعملها ترتد ضدها دائماً . وكان يخيّل اليها مع ذلك ان ماتيو ما كان يستطيع ان يلومها ، لو انها عرفت كيف تجعل الناس يفهمونها ؛ كان ينبغي ان تقول له ان الرجال كانوا يزعجونها حين يتحدثون عن الحرب امامها ؛ فانهم لم يكونوا طبيعيين ، وكانوا يُبدون من اليقين أكثر مما ينبغي ؛ كما لو انهم كانوا يريدون ان يُفهموها أن هذه قضية رجال ، وكان يبدو عليهم مع ذلك انهم كانوا دائماً ينتظرون منها شيئاً ما : نوعاً من التحكيم لأنها كانت امرأة ولأنها لن تذهب ، ولأنها

فـوق المعترك . وماذا كان بوسعها ان تقول لهم ؟ إبقوا ؟ ارحلوا ؟ ما كان لها ان تقرر ، لأنها لن تذهب حقاً . او انـه كان عليها ان تقول لهم : « افعلوا ما تريدون » . ولكن ، اذا لم يكونوا يريدون شيئاً ؟ كانت تمّحي ، وكانت تتظاهر بأنها لا تسمعهم ، وكانت تقدم لهم القهوة او المشروب ، تحيط بها رنّات أصواتهم العازمة . وتنهدت ، واخذت حفنة من الرمل في يدها فأسالته ابيض حاراً على ساقها السمراء. وكان الشاطىء خالياً ؛ وكان البحر يتلألأ ويصخب. وعلى جسر قارب « بروفنسال » الخشبي ؛ كان ثلاث نسوة بلباس البحر يتناولن الشاي . وأغمضت اوديت عينيها ، وكانت مستلقية على الرمل وسط حرارة لا تاريخ لها ولا عمر : حرارة طفولتها اذ كانت تغمض عينيها ، وتستلقي على هذا الرمل نفسه ، وتحاول ان تمثل دور السمندل وسط لهب عظيم احمر اللون اصفره . الحرارة نفسها ، وحفحفة التبّان الرطب نفسها ، كانت تحسب انها تحسّه وهو يتبخر على مهل تحت الشمس ، وحرقة الرمل نفسها تحت رقبتها ، وقد كانت في السنوات الخوالي تمتزج بالسماء والبحر والرمل ، ولم تكن تميز بعدُ الحاضر من الماضي . وانتصبت واقفة ، وعيناها مفتوحتان على سعتهما : اليوم ، هناك حاضر حقيقيّ. كان هناك ذلك الضيق في جوف معدتها ؛ وكان هنـاك ماتيو ، اسمر عارياً ، جالساً على مئزره الابيض . وكان ماتيو صامتاً ؛ وما كانت تفضّل شيئاً آخر على ان تصمت هي ايضاً . ولكنها حين لم تكن تجبره على ان يوجّه اليها الحديث مباشرة ، كانت تضيعه : كان ينتبه مكرهـاً لفترة يلقي فيها خطاباً قصيراً بصوته الراضح الأبحّ بعض الشيء ، ثم يذهب تاركاً جسمه رهينة ، جسماً مصقولاً مروضاً . حبذا لو كان بإمكان المرء على الأقل ان يتصور بأنه كان مستغرقاً في افكاره اللذيذة : ولكنه كان في الحق ينظر أمامه باستقامة نظرة تشقّ القلب ، بينما كانت يداه الكبيرتان منهمكتين في صنع بناء من الرمل . وكان البناء ينهار ،

وكانت اليدان تعيدان بناءه بلا وهن • ولم يكن ماتيو ينظر قط الى يديه ؛ وكان هذا يثير الاعصاب في آخر المطاف • وقالت اوديت :

– إن الأبنية لا تُصنع بالرمل الجاف • والاطفال الصغار يعرفون ذلك !

فأخذ ماتيو يضحك • وسألته اوديت :

– بمّ تفكر ؟

فأجاب : – يجب ان اكتب لايفيش • ان هذا يُربكني •

قالت وهي تطلق ضحكة صغيرة : – ما كنت لأصدق ان ذلك يربكك • إنك ترسل لها كتباً •

– صحيح ، ولكن هناك سخفاء قد أخافوها • لقد أخذت تقرأ الصحف ولا تفهم منها شيئاً ، فهي تريدني ان اشرح لها ، وسيكون ذلك يسيراً : فهي تخلط بين التشيكيين والالبان ، وهي تظن ان براغ واقعة على شاطىء البحر •

فقالت اوديت بخشونة : – هذه عقلية روسية جداً !

فطّ ماتيو شفتيه من غير ان يجيب ، وأحست اوديت بأنها كريهة • وأضاف وهو يبتسم :

– والذي يعقّد كل شيء هو أنها غاضبةٌ عليّ •

فسألت : – ولماذا ؟

– لأنني فرنسي • كانت تعيش بهدوء لدى الفرنسيين ، وها هم اولاء يريدون فجأة ان يقاتلوا . فهي تجد ذلك فاضحاً •

قالت اوديت مغتاظة : – هذا جميل !

فبدت على ماتيو بساطة لطيفة وقال برقة :

– يجب ان يضع المرء نفسه في وضعها • انها حاقدة علينا لأننا نعرّض أنفسنا للقتل او للجرح ! وهي تجد ان الجرحى يعوزهم الذوق والفطنة لأن الناس مجبرون على ان يفكروا بأجسامهم ، وهي تعتبر ذلك

شيئاً فيزيولوجياً ، وتنفر من الفيزيولوجي ، لديها ولدى الآخرين .
فتمتمت اوديت : – يا للحبيبة الصغيرة !

قال ماتيو : – ان هذا أمر صادق . وانها لتبقى اياماً برمتها من غير ان تتغذى ، لأنها تشمئز من الأكل . واذا أخذها النعاس ليلاً تناولت القهوة لتستيقظ .

فلم تجب اوديت . وكانت تفكر : « ضربة على الأليتين ، هذا ما تحتاج اليه » . وكان ماتيو يحرك يديه في الرمل بهيئة شاعرية وبليدة : « انها لا تأكل ابداً ، ولكني متأكدة من انها تخفي في غرفتها عدة أوانٍ كبيرة من المربّى . ان الرجال حمقى اكثر مما ينبغي ! » وكان ماتيو قد عاد يبني بيوته ؛ كان قد رحل من جديد الى مكان ولمدة لا يعلمهما الا الله . وفكرت في مرارة : « اما انا فإني آكل لحماً احمر وأنام حين يأخذني النعاس » . وعلى جسر « البروفنسال » كان الموسيقيون يعزفون « السيريناد البرتغالية » . وكانوا ثلاثة ايطاليين . ولم يكن عزف الكمان رديئاً جداً ، وكان يغمض عينيه اذ يعزفون . وأحست اوديت بالتأثر : كانت الموسيقى في الهواء الطالق شيئاً طريفاً جداً ، ودقيقاً جداً ، وواهياً جداً . ولا سيما في هذه اللحظة : كانت اطنان من الحر ومن الحرب تثقل على البحر وعلى الرمل ، وكان ثمة تلك الصرخة النأرية التي تصعد باستقامة نحو السماء . والتفتت الى ماتيو ، وكانت تريد ان تقول له : « أحب كثيراً هذه الموسيقى » . ولكنها صمتت : فربما كانت ايفيش تحتقر « السيريناد البرتغالية » .

وتجمدت يدا ماتيو فانهار بناء الرمل ، وقال وهو يرفع رأسه :
– احب كثيراً هذه الموسيقى . ما اسم القطعة ؟
قالت اوديت : – « السيريناد البرتغالية » .

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق في غودسبرغ . كان الشيخ ينتظر . وفي انغوليم . ومارسيليا ، وغاند ، ودوفر ، كانوا يفكرون : « ماذا

يفعل ؟ هل هبط ؟ هل يتكلم مع هتلر ؟ ان من الممكن ان يكونا في هذه اللحظة يعملان لتسوية كل شيء ، وكانوا ينتظرون. وكان الشيخ ينتظر ، هو أيضاً ، في الصالة ذات الشبابيك نصف المغلقة . وكان وحيداً ، وقد استدار واقترب من النافذة . كانت الرابية تنحدر نحو النهر ، خضراء وبيضاء . وكان الرين اسود كله ، وكان يشبه طريقاً معبدة بعد المطر . واستدار الشيخ مرة اخرى ، وكان يشعر بمذاق حامض في فمه . واخذ يدق على الزجاج فيتطاير الذباب حوله مذعوراً . كانت حرارة بيضاء ، مغبّرة ، فخمة ، عنيدة ، باطلة ، حرارة ذات طوق ، من عهد فريدريك الثاني ، وفي أعماق هذه الحرارة كان شيخ انكليزي يشعر بالضجر ، شيخ قديم من عهد ادوار السابع ، وسائر اجزاء العالم كانت في عام ١٩٣٨ . وفي جوان — ليبان ، يوم ٢٣ ايلول ١٩٣٨ ، في الساعة السابعة عشرة وعشر دقائق ، جلست امرأة ضخمة ترتدي ثوباً من النسيج الابيض على مقعد يُثنى ، ونزعت نظارتيها الزرقاوين ، واخذت تقرأ الجريدة . وكانت جريدة « لوبيتي نيسوا » ، وكانت اوديت دياورم ترى العنوان ذا الحروف الضخمة : « رباطة جأش » وجهدت فاستطاعت ان تقرأ تحت العنوان : « مستر شمبرلن يوجه رسالة الى هتلر . » وتساءلت : « أتراني « حقاً » استفظع الحرب ؟ » وفكرت : « لا . لا . ليس حتى النهاية . » فلو انها استفظعتها حتى النهاية لكانت قد نهضت بقفزة واحدة ، وعدَت حتى المحطة ، وصاحت : « لا تذهبوا ! ابقوا في بيوتكم ! » وهي تبسط ذراعيها. وتمثلت نفسها ذات لحظة واقفة مستقيمة ، مصلبة الذراعين تصرخ ، فأخذها الدوار ، ثم احست في عزاء انها كانت غير قابلة لارتكاب مثل هذا الطيش الصفيق . ليس حتى النهاية . امرأة جيدة ، فرنسية ، عاقلة ومتحفظة ، تلتزم ركاماً من الأوامر ، ومنها أمر ألا تفكر بشيء حتى نهايته. وفي لاون ، كانت فتاة صغيرة حاقدة ومذعورة ، في غرفة

مظلمة ، ترفض الحرب بكل قواها ، رفضاً أعمى عنيداً . كانت اوديت تقول : « الحرب امر فظيع ! » ؛ كانت تقول : « افكر طوال الوقت باولئك المساكين الذين يذهبون . » ولكنها لم تكن تفكر بشيء بعد ، كانت تنتظر ، بلا نفاد صبر : كانت تعلم انه سيقال لها عما قريب كل ما ينبغي ان تفكر فيه وان تقوله وان تفعله . حين قُتل ابوها عام ١٩١٨ قيل لها : حسناً جداً ، يجب ان تكوني شجاعة ، وتعلمت بسرعة كيف ترتدي ثياب الحداد بحزن عنيد ، وكيف تزرع في عين الناس نظرة يتيمة حرب . وفي عام ١٩٢٤ ، جُرح اخوها في مراكش ، فعاد اعرج ، وقيل لأوديت : حسناً جداً ، ينبغي خصوصاً الا ترثوا له ؛ وقال لها جاك ، بعد بضع سنوات : « عجباً ، كنت احسب « اتيان » اقوى من ذلك ، فهو لم يقبل عاهته قط ، لقد اصبح مريع الغضب . » سيذهب جاك ، وسيذهب ماتيو ، وسيكون الامر حسناً جداً ، انها من ذلك على يقين . اما الآن ، فما تزال الصحف تتردد ، وكان جاك يقول : « ستكون حرباً حمقاء » وكان «كانديد» يقول : « اننـــا لن نقاتل لمجرد ان ألمان السوديت يريدون ان يلبسوا جوارب بيضاء » ولكن البلاد لن تلبث طويلاً حتى تصبح إقراراً هائلاً ؛ سيقر مجلسا الشيوخ والنواب سياسة الحكومة بالاجماع ، وستحيي صحيفة «لوجور» ذكرى ابطالنا ذوي الشعر الغزير . اما جاك فسوف يقول : « إن العمال يبعثون على الإعجاب » ؛ وسيتبادل المارة في الشوارع بسمات تقية وضالعة : ستكون هي الحرب ، وستوافق اوديت ايضاً وهي تحوك قبعات صوفية للرأس والأذنين . لقد كان هناك ، وكان يبدو وكأنه يصغي للموسيقى ، وكان يعلم ما ينبغي التفكير به حقاً ، ولكنه لم يكن ليقوله . كان يكتب لايفيش رسائل ذات عشرين صفحة ليشرح لها الحالة . ولم يكن يشرح لأوديت شيئاً .

ــ بِمَ تفكرين ؟

فانتفضت اوديت :

– انني ... لم اكن افكر في شيء .

قال ماتيو : – انت لست محقة . فأنا قد أجبتك .

فحنت رأسها وهي تبتسم ؛ ولكنها لم تكن راغبة في الكلام . وكان يبدو مستيقظاً تماماً الآن ، كان ينظر اليها . وسألته منزعجة .

– ماذا هناك ؟

ولم يجب ، وكان يضحك ضحكة اندهاش . قالت اوديت :

– لقد لاحظت اني كنت موجودة ، فأصابتك من ذلك صدمة ؟ أليس كذلك ؟

وحين كان ماتيو يضحك ، كانت عينـاه تتغضنان فيشبه صبياً صينياً . وسأل :

– أتتصورين ان بالامكان ألا يلاحظ الناس وجودك ؟

قالت اوديت : – انني لست كثيرة الحركة .

– أجل . ولا كثيرة الحديث ايضاً . وبالاضافة الى ذلك ، تعملين ما بوسعك لينساك الناس . ولكنك تخفقين : فحتى حين تكونين عاقلة ومحتشمة،وتنظرين الى البحر وانت لا تحدثين من الحركة اكثر مما تحدثه فأرة ، فان المرء يعرف انك موجودة هنا . في المسرح يسمون هـذا حضوراً . فهناك ممثلون ينعمون بمثل هذا الحضور ، وآخرون لا ينعمون به . اما انت فتنعمين به .

فحمُرّت وجنتا اوديت ، وقالت بحيوية :

– لقد افسدك الروس . ولا بد ان الحضور مزية سلافية جداً.ولكني لا احسب ذلك مما يناسبني .

فتأملها ماتيو بجد وسألها :

– وما الذي يناسبك ؟

فأحست اوديت بعينيها تطيشان قليـلاً وتتحركان في محجريهما ،

وضبطت نظرها وأعادته الى قدميها العاريين بأظافرهما المصبوغة . انها لم تكن تحب ان يحدثها الناس عن نفسها .

وقالت بمرح : — انني بورجوازية ، بورجوازية فرنسية لا أهمية كبيرة لها .

ولا بد انها لم تبدُ له مقتنعة بما فيه الكفاية ، فأضافت بقوة ، لكي تختم المناقشة :

— انني اي شخص .

فلم يجب ماتيو . ونظرت اليه من طرف عينيها : كانت يداه قد عادتا تجرفان الرمل. وتساءلت اوديت عن الغلطة التي قد تكون ارتكبتها. مهما يكن من أمر ، فقد كان بوسعه ان يحتج قليلاً ، ولو كان بدافع الأدب .

وبعد برهة سمعت صوته العذب الأبح :

— انه لقاس ان يُحس الانسان بأنه اي شخص ، أليس كذلك ؟

قالت اوديت : — انه يعتاد ذلك .

— هذا ما افترضه . غير اني انا لم اعتد ذلك بعد .

فقالت بحيوية : — ولكنك انت ، لست اي شخص .

وكان ماتيو يتأمل البناء الذي اقامه . وكان هذه المرة بناء جميلاً ينتصب وحده في الهواء . وكنسه بضربة يد . وقال :

— ان كل انسان اي شخص .

وضحك :

— هذا كلام بليد .

قالت اوديت : — كم انت حزين .

— ليس اكثر من الآخرين . اننا جميعاً ثائرو الأعصاب قليلاً بتهديدات الحرب هذه .

ورفعت عينيها وارادت ان تتكلم ، ولكنها التقت بنظره ، نظر جميل

هادىء رقيق . وصمتت . اي شخص : رجل وامرأتان يتبادلان النظر على شاطىء . وقد كانت الحرب هنا ، حولها ، وكانت قد هبطت فيهما وجعلتها شبيهين بالآخرين ، بجميع الآخرين . انـه يحسّ نفسه اي شخص ، انه ينظر اليّ ، انه يبتسم ، ولكنه لا يبتسم لي ، وانما لأي شخص . ولم يكن يسألها شيئاً ، الا ان تصمت وتكون بـلا هوية ، كالعادة . وكان يجب ان تصمت : فلو انها قلت له « انت لست اي شخص ، وإنما انت جميل ، وانت قوي ، وانت بطل روائي حالم ، وانت لا تشبه أحداً » ولو صدّقها ، اذن لكان قد انسرب بين أصابعها ولكان قد مضى مرة أخرى في احلامه ، وربما كان قد جرؤ على ان يحب امرأة أخرى ، مثلاً تلك الروسية التي كانت تشرب القهوة حين تشعر بالنعاس . واخذتها انتفاضة كبرياء ، وأخذت تتكـلم . وقالت بسرعة :

ـ سيكون الأمر مريعاً هذه المرة .

قال ماتيو :ـ سيكون حماقة بصورة خاصة . سوف يهدمون كل ما يستطيعون بلوغه ، باريس ، لندن ، روما . وسيكون شيئاً جميلاً ، بعد ذلك !

باريس ، روما ، لندن . ومقصورة جاك ، البيضاء البورجوازية على شاطىء الماء . وارتعشت اوديت ، ونظرت الى البحر . ولم يكن البحر بعد الا بخاراً متلألئاً ، وكان متزلّج مائي عارٍ وأسمر ، منحنٍ الى امام ، ينزلق على هذا البخار ، يجرّه قارب ذاتي . ولم يكن بوسع اي رجل ان يهدم هذا اللألؤ المضيء . وقالت :

ـ سيبقى هذا على الأقل .

ـ ماذا ؟

ـ هذا ، البحر .

وهز ماتيو رأسه وقال :

– حتى ولا هذا !

فنظرت اليه بدهشة : لم تكن تفهم دائماً فهماً صحيحاً ما يعنيه ، وفكرت في ان تسأله،ولكن كان عليها فجأة ان تذهب . فقفزت على قدميها ولبست صندلها وتجلببت بمئزرها . وسألها ماتيو :

– ماذا تفعلين ؟

قالت : – يجب ان أذهب .

– لقد جاءتك الفكرة فجأة ؟

– تذكرت اني وعدت جاك بمرقة متوّمة لهذا المساء ، ولن تستطيع مادلين تدبير امرها وحدها .

فقال ماتيو : – ثم انه يندر خصوصاً ان تبقي طويلاً في المكان نفسه . وإذن ، فاني سأغطس ثانية في الماء .

ورقيت الدرجات المرملة حتى اذا بلغت السطيحة التفتت فرأت ماتيو يعدو نحو البحر ، وفكرت : « انه على حق ، فاني مصابة بداء التنقل . » الذهاب دائماً ، والفرار دائماً . لما ان تنشرح قليلاً في مكان ما حتى تضطرب وتشعر بالذنب . وكانت تنظر الى البحر ، وفكرت : « انني ابداً خائفة » وكانت خلفها على بعد مئة متر ، مقصورة جاك ، ومادلين الضخمة ، والمرقة المتوّمة التي تنتظر الاعداد، والتبريرات ، والطعام . واستعادت سيرها ، سوف تسأل مادلين : « كيف حال امك ؟ » وستجيب مادلين وهي تنفخ قليلاً : « على حالها » فتقول اوديت : « يجب ان تعدي لها بعض المرق ثم تأتيها ببياض الدجاج فتقصي منه جناحاً ، وسترين كيف تأكله . » فتجيب مادلين : « آه يا سيدتي العزيزة ، إنها لن تمسّه ابداً » فتقول اوديت « أعطيني هذه » ، وتتناول الدجاجة فتقطع بيديها جناحاً ، وستشعر بأنها مبرّرة « حتى ولا هذا » . وألقت نظرة اخيرة على البحر ولقد قال: حتى ولا هذا ، لقد كان مع ذلك خفيفاً جداً ، حتى ليمكن القول

إنه السماء مقلوبة ، فماذا بوسعهم ان يفعلوا ضده ؟ لقد كان عجينياً أخضر ، بلون القهوة بالحليب ، منبسطاً جداً ، رتيباً جداً ، بحر كل يوم ، وكانت تنبعث منه رائحة اليود والعقاقير ، بحرهم « هم » ونسيمهم البحري ، وسيجعلونهم يدفعون مئة فرنك في اليوم ؛ ونهض على مرفقيه ونظر الى الأولاد الذين كانوا يلعبون فوق الرمل الرمادي ، وكانت الصغيرة سيمون شاسيو تعدو وتضحك وهي تجر خلفها ساقها اليسرى المشدودة في حذاء حديدي ؛ وكان بالقرب من الدرج طفل لم يكن يعرفه ،لا بد انه جديد، فهو هزيل هزلاً يبعث على الخوف ، ذو اذنين هائلتين ، وكان قد دسّ أصبعه في انفه وجعل ينظر الى ثلاث فتيات صغيرات كن يبنين بيوتاً من الرمل . وكان يقوّس كتفيه الصغيرتين المقرّنين ويلوي ركبتيه ، ولكن صدره الضخم كان يظلّ على صلابته الحجرية . مشدّ . انحراف سُلي في العمود الفقري . « ولا بدّ انه معتوه فوق كل شيء » .

قالت جانين : — تمْ وتمدّد جيداً . ذلك انك اليوم مضطرب .

فأطاع ورأى السماء . أربع غيمات صغيرة بيض . وسمع صرير عجلات عربة على الطريق : « انهم يعودون به باكراً ، فمن عساه يكون ؟ » وقال صوت ضخم :

— مرحباً ، ايها الرأس الصغير .

فرفع كلتا ذراعيه بحيوية، وأدار المرآة فوق رأسه ، وكانوا قد مروا، ولكنه عرف ردف الممرضة الضخم : كان داريو . وصاح به:

— متى تقصّها ، لحيتك ؟

فأجاب صوت داريو البعيد :

— حين تقصّ بيضاتك !

وأخذ يضحك مسروراً : كانت جانين تحمرّ الكلمات البذيئة .

— متى يعودون بي ؟

ورأى يـد جانين تبحث في جيب سترتها البيضاء فتخرج منها ساعـة .

ـ بعد زهاء ربع ساعة . هل انت ضجر ؟

ـ لا .

لم يكن ليضجر قط . ان اواني الزهور لا تضجر . انهم يخرجونها حين تشرق الشمس ، ويدخلونها عند هبوط المساء . وهي لا تُسأل قط عن رأيها ، فليس لها ان تقرر شيئاً ولا ان تنتظر شيئاً . ان المرء لا يستطيع ان يتصور كم يستغرقه ضخّ الهواء والنور من جميع المسامّ . وأصدت السماء كأنها صنج ، ورأى خمس نقط رمادية صغيرة بشكـل مثلث تلتمع بـين غيمتين . فاسترخى وتحركت اصابع رجليه : كان الصوت يأتي في موجات نحاسية كبيرة ، وكان ذلك لذيذاً يشبه رائحة المخدّر حين يضجعونك على الطاولة الكبيرة . وتنهدت جانين ، فنظر اليها من زاوية عينه : كانت قد رفعت رأسها وبدت قلقة ، وكان ثمة بكل تأكيد ما يذعرها « آه ! صحيـح : ستقوم الحرب . » وابتسم، وقال وهو يدير عنقه قليلاً :

ـ وإذن فالواقفون يعزمون على القيام بها ، حربهم هذه ؟

فأجابت بجفاف : ـ انت تعلم ما قلته لك . فاذا تكلمت هكذا ، امتنعت عن اجابتك .

وصمت ، كان له الوقت بطوله ، وكانت الطائرة تشخر في أذنيه ، وكان يُحسّ بالرضى ، ان الصمت لا يزعجني انا . انهـا لم تكن تستطيـع ان تقاوم ، فالواقفون هم دائماً قلقون ، ويجب ان يتكلموا او يتحركوا ؛ وانتهت الى القول :

ـ اجل ، انني خائفة : فان الحرب ستنشب .

قالت ذلك بهيئتها التي تأخذها في ايام العمليات ، هيئة الطفل المسكين وكبيرة الممرضات . حين دخلت في اليوم الأول وقالت له : « يجب

إن ترفع جسمك فاتني سأرفع الحوض . » كانت لها هذه الهيئة نفسها ؛ وكان يعرق ، وكان يُحس رائحته ، رائحة الدباغة الفظيعة ، وكانت واقفة ، بارعة ، مجهولة ، تمدّ نحوه يدين فارهتين ، وكانت لهـــا هذه الهيئة نفسها .

ولحس شفتيه على مهل . وانتصر عليها منذ ذلك الحين . وقال لها :

ـ يبدو عليك الانفعال الشديد .

ـ أتظن ذلك ؟

ـ ماذا يمكن للحرب ان تفعله معك ؟ إنها لا تعنيك .

فأدارت رأسها ، وربّتت على طرف آلة التثبيت . ما كان لها ان تنشغل بالحرب . فان مهنتها هي ان تعالج المرضى . وقال :

ـ انني انا لا اهتم بالحرب .

وقالت له : ـ لماذا تتظاهر بأنك لئيم ؟ انـــك لا تحب ان تُهزم فرنسا .

ـ الأمر لديّ سواء .

ـ سيد شارل ! إنك تخيفني اذ تكون هكذا .

فضحك قائلاً : ـ ليس الذنب ذنبي اذا كنت نازياً .

فقالت خائبة : ـ نازي ؟ ماذا تراك ستخترع ايضاً ؟ نازي ! انهم يقتلون اليهود وجميع الذين لا يشاركونهم الرأي ، وهم يسجنونهم ، وكذلك الكهنة ، وقد احرقوا الريخشتاغ ، وهم لصوص . هذه اشياء لا يحق لك قولها . ان شاباً مثلك لا يحق له ان يقول إنه نازي ، حتى ولو كان يمزح .

وكان يحتفظ على شفتيه ببسمة صغيرة مدروسة ليحملها على الكلام ؛ ولم يكن يكره النازيين . لقد كانوا عنيفين وغامضين ، وكانوا يبدون كأنهم يريدون التهام كل شيء ؛ وسنرى الى اي حد يمكن ان يصلوا . سنرى . وجاءته فكرة طريفة :

– اذا قامت الحرب ، اصبحنا جميعاً متوازين .

وقالت جانين : – آه ! إنه مسرور ، فماذا عساه قد وجد ؟

قال : – ان الواقفين قد تعبوا من وقوفهم ، فهم ذاهبون ليناموا على بطونهم في حفر . انا على ظهري ، وهم على بطونهم : سنكون جميعاً متوزاين .

وكان قد مضى وقت طويل وهم منحنون فوقه ينظفّونه ويسدّونه بايديهم الماهرة ، فيظل جامداً امام جميع هذه الايدي فوق جسمه ، ينظر الى وجوههم ابتداء من الذقن ، وثقوب أنوفهم المتصلّبة فـوق رؤوس شفاههم وخطّ الأهداب الاسود في الافق : فقد جاء دورهم بأن يتمدّدوا . ولم يبدُ على جانين ايّ رد فعل : فقد كانت اقل نشاطاً من المألوف . ووضعت يدها برقة على كتفه وقالت :

– انت رديء ، رديء ، رديء !

وكانت تلك لحظة المصالحة ، وقال لها :

– ماذا هناك للعشاء هذا المساء ؟

– ثريدة بالأرز وحساء من البطاطا ، ثم انك ستكون مسروراً : عملك نهري .

– ثم ماذا بعد الطعام ؟ خوخ مجفّف ؟

– لا ادري .

قال : – خوخ مجفّف ولا بدّ . فقد أكلنا بالامس مربّـى المشمش .

اكثر من خمس دقائق ، وتمدّد وانتفخ ليصيب مزيداً من المتعة ، ونظر الى طرف عالمه الصغير في عينه الثالثة . عين مغبرّة ثابتة مع بقع حمراء : كان دائماً يطلّل الحركات قليلاً ، وكان هذا مسلّياً ، اذ كانت الحركات تصبح صلبة وآلية مثل افلام ما قبل الحرب . وفي تلك اللحظة بالذات تنسلّ فيها امرأة بالسواد ، وهي ممدّدة على آلـة

تثبيت ، تنسلّ وتختفي : كان صبي صغير يدفع العربة . وسأل جانين :

ــ من هذه ؟

قالت جانين : ــ لا اعرفها . انها مقيمة في مقصورة « مونريبو » ، البيت الكبير الاحمر على شاطيء البحر .

ــ اهناك اجرى اندريه عمليته ؟

ــ نعم .

وتنفّس بعمق . وكانت شمس رطبة حريرية تسيل في فمه ، وفي منخريه ، وفي عينيه . وهذا الجندي ، ماذا قدم يفعل هنا ؟ أهو بحاجة الى ان يتنفّس هواء المرضى ؟ ومرّ الجندي في المرآة ، صلباً كأنه صورة فانوس سحري ، وكان يبدو مهموماً ، فاستقام شارل على مرفقه وتبعه بعينيه في فضول : انه يسير ، إنه يحسّ ساقيه وفخذيه ، وجميع جسمه يثقل على قدميه . وتوقّف الجندي وأخذ يتحدث الى ممرضة ؛ وفكر شارل متعزياً : « آه ! انه واحدٌ من هنا . » وكان يتكلم برصانة وهو يهز رأسه ، من غير ان يفقد هيئته الحزينة ؛ إنه يغتسل ويرتدي ثيابه وحده ، وهو يذهب حيث يشاء ، ويجب ان يهتم بنفسه طوال الوقت ، وهو يحس نفسه غريباً لأنه واقف : لقد عرفت هذا . سيحدث له شيء ما . ستقوم الحرب غداً وسيحدث لهم جميعاً شيء ما . لهم لا لي . اما انا ، فاني شيء .

قالت جانين : ــ لقد آن الاوان .

وكانت تنظر اليه بحزن ، وكانت عيناها مليئتين بالدموع . ما ابشعها . وقال لها :

ــ إنك تحبينها جيداً ، لعبتك ؟

ــ اوه طبعاً .

ــ لا تهزّيني كما حدث في الذهاب .

ـ كلا .

وتدفقت الدموع وتدحرجت على الوجنتين الممتقعتين . ونظر اليهـا في حذر .

ـ ما بك ؟

فلم تجب ، وكانت قد انحنت فوقه وهي تلهث ، وكانت ترتّب غطاء سريره ، وكان يرى ثقبي انفها .

ـ انك تخفين عني امراً .

فظلّت على صمتها .

ـ ماذا تخفين عني ؟ هل تخاصمت مع السيدة « غوفرينه » ؟ هيّا قولي ، فانا لا اُحبّ ان اُعامل كالأطفال .

وكانت قد استقامت ، وكانت تنظر اليه بحنـان يائس . وقالت وهي تبكي :

ـ انهم سينقلونكم .

فلم يفهم جيداً ما تعني . وقال :

ـ انا ؟

ـ جميع مرضى « بيرك » . فهذا المكان اقرب الى الحدود ممـا ينبغي .

فأخذ يرتعش وشرق يد جانين وشدّها اليه :

ـ ولكني اريد ان ابقى .

فقالت بصوت كئيب :

ـ لن يدعوا احداً هنا .

وشدّ على اليد بكل قواه وقال :

ـ لا اريد ، لا اريد !

فخلّصت يدها من غير ان تجيب ، ومرّت وراء العربة وأخذت في دفعها . واستقام شارل وجعل يبرّم بين اصابعه زاوية من الغطاء .

ـ ولكن الى اين سيرسلوننا ؟ ومتى نذهب ، وهــل تذهب المرضات معنا ؟ قولي شيئاً ما .

فظلت على صمتها ، وكان يسمعها تزفر فوق رأسه ؛ وترك نفسه يسقط الى خلف وقال بصوت عاصف :

ـ وهكذا يكونون قد تغلّبوا علي حتى النهاية .

لا اريد ان انظر في الشارع . ووقف ميلان امــام النافذة ، انه ينظر ، وهو مقطّب . انهم ليسوا هنا بعــد ، ولكنهم يجرّون اقدامهم حول مجموعة البيوت . اني اسمعهم . وأنحني على ماريكــا واقول لها :

ـ اجلسي هناك .

ـ اين ؟

ـ بين النوافذ ، لصق الجدار .

وتقول لي :

ـ لماذا ارسلوني الى بيتك ؟

فلا اجيب ، فتقول :

ـ من الذي يصرخ ؟

فلا اجيب . الأقدام التي تسحب نفسها. صوتها ينبعث شو شو شو او او شو . واجلس ارضاً بالقرب منها . اني ثقيلة . وآخذهــا بين ذراعيّ . ميلان على النافذة ، يعض اظافره بهيئة فارغة . وأقول له :

ـ ميلان ؟ تعال بالقرب منّا ، ولا تبق على النافذة .

انه يتمتم ، وينحني فوق المتكأ ، يتقصّد ان ينحــني ؛ الاقدام التي تسحب نفسها . سيكونون هنا بعد خمس دقائق . وتقطب ماريكا حاجبيها الصغيرين :

ـ من الذي يمشي ؟

ـ الالمان .

فتقول « ها ؟ » ويستعيد وجهها صفاءه . انها تستمع بوداعة الى الاقدام التي تسحب نفسها ، كما تستمع الى صوتي في الصف او الى المطر او الى الريح في الشجر : لأن ذلك هناك . وانظر اليها فترد لي نظرة صافية . حبذا لو كنت هذه النظرة ، لو لم أكن الا هذه النظرة التي لا تفهم ، ولا تتنبأ . أود لو أكون صماء ، اود لو اسحر نفسي على هاتين العينين ، اود لو اقرأ الضجة في هاتين العينين . ضجة عذبة عارية من المعنى ، كضجة اوراق الشجر . انني انا اعرف ان هذه أقدام تسحب نفسها . انها مائعة ، انهم سيأتون بميوعة وسيضربونه حتى يصبح مائعاً كله في اطراف أذرعتهم . انه هنا ، قاسٍ شديد ، ينظر من النافذة : سوف يمسكونه بأذرعتهم ، وسوف يصبح رخواً وتبدو على وجهه المسحوق هيئة البلاهة ، سوف يضربونه ويقذفونه ارضاً ، وغداً سيشعر امامي بالخجل .

وترتعش ماريكا بين ذراعي فأسألها :

—هل انت خائفة ؟

فتومىء برأسها نفياً . انها ليست خائفة . انها رصينة كما تبدو ، اذ اكتب على اللوح الاسود فتتابع يدي بعينيها وهي تفغر فاها . انها تجدّ وتجتهد : فقد فهمت الاشجار والماء ثم الحيوانات التي تسير وحدها ، ثم الناس ، ثم الاحرف الهجائية . اما الآن ، فان هناك صمت الاشخاص الكبار وتلك الاقدام التي تسحب نفسها في الشارع ؛ وهذا ما ينبغي فهمه ، لأننا بلد صغير . سوف يأتون ، وسيمرون دباباتهم عبر حقولنا ، وسيطلقون نارهم على رجالنا . لأننا بلد صغير . يا إلهي ! إقضِ بأن يأتي الفرنسيون لنجدتنا ، يا إلهي ، امنعهم من ان يتخلوا عنا .

قال ميلان :

— ها هم اولاء .

لا اريد ان انظر الى وجهه . وانما اريد ان انظر الى وجه ماريكا

فقط لأنها لا تفهم . انهم يتقدمون في شارعنا ، يجرون اقدامهم في شارعنا ، يصرخون باسمنا ، فاني اسمعهم . انني هنا جالسة ارضاً ، ثقيلة جامدة ، ان مسدس ميلان في جيب وزرتي . انه ينظر الى وجه ماريكا : هي فاغرة الفم . ان عينيها صافيتان ، وهي لا تفهم .

كان يمشي على الخط الحديدي ، وكان ينظر الى الحوانيت ويضحك انشراحاً . كان ينظر الى الخطوط ، وكان ينظر الى الحوانيت ، ينظر باستقامة الى الشارع الابيض وهو يطرف بعينيه ويفكر : « انا في مارسيليا » . كانت الحوانيت مغلقة ، وكانت الستائر الحديدية مسدلة ، وكان الشارع خالياً ، ولكنه كان في مارسيليا . وتوقف ووضع محفظته ونزع سترته الجلدية فوضعها على ذراعه ، ثم مسح جبينه ووضع المحفظة على ظهره . وكانت به رغبة لأن يعقد طرفاً من حديث مع احد . وقال : « معي اثنا عشر عقب سيكارة ، وعقب سيكار واحد في مندلي » . وكانت خطوط السكة تلتمع ، وكان الشارع الطويل الابيض يبهره ، وقال : « ان في محفظتي نبيذاً احمر . » وكان به عطش ، وكان بوسعه ان يشربه ، ولكنه كان يؤثر ان يشرب جرعة في حانة لو لم تكن جميع الحانات مغلقة . وقال : « لم أكن اتوقع ذلك . » واخذ يمشي بين الخطوط ، وكان الشارع يعكس الاشكال كالنهر بين بيوت صغيرة سوداء . والى اليسار كان يقوم كثير من الحوانيت ولكن لم يكن مستطاعاً ان يعرف المرء ما كانت تبيعه ، بالنظر الى ان الستائر الحديدية كانت مسدلة ؛ والى اليمين كانت تقوم بيوت متنوعة في الهواء الطلق وخالية تشبه محطات ، وبين وقت وآخر يظهر جدار من قرميد . ولكنها كانت مارسيليا .

وسأل غرو لويس :

— اين يمكن ان يكونوا ؟

وصاح صوت : — عودوا بسرعة .

وكانت في زاوية زقاق حانة مفتوحة . وكان يقف على عتبتها صبي سمين يصيح : « عودوا بسرعة » .

وخرج فجأة من الارض أشخاص لم يسبق لغرو لويس ان رآهم ، وأخذوا يركضون نحو الحانة . فأخذ غرو لويس يركض هو ايضاً ؛ وكان الصبية الآخرون يدخلون وهم يتدافعون ، وقد اراد ان يدخل خلفهم ولكن فى الباب أعطاه ضربة صغيرة جافة على صدره بظاهر يده ، وقال له :

— حُلَّ عني .

وكان ثمة طفل ذو مريول يحمل بين ذراعيه طاولة صغيرة أكبر منه وهو يحاول ان يُدخلها الى المقهى . وقال غرو لويس :

— حسناً ، ايها السمين ، اني داهب . ولكن أليست لديك جُرعة؟

— قلت لك ان تحلّ !

قال غرو لويس : — اني ذاهب . فلا حاجة بك لأن تخاف ؛ فلست ذاك الذي يبقي في جماعة لا يرغبون برفقته .

فأولاه الفتى ظهره ، ثم نزع بضربة واحدة مزلاج الباب الخارجي ودخل المقهى وهو يغلقه خلفه . ونظر غرو لويس الى الباب : كان باقياً في مكان المقبض ثقب صغير مستدير ذو اطراف بارزة . وحكّ رقبته وردد : « اني ذاهب ، وهو ليس بحاجة لأن يخاف » . وقد اقترب مع ذلك من الزجاج وحاول ان يلقي نظرة في المقهى ؛ ولكن أحدهم سحب الستائر في الداخل فلم ير بعد شيئاً . وفكّر : « لم أكن اتوقع ذلك » . وكان يرى الشارع الى اليمين والشمال ممتداً على مدى النظر ، وكانت الخطوط تلتمع ، وكان على الخطوط حافلة صغيرة سوداء مهجورة . وقال غرو لويس : « اود لو أدخل الى مكان ما » وكان يود لو يشرب جرعة في حانة ، ويعقد طرفاً من حديث مع صاحبها . وأوضح وهو يحكّ صلعته : « ليس سبب ذلك اني لم اعتد

أن اكون في الخارج » . ولكن حين يكون في الخارج ، عادة ، يكون الآخرون في الخارج ايضاً ، كان هنـاك الخراف والرعاة ، وكان في ذلك نوع من الرفقة ، ثم انه حين لا يكون ثمة أحد ، لا يكون ثمة احد ، هذا كل ما في الامر . بينما هو الآن في الخارج وجميـع الآخرين في الداخل ، خلف جدرانهم وابوابهم التي ليس لها مقابض . كان وحيداً في الخارج مع الحافلة الصغيرة . ودقّ على زجاج المقهى وانتظر ، فـلم يجب احد . لو لم يرهم بأم عينه يدخلون لأقسم بأن المقهى كان خالياً . وقال : « اني ذاهب » ، وذهب . وبدأ يشعر باشتداد العطش ، وهو لم يكن يتصور مارسيليا هكذا . وكان يمشي ويفكر بأن الشارع كانت تنبعث منـه رائحة العفونة . وقال : « اين تراني سأجلس ؟ » ، وسمع خلفه جلبة ، كما لو انه قطيـع غنم يرعى الكلأ . والتفت فرأى في البعد جماعة تحمل الاعلام . وقال : « آه ، حسناً ، سأراهم يمرون » ، واستشعر الرضى الغامر . والواقع انه كان في الجانب المقابل من الخطوط ساحةٌ ما ، مكان لسوق ، مع كوخين صغيرين قديمين يستندان الى جدار كبير ، وقال : « سأجلس هناك لأراهم يمرون » . وكان احـد الكوخين حانوتاً ، اذ كانت رائحة النقانق والبطاطا المقلية تنبعث حوله . وقد رأى غرو لويس شخصاً مسناً ذا مئزر ابيض يحرك مقلاة داخل الحانوت ، فقال له :

ـ اعطني بطاطا مقلية يا ابتاه .

فالتفت الشيخ وقال :

ـ طز !

قال غرو لويس : ـ انني املك المال .

ـ طز في مالك . انني أغلق الحانوت .

وخرج ، وأخذ يدير مقبضاً ، فهبط ستار حديدي في صخب . وصاح غرولويس ليطغى صوته على الصخب .

– لم تبلغ الساعة السابعة .

فلم يجب العجوز . وصاح غرو لويس :

– كنت اظن انك تغلق دكانك لأن الساعة بلغت السابعة .

وكان الستار الحديدي قد أسدل ؟ ونزع العجوز المقبض ، ثم استقام وبصق :

– ألم ترهم قادمين ايها الأبله ؟ انني لست حريصاً على ان اهب بطاطي المقلية مجاناً !

قال ذلك ودخل كوخه الصغير .

ونظر غرو لويس الى الباب الأخضر فترة اخرى ، ثم جلس على الأرض وسط ساحة السوق. واسند ظهره بمحفظته وتدفأ بالشمس . وفكر بأنه كان يملك كسرة من الخبز ، وزجاجة من النبيذ الأحمر ، واثني عشر عقباً من السكاير وعقباً واحداً من السيكار ، فقال : « واذن ، فاني سأكسر الصفرة . » وكان الجمع ، في الجهة المقابلة من الخط الحديدي ، قد بدأوا يسيرون وهم يحركون أعلامهم ويغنون ويصيحون ؛ وكان غرو لويس قد أخرج سكينة من جيبه وراح ينظر اليهم يمرون وهو يكسر الصفرة . وكان فيهم من يرفعون قبضاتهم وآخرون يصيحون به : « تعال معنا ! » فكان هو يضحك ، ويحييهم لدى مرورهم ، وكان يحب كثيراً الجلبة والحركة ، اذ كان ذلك يحقق تسلية صغيرة .

وسمع وقع خطى فالتفت . كان زنجي طويل قادماً نحوه ، وكانت ذراعاه عاريتين ، وكان يرتدي قميصاً ذا لون وردي حائل ؛ وكان بنطلونه الأزرق يتسع وينبسط لدى ربلات ساقيه الهزيلتين عند كل خطوة . ولم يكن يبدو مستعجلا . وتوقف ولوى تبان سباحة بين يديه السمراوين الورديتين . وكان الماء يقطر على الغبار فيحدث دوائر صغيرة. وطوى الزنجي التبان في منشفة ثم نظر الى الجمع بلا اكتراث وهو

يصفر . وصاح به غزو لويس :

– ها !

فنظر اليه الزنجي وابتسم له .

– ماذا يفعلون ؟

فأقبل الزنجي عليه وهو يؤرجح كتفيه ، ولم يكن يبدو مستعجلا ؛ وقال :

– إنهم عمال المرفأ .

– هل هم مُضربون ؟

فقال الزنجي : – انتهى الاضراب،ولكن هؤلاء يريدون ان يُستأنف.

قال غرو لويس : – آه ! من أجل هذا !

فنظر اليه الزنجي لحظة من غير ان يقول شيئاً . وكان يبدو عليه كأنه يبحث عن افكاره . وانتهى الى الجلوس على الأرض ، ووضع تبانه على ركبتيه وأخذ يلف سيكارة . وكان يصفر . وسأل :

– من اين انت قادم هكذا ؟

قال غرو لويس : – انني قادم من « براد » .

قال الزنجي : – لا أعرف اين تقع .

فقال غرو لويس : – آه ! لا تعرف اين تقع ؟

وضحك كلاهما ثم أوضح غرو لويس : – لم اكن مسروراً فيها .

قال الزنجي : – وانت قادم تبحث عن عمل ؟

فأوضح غرو لويس : – كنت راعياً ، وكنت ارعى الخراف على « الكانيغو » ولكني لم اكن مسروراً فيها .

فهز الزنجي رأسه وقال بقسوة :

– لم يبق ثمة من عمل .

قال غرو لويس : – اوه ! سأجد عملا ولا شك . (وأراه يديه) بوسعي ان أعمل كل شيء .

فردد الزنجي : — لم يبق من عمل .

وصمتا . وكان غرو لويس ينظر الى الجمع السائر الذي يصيح . كانوا يصرخون : « الى المشنقة ! سابياني الى المشنقة . » وكان معهم نساء حمراوات مشعثات ، وكن يفغرن افــواههن كما لو انهن يوشكن ان يلتهمن كل شيء ، ولكن لم يكن يُسمع ما يروينه ، فقد كان الرجال يصيحون اكثر منهن . وكان غرو لويس مسروراً . فقــد كان ينعم برفاق . وفكر : ان هذا مضحك . ومرت امرأة ضخمة هناك ، مع الأخريات ، وكان ثدياها يتمايلان . وفكر غرو لويس بأنه لن ينزعج اذا مازحها ساعة من زمن ، فسوف تمتلىء منها يداه . وأخذ الزنجي يضحك . وكان يضحك بشدة حتى انه كاد يختنق بدخان سيكارته . كان يضحك ويسعل في وقت واحد . وربت غرو لويس على ظهره وسأله ضاحكاً :

— لماذا تضحك ؟

وكان الزنجي قد استعاد جده فقال :

— هكذا !

قال غرو لويس : — اشرب جرعة .

فتناول الزنجي الزجاجة وشرب من عنقها وشرب غرو لويس ايضاً. وكان الشارع قد خلا من جديد .

وسأله الزنجي : — اين نمت ؟

فقال غرو لويس : — لا ادري ! في ساحة ملأى بالشاحنات ، تحت ستارة ، وكانت تنبعث منها رائحة الفحم .

— هل معك مال ؟

فقال غرو لويس : — قد يكون معي .

وفتح باب المقهى فخرج جمع من الرجال . وظلوا برهة في الشارع، وكانوا ينظرون الى حيث يسير المضربون ، وهم يحمون عيونهم بأيديهم،

ثم مضى بعضهم يخطى بطيئة وهم يشعلون لفافاتهم ، وبقي الآخرون في الشوارع ، زرافات صغيرة . وكان ثمة شخص أحمر ذو كرش يحرك ذراعيه . وقال بغضب لفتى لم يكن يبدو عليه اليأس :

— إن الحرب في مؤخرتنا وتأتي لتحدثنا عن النقابية ؟

وكان يرشح عرقاً ، ولم يكن يلبس سترة ، وكان قميصه مفتوحاً وعليه بقعتان عريضتان رطبتان لدى الإبطين . والتفت غرو لويس نحو الزنجي وسأل :

— الحرب ؟ اية حرب ؟

قال دانيال : — مقعد ! هذا ما نحتاجه .

وكان مقعداً أخضر ، يستند الى جدار المزرعة ،تحت النافذة المفتوحة. ورفع دانيال الحاجز ودخل الى الساحة . وعوى كلب واندفع الى أمام، وهو يشد على سلسلته ، وبدت امرأة عجوز على عتبة البيت ، وكانت تحمل قدراً صغيرة ، وقالت وهي تشهر القدر :

— لا ! لا ! بر ! هل تريد ؟

فهمدر الكلب قليلا ثم اضطجع على بطنه.وقال دانيال وهو ينزع قبعته :

— هل تسمحين لها بان تجلس على هذا المقعد ؟

فجعدت العجوز عينيهـــا بحذر : ربما كانت لا تعرف الفرنسية . وردد دانيال بصوت مرتفع :

— ان زوجتي متعبة بعض الشيء .

فانفتلت العجوز نحو مارسيل التي كانت قد استندت الى الحاجز ، فذاب حذرها .

— بكل تأكيد تستطيع زوجتك ان تجلس . فالمقاعد انما جعلت لهذا. وليست هي التي ستتلف مقعـــدنا منذ وجد هنا . هل انتما آتيان من « بيرهوراد » ؟

فدخلت مارسيل بدورها وأقبلت تجلس وهي تبتسم ، وقالت :

— نعم . لقد كنا نريد ان نمضي حتى مرتفعات الشاطيء ، ولكني

اری الآن انها بعيدة بعض الشيء بالنسبة لي .

فغمزت العجوز بعينها غمزة ضالعة وقالت :

ـ طبعاً ! يجب ان تكون حكيمة ، من تكون في وضعك .

فتركت مارسيل نفسها تستند الى الجدار ، وعيناها نصف مغمضتين ، وهي تضحك ضحكة صغيرة سعيدة . وكانت العجوز تنظر الى بطنها نظرة العارفة ، ثم التفتت الى دانيال ، فهزت رأسها وابتسمت له بسمة تقدير . وشنج دانيال يده على عصاه وابتسم كذلك . وكان الجميع يبتسمون ، وكان البطن هنا ، واثقاً مطمئناً . وخرج صبي من المزرعة وهو يتعثر ، فتوقف فجـأة وحدد في مارسيل نظرة قلقة . ولم يكن يرتدي سروالا تحتانيـاً ؛ وكانت فخذاه الصغيرتان محمرتين متصلبتي القشرة . وقالت مارسيل بلهجة يقظة :

ـ كنت اود ان اری مرتفعات الشاطيء .

فقالت العجوز : ـ ولكن هناك سيارة تاكسي في بيرهوراد . وهي تخص « لاميلان » الابن ، ومنزله هو آخر منزل على شارع بيلداس .

قالت مارسيل : ـ أعرف ذلك .

فالتفتت العجوز الى دانيال وهددته باصبعها :

ـ آه ! يا سيدي ، يجب ان تكون لطيفاً مع السيدة ، وان تحقق لها كل رغباتها .

فابتسمت مارسيل وقالت :

ـ انه لطيف . ولكني انا التي اردت ان اسير .

ومدت ذراعها فلامست رأس الصبي . وكانت تهتم بالاطفال منذ اسبوعين ، وقد جاءها ذلك فجأة ، كانت تلمسهم وتجسهم كلما كانوا في متناول يدها .

ـ أهو حفيدك ؟

ـ انه ابن حفيدتي . وهو في حوالى الرابعة من عمره .

قالت مارسيل : — إنه جميل .

— حين يكون هادئـاً . (وخفضت العجوز صوتهـا) : اتراه سيكون صبياً ؟

قالت مارسيل : — آه ! اود ذلك كثيراً .

فأخذت العجوز تضحك :

— يجب ان تردّدي كل صباح الصلاة للقديسة مرغريت .

وحدث صمت صريح تعمره الملائكة . وكانت جميع العيون قـد اتجهت الى دانيال ، فانحنى على عصاه واسبل جفنيه بهيئة تواضع ورجولة . وقال بلطف :

— سأزعجك مرة اخرى يا سيدتي . فهل استطيع ان اطلب منك كوب حليب لزوجتي ؟ (والتفت الى مارسيل) : هل تأخذين كوب حليب ؟

قالت العجوز : — سأعطيك إياه .

واختفت في مطبخها . وقالت مارسيل :

— تعال اجلس بالقرب مني .

فجلس ، وأخذت يده وهي تقول :

— كم انت متنبّه .

فابتسم . وكانت تنظر اليه بشغف ، وظل يبتسم وهو يخنق تثاؤبة مطّت شفتيه حتى الاذنين . وكان يفكر : « يجب الاّ يكون مسموحاً به ان تبدو المرأة حاملاً الى هذا الحد . » وكان الهواء لزجاً ، محموماً بعض الشيء ، وكانت بعض الروائح تختنق فيه كأنها من نبات الأشنة ؛ وكان دانيال ينظر الى اهتزاز دغل اخضر وأحمر ، فيما وراء الحاجز ؛ وكان منخراه وفمه قد امتلأت من اوراق الشجر . بعد خمسة عشر يوماً. خمسة عشر يوماً خضراء مهتزة ، خمسة عشر يوماً في الريف . وكان يكره الريف . وكان اصبع خجول يتنزه على يده ، وهو يتردد تردد

غصن تؤرجحه الريح . واخفض عينيه ونظر الى الاصبع . وكان ابيض ، سميناً بعض الشيء ، وكان يحيط به خاتم . وفكر دانيال : « انها تعبدني » . معبود . وكانت هذه العبادة المتواضعة المتسللة تسيل فيه كأنها روائح الحقول الحية . وأغمض عينيه نصف إغماضة فسالت عبادة مارسيل مع الأغصان الهامسة ، مع رائحة الزبل والبرجيس .
وسألته مارسيل :
— بمَ تفكر ؟
فأجاب دانيال : — بالحرب .
وعادت العجوز بكوب من الحليب المزبد . فتناولته مارسيل من يديها وشربت جرعات كبيرة . وكانت شفتها العليا تبحث عن السائل بعيداً في الكوب ، فتشرقه بصوت خفيف . وكان الحليب يغني وهو يمر في حلقها . وقالت متنهدة :
— كم هو منعش !
وكان قد ارتسم على شفتها شاربٌ ابيض . وكانت العجوز تنظر اليها نظرة طيبة وقالت :
— حليب طازج : هذا ما تحتاجين اليه ، من اجل الصغير .
وضحكتا كلتاهما ، ونهضت مارسيل وهي تستند الى الجدار ، وقالت لدانيال :
— أحسّني مرتاحة جداً . وسنذهب متى شئت .
قال دانيال وهو يدسّ في يد العجوز ورقة :
— الى اللقاء يا سيدتي . اننا نشكر لك ضيافتك الكريمة .
وقالت مارسيل ببسمة حميمة : — شكراً يا سيدتي .
قالت العجوز : — مع السلامة ، وامشيا على مهل ، في طريق العودة .
وفتح دانيال الحاجز وامحى امام مارسيل : فاصطدمت بحجر كبير

وتعثّرت ، فصاحت العجوز من بعيد :

– هيه !

قال دانيال : – خذي ذراعي .

فقالت مارسيل مضطربة : – كم انا قليلة الحذق !

واخذت ذراعه ، فأحس بها لصقه حارّة وغير متناسبة ؛ وفكر : « لقد وسع ماتيو ان يشتهيها . » وقال :

– احرصي على ان تسيري بخطى صغيرة .

سياجات مظلمة . الصمت . الحقول . خط الصنوبر الاسود في الافق . وكان رجالٌ يعودون الى المزارع بخطى بطيئة ثقيلة ؛ سوف يجلسون الى الطاولة الطويلة ، وسوف يلتهمون حساءهم ، من غير ان يقولوا كلمة . وعبر الطريق قطيع من البقر . وخافت احداها فأخذت تخبّ وتقفز . والتصقت مارسيل بدانيال ، وقالت وهي تخفض صوتها :

– تصوّر : انني اخاف البقر .

فشدّ دانيال ذراعها برقة وفكر : « لتذهب الى الشيطان ! » وتنفّست بعمق وصمتت . ونظر اليها من زاوية عينه ورأى عينيها الغامضتين ، وبسمتها المستنيمة ، وهيئتها المغتبطة . وفكر في رضى : « حسناً . لقد رحلت من جديد ! » وكان ذلك يحدث لها بين الفينة والفينة ، حين كان الطفل يتحرك في بطنها ، او يعبر بها إحساس مجهول ؛ وكان لا بد تشعر بأنها متعددة غزيرة ، مجرّدة . ومهما يكن من امر ، فانها خمس دقائق طويلة من الربح ؛ وفكر : « انني اتنزّه في الريف ، وهناك بقرات تمر ، وهذه المرأة الضخمة هي امرأتي . » وأخذته الرغبة في الضحك ، انه لم ير في حياته هذا العدد من البقر . لقد اردت ذلك ! اردت ذلك ! كنت تتمنى كارثة ، فها ان امنيتك تتحقق ! كانا يسيران على مهل ، كأنهما حبيبان ، وذراعها

في ذراعه ، وكان الذباب يطن حولها . وقد نظر اليهما رجل مسنّ كان يستند الى مِقْلب ، جامداً على حافة حقله ، فبسم لهما . وأحس دانيال انه يحمرّ بعنف . وفي تلك اللحظة ، خرجت مارسيل من خَدَرها وسألت فجأة :

— وهل تظن انت انها واقعة ، هذه الحرب ؟

وكانت حركاتها قد فقدت صلابتها الهجومية ، فاستراحت ووهنت ؛ ولكنها كانت قد احتفظت بصوتها الايجابي الوعر . ونظر دانيال الى الحقول : حقول ماذا ؟ لم يكن يميّز بين حقل ذرة وحقل شمندر ؛ وسمع مارسيل تردد :

— هل تعتقد بأنها ستقع ؟

وفكر : « ليت ان الحرب تقع ! » انها ستصبح أرملة . أرملة مع الطفل ومع ستمئة الف فرنك من العملة النقدية . بصرف النظر عن بعض ذكريات حول زوج لا مثيل له : فما عساها يمكن ان تطلب اكثر من ذلك ؟ وتوقف فجأة وقد حرّكته الرغبة ؛ وشد عصاه بكل قواه ، وفكر : « يا الٓهي ! المهمّ ان تقع الحرب ! » صاعقة وحشية تفجّر هذه العذوبة ، تحرث هذه الارياف حرثاً فظيعاً ، تحفر هذه السهول أقماعاً ، تسوّي هذه الاراضي المنبسطة الرتيبة على شكل بحر متنفض ، الحرب ، مذبحة الرجال ذوي الارادة الصلبة ، ومجزرة الابرياء ؛ هذه السماء الصافية ، سيمزقونها بأيديهم . وكم سيكره بعضهم بعضاً ! وكم سيخافون ! وانا ، كم سأهتزّ في بحر الكراهية هذا ! وكانت مارسيل تنظر اليه في دهشة . واخذته الرغبة في الضحك ؛

— لا ، لا اعتقد بذلك .

وكان على الطريق اطفال ، بأصواتهم الثاقبة الوديعة وضحكاتهم ؛ السلم . ان الشمس ترف على السياجات كالأمس ، وكالغد ؛ وظهر برج بيرهوراد عند منعطف الشارع ، لكل شيء في العالم رائحته ،

وظله المسائي الطويل المتقع ، ومستقبله الخاص . ومجموع هذه المستقبلات جميعاً هو السلم : فبالامكان لمسه على خشب هـذا الحاجز المنخور ، وعلى عنق هذا الصبي الرطبة ، وبالامكان قراءته في عينيه النهمتين ، وهو يصعد من القرّاص الذي يدفئه الهار ، وهو يُسمع في رنّة هذه الأجراس . في كل مكـان ، تجمّع رجالٌ حول أواني الحساء التي يتصاعد منهـا البخار ، فهم يكسرون الخبز ، ويصبّون الخمر في الكؤوس ، ويمسحون سكاكينهم ، وتصنع السلامَ حركاتُهم اليومية . انه هناك ، نسجته جميع هذه المستقبلات ، وهو يملك عنـاد الطبيعة المتردد ، وهو عودة الشمس الخالدة ، وجمود الارياف المرتعش ، ومعنى اعمال الرجال . فليس ثمة حركة لا تدعره ولا تختقه ، وحتى تثاقل مشية مارسيل الى جانبي ، وحتى ضغط أصابعي الرقيق على ذراع مارسيل . ضربات حجارة من النافذة : « اخرجوا من هنا ! اخرجوا من هنا ! » فـلم يملك ميلان من الوقت اكثر من ان يرتد الى خلف . وكان صوت ثاقب يصرخ باسمه : « هلينكا ! ميلان هلينكا ، اخرج من هنا » . وغنى احدهم : « ان التشيكيين هم كالبراغيث في الفرو الالماني » . وكانت الحجارة قد تدحرجت على الارض ، وكسرت بلاطة مرآة المدخنة . وسقطت بلاطـة اخرى على الطاولة فسحقت كوباً مليئاً بالقهوة ؛ وسالت القهوة على القماش المشمع ، واخذت تقطر ببطء على الارض . واستند ميلان الى الجدار ، ونظر الى المرآة والطاولة والارض ، بينما كانوا يصرخون بالالمانية تحت النافذة . وفكر : « لقـد دلقوا قهوتي ، » وأمسك بكرسي من مسنده ، وكان يرشح عرقاً . ورفع الكرسي فوق رأسه ، فصاحت انّا :

ــ ماذا تفعل ؟

ــ سأقذف به رؤوسهم .

ــ ميلان ! لا يحق لك . فلست وحدك .

فوضع الكرسي ونظر الى الجدران في دهشة . انها ليست بعد غرفته ؛ فهم قد بقروها . وصعدت في عينيه غمامة حمراء ، وغرز يديه في جيبيه وردد : « لست وحدي ، لست وحدى . » وكان دانيال يفكر : « انني وحدي » وحيد مع أحلامه الدامية في هذا السلام الممتد على مدى النظر . فالدبابات والمدافع والطائرات والحفر التي تمزق الحقول ، كل ذلك لم يكن إلا ضجيجاً في رأسه . ابداً لن تنشق هذه السماء ؛ كان المستقبل هنا ، قد حطّ على هذه الارياف ؛ وكان دانيال في داخله ، كدودة في تفاحة . مستقبل واحد . مستقبل جميع الناس : لقد صنعوه بأيديهم ، على مهل ، منذ اعوام ؛ ولم يدعوا لي فيه أدنى مكان ، أقل حظ . وصعدت الى عيني ميلان دموع غضب ، والتفت دانيال الى مارسيل : زوجتي ، مستقبلي ، المستقبل الوحيد الذي يبقى لي ، ما دام العالم قد قرر أمره بشأن السلم .

إفعل كالجرذ ! وكان قد انتصب على ساعديه وراح ينظر الى الحوانيت تترى . وقال صوت جانين المبتهل :

ـ عد الى الاضطجاع ! ثم لا تلتفت طوال الوقت هكذا ، الى اليمين والى الشمال ؛ إنك تصيبني بالدوار .

ـ أين تراهم سيرسلوننا ؟

ـ لقد قلت لك اني لا اعرف .

ـ انت تعرفين انهم سينقلوننا . ولا تعرفين أين سيرسلوننا ؟ آه ! انني اصدقك كثيراً !

ـ ولكني أقسم لك انهم لم يقولوا لي . لا تعذبني !

ـ اولاً ، من قال لك ذلك ؟ انها ليست إشاعة ! فبوسعهم ان يجعلوك تبتلعين كل شيء .

قال جانين على مضض : ـ انه طبيب العيادة .

ـ ولم يقل اين سنذهب ؟

كانت العربة تسير في مسمكة « كوزيية »؛ ودخل ، رجلاه اولاً ، في رائحة قذرة .

— اسرعوا ! انها تشبه رائحة الفتاة الصغيرة التي تهمل نفسها !

— لا .. لا استطيع ان اسرع اكثر من ذلك . ابتهل اليك يا لعبتي الصغيرة ، لا تتهيج ، والا ارتفعت حرارتك مجدداً الى ٣٩ (وتنهدت كأنما تخاطب نفسها) ما كان لي ان اقول لك ذلك .

— طبعـاً ! ويوم الرحيل كانوا سيخدرونني او يروون لي انهم يأخذونني للنزهة .

وتمدد من جديد لأنهم أوشكوا على المرور امام مكتبة « ناتيه » : وكان يكره مكتبة « ناتيه » بواجهتها المصفرة القذرة . ثم ان العجوز كانت دائماً تقف على عتبة الباب فتضم يديها حين تراه ماراً .

— انك تهزينني ! فتنبهي !

كالجرذ ! ان في الجرذان من يستطيع ان ينهض ويركض ليختبىء في الكهف او في المخزن . اما انا ، فرزمة . وليس لهم الا ان يأتوا فيأخذوني .

— ألأنت التي ستلصقين البطاقات ؟

— أية بطاقات ؟

— بطاقات الانتقال : فوق وتحت ، سريع العطب ، الرجاء نقلـه بحذر . ستضعين بطاقة على بطني ، وأخرى على مؤخرتي .

قالت :— رديء ! رديء ! رديء !

— حسناً ! سانقلوننا في القطار طبعاً ؟

— نعم . ماذا تريدهم ان يفعلوا اذن ؟

— في القطار الصحي .

فصاحت جانين : — لا ادري ، لا استطيع ان اخترع . أقول لك اني لا اعرف .

– لا تصرخي ! فلست أصم .

وتوقفت العربة فجأة ، فسمع انها كانت تتمخط .

– ما بك ؟ اناك توقفيني في منتصف الطريق ؟

وأخذت العجلات تتدحرج على البلاطات غير المستوية . وعاد يقول :

– ومع ذلك ، فقد قالوا لنا مراراً بأن علينا ان نتجنب السفر بالقطار ..

وحدث شخير متملق فوق رأسه فصمت : كان يخشى ان تأخذ في البكاء . وكانت الشوارع تغص بالمرضى في تلك الساعة . سيكون جميلاً ذلك الفتى الذي تدفعه ممرضة تبكي . ولكن فكرة جاءته ، فلم يستطع الامتناع عن ان يدمدم :

– انني اشمئز من المدن الجديدة .

لقد قرروا كل شيء ، وقد ارادوا ان يضطلعوا بكل شيء ، وكانوا يملكون الصحة والقوة والفراغ ؛ لقد صوتوا ، واختاروا رؤساءهم ، وكانوا واقفين ، وكانوا يركضون في كل مكان بهيئاتهم المهتمة المنشغلة ، وكانوا يدبرون فيما بينهم مصير العالم ، وخاصة مصير المساكين المرضى الذين هم صبيان كبار . وهذه هي النتيجة : الحرب ، ان هذا عظيم . لماذا يجب عليّ ان ادفع ثمن حماقاتهم ؟ لقد كنت انا مريضاً ، فلم يسألني احد رأيي ! اما الآن ، فهم يتذكرون انني موجود وهم يريدون ان يجرّوني في أقذارهم . سيأخذونني من إبطي ومن ابضي وسيقولون لي : « عفواً ، المعذرة ، اننا نخوض الحرب . » وسيضعونني في مكان يشبه الطين ، حتى لا أحاول ان أزعج لعبة مجزرتهم . ونفر فجأة الى شفتيه السؤال الذي كان يمسكه منذ نصف ساعة . ستكون به سعيدة جداً ، ولكن فليكن : فلا بدّ من ان يخرج السؤال هذه المرة .

– اسمعي .. هل سترافقنا الممرضات ؟

قالت جانين : — نعم بعضهن .
— و .. انت ؟
قالت جانين : — كلا . انا لا .
فأخذ يرتجف ، وقال بصوت أبح :
— انك تتركيننا ؟
— لقد عينوني في مستشفى دنكرك .
قال شارل : — حسناً . جميع الممرضات سواء ، أليس كذلك ؟

فلم تجب جانين ، فاستقام ونظر حوله . وكان رأسه يتهادى من تلقاء نفسه يساراً ويميناً ، ويميناً ويساراً . وكان هذا متعباً جداً ، وكان يحس بدغدغة جافة في اعماق عينيه . وكانت عربة تسير في اتجاههم يدفعها عجوز طويل أنيق . وعلى آلة التثبيت ، كانت امرأة شابة ذات وجه مجوف وشعر ذهبي ؛ وكان قد ألقي على ساقيها معطف رائع من الفرو . ونظرت اليه لحظة ثم ردت رأسها الى خلف وتمتمت بضع كلمات صعدت في وجه العجوز المنحني فوقها . وسأل شارل :

— من هذه ؟ اني أراها منذ وقت طويل .
— لا أدري . اظن انها فنانة مسرح . لقد كسرت ساقاً ، ثم ذراعاً .
— هل تعرف ؟
— ماذا ؟
— أعني ، هل يعرف المرضى انهم سينقلون ؟
— لا احد يعرف ، لقد منع الطبيب ترديد ذلك .
فقال ضاحكاً : — هذا مؤسف . فربما اصبحت اقل كبرياء .
قال بيار قبل ان يصعد الى العجلة :
— ضخ هنا ضخة من المبيد . ففيه رائحة حشرات .
فضخ العربي بوداعة بعض المبيد على أغطية الأريكة البيضاء وعلى وسائدها ، وقال : — هكذا .

فقطّب بيار حاجبيه :

ـ هِمْ !

فوضعت « مود » يدها على فمه وقالت بلهجة ابتهال :

ـ هس ، هس ! حسنٌ هكذا .

ـ فليكن . ولكن اذا أصابتك براغيث ، فلا تأتي لتستغيثي بي !

ومدّ لها يده ليعينها على الصعود، ثم جلس بالقرب منها . وخلّفت أصابع مود الهزيلة حرارة حية جافة في جوف راحته : كانت لها دائماً درجة حرارة . وقال بجفاء :

ـ سوف تتنزّهنا حول الاسوار .

مهما قيل ، فان الفقر يخلف الابتذال . وقد كانت « مود » مبتذلة وكان هو يكره الماسونية التي كانت تشدّها الى الحوذيين والحمالين والأدلة وصبيان المقاهي : فقد كانت تعطيهم الحق دائماً ، واذا أخذوا بذنبهم، كانت تتدبّر أمرها دائماً لتجد لهم الاعذار .

وساط الحوذي حصانه فتدحرجت المركبة وهي تصرّ . فقال بيار ضاحكاً :

ـ اية عجلة دون ! انني اخشى دائماً ان ينكسر فيها محور !

وكانت مود تطلّ الى الخارج وتنظر الى كل شيء بعينيها الجادتين المهتمّتين .

ـ انها نزهتنا الاخيرة .

فقال : ـ اجل ! أجل !

وأحسّت بأنها شاعرية لأن هذا هو اليوم الأخير واننا سننتقل الباخرة غداً . وكان ذالك مزعجاً ، ولكنه كان اكثر احتمالاً لصمتها وتأملها منه لجذلها . ولم تكن جميلة جداً ، وحين كانت تريد ان تظهر دلالاً او حيوية ، فان ذلك كان ينقلب فوراً الى كارثة . وفكّر : يكفي تماماً هكذا. سيكون هناك يوم الغد وايام الرحلة الثلاثة في اجتياز البحر

حتى اذا بلغا مرسيليا ، مساء الخير ،وكل يمضي في وجهته. وسُرَّ لأنه حجز سريراً في الدرجة الأولى : فان النساء الاربع كن يسافرن بالدرجة الثالثة ؛ وسوف يدعوها الى غرفته حين يرغب فيها ، ولكنها لخجلها لن تجرؤ على الصعود الى الدرجة الاولى اذا لم يأت لمرافقتها . وسأل :

— هل حجزتنّ امكنتكنّ في الأوتوكار ؟

فبدا على مود بعض الانزعاج :

— قررنا اخيراً الا نستقل الاوتوكار . فسوف ينقلوننا بالسيارة الى « كازا » .

— من ؟

— احد معارف « روبي » وهو سيّد مسنّ لطيف جداً سينعطف بنا من طريق « فاس » .

فقال بأدب :— مع الاسف .

وكانت المركبة قد غادرت مراكش ، وكانت تمر في وسط المدينة الاوروبية . وكانت الأرض الشاسعة امامهم تفسُد بصفائحها المبقورة ومعلباتها الفارغة . وكانت المركبة تُسرع بين مكعّبات كبيرة بيضاء ذات زجاج ملتمع ؛ ووضعت مود نظارتها السوداء ، وكان وجه بيار يكزّ قليلاً بسبب الشمس . ولم تكن المكعّبات المرصوصة بهدوء الى جانب بعضها البعض ، تثقل على الصحراء ؛ فلئن هبت الريح طارت. وكانت قد عُلّقت على إحداها صفيحة مرشدة : «شارع المارشال ليوتي» ولكن لم يكن ثمة شارع ؛ وانما ذراع صغيرة من الصحراء مزفتة بين الأبنية . وكان ثلاثة من السكان المحليين ينظرون الى المركبة وهي تمر، وكان اصغرهم ذا عين بيضاء . واستوى بيار قليلاً ورماهم بنظرة حادة . على المرء ان يظهر قوته حتى لا يكون مضطراً لاستعمالها ،عبارة لم تكن مفيدة للسلطات العسكرية فحسب ، بل كانت تملي على المعمّرين، بل وحتى الزوار العاديين ، مسلكهم . ولم يكن ضرورياً ان يستعرض

المرء قوته استعراضاً كبيراً : بل حسبه بكل بساطة الا يسترخي ، وان يستقيم في جلسته . واختفى الضيق الذي كان يضغط عليه منذ الصباح . لقد شعر ، تحت العيون البليدة في وجوه هؤلاء العرب ، انه كان يمثل فرنسا . وقالت « مود » فجأة :

– ماذا ترانا سنجد حين نعود ؟

فشدّ على قبضتيه دون ان يجيب . المعتوهة : لقد ردّت له قلقه دفعة واحدة ، وكانت تلحّ :

– ربما كانت الحرب قائمة . فلك الرحيل ، ولي البطالة .

وكان يشمئز من سماعها وهي تتحدث عن البطالة بهذه اللهجةالجادة، كأنها عامل . ومع ذلك ، فقد كانت عازفة الكمان الثانية في جوقة « بابيز » النسائية التي كانت تقوم برحلات في البحر المتوسط والشرق الادنى: وكانبالامكان اعتبار ذلك مهنة فنية . وقال بحركة انزعاج :

– أرجوك يا « مود » ، ليتنا لا نتكلم عن الاحداث ؟ فهل تريدين ، إكراماً لي ؟ إن هذه آخر أمسية لنا في مراكش .

فالتصقت به :

– صحيح . هذه آخر أمسية لنا .

ولامس شعرها ؛ ولكنه ظل يحتفظ بهذا المذاق المر في فمه . لم يكن ذلك خوفاً ، كلا ؛ فقد كان ثمة من يعتمد عليه ، وكان واثقاً من انه لن يخاف ابداً . بل كان ذلك ... زوال اوهام .

وكانت المركبة قد بلغت الأسوار . وأرته « مود » باباً أحمر كانت تُرى فوقه رؤوس خضراء .

– اوه ! هل تذكر يا بيار ؟

– ماذا ؟

– منذ شهر تماماً . لقد التقينا هنا .

– آه ! نعم ..

— هل تحبني ؟

وكان لها وجه صغير هزيل ، ناتيء العظام بعض الشيء ، وعينان كبيرتان وفمٌ جميل .

— نعم ، احبك .

— قل ذلك بطريقة أخرى .

فانحنى عليها وقبّلها .

وكان الغضب بادياً على العجوز ، وكان ينظر وهو يقطّب حاجبيه الكثيفين . وقال بصوت حاسم : « مذكرة ! هذه نتيجة التنازلات كلها ! » وهزّ هوراس ويلسون رأسه وكان يفكر : « لماذا يمثّل المهزلة ؟ » ألم يكن شمبرلن يعرف انه ستكون ثمة مذكرة ؟ او لم يقرر كل شيء مساء أمس ؟ ألم يتفقا على هذا الإخراج كله حين بقيا وحيدين وجهاً لوجه مع هذا المنافق المزيّف الدكتور شميت ؟

— خذها بين ذراعيك ، صغيرتك « مود » ، فانها تشعر بالكآبة هذا المساء .

وأحاطها بذراعيه ، فأخذت تتكلم بصوت طفولي دقيق .

— انك لا تخشى الحرب ، انت ؟

فأحسّ برعشة مزعجة لدى رقبته :

— يا صغيرتي المسكينة ، لا ، لست أخشاها . ان الرجل لا يخشى الحرب .

قالت : — ولكني اؤكد لك ان لوسيان كان يخشاها . بل ان هذا ما نفّرني منه ؛ فقد كان هلوعاً اكثر مما ينبغي .

وانحنى فقبّلها في شعرها : وكان يتساءل لماذا اخذته الرغبة فجأة في ان يصفعها .

وتابعت : — اولاً ، كيف يستطيع رجل ان يحمي امرأة ، اذا قضى وقته كله وهو خائف ؟

قال بلطف : — انه لم يكن رجلاً . اما انا فاني رجل .

وأخذت وجهه بين يديها وأخذت تتكلم وهي تلامسه :

— نعم ، كنت رجلاً يا سيدي ، نعـــم كنت رجلاً . فبشعرك الأسود ولحيتك السوداء كنت تبدو وكأنك في الثامنة عشرة .

وتخلّص ؛ وكان يشعر بأنه رقيق مائع ، وكان غثيان يصعـــد من معدته الى حلقه ، ولم يكن يعرف ما الذي يثير اكثر اشمئزازه من هذه الصحراء الملتمعة وهذه الجدران الطينية الحمراء وهذه المرأة التي كانت تقبع بين ذراعيه . ذلك أنني مللت مراكش ! كان يود لو يكون في « تور » ، في بيت اسرته، ويود لو ان الوقت صباح ، ولو ان امه تأتي حاملةً له فطوره الى السرير . حسناً ،ستهبط الى صالة الصحفيين، هكذا قال لنفيل هندرسون ، وستعلن انني نزولاً عنـــد طلب المستشار هتلر ، سأتوجّه الى فندق دريسن حوالي الساعة الثانية عشرة والصف،

وقال : — ايها الحوذي ! ايها الحوذي ! عُد الى المدينة من هذا الباب .

فسألت « مود » مندهشة : — ماذا دهاك ؟

فقال لها بعنف : — لقد مللت الأسوار ، وقد مللت الصحراء ، وقد مللت مراكش !

ولكنه ما لبث ان ضبط أعصابه فأخذ ذقنها بين اصبعيه وقال :

— اذا كنت عاقلة هادئة ، فسوف نشتري لك بابوجاً .

لم تكن الحرب في موسيقي ميـــدان ترويض الخيل ، ولم تكن في الحانات الصاخبة القائمة في شارع روششوار . ليس ثمة هبة ريح . كان موريس يرشح عرقاً ، وكان يُحس فخذ نينيت الحار لصق فخذه . سنلعب لعبة صغيرة بالورق ثم ينتهي الامر . لم تكن في الحقول ، في اهتزاز الهواء الساخن فوق السياج ، في زعردة العصافير ، في ضحكة

مارسيل ؛ لقد قامت في الصحراء حول جدران مراكش : كانت ريح حارة حمراء قد هبت ، وكانت تدور حول العربة ، وكانت تعدو فوق امواج البحر ، وكانت تصفع ماتيو على وجهه ؛ وكان ماتيو يتجفف على الشاطيء الخالي ، وكان يفكر : « حتى ولا هذا ! » وكانت ريح الحرب تهب عليه .

حتى ولا هذا ! كان الطقس بارداً بعض الشيء ، ولكنه لم يكن راغباً في العودة على التو . وكان الناس قد غادروا الشاطيء واحداً بعد الآخر ؛ فقد كانت تلك ساعة العشاء . وحتى البحر كان قد اخلى سكانه ، وكان قابعاً مستقراً ، مقفراً مشمساً ، نوراً كبيراً منهاراً ، وكان المقفز الأسود للتزلج المائي يشبه كرأس صخرة .

وكان ماتيو يفكر : « حتى ولا هذا ! » وكانت تشتغل الصوف ، وكانت النافذة مفتوحة ، وهي بانتظار رسائل جاك . وهي سترفع أنفها بين وقت وآخر ، يداعبها أمل غامض ، وكانت تبحث بنظرها عن بحرها . بحرها : عوامة ، مقفز ، وبعض الماء الذي يصطدم بالرمل الحار . حديقة صغيرة هادئة على قد الرجال ، مع بعض الجادات الواسعة والممرات التي لا تحصى ، وفي كل مرة ستأخذ صوفها بالخيبة نفسها : لقد غيروا لها بحرها : لقد جذبت الضاحية الخلفية المقنفذة بالحراب والمحملة بالمدافع ، جذبت الساحل اليها ؛ وانحسر الماء والرمل وراح كل منهما يتابع على حدة حياة كئيبة . وكانت ثمة اسلاك شائكة تثلم الحواجز الحجرية البيضاء بظلالها المنجمة ، ومدافع في المنتزهات ، بين شجار الصنوبر ؛ وحرس امام القاصير ؛ وسوف يجتاز ضباط بلا وعي هذه المدينة المائية الحزينة . وسوف يعود البحر الى وحدته . فالسباحة مستحيلة : وسوف يتخذ الماء ، اذ يحرسه عسكري ، مظهراً ادارياً عند الشاطيء ؛ ولن يكون المقفز والعوامة بعد على بعد معقول من الأرض ؛ وسوف تنمحي جميع الدروب التي رسمتها اوديت على

الامواج منذ طفولتها . ولكن البحر ، البحر المتلاطم ، اللاإنساني ، سيكون ضدها بمعاركه البحرية تقوم على بعد خمسين ميلا من مالطه ، وبعناقيده من البواخر المغرقة بالقرب من بالبرمو ، وبأعماقه التي تحرسها أسماك حديدية ؛ سوف تكتشف في كل مكان من الأمواج حضورهـا الثلجي . وسيرتفع البحر العالي الى الأفق كجدار بلا أمل . ونهض ماتيو، كان قد جف ؛ واخذ يفرك تبانه بباطن يده ، ففكر : « لا بد ان تكون مزعجة جداً ، هذه الحرب ! » وبعد الحرب ؟ سيكون ثمة ايضاً بحر آخر. بحر المهزومين ؟ بحر الهازمين ؟ بعد خمس سنوات ، او بعد عشر، ربما كان هنا ، ذات مساء من ايلول ، في الساعة نفسها ، جالساً على هذا الرمل نفسه ، امام هذه الكتلة الضخمة من الجلاتين ، وستمسح هذه الأشعة الحمراء نفسها سطح الماء . ولكن ما عساه سوف يرى؟

ونهض وتدثر بمئزره . وكانت اشجار الصنوبر ، على الرصيف،قد اسودت تجـاه السماء . وألقى نظرة أخيرة على البحر ، ان الحرب لم تنفجر بعد ؛ كان الناس يتعشون باطمئنان في مقاصيرهم ؛ ليس ثمة مدفع ، ولا جندي ، ولا اسلاك شائكة ، وكان الاسطول في الميناء ، في بيزرت وطولون ؛ وكان ما يزال مسموحاً بعد برؤية البحر مزدهراً، بحرُ أمسية من آخر أماسي السلام . ولكنه ظل جامداً محايداً : فان ساحة كبيرة من الماء المالح تغتلم احياناً ، لا تعني شيئاً . وهز كتفيـه ورقي الدرجات الحجرية : منذ بضعة ايام كانت الاشياء تتركه واحداً بعد الآخر . والآن جاء دور البحر . « كالجرذان التي تترك الباخرة الموشكة على الغرق . » وحين يجيء يوم الرحيل ، سيكون جافاً كله فلا يبقى له شيء يتحسر عليه . وعاد يخطى بطيئة الى المقصورة ، وقفز بيـار خارج العربة وقال :

— تعالي ، سنشتري لك بابوجاً .

ودخلا السوق . وكان الوقت متـأخراً ؛ وكان العرب يستعجلون

الوصول الى ساحة جامع الفنا قبل مغيب الشمس . واحس بيار بأنه كان اوفر فرحاً ، فقد خلف ذهاب الناس وايابهم أثراً مريحاً في نفسه . وكان ينظر الى النساء المحجبات ، وحين كن يبادلنه نظرته ، كان يتذوق جماله في عيونهن وقال :

ـ انظري . هذه بوابيج .

وكان يوجد كل شيء في العرض ؛ كان دكاناً للأقمشة والعقود والأحذية المطرزة . وقالت مود :

ـ ما اجمل ذلك ! لنقف هنا .

وغمست يديها في هذا الخليط العجيب . فابتعد بيار قليلا : انه لم يكن يريد ان يظهر امام العرب بمظهر الاوروبي الذي يستغرقه تأمل الزينة النسوية . وقال بشرود :

ـ اختاري ، اختاري ما تشائين .

وكانت تباع على البسطة المجاورة كتب فرنسية ، فتسلى بتقليب اوراقها . وكان فيها خليط من الروايات البوليسية والقصص السينمائية . وكان يسمع الى يمينه زقزقة الخواتم والعقود تحت اصابع مود ، فسألها من فوق كتفها :

ـ هل تجدين طلبك ؟

ـ انني ابحث ، انني ابحث . يجب ان افكر .

وعاد الى القراءة . وتحت ركام من « تكساس جاك » و «بيفالوبيل» اكتشف كتاباً ذا صور . وكان مؤلفاً للكولونيل بيكو عن جرحى الوجه ؛ وكانت الصفحات الاولى مفقودة ، بينما كانت الأخرى مطوية. وأراد ان يضعه بسرعة ، ولكن الاوان كان قد فات : فقد انفتح الكتاب من تلقاء نفسه ؛ ورأى بيار رأساً فظيعاً لم يكن من الانف حتى الذقن الا ثقباً بلا شفاه ولا اسنان ؛ وكانت العين اليسرى مفقودة ، وكانت ندبة عريضة تخيط الخد الأيمن . وكان الوجه المعذب يحتفظ

بمعنى انساني ، هيئة ضاحكة بطريقة لئيمة . وكان بيار يحس حكاكاً مثلوجاً على جلدة رأسه وكان يتساءل : كيف وصل هـذا الكتاب الى هنا ؟

وقال البائع : – كتاب جميل .. وسوف تتسلى !

وأخذ بيار يقلب الصفحات ، فرأى اشخاصاً بلا انف او بلا عينين او بلا اجفان مع مُقَل جاحظة كما يبدو ذلك في اللوحات التشريحية . وكان مسحوراً ، وكان ينظر الى الصور واحدة واحدة ، وكان يردد في نفسه : ولكن كيف وصل الى هنا ؟ وكان افظع ما رأى رأس بلا فك اسفل؛ وكان الفك الاعلى قد فقد شفته فكشف عن لثة واربعة اسنان . وفكر ، انه يعيش . ان هذا الشخص حي . ورفع عينيه ، فعكست صورته مرآة منقطعة في إطارٍ مذهب : ونظر الى صورته في رعب .. قالت مود

– بيار ، تعال انظر ، لقد وجدت .

وتردد . كان الكتاب يحرق يديه ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقرر رميه بين الكتب الأخرى ، والابتعاد عنه ، وايلاءه ظهره . وقال .

– انا قادم .

وأومأ أصبعه الى الكتاب وسأل البائع :

– كم ثمنه ؟

كان الفتى يتنزه كالنمر في المكتب الصغير . وكانت ايرين تضرب مقالاً هاماً عن مساويء النظام العسكري . وتوقفت ورفعت رأسها :

– انك تصيبني بالدوار .

قال فيليب : – لن اذهب ، لن اذهب قبل ان يستقبل ...

فأخذت تضحك .

– ما اعقدك ! هل تريد ان تراه ؟ حسناً ، انه هناك ، خلف الباب ؛ فليس لك الا ان تدخل فتراه .

قال فيليب : — تماماً .

وخطا خطوة الى الأمام ثم توقف .

— اني .. سيكون الأمر عديم الحكمة ، وسوف اضايقه . اوه ! ايرين ، اتريدين إن تعودي فتسأليه ؟ مرة اخيرة ، اقسم لك انها المرة الأخيرة .

قالت :

— كم انت سامّ ! لا تهتم بعد بالأمر . فان « بيتو » شخص قذر: اما آن لك ان تفهم ان من حظك انه لا يريد بعد ان يراك ؟ ان ذلك لن يعود عليك بغير الشر .

قال بهزؤ : — اه ! بغير الشر ! هل بالامكان ان يضرني احد ؟ الحق انك لا تعرفين أهلي : انهم يملكون جميع الفضائل ، وهم لم يدعوا لي الا جانب « الشر » ؟

فنظرت ايرين في عينيه :

— وهل تتصور انني لا اعرف ما الذي يريد منك ؟

فاحمرّ وجه الفتى ولم يجب . فقالت وهي تهز كتفيها :

— اوه ، وبعد ...

قال فيليب بصوت مبتهل :

— اذهبي فاسأليه ثانية يا ايرين ، اذهبي فاسأليه ثانية . قولي له انني اوشك ان اتخذ قراراً حاسماً .

— انه لا يكترث بذلك .

— اذهبي فقولي له مع ذلك .

ودفعت البـــاب ودخلت من غير ان تدقه . فرفع « بيتو » رأسه وكز وجهه وقال بصوت راعد :

— ماذا هناك ؟

ولم يكن يخيفها ، فقالت :

– اسمع ، لا حاجة بك الى الصراخ : انه الصبي ، وقد مللت ان يظل بين ذراعي : فهل يزعجك ان آتيك به دقيقة ؟

قال بيتو : – لقد قلت لا .

– يقول انه سيتخذ قراراً حاسماً .

– وما عسى ذلك ان يعنيني ، انا ؟

فقالت بنفاد صبر : – آه ! تدبّر الامر ، فانا سكرتيرتك ، ولست مرضعته .

قال والشرر يتطاير من عينيه :

– حسناً ، فليدخل ! آه ، سيتخذ قراراً حاسماً ! حسناً ، اما انا فسأقوم بعملية اعدام حاسم !

فضحكت وعادت الى فيليب :

– ادخل .

فهرع الفتى ، ولكنه توقّف عند عتبة المكتب بهيئة تقي ، فوجب عليها ان تدفعه ليدخل . وأغلقت الباب خلفه وعادت تجلس الى طاولتها . وسرعان ما انبعث الصراخ من الجهة الاخرى . فأخذت تضرب على الآلة بغير ما اكتراث : كانت تعرف ان فيليب قد خسر القضية . كان يمثل دور المعتقين ، وكان فاغر الفم امام بيتو ؛ وقد اراد بيتو ان يفيد من هذا ليستقدمه لمجرّد اللؤم : فانه لم يكن حتى لوطياً . وقد اصيب الفتى في آخر لحظة بالرعب . لقد كان كجميع الصبية ، كان يريد ان يحصل على كل شيء من غير ان يعطي شيئاً ؛ وكان يبتهل الآن الى بيتو ليحتفظ بصداقته ، ولكن بيتو أرسله يفرنقع . وقد سمعته يصيح : « حُلّ عن ظهري ، انك جبان صغير ، بورجوازي صغير ، فتى ثريّ يظن نفسه أزعر » ، فأخذت تضحك وضربت بضعة اسطر من المقال . « هل يمكن ان نتصور حيوانات اشأم من الضباط الذين ادانوا دريفوس ؟ » وفكرت بمرح :

ماذا يأخذ عليهم ؟
وانفتح الباب وانغلق بصخب ؛ وكان فيليب امامها . كان قد بكى، وانحنى على المكتب وهو يشهر سبّابته في صدر ايرين ، وقال بلهجة وحشية :
– لقد دفعني الى النهاية . ولا يحق لاحد ان يدفع الناس الى النهاية (وارتد برأسه الى خلف وأخذ يضحك) « ستسمعين حديثاً عني ! »
قالت ايرين وهي تتنهد : – لا تعذّب نفسك .
اغلقت الممرضة غطاء الصندوق ، اثنان وعشرون زوج حذاء ، ولا بد انه لم يكن لديه عمل كثير يعطيه للسكاف ، فحين كان زوجٌ يفسد ، كان يقذفه في الصندوق ويشتري غيره ، واكثر من مئة زوج من الجوارب المثقوبة لدى الكعب وعند الابهام ، وست بذلات متعبة في الخزانة ، وبيته قذر ، كوخ عازب حقيقي . وكان بوسعها ان تتركه خمس دقائق ، فتسلّلت الى الممر ، ودخلت بيت الخلاء فرفعت تنوّرتها تاركة الباب مفتوحاً على سعته . وقضت حاجتها بسرعة ، وهي مرهفة الاذن ، متنبهة لأدنى ضجة : ولكن ارمان فيغيه كان متمدداً بهدوء ، وحيداً في غرفته ، وكانت يداه الصفراوان ترتاحان على الغطاء ، وكان قد قلب رأسه الهزيل ذا اللحية الرمادية القاسية ، والعينين الغارقتين ، وكان يبتسم بسمة متحفظة . وكانت ساقاه القصيرتان تتمددان تحت الغطاء . وكانت قدماه تشكلان بينهما زاوية من ثمانين درجة ، وكانت اظافره ناتئة ، اظافر اصابعه الرهيبة التي كان يقصّها بالسكين كل ثلاثة اشهر ، والتي كانت منذ خمسة وعشرين عاماً تثقب جميع جواربه . وكانت في فخذيه دمامل صلبة ، بالرغم من انه كان يستريح على عجلة من المطاط عند جانبيه ، ولكن الدمامل كانت قد كفّت عن النزيف : ذلك انه كان ميتاً . وعلى طاولة الليل ، كانت قد وُضعت نظارته ، ووضع طقم اسنانه في كوب ماء .

ميت . وقد كانت حياته هنا ، في كل مكان ، ناجزة لا تُدرك باللمس ، قاسية ملأى كالبيضة ، حتى ان جميع قوى العالم لن تبلغ ان تُدخل فيها ذرة واحدة ، وكانت ذات مسام غزيرة حتى ان باريس والعالم كله كان يمر عبرها ، وكانت منتثرة في اربعة اركان فرنسا ، متخثرة كلها في كل نقطة من الفضاء ، سوقاً كبيرة جامدة صارخة ؛ وكانت الصرخات هنا ، والضحكات ، وصفير المحركات ، وانفجار قنابل « شرانبل » ، يوم السادس من ايار ١٩١٧ ، وهذا الطنين الدامي في رأسه ، حين يسقط بين الخندقين ، وكانت الضجة هنا مثلجة ، ولم تكن الممرضة المترصدة لتسمع الا همساً تحت تنورتها . ونهضت ولم تشد مضخة الماء ، احتراماً للميت ، وعادت تجلس عند رأس ارمان، مخترقة تلك الشمس الكبيرة الجامدة التي تضيء الى الابد وجه امرأة في القارب ، يوم العشرين من تموز ١٩٠٠ ، في « لاغرانـــد جات » .

كان ارمان فيغيه ميتاً ، وكانت حياته تطفو ، وهـــي تحبس الآماً جامدة ، خطاً كبيراً يخترق شهر مارس ١٩٢٢ ، ألماً في الجنب ، جواهر صغيرة لا تتلف ، قوس قزح فوق محطة « بيرسي » ذات مساء سبت ، لقد أمطرت ، البلاط يزلق ، ويمر راكبا دراجتين وهمـــا يضحكان ، صوت المطر على الشرفة ، ذات أصيل خانـــق من شهر شباط ، لحن غجري يفجر الدمع في عينيها ، قطرات ندى تلتمع في العشب ، تطاير حمام في ساحة سانت مارك . وبسطت الجريـــدة ، وركزت نظارتها على أنفها واخذت تقرأ : ، آخر ساعة : « لم يجتمع المستر شمبرلن ، بعد ظهر اليوم ، مع المستشارهتلر . » وفكرت في حفيدها الذي لا شك في انه سيذهب ، ووضعت الجريدة الى جانبها ، وتنهدت . كان السلام هنا ، كقوس قـــزح ، كشمس « لا غراند جات » ، كالذراع الشقراء التي يجعدها النور . سلام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ و ١٩٨٠ ، سلام الناس الأكبر ؛ وكانت الممرضة تضـــم شفتيها

وتفكر : « انها الحرب » ، وكانت تنظر الى بعيـد ، وعيناها ثابتتان ، وبصرها يمر عبر السلام . وهـز شمبرلن رأسه وقال : « طبعاً ، سأفعل ما بوسعي ، ولكن ليس لدي أمل كبير . » وأحس هوراس ويلسون ان رعشة كريهة تسيل في ظهره ، فقال في نفسه : « واذا كان صادقـاً ؟ » وفكرت الممرضة : « زوجي في حرب ١٩١٥ ، وحفيدي في حرب ١٩٣٩ : وهكذا اكون قـد عشت بين حربين . » ولكن ارمـان فيغيه يعرف ان السلام قد وُلد ، وسأله شانتال ، « لماذا قاتلت ، وانت صاحب تلك الافكار ؟ » فأجاب : « لتكون هذه آخر حرب » . ٢٧ ايار ١٩١٩ . الى الابد . انه يستمع الى بريان الذي يتكلم ، بجسمه القصير فوق المنبر ، تحت سماء خفيفة ؛ إنه ضائع في جمع الحجّاج ، والسلام قد هبط عليهم ، فهم يلمسونه ويرونه ويصرخون « يعيش السلام » الى الابد . انـه جالس في اللكسمبورغ ، على كرسي حديدي ، وهو ينظر ابداً شجر الكستناء المزهر ، والحرب قد انغرست في الماضي ، ويمد ساقيه القصيرتين ، وينظر الى الاطفال الذين يركضون ، ويفكر بأنهم لن يعرفوا ابـداً فظائع الحرب . ان السنوات المقبلة طريـق ملكي هادىء ، والزمن يتفتّح كالمروحة . وينظر الى يديه الهرمتين الساختنين بالشمس ، فيبتسم ويفكر : « ذلك بفضلنا . لن تقوم حرب بعد . لا في حياتي ، ولا بعدي . » ٢٢ نوار ١٩٣٨ . الى الابد . كان شارل فيغيه قد مات ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يصوبه او يخطئه . لم يكن ثمة من يستطيع ان يغير مستقبل حياته الميتة ، ذلك المستقبل الذي هو غير قابل للهدم . يوم آخر ، يوم واحد ، وربما كانت جميع آماله قد انهارت ، اذ يكتشف فجأة ان حياته قد انسحقت بين حربين ، كـما بين المطرقة والسندان . ولكنه مات يوم ٢٣ ايلـول ١٩٣٨ ، في الساعة الرابعة صباحاً ، بعد سبعة ايام من الإغماء . وكان قد حمـل السلام معه .

السلام ، السلام كله ، سلام العالم ، الذي لا يعفو ، والذي يتعذر مأخذه . ودُقّ جرس المدخل فانتفضت ، ولا بد انها ابنة عمه « انجرز » ، قريبته الوحيدة ، فقد أُبلغت مساء أمس برقياً ، وفتحت لامرأة قصيرة سوداء كان لها فم فأريّ وشعرٌ في الوجه .

– انني السيدة فرشو .

– آه ! حسناً جداً ، يا سيدتي .

– هل يمكن بعد ان نراه ؟

– نعم . انه هنا .

واقتربت السيدة فرشو من السرير ، فنظرت الى الخديّن المجوفين ، والعينين الغارقتين وقالت :

– لقد تغير كثيراً .

الساعة العشرون والنصف في جوان ليبان . الحادية والعشرون والنصف في براغ .

– لا تتركوا السمع ، سيذاع بلاغ هام جداً على الفور . لا تتركوا السمع ، سيذاع ...

قال ميلان : – انتهى الامر .

وكان واقفاً في فتحة النافذة . فلم تجب أنّا . وانحنت ، وبدأت تلمّ شظايا الزجاج ، فوضعت اكبرها في مئزرها وقذفتها من النافذة . كان المصباح قد انكسر ، وكانت الغرفة مظلمة زرقاء . وقالت :

– اما الآن ، فسأُجري ضربة منكسة .

ورددت : ضربة مكنسة – وأخذت ترتجف وقالت وهي تبكي :

– سيأخذون منا كل شيء ، سيحطمّون كل شيء ، وسيطردوننا .

قال ميلان : – اسكتي . بالله عليك لا تبكي !

ومشى الى جهاز الراديو ، فأدار الازرار ، فأضاءت المصابيح ، وقال بلهجة راضية :

ـ لم يُصب بشيء .

وفجأة ملأ الصوت الآلي الثاقب الغرفة :

ـ لا تتركوا السمع . سيذاع بلاغ هام جداً على الفور . لا تتركوا السمع ، سيذاع بلاغ هام .

قال ميلان بصوت متغير :

ـ اسمعي ، اسمعي !

كان بيار يمشي بخطى واسعة . وكانت مود تركض بجانبه وهي تشدّ بابوجها تحت ذراعها . كانت سعيدة وقالت له :

ـ ما أجمله ! ستُجنّ روبي من الغيرة ، لقد اشترت بابوجاً في فاس لا يضاهي نصف هذا . ثم إنه مناسب جداً ، فبوسعك ان تلبسه اذ تقفز من السرير ، وانت لست بحاجة حتى لأن تضع فيه يديك ، في حين ان « البانطوفل » قصة معقدة جداً . غير ان هناك ما ينبغي فعله حتى لا يُفقد : يجب تقويس القدمين ، على ما أظن ، وجعل الأصابع هكذا . سوف اسأل خادمة الفندق ، وهي عربية .

وظل بيار على صمته . فقذفته بنظرة قلقة وأضافت :

ـ كان عليك ان تشتري بابوجاً لك ايضاً ، انت الذي تركض دائماً عاري القدمين في غرفتك ، أتعلم ان ذلك يناسب الرجال كما يناسب النساء ؟

وتوقف بيار في منتصف الشارع ، وقال لها بصوت هائل :

ـ كفى !

فتوقفت ايضاً مبهوتة :

ـ ماذا هناك ؟

قال بيار وهو يقلدها :

ـ هذا يناسب الرجال كما يناسب النساء . كفى ! كفى ! انت تعرفين جيداً ، ما كنت افكر به بينما انت تثرثرين ! وقد كنت

تفكرين به مثلي .

أضاف العبارة الاخيرة بقوة ، وأمرّ لسانه على شفتيه وابتسم بسخرية. وارادت مود ان تتكلم ، ولكنها نظرت وصمتت ، مثلجة . واستطرد :

— ان الناس لا يريدون ان يواجهوا الواقع . ولا سيما النساء : حين يفكرن بشيء ، فيجب ان يتحدثن بسرعة عن شيء آخر . أليس كذلك ؟

قالت مود وقد جن جنونها :

— لقد جننت يا بيار ؟ انني لا أفهم شيئاً مما تقول . فبمَ تظنني كنت أفكر ؟ وبمَ تفكر انت ؟

فأخرج بيار كتاباً من جيبه ففتحه ووضعه تحت أنفها وقال :

— بهذا .

وكانت صورة وجه محطم . وكان صاحبها فاقد الانف ، وكان على عينه عصابة ، فسألته في ذعر :

— لقد .. اشتريته ؟

قال بيار : — نعم ، وماذا في ذلك ؟ انني رجل ، ولست أخاف. اريد ان اعرف الوجه الذي سيكون لي في العام القادم .

وكان يلوّح بالصورة امام عيني مود :

— أتراك تحبينني حين أصبح هكذا ؟

وكانت تخشى ان تفهم ، وكان بودها ان تمنح كل شيء مقابل ان يصمت .

— أجيبي ! هل تحبينني ؟

قالت : — اسكت ، ابتهل اليك ان تسكت .

قال : — هؤلاء الرجال يعيشون في بيت منعزل في « فال دوغاس » وهم لا يخرجون إلا ليلاً ، وعلى وجوههم اقنعة .

وارادت ان تأخذ الكتاب من يده ، ولكنه انتزعه منها ووضعه في

جبيه . ونظرت اليه مرتعشة الشفتين ، وكانت تخشى ان تنفجر باكية ؛ فقالت بلطف :

— اوه ، بيار . هل انت خائف اذن ؟

فصمت فجأة ، وحدد فيها عينين بلهاوين . وظلا لحظة جامدين ، ثم قال بصوت ممطوط :

— ان جميــع الرجال يخافون ، جميعهم . وليس طبيعياً من لا يخاف ؛ ان هذا لا علاقة له بالشجاعة ، وانت لا يحق لك ان تدينيني لأنك لن تذهبي الى القتال .

واستعادا سيرهما في صمت . وكانت تفكر : « إنــه جبان ! » وكانت تنظر الى جبينه الكبير الملفوح ، وانفه الفلورنسي ، وفمه الجميل وتفكر : « انه جبان ، كلوسيان . لا حظ لي . »

كان صدر اوديت ينبعث في النور ، وكان جسمها يغيب في ظلام غرفة الطعام ، وكانت ترتفــق الشرفة ، وتنظر الى البحر ، وكان غرو لويس يفكر : « اية حرب » . كان يسير ، وكان نور المغيب الاحمر يرقص على يديه ، وعلى لحيته ، وكانت اوديت تحس عــلى ظهرها الغرفة الطيبة المظلمة ، والمأوى الطيب ، والخوان الابيض الذي كان يلتمع التماعاً خفيفاً في الظلام ، ولكنها كانت منتصبة في النور ، وكان النور والمعرفة والحرب تدخل من عينيها ، وكانت تفكر بأنــه سيذهب ، وكان الضوء الكهربائي يتجمّد رزماً في ميوعة النهار الغارب . رزماً من أصفر البيض . وكانت جانين قد برمت معكسَ التيار ، وكانت يدا مارسيل تتحركان في الاصفر تحت المصباح . وطلبت ملحاً فشكّلت يداها ظلالاً على الخوان ، وقال دانيال : ان هذا تضليل ، فيجب ان نصمد ، وسينهي لعبته . النور القاسي يبشر العيون كورق الزجاج ، هكذا ، في الجنوب ، حتى آخر دقيقة . انه الظهر ، ثم يتدحرج الليل فجأة . وكان بيار يهذر ، وكان يريد ان يقنعها بأنه قد

إستعاد هدوءه ، ولكنها كانت تمشي الى جانبه في صمت ، وتحدد فيه نظراً في مثل قساوة النور . وحين بلغا الساحة ، خشيت ان يعرض عليها ان تقضي الليل معه ، ولكنه نزع قبعته وقال بجفاف : ما دمنا سننهض باكراً في الصباح،وما دام عليك بعد ان تُعدّي الحقائب ، فأظن ان من الافضل ان تعودي لتنامي مع رفيقاتك . فأجابت : اعتقد انا ايضاً ان ذلك افضل . قال لها : الى الغد . قالت : الى الغد ، الى الغد ، على الباخرة .

لا تتركوا السمع ، سيذاع بلاغ هام جداً ، وكان متمدداً ، ويداه تحت رقبته ، وكان يشعر بأنه ثمل تقريباً . وقال : هل تحبين كثيراً لعبتك الصغيرة ؟. وارتعشت ، وقالت : نعم .. — وكانت خائفة ، ككل مساء . اجل ، أحبك كثيراً ! كانت تقبل احياناً ، وكانت تقول « لا » احياناً اخرى ، ولكنها لن تجرؤ هذا المساء . « اذن هل تُداعَب اللعبة الصغيرة قليلاً ، مداعبةَ المساء ؟ » فتنهدت ، وكانت تشعر بالخجل الشديد ، وكان ذلك مسلّياً . وقالت : ليس هذا المساء . فلهث قليلاً ، وقال : « مسكينة اللعبة الصغيرة ، انها مهتاجة جداً ، وسيعود ذلك عليها بالخير . ألا تريدين ، لكي تجعليها تنام ؟ لا ، لا تريدين ؟ انت تعلمين ان ذلك يهدئني دائماً .. » وتلبست سحنةَ كبيرةِ الممرضات ، كما كانت تفعل اذ تضعه على الحوض ، وأصبح رأسها صلباً على كتفيه ، ولم تكن تغمض عينيها ، ولكن ذلك كان كأنما تتدبر أمرها حتى لا ترى شيئاً ، وكانت يداها تفكان ازراره من تحت ، بخفة ، يــدا اختصاصي ، ووجهه الذي كان حزيناً جداً ، كان ذلك مسلياً ، ودخلت اليد ، عذبة ، عجينة من اللوز . وانتفضتُ اوديت وقالت : لقد أخفتني ! هل جاك معك ؟.. وتنهد شارل ، وقال ماتيو لا . وقال موريس لا ، لا بد مما ليس منه بد . وكان قد أخذ المفتاح عن اللوحــة ، ان رائحة البول والغوط لا تزال . ان ذلك مقرف ،

وقالت زيزيت : انه طفــل السيدة سلفادور ، فهي تلقيه خارجاً حين تستقبل اشخاصاً ، وعند ذلك يغوّط في كل مكان ليتسلى .
وصعدا السلم : « لا تتركوا السمع ، سيذاع ... » وكان ميــلان وأنّا منحنيين على الجهاز ، وكانت ضجة انتصار تدلف من النوافذ ، وقالت أنّا : اخفضه قليلا ، فيجب الا تثيرهم ، اليد الرقيقة العذبة ، العذبة كعجينــة من لوز ، وتبرعم شارل وازدهر ، وتفتحت الثمرة الضخمة ، وكادت القشرة تنفجر ، ثمرة مستقيمة نحو السماء ، ثمرة ذات عصير ، زبيع برمته ذو عذوبة خانقة ؛ الصمت ، صرير الشوكات ، وتمزقات القماش الطويلة في الجهاز ، ومداعبة الريح للثمرة الضخمة المخملية المزغبرة ، وقفزت أنّا وشدت ذراع ميلان :
« ايها المواطنون »
« قررت الحكومة التشيكوسلوفاكية اعلان التعبئة العامة ؛ فعلى جميع الذين تقل اعمارهم عن ٤٠ سنة وعلى الاختصاصيين مهما بلغت اعمارهم ان يلتحقوا فوراً بمراكزهم . وجميع الضباط وصف الضباط وجنود الاحتياط وفرق الاحتياط الثانية من جميع الدرجات، وجميع المأذونين يجب ان يلتحقوا من غير تأخير بمراكز تجهيزهم . وعلى الجميع ان يرتدوا ثياباً مدنية مستعملة ، وان يحملوا اوراقهم العسكرية ومؤنهم لمدة يومين . والحد الأقصى لكي يلتحقوا بمراكزهم هو الساعة الرابعــة والنصف صباحاً .
« جميع الشاحنات والسيارات والطائرات مجندة . بيع البنزين مسموح به بأذن تمنحه السلطة العسكرية .
« ايها المواطنون ! لقد جاءت اللحظة الحاسمة ، والانتصار يتوقف على كل انسان . فليضع كل منكم جميع قواه في خدمة الوطن. ولتكونوا امناء شجعاناً . ان كفاحنا هو كفاح من اجل العدالة والحرية ! لتعش تشيكوسلوفاكيا ! »

ونهض ميلان ، وكان ملتهباً ، ووضع يديه على كتفي أنا وقال لها :
ــ واخيراً ، لقد انتهى الأمر يا أنا . انتهى الأمر .

وكرر صوت امرأة القرار باللغة السلوفاكية ؛ ولم يكونوا يفهمون بعد شيئاً ، الا كلمات من هنا وهناك ، ولكن ذلك كان شبيهاً بموسيقى عسكرية . ورددت أنا « واخيراً ! واخيراً ! » وسالت دموع على خديها . ثم فهموا من جديد : « Die Regierung hat entchlossen » وكان ذلك بالالمانية ، وبرم ميلان الزر الى آخره فأخذ الراديو يهدر ، وكان الصوت يسحق على الجدار اغانيهم الكريهة، وضجيجهم الاحتفالي؛ انه سيخرج من النوافذ ، وسيحطم زجاج اسرة جاغرشميت ، وسيلحق بهم الى صالونهم الميونيخي في اجتماعهم العائلي الصغير ، وسيثلج عظامهم. وكانت رائحة الغوط والحليب المحمض قد انتظرته ، فشمّها بعمق ، ودخلت فيه كضربة مكنسة ، وكانت تطهّره من عطور شارع رويال النظيفة الشقراء ؛ لقد كانت تلك رائحة البؤس ، كانت رائحته. وانزرع موريس امام باب غرفته ، بينما كانت زيزيت تضع المفتاح في القفل ، وكانت اوديت تقــول بفرح « الى المائدة ، اذن ! الى المائدة . ستكون لك مفاجأة يا جاك ! » وكان يحس نفسه قوياً قاسياً ، وكان قد استعار عالم الغضب والتمرد ؛ وفي الطابق الثاني ، كان الصبية يبكون لأن والدهم قد عاد ثملاً ؛ وفي الغرفــة المجاورة ، كان يُسمع وقع خطى ماريا برانزيني التي كان زوجها بنّاء السطوح قد سقط في الشهر الماضي من فوق سطح ، وكانت الضجة والألوان والروائح كلها تبدو حقيقية. وكان قد استيقظ فاستعاد عالم الحرب .

والتفتت العجــوز نحو هتلر ، وكان ينظر الى هذا الوجه الطفولي الرديء ، هذا الوجه الذبابي ، فيشعر بأنه مغتمّ مغتاظ حتى اعماقه ؛ وكان ريبنتروب قد دخل ، فقال بضع كلمات بالألمانية. فأومأ هتلر الى الدكتور شميت ، وقال الدكتور شميت بالانكليزية : « لقد علمنا انه

حكومة السيد بنيش قد اعلنت التعبئة العامة . » فبسط هتلر ذراعيه بصمت كرجل يشكو من ان الحـــادث يعطيه الحق . وابتسم العجوز بلطف ، واضاء في عينيه شعاع احمر . شعاع حرب . وما كان عليه الا ان يبدأ العبوس ، كالفوهرر ، وما كان عليه الا ان يبسط ذراعيه وكأنه يقول : « واذن ؟ ان الأمر كذلك ! » حتى تنهار على الارض كومة الصحون التي كان يوازنها بين يديه منذ سبعة عشر يوماً . وكان الدكتور شميت ينظر اليه في فضول ، وكان يفكر ان من المغري فتح الذراعين ، حين يحمـــل المرء كومة صحون منذ سبعة عشر يوماً ، وكان يفكر : « هذه هي اللحظة التاريخية » ، وكان يفكر بان الأمر قد بلغ ملجأه الاخير ، حرية تاجر عجوز في لندن ، حرية عارية تماماً . وكان الفوهرر والعجوز اذ ذاك يتبادلان النظر في صمت ، فلم يكن ثمة حاجة الى اي مترجم . وقام الدكتور شميت بخطوة الى الوراء .

جلس على مقعد حجري في ساحة « جيلو » ووضع القيثار بالقرب منه . وكانت السماء مظلمة زرقاء تحت شجر الدلب ، وكان ثمة موسيقى. وكان الوقت مساء ، وكانت صواري قوارب الصيد تخرج من الارض مستقيمة سوداء ، ومن الجهة الاخرى من المرفأ ، كانت النوافذ تلتمع بالمئات . وكان صبي يُجري ماء النبع ؛ وعلى المقعد المجاور ، جاء زنوج آخرون يجلسون ، وحيّوه . ولم يكن جائعاً ، ولم يكن عطشاً ، وكان قد استحم خلف الرصيف ، وكان قد التقى شخصاً طويلا كثيف الشعر يبـــدو وكأنه سقط من القمر ، وقد عرض عليه ان يشرب كأساً ، وكل ذلك ، كان حسناً . واخرج القيثار من علبته ، وكانت به رغبة للغناء . لحظة ، لحظة واحدة ، وسعل وتنحنح ، وسوف يغني بعد لحظة ، وكان شمبرلين وهتلر وشميت ينتظرون الحرب في صمت ، فهي داخلة بعد لحظة ، وكانت القدم قد وَرِمَت ، وبعد لحظة سيخرجها من الحذاء ، وكان موريس جالساً على السرير يشد بكل قواه ، وبعد

لحظة سينتهي جاك من شرب حسائه ، ولن تسمع اوديت بعد هذا الهمس الصغير المزعج ، الأسهم النارية ، تحرُّك القنابل التي توشك ان تنطلق ، وبعد لحظة ستتسرب الشموس في دوامة نحو السقف ، ولعبتها ستنبعث منها بعد لحظة رائحة الأفستين ، ثم يُغرق صمــغٌ غريزٌ حار فخذيه المشلولين ، وسيرتفع الصوت غنياً رقيقاً عبر اوراق الدلب ؛ لحظة ، وكان ماتيو يأكل ، وكانت مارسيل تأكل ، وكان دانيال يأكل ، وكان بوريس يأكل ، وكان برونيه يأكل ، وكانت لهم نفوس آنية تملأها حتى الشفة شهوات متخثرة صغيرة ، لحظة وستدخل ، مصفحة بالفولاذ ، يخشاها بيار ، ويقبلها بوريس ، ويرغب فيها دانيال ، الحرب ، حرب الواقفين الكبرى ، حرب البيض المجنونة . لحظة : كانت قد انفجرت في غرفة ميلان ، وكانت تفر من جميع النوافذ ، وتصب في صخب عند اسرة جاغرشميت ، وتطوف بأسوار مراكش ، وتهب على البحر ، وتسحق بنايات شارع رويال ، وتملأ منخري موريس برائحتها ، رائحة الغوط والحليب المتخثر ، وفي السهول والاسطبلات وساحات المزارع لم تكن موجودة ، وكانوا يتراهنون عليها بين مرآتين ، في صالات فندق دريسن الملبّسة . وأمرّ العجــوز يده على جبينه وقال بصوت ابيض : « حسناً ، اذا شئتم ناقشنا بنود مذكرتكم بنداً بنداً . » فادرك الدكتور شميت ان عهد المترجمين قد عاد .

واقترب هتلر من الطاولة ، وصعد الصوت الجميل الأجش في الهواء النقي . وقد سمعته في الطابق الخامس من فندق ماسيليا ، امرأة كانت تستنشق الهواء الطلق على شرفتها ، فقالت : « غوميز ، تعال فاسمع الزنجي ، إنه رقيق الصوت ! » وفكر ميلان بساقه فانطفأ فرحه ، وشد بقوة على كتف أنّا وقال : « انهم لا يريدون مني شيئاً ، فانا لست صالحاً لشيء بعد . » وكان الزنجي يغني . كان شارل فيغيه قد مات ، وكانت يداه الصفراوان تتمددان على الغطــاء ، وكانت المرأتان تسهران عليه وهما تتكلمان عن

الأحداث ، وكانتا قد تعاطفتا على التو ، وأخذت جانين منشفة اسفنجية فمسحت يديها ، ثم اخذت تدلك له فخذيه ، وكان شمبرلين يقول : « فيما يتعلق بالبند الاول ، لي اعتراضان » وكان الزنجي يغني : بي مير ، بيست دو شون ، وهذا يعني : انت في نظري اجمل النساء .

وتوقفت امرأتان ، وكان يعرفهما ، انينا ودولوريس ، مومسان من شارع لاكيدون ، فقالت له انينا : « انت ، انك تغني ؟ » فلم يجب. كان يغني ؛ فابتسمت له المرأتان ، ونادت ساره بنفاد صبر : « غوميز ، بابلو ، آن لكما ان تأتيا ! فماذا تفعلان ؟ ان هناك زنجياً يغني ، وانه رقيق الصوت . »

السبت ٢٤ ايلول

في كريفيلي ، حين دقت الساعة السادسة ، دخل الأب كرولار الى مركز الدرك ودق باب المكتب . وكان يفكر : « لقد ايقظوني . » وكان يفكر في انه سيقول لهـم : « لماذا تراهم أيقظوني ؟ » كان هتلر نائماً ، وكان شمبرلن نائماً ، وكان أنفـه يُحدث موسيقى ناي صغيرة ، وكان دانيال قد جلس على سريره ، والعرق يسيل منه ، وكان يفكر : « لم يكن ذلك الا كابوساً . »

وقال ملازم مركز الدرك : — ادخل ! آه ، أهذا انت ايها الاب كرولار ؟ ...

وأنّت ايفيش قليلاً وتقلّبت على جنبها . وقال الاب كرولار :

— ان الصغير هو الذي ايقظني . (ونظر الى المـلازم في ضغينة وقال) لا بد ان الامر هام ...

قال الملازم : — آه ، ايهـا الاب كرولار ، يجب ان تشحّم سوقاءك !

ولم يكن الاب كرولار يحب الملازم ، فقال :

– انني لا اعرف السوقاء ، ولا البس السوقاء ، وانما البس القبقاب .

وردد الملازم : – يجب ان تشحّم سوقاءك ، يجب ان تشحّم سوقاءك : فاذا فعلت كنت رشيقاً كالميزان !

ولولا شاربه لكان يشبه فتاة . وكان يضع نظارات ، وكان مائلاً الى الامام ، مبسوط الذراعين ، وهو يستند الى الطاولة بأطراف أصابعه . وكان الأب كرولار ينظر اليه ويفكر : « انه هو الذي جعلهم يوقظونني » . وقال الملازم :

– لقد قال لك بأن تأتي بوعاء الصمغ ، اليس كذلك ؟

وكان الاب كرولار يمسك بوعاء الصمغ وراء ظهره ، فأراه اياه في صمت . وسأله الملازم :

– والفرشاة؟ يجب ان تعجّل ! فليس لديك الوقت للعودة الى بيتك .

فقال الاب كرولار في رصانة :

– ان الفرشاة في سترتي . لقد ايقظوني بصورة مفاجئة ، ولكن ما كان لي مع ذلك ان انسى الفرشاة .

ومدّ له الملازم مُدرج الورق :

– ضع نشرة منهـا على واجهة دار البلدية ، واثنتين في الساحة الكبيرة ، وواحدة على بيت كاتب العدل .

قال الاب كرولار : – بيت المعلم بيلوم ؟ ان لصق الاعلانات هناك ممنوع .

قال الملازم : لا يهمني !

وكان ثائر الاعصاب ، ومرحاً ، وقال :

– انني آخذ ذلك على عهدتي . آخذ كل شيء على عهدتي .

– أهي التعبئة العامة حقاً ؟

قال الملازم : حبذا ! فسوف تقع الاشتباكات ، ايها الاب

كرولار ، ستقع الاشتباكات !

فقال الاب كرولار : — اوه ! اما انت وانـا ، فأظن اننا سنبقى هنا .

وطُرق الباب فنهض الملازم ليفتحه بخفة . وكان رئيس البلدية ؛ وكان يلبس القبقاب ، وكان قد وضع وشاحه على سترته ، وقال :

— ماذا طلب مني الصغير ؟

قال الملازم : — ها هي المنشورات .

فوضع رئيس البلدية نظارتيه وفكّ المدرج ، وقرأ بصوت منخفض : « تعبئة عامة » ثم وضع المنشورات بسرعة على الطاولة ، كـما لو أنه كان يخشى ان تحرقه . وقال :

— كنت في الحقول ، ومررت لآخذ وشاحي .

ومد الاب كرولار يده ، فلفّ المنشورات ووضـع المدرج تحت سترته ، وقال لرئيس البلدية :

— كنت اقول لنفسي ايضاً : ليس طبيعيـاً ان يوقظني في تلك الساعة المبكرة .

قال رئيس البلدية : — لقد مررت لآخـذ وشاحي (ونظر الى الملازم) ليس هناك ذكرٌ للمصادرة ؟

فقال الملازم : — هناك منشور آخر .

قال رئيس البلدية : — تفه ! تفه ! ها نحن عدنا للحرب !

فقال الاب كرولار : — لقد خضت الحرب ، انا . اثنان وخمسون شهراً بلا جراح .

وثنى عينيه وقد أجذلته الذكرى . وقال رئيس البلدية :

— حسناً . لقد خضت الحرب الاولى ، فلن تخوض هذه . ثم انك لا تكترث انت بالمصادرات .

وضرب الملازم على الطاولة في سلطة وقال :

ـ يجب ان نعمل شيئاً . يجب ان نثبت وجودنا .

وكان رئيس البلدية يبدو شارداً ، وكان قد أدخل يديه في وشاحه وقوّس ظهره وأوضح :

ـ ان ضارب الطبل مريض .

فقال الاب كرولار : ـ انني احسن الضرب على الطبل . فبوسعي ان احلّ محلّه .

وابتسم : انه منذ عشرة اعوام يحلم بأن يكون ضارب طبل .

قال الملازم : ـ ضارب الطبـل ؟ انك ستضرب لنا السلام التوسكاني ! هذا ما سوف تعمله !

كان شمبرلن نائماً ، وكان ماتيو نائماً ، ووضع القبائلي السلّم على السيارة الكبيرة ، وحمل الصندوق على كتفه ، وأخذ يصعد من غير ان يمسك بالقضبان ، وكانت ايفيش نائمـة ، وأخرج دانيال ساقيه من السرير ، وكان جرس يقرع على مداه في رأسه ، وكان بيار ينظر الى أخمص قدميْ القبائلي ، المتوردتين السوداوين ، وكان يفكر : « انه صندوق مود » ولكن مود لم تكن هناك ، فهي ستذهب عما قليل مع دوسيت وفرانس وروبي في سيارة عجوز ثري كن واقعـاً في حب روبي ؛ وفي باريس ونانت وماكون ، كان رجـالٌ يلصقون على الجدران مناشير بيضاء ، وكان السلام التوسكاني يضرب في كريفيلي ، وكان هتلر نائماً ، وكان هتلر طفلاً صغيراً ، وكان في الرابعة من عمره ، وكانوا قد ألبسوه ثوبه الجديد ، ومر كلب اسود ، فأراد ان يقبض عليه بشبكته المعدّة لصيد الفراشات ؛ وكان السلام التوسكاني يضرب ، وأفاقت السيدة ريبوليه مذعورة وقالت :

ـ ان شيئاً ما يحترق .

كان هتلر نائماً ، وكان يقطـع بنطلون أبيه قدداً صغيرةً بمقص للأظافر ، ودخل ليني فون ريفنستال ، فلمّ قـدد الفانيلا وقال :

– سأطعمك اياها في السَّلَطة .

وكان السلام التوسكاني يضرب ، ويضرب ، ويضرب . وقال موبلان لزوجته :

– أراهن ان المنشرة هي التي احترقت .

وخرج الى الشارع ، فرأته السيدة ريبوليه من وراء مصراعها وهي بقميصها الوردي ، رأتــه يمرّ وينادي الساعي الذي كان يركض . وصاح موبلان :

– هيه ! يا أنسلم !

فصاح الساعي : – انها التعبئة .

فسألت السيدة ريبوليه زوجها الذي لحق بها :

– ماذا ؟ ماذا هناك ؟ أليس هناك ما يحترق ؟

ونظر موبلان الى المنشورين وقرأهما بصوت منخفض ، ثم استدار وعاد الى بيته . وكانت زوجته على عتبة الباب فقال لهــا : « قولي لبول ان يقرن العربة . » وسمع ضجة فالتفت ، فاذا هو « شابان » على عربته ، فقال له : « انك تركض ، فلماذا انت مستعجل الى هذا الحد ؟ » فنظر اليه شابان من غــير ان يجيب . ونظر موبلان خلف العربة : كانت ثمة بقرتان تسيران ببطء ، مربوطتين من الخلف بأرسان . فقال بصوت منخفض : « يا للحيوانين الجميلين ! » قال شابان بغضب : « بوسعك ان تقول ذلك ، بوسعك ان تقول انهما حيوانان جميلان » . وكان السلام التوسكاني يضرب ، وكان هتلر نائماً ، وكن فربنيو الشيخ يقول لابنه : « اذا أخذوا مني الحصانين واخذوك ، فكيف تراني سأشتغل ؟ » . وكانت نانيت تضرب الباب ، فقلت لها السيدة ريبوليه : « أهذه انت يا نانيت ؟ استفهمي لنا في الساحة لماذا يضربون السلام التوسكاني ؟ » فأجابت نانيت : « ولكن ألم تعرف السيدة بعــد ؟ انها التعبئة العامة . »

ككل صباح ، كان ماتيو يفكر « ككل صباح » . وكان بيار قد اندفع الى الزجاج. كان ينظر عبر النافذة الى العرب الجالسين ارضاً ، او الى صناديق ملونة كانت تنتظر سيارة « اوارزازات ». وكان ماتيو قد فتح عينيه ، عيني طفل وليد ما يزال أعمى ، وكان يفكر : « وما الجدوى ؟ » ككل صباح . صباح إرهاب ، سهمٌ ناريٌ يُطاق على الدار البيضاء ، على مارسيليا ، وكانت السيارة الكبيرة ترجّ تحت قدميه ، وكان المحرك يدور ، وكان السائق ، وهو شخص طويل يرتدي قبعة من القماش البيج ذات طرفٍ من الجلد ، يُنهي تدخين سيجارته في الخارج . وكان يفكر : ان مود تحتقرني . صباح ككل صباح ، آسنٌ فارغ ، حفلة يومية فخمة ذات نحاس وأبواق وشروق شمس علنيّ . لقد كان في الماضي أصباحٌ أخرى : بداءات ؛ كان المنبّه يدقّ ، وكان ماتيو ينهض فجأة ، قاسي العينين ، نضراً ، كأنما يستيقظ على نغمة بوق ،ولم يكن ثمة بعد بداءة ، لم يكن ثمة بعد ما يُعمل . ومع ذلك ، فقد كان لا بد من النهوض والمشاركة في الحفلة ، ورسم دروب وممرات في هذا الحرّ ، والقيام بجميع طقوس العبادة، ككاهن فقد ايمانه . وأخرج ساقيه من السرير ونهض فنزع منامته : « ما الجدوى ؟ » ثم ترك نفسه يسقط مرة ثانية على ظهره ، عارياً ، ويداه تحت رقبته ، وكان قد بدأ يميز السقف ، عبر غمامة بيضاء . هالك . هالك تماماً ؛ في الماضي ، كنت أحمل الايام على ظهري ، فأنقلها من ضفة الى ضفة اخرى ؛ اما اليوم ، فهي التي تحملني . وكانت السيارة الكبيرة ترجّ ، وكانت تخفق ، وكانت تهتز تحت الاقدام ، وكانت الارض الخشبية تحترق ، فيخيّل اليه انّ نعليه يتفلّعان ، وكان قلب بيار الجبان يرجّ ، وكان يخفق ، يخفق عند الوسائد الدافئة ، وكان الزجاج محرقاً ، ومع ذلك فقد كان يشعر انه مثلّج ، وكان يفكر : « انها تبتديء » وسوف تنتهي في حفرة بالقرب من ميدان او فردان ، وهي

الآن مبتذلة . وكانت قد قالت له : « انت اذن جبان » وهي تنظر اليه نظرة احتقار . وتمثّل الوجه الصغير الرصين المحموم ، ذا العينين المظلمتين ، والشفتين الرقيقتين ، فأحسّ بصدمة في صدره . وأقلعت السيارة الكبيرة . وكان الجو ما يزال رطباً جداً ، وخرجت لويزون كورناي ، اخت حارسة الحاجز ، وكانت قد جاءت من ليزبو لتساعد اختها المريضة في ادارة بيتهـا ، خرجت الى الطريق لتذهب فترفع حواجز الممر الى مستواها ، وقالت : « كم هو جو قارص ! » وكان مزاجها صافياً لأنها كانت مخطوبة . لقد مضى عامان وهي مخطوبة ، ولكن كلما فكرت بذلك صفا مزاجها . وأخذت تدير المفتاح الكبير ، وفجأة توقفت . كانت متأكدة من ان ثمـة احداً في الطريق ، خلف ظهرها ، ولم تكن قد فكرت بأن تتطلع ، وهي خارجة من البيت ، ولكنها كانت متأكدة من ذلك . والتفتت فانقطع نفَسها : كان ثمـة أكثر من مئـة عربة ومركبة وعجلة مصطفة تنتظر بسكون . وكان الفتيان جالسين بتصلب على المقاعد ، والاسواط في ايديهم ، والاستياء باد عليهم . وكان آخرون يمتطون الخيل ، وغيرهم كانوا قد جاءوا مشياً على الاقدام وهم يجرّون خلفهم بقرة مربوطة بحبل . وكان منظراً غريباً جداً ، حتى انها خافت . واسرعت تدير المفتاح وترتدّ الى جانب الطريق . وساط الفتيان خيلهم ، فأخذت العربات تسير أمامها ، وكانت السيارة الكبيرة تسير وسط اراضٍ بور حمر ، وكان العرب يتحركون وراء ظهورهم . وقال بيار : « يا للعرب الملاعين ، انني لا أكون مطمئناً حين أشعر بهم خلفي ، فانا أتساءل دائماً ماذا يدبّرون » وألقى بيار نظرة الى جوف السيارة : كانوا متراكمين في صمت ، بألوان خضر ورمادية ، مغمضي العيون . وكانت امرأة محجبة قـد استسلمت بين الاكياس والرزم ، وقـد انقلبت على قفاها ، وكان جفناها مسبلين تحت حجابها . وفكر : « مهما يكن ، فهـذا شيء

بائس . بعد خمس دقائق سيأخذون في الصباح . ان هؤلاء الاشخاص ليس لهم معـــدة » . وكانت لويزون تعرفهم لدى مرورهم ، كانوا صبيان كريفيلي ، جميع صبيان كريفيلي ، وكان بوسعها ان تسمّي كلاً منهم باسمه ، ولكنهم لم يكونوا يومذاك يظهرون بوجوههم المألوفة ه كان الفتى السمين الاحمر ابن شابان ، وكان قد سبق لها ان رقصت معه في السان مارتان . وصاحت به : « هيه ، مارسيل ! إنك لفخور جداً ! » فالتفت ونظر اليها نظرة مهيبة . وقالت : « هل انت ذاهب الى العرس ؟ » فقال : « انت على حق ، الى العرس » . واجتازت العربة الخطوط الحديدية وهي تهتز ، وكانت ثمـــة بقرتان تتبعانها ، حيوانان جميلان . ومرّت عربات أخرى ، وكانت تنظر اليهـــا وهي تظلل عينيها بيدها . ورأت موبلان وتورنوس وكوشوا ، ولم يكونوا متنبهين لها ، كانوا يمرون وهم جالسون باستقامة فوق مقاعدهم ، حاملين سياطهم كأنها صوالجة ، وكانوا يشبهون ملوكاً اشراراً . وانقبض قلبها فصاحت بهم : « أهي الحرب ؟ » ولكن لم يجبها احد . ومروا وهم في عجلاتهم المهتزة المرتجة ، وكانت الابقار تتبعهم في أبّهة مضحكة ، واختفت المركبات واحدة بعد الاخرى ، خلف المنعطف ، فبقيت لحظة ، ولا تزال يدها تظلل عينيها ، وهي تنظر في الشمس المشرقة . وكانت السيارة الكبيرة تجري كالريح ، وتدور وتنعطف وهي تهدر ، وفكرت في جان ماترا ، خطيبها ، الذي كان يؤدي خدمته العسكرية في انغوليم ، في فرقة من المهمّدين . وعادت المركبات الى الظهور ، ذباباً على الطريق الابيض ، ملتصقة بجانب الرابية . ونفذت السيارة الكبيرة بين الصخور السمر ، فدارت ودارت ، وكان العرب لدى كل منعطف يندافعون ويصيحون « هوش » بصوت مؤثر . ونهضت المرأة المحجبة فجأة ، فأطلق فمها الذي لم يكن يُرى تحت الموسلين الابيض لعنات مريعة ، وشهرت فوق رأسها ذراعين ضخمتين كأنهما فخذان ، وكانت يداها

الخفيفان السمينتان ترقصان في طرف ذراعيها ؛ وانتهى بها الأمر الى ان تنزع حجابها وتطل من الباب ، ثم تأخذ في القيؤ وهي تئن . وقال بيار في نفسه : « حسناً ، حسناً ، سوف يغوّطون علينا . » ولم تكن المركبات تتقدم وانما كانت تبدو مدبّقة على الطريق . ونظرت اليهــا لويزون طويلاً : كانت تتحرك ، كانت تتحرك مــع ذلك ، وكانت تبلغ قمة الرابية واحدة بعد اخرى ؛ ثم لم تعد ترى . وتركت لويزون يدها تسقط من جديد ، وطرفت عيناها المبهورتان ، ثم دخلت لتهتم بالصغار . وكان بيار يفكر في مود ، وكان ماتيو يفكر في اوديت ، وكان قد حلم بها ، وكان كلٌ منهما يمسك بقامــة الآخر ، وكانا يغنيان لحن « حكايات هوفمان » على ظهر مفينة « بروفنسال » . وكان الآن عارياً يرشح عرقاً فوق سريره ، وكانت اوديت تؤنس وحدته : « اذا كنت لم أمت من الضجر ، فهذا بفضلها » . وكانت رطوبة مبيّضة ما تزال ترتجف في عينيه ، وكان طرف من حنــان ما يزال يرتعش في قلبه . حنان ابيض ، حنان يقظة حزين صغير ، ذريعة لكي يبقى مضطجعاً على ظهره لحظات اخرى . بعد خمس دقائق سيسيل الماء البارد على رقبته وفي عينيه ، وزبد الصابون سيفرقع في أذنيه ، ومنظف الاسنان سيعجن لثّتيه ، ولن يكون له بعد أي حنان تجاه احد . ألوان ، أنوار ، روائح ، أصوات ، ثم كلمات ، كلمات ودية ، كلمات رصينة ، كلمات صادقة ، كلمات طريفة ، كلمات حتّى المساء . ماتيو ... بفت ! إن ماتيو كان مستقبلاً . ليس ثمة بعد من مستقبل . ليس ثمة بعد من ماتيو الا في الحلم ، بين منتصف الليل والساعة الخامسة صباحاً . وكان شابان يفكر : « حيوانان جميلان الى هذا الحد ! » الحرب : كان لا يكترث بها ، فلا بد من الانتظار لنرى . اما هذان الحيوانان ، فقد كان يُعنى بهما منــذ خمسة أعوام ، وقد خصاهما بنفسه . وكان ذلك يلوي قلبه . وساط حصانه ، ومال به نحو اليسار ؛ واجتازت مركبته

مركبة سيمونون ، وقال سيمونون : « ماذا تعمل ؟ » فقال شابان : « لقد مللت ، وبودي لو أصل ! » فقال سيمونون : « ولكنك ستتعب دابتيك » ، قال شابان : « طز فيهما الآن ! » وكان بوده ان يصدمهم جميعاً ، وكان قد نهض ، وهو يطقطق لسانه ويصيح : « هو ! هو ! » . وألمّ بمركبة بوبول ، وجاوز مركبة بولاي . وسأله بولاي : « هل تقوم بالسباق ؟ » فلم يجب شابان ، وصاح بولاي خلفه : « حذار الحيوانان ! انك تتعبهما ! » وفكر شابان : « أود لو ماتا » ، وطرق الباب ، وكان شابان قد أصبح مجلّياً , وكان الآخرون يتبعونه ويضربون افراسهم بدافع التسابق ؛ وكان الباب يطرق ، وكان ماتيو قد نهض ، وهو يفرك عينيه ، وكان الباب يطرق ، وتنحّت السيارة الكبيرة لتتفادى صدم عربي كان يركب دراجة ويحمل عليها مسلمة سمينة محجّبة ، كان الباب يطرق ، وانتفض شامبرلين وقال : « هولا ! ما هذا ؟ من يطرق الباب ؟ » فأجاب صوت : « انها الساعة السابعة ، يا صاحب الدولة » . وكان على مدخل الثكنة حاجز خشبي . وكان حارس منتصباً امام الحاجز . وشد شابان على الأعنّة وصاح : « هو ! هو ! باسم الرب ! » فقال الحارس : « حسناً ! حسناً ! من اين انت قادم ، هكذا ؟ » فقال شابان وهو يشير الى الحاجز : « هيا ، ارفع هذا » . فقال الجندي : « ليست لديّ أوامر . فمن اين انت قادم ؟ » «اقول لك : ان ارفع هذا» . وخرج نائب ضابط من مركز الحرس . وكانت جميع العربات قد توقفت ، فتأملها لحظة ثم صفر سائلاً : « ماذا أتيتم تفعلون هنا ؟ » فقال شابان : « اننا معبأون . يبدو انكم لا تريدوننا بعد في هذه الساعة ؟ » فسأله نائب الضابط : « هل معك الكراسة ؟ » فأخذ شابان يفتش في جيوبه . ونظر نائب الضابط الى جميع هؤلاء الفتيان الصامتين العابسين ، الجامدين على مقاعدهم ، الذين كانوا يظهرون

وكأنهم يقدمون السلاح ، فأحسّ بالاعتزاز من غير ان يدري السبب . وتقدّم خطوة وصاح : « والآخرون ؟ هل يحملون الكراسة ايضاً ؟ اخرجوا دفاتركم . » وكان شابان قد وجد دفتره العسكري ، فتناوله نائب الضابط وقلب صفحاته ثم قال : « ان معك الكراسة رقم ٣ ايها المحون . فأنت مستعجل اكثر مما ينبغي ، وهذه الكراسة للمرة القادمة » فقال شابان « قلت لك اني مجنّد . » قال نائب ضابط : « أتراك تعرف ذلك خيراً مني ؟ » فقال شابان غاضباً : « نعم . لقد قرأت ذلك في النشرة . » وكان الفتيان قد نفد صبرهم خلفه ، وكان بولاي يصرخ : « ألم ننته بعد ؟ هل ندخل ؟ » فقال نائب الضابط : « حسب المنشور . خذ ، هذا هو منشورك . وليس عليك الا ان تنظر اليه ، ان كنت تعرف القراءة . » ووضع شابان سوطه ، فقفز الى الارض واقترب من الجدار . وكان ثمة ثلاثة منشورات ، اثنان منها ملوّنان : « تجنّدوا ، تجنّدوا من جديد في جيش المستعمرات » ، وثالث ابيض : « دعوة فورية لعدة فئات من الاحتياطيين » . وقرأ على مهل ، بصوت منخفض ، وقال وهو يهزّ رأسه : « ليس هذا هو الذي وضعوه عندنا . » وكان موبلان وبولاي وفرينيو قد ترجّلوا من المركبات ، وكانوا ينظرون الى المناشير ، وقالوا : « ليس هذا هو منشورنا . » فسألهم نائب الضابط : « من اين انتم ؟ » فقال بولاي : « من كريفيلي . » قال نائب الضابط : « اذن لا اعرف ، ولكن افكر الآن ان في مركز كريفيلي للشرطة حماراً كبيراً ! مهما يكن ، اعطوني دفاتركم واتبعوني الى غرفة الملازم . » وفي ساحة كريفيلي الكبرى ، أمام الكنيسة ، كانت النساء محيطات بالسيدة ربوليه التي كانت تحسن كثيراً للبلدة ، وكان ثمة ماري وستيفاني وامرأة رئيس المكتب الحكومي للدفع وجان فرينيو . وكانت ماري تبكي على مهل ، وكانت السيدة ربوليه ترتدي قبعتها الكبيرة السوداء ، وتتكلم وهي

تحرّك مظلّتها : « يجب ألاّ تبكي يا ماري ، بل يجب ان تضبطي أعصابك . نعم ، نعم ، يجب ان تضبطي اعصابك . سيعيدونه لك ، زوجك ، سترين ، مع مداليات وامتيازات . ولعله لن يكون هو أشقى الجميع ، لو تعلمين ! لأن الجميع هذه المرة مجنّدون ، النساء كالرجال . »

وصوّبت مظلّتها الى الشرق فأحسّت انها تستردّ عشرين سنة من شبابها . وقالت : « سترين ، سترين ! لعلّ المدنيين هم الذين سيربحون الحرب . » ولكن ماري كانت قد اتخذت هيئة البلاهة النتنة ، وكان بكاؤها يهزّ كتفيها ، وكانت تنظر الى مبنى الاموات ، عبر دموعها، وهي تلزم سكوتاً مغيظاً . وقال الملازم : « بأمرك » وكان يشدّ السمّاعة على اذنه ويقول : « بأمرك ! » وكان الصوت الرخو الغاضب يسيل بلا انقطاع : « وتقول انهم ذهبوا ؟ آه ، يا صديقي العزيز ، لقد عملت عملاً ! ولست اخفيك ، ان هذا عمل جدير ان يطيح بك ! » وكان الاب كرولار يجتاز الساحة وهو يحمل دلو الصمغ وفراشيه ، وتحت ذراعه مُدرج أبيض . وصاحت به ماري : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » فلاحظت السيدة ربوليه بنفاد صبر ان عينيها كانتا تلتمعان بأمل بليد . وكان الاب كرولار يضحك منشرحاً ، فأشار الى المدرج الابيض، وقال : « لا شيء . لقد اخطأ الملازم بالمنشورات ! » وأعاد الملازم السمّاعة وجلس ، مرتخي الساقين . وكان الصوت ما يزال يصدي في اذنيه : « هذا عمل جدير ان يطيح بك ! » ونهض ثانية فاقترب من النافذة المفتوحة : كان المنشور يتفتّح على الجدار المقابل ، طرياً رطباً ما يزال ، ابيض كالثلج : « تعبئة عامة » واخذ الغضب بخناقه ؛ وكان يفكر : « لقد طلبت منه ان ينزع هذا اولاً ، ولكنه سيتقصّد ان ينزعه اخيراً » وتجاوز فجأة طرف النافذة ، وركض الى المنشور وأخذ في تمزيقه . وغمس الاب كرولار فرشاته في الصمغ :

وكانت السيدة ربوليه تنظر اليه يفعل ذلك وهي آسفة ، وكان الملازم يحك ، يحك الجدار ، وكان تحت أظافره كرات من العجين الابيض؛ وكان بلومار وكورمييه قد بقيا في الثكنة ؛ أما الآخرون فقد عادوا الى أفراسهم وهم يتبادلون النظر في غير ما اطمئنان ؛ كانت بهم رغبة لأن يضحكوا وان يغضبوا ، وكانوا يحسون انهم فارغون كما يحدث في اليوم التالي للتبضع . واقترب شابان من بقراته وربت عليها بيده ؛ وكانت أخطامها وصدورها ملأى باللعاب ، وفكر بحزن : « لو كنت عرفت ، لما اتعبتها الى هذا الحد . » وسأل بولاي من وراء ظهره : « ماذا نفعل ؟ » فقال شابان : « لا نستطيع ان نعود فوراً . يجب ان ندع الحيوانات تستريح . » وكان فرينيو ينظر الى الثكنة ، فيعيد له ذلك ذكريات ، وقد لكز شابان بمرفقه وقال وهو يضحك بالخفاء : « قل لي ! ما رأيك في ان نذهب ؟ » فسأله شابان : « الى اين تريد ان تذهب يا بني ؟ » فقال فرينيو : « الى الماخور ! » فالتف حوله فتيان كريفيلي وأخذوا يوجهون ضربات خفيفة الى كتفيه وهم يضحكون : « فرينيو الملعون ! ان له دائماً افكاراً جيدة ! » وسري عن شابان نفسه فقال : « انا اعرف المكان ، ايها الفتيان ؛ وليس لكم الا ان تعودوا الى العربة ، وسوف اقودكم ! »

الساعة ٨،٣٠ : كان متزلج يطوف حول المقفز ، يجره قارب آلي ، وكان ماتيو يسمع بين لحظة واخرى هدير المحرك ، ثم يبتعد القارب ، فيصبح المتزلج نقطة سوداء ، ولا يسمع شيء بعد . وكان البحر المنبسط ، القاسي ، الابيض يبدو حلبة تزلج مقفرة . وعما قليل سيزرق ويخفق ويصبح مائعاً وعميقاً ، وسيكون اذ ذاك بحر الناس جميعاً ، مليئاً بالصراخ ، منقطاً برؤوس صغيرة سوداء . واجتاز ماتيو السطيحة ، وحاذى المتنزه لحظة . وكانت المقاهي ما تزال مغلقة ومرت سيارتان . كان قد خرج على غير هدف محدد : ليشتري

الجريــدة ، وليشم رائحة الفوقس والاوكالبتوس التي كانت تنتشر في المرفأ ، ثم ليقتل الوقت . وكانت اوديت ما تزال نائمة ، وكان جاك يشتغل حتى الساعة العاشرة . وانعطف في شارع تجاري كان يصعد نحو المحطة ، فصادفته فتاتان انكليزيتان تضحكان ، وكان اربعة اشخاص قد تجمّعوا حول منشور . فاقترب ماتيو : ان في ذلك إضاعة لبعض الوقت . وكان رجل قصير ذو لحية يهزّ رأسه . وقرأ ماتيو :

« بأمر من وزير الدفاع الوطني والحرب ووزير الطيران ، يُدعى الضباط ونواب الضباط وأفراد فرق الاحتياط ، حاملو امر التجنيد او كراسته البيضـــاء ذات الرقم « ٢ » ، الى السير فوراً ودون ابطاء ومن غير ان ينتظروا اشعاراً فردياً ، للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجل على امر التجنيد او الكراسة في الظروف التي توضحها هــذه الوثيقة . السبت ٢٤ ايلول ١٩٣٨، الساعة التاسعة » .

« وزارة الدفاع الوطني والحرب والطيران »

وقال الرجل بلهجة تأنيب : « تت ، تت ، تت . » فابتسم لـه ماتيو وأعاد قراءة المنشور بانتباه : كان إحــدى تلك الوثائق المضجرة، ولكن المفيدة، التي كانت منذ حين من الزمن تملأ الصحف باسم « تصريح من وزارة الخارجية البريطانية » او « بلاغ من الكي دورسيه » وكان لا بدّ من قراءتهـــا على دفعتين لإنجازها . وقرأ ماتيو : « للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجل » وفكر : « ولكن معي الكراسة رقم ٢ ، أنا ! » وفجأة ، أخذ المنشور يصوّب اليــه نظره ، فكان الأمر كما لو أن اسمه كان مكتوباً بالطبشور على الجدار ، مع شتائم وانذارات . مجنّد : كان ذلك على الجدار ، وربما كان كذلك يمكن قراءته عـلى وجهه . واحمرّ وجهه ، وابتعــد بسرعة « الكراسة ٢ . تلك هي . انني بسبيل ان أصبح انساناً ذا أهمية » سوف تنظر اليه اوديت بانفعال مكبوت ، وسيتخذ جاك هيئة يوم الأحد ويقول له « يا عزيزي، ليس

عندي ما اقوله لك . » ولكن مـاتيو كان يُحس بأنه متواضع ، ولم تكن به رغبة لأن يصبح انساناً ذا أهمية . وانعطف الى اليسار في أول شارع برز له ، وحث الخطى : وكان على الرصيف الأيمن جمعٌ صغيرٌ معتم يضج امام منشور . في فرنسا كلها . اثنين اثنين . اربعة اربعة ، امام الوف من المناشير . ولا شك انه كان في كل جمعٍ شخص على الأقل يجسّ محفظته ودفتره العسكري عبر قماش سترته ، ويحسّ بأنه يصبح شخصـاً ذا أهمية . شارع « لابوست » . منشوران . جمعان . كانوا ما يزالون يتحدثون عنه . ودلف الى زقاق طويل مظلم . وكان واثقاً من أن المنـاشير الملوّنة قد وفرت هذا الزقاق على الأقل . كان وحيداً ، وكـان يستطيع ان يفكر في نفسه . وفكّر : « هكذا . » كان كذلك . فهذا النهار المستدير الملآن الذي كان يموت من الشيخوخة ، دون ريب ، هناك على الساحة ، في سلام ، كان يتمدّد فجأة كالسهم ، فينفذ الى الليل في ضجة ، ويتسلّل في الظلام ، في الدخان ، في الارياف المقفرة ، عبر خليطٍ من المحاور ، فينسرب داخلها ، ولن يقف الا في آخر الليل ، في باريس ، على رصيف محطة ليون . وكانت انوارٌ كاذبة تلفّ النهار : تلك هي الانوار المقبلة للمحطات الليلية . وكان ألمٌ غامض يلفّ أعماق عينيه : ذلك هو ألم السهد القـادم . ولم يكن ذلك ليضجره : فهذا او شيء آخر ... ولم يكن ذلك يسلّيه ايضاً : «مهما يكن من أمر ، فانه من نوع الحكاية والطابع البارز . » وفكر : « يجب ان أسأل عن موعد قطار مرسيليا . » وعاد الزقاق يقوده من جديد على طريق الكورنيش ، بغـير إحساس منه . وأفضى فجأة الى نورٍ كبير فجلس على سطيحة مطعم كان يفتح لساعته . « فنجان قهوة والدليل . » وأقبل سيد ذو شارب فضي يجلس بالقرب منه . وكانت تصحبه امرأة ناضجة . وفتح السيد « كشّاف نيس » ، والتفتت السيدة الى البحر . ونظر اليها ماتيو لحظة ، وغدا حزيناً . وفكر : « ينبغي

أن أنظّم أعمالي . استقدام ايفيش الى باريس ، الى منزلي ، واعطاؤها وكالةً لتستطيع ان تقبض راتبي » وعاد رأس السيد يظهر فوق جريدته وقال : « انها الحرب . » فتنهدت السيدة من غير ان تجيب ؛ ونظر ماتيو الى وجنتي السيد الملتمعتين المتساوين ، وسترته التويدية ، وقميصه ذي الخطوط البنفسجية ، وفكر : « انها الحرب . » X

انها الحرب . وانفصل شيء ما لم يكن يتصل به بعد الا بخيط ، ثم تكوّم وسقط الى خلف . وكانت تلك حياته ؛ كانت ميتة . ميتة . والتفت ونظر اليها . كان فيغييه ميتاً ، وكان يبسط ذراعيه على الغطاء الأبيض ، وكانت ذبابة تعيش على جبينه ، وكان مستقبله يمتدّ على مدى النظر ، غير محدود ، خارج التناول ، ثابتاً كنظره الثابت تحت جفنيه الميتين . مستقبله : السلام ، مستقبل العالم ، مستقبل ماتيو . كان مستقبل ماتيو هنا ، مكشوفاً ، ثابتاً وزجاجياً ، خارج التناول . كان ماتيو جالساً الى طاولة في مقهى ، وكان يشرب ، وكان وراء مستقبله وكان ينظر اليه ويفكر : « السلام » وأرت السيدة فيرشو وجه فيغييه للممرضة ، وكانت مصابة بتشنّج العنق ، وكانت عيناها تؤلمانها ، وقالت: « كان رجلاً شجاعاً » ثم بحثت عن كلمة ، كلمة أفخم تصفه بها : كانت اقرب اقربائه ، وكان عليها ان تقرر : وجاءت كلمة «هادىء» على لسانها ، ولكنها لم تكن حاسمة بما فيه الكفاية . وقالت : « كان رجلاً سلمياً . » ثم صمتت . وفكر ماتيو : « لقد كان لي مستقبل سلميّ . » مستقبل سلميّ : لقد احبّ ، وكره ، وتألم ، وكان المستقبل هنا ، حوله ، فوق رأسه ، في كل مكان ، كأنه محيط ، وكانت كل سورة من سوراته غضبه ، وكل مصيبة من مصائبه ،وكل ضحكة من ضحكاته تتغذى من هذا المستقبل الحاضر الذي لا يُرى . إن البسمة ، مجرد البسمة ، كانت رهناً على سلام الغد ، على سلام السنة القادمة ، على سلام العصر ؛ وإلاّ لما جرؤت قط على الابتسام .

كانت سنوات وسنوات من سلام المستقبل قد حطّت سلفاً على الأشياء فأنضجتها وذهّبتها ؛ فأن يأخذ المرء ساعته ، او مقبض باب ، او يد امرأة ، فذلك يعني انه يأخذ السلام بين يديه . وفترة ما بعد الحرب كانت بداءة ، بداءة السلم . وكان الناس يعيشونها على غير ما استعجال منهم ، كما يعيشون صباحاً . وكان « الجاز » بداءة ، والسينما التي احببتها كثيراً ، كانت بداءة . والسيريالية . والشيوعية. وكنت متردداً، أتخير طويلاً ، فقد كانت لي سعة من الوقت . الوقت ، السلام : كانا امراً واحداً . اما الآن فان هذا المستقبل هنا ، ميت عند قدمي . وكان مستقبلاً زائفاً . خدعة . وكان ينظر الى هذه الاعوام العشرين التي عاشها بطيشة ، مشمسة ، سهلاً بحرياً ، وكان يراها الآن كما كانت : عدداً محدوداً من الأيام المضغوطة بين جدارين عاليين بلا أمل، فترةً مفهرسة ، ذات مقدمة وخاتمة ، ستُذكر في كتب التاريخ تحت عنوان « فترة ما بين الحربين » . عشرون عاماً : ١٩١٨ - ١٩٣٨ . عشرون عاماً فقط ! بالأمس ، كان ذلك يبدو أقصر وأطول في وقت واحد : ومهما يكن ، فما كان لامريء ان يفكر بالعدّ ، ما دام ذلك لم يكن قد انتهى . اما الآن ، فقد انتهى . كان مستقبلاً زائفاً . كل ما عاشه الناس منذ عشرين عاماً ، عاشوه زائفاً . لقد كنّا مجدّين رصينين ، وقد حاولنا ان نفهم ، وها نحن ذا : كان لتلك الايام الجميلة مستقبل خفيّ أسود ، لقد كانت تخدعنا ، وكانت حربُ اليوم، « الحرب الجديدة الكبرى » تسرقها من تحتنا . كنا مخدوعين من غير ان نعرف ، كالأزواج المخدوعين . وها هي الحرب هنا الآن ، ان حياتي ميتة ؛ تلك كانت حياتي . يجب ان نبدأ كل شيء من جديد . وبحث عن مستقبل ، اي مستقبل ، ذلك الذي يولد من جديد اولاً ، في تلك الامسية التي قضاها في « بيروز » ، جالساً على السطيحة ، يأكل مثلجات بالمشمش وينظر بعيداً الى تلة « اسيز » الهادئة ، عبر

الغبار . إذن ، كان ينبغي ان يكتشف الحرب في احمرار الشمس الغاربة، لو أني استطعت ان أتبين في الشعاعات الحمر التي كانت تذهّب الطاولة والافريز ، نذير عاصفـــة ودم ، لكانت هذه الشعاعات ملكي الآن ، وكان بامكاني على الأقل ان انقذ هذا . ولكني كنت بلا حذر ، وكان المرطّب يذوب على لساني ، وكنت افكر « ذهبٌ قديم ، حب، مجدٌ صوفي » ، وقد فقدت كل شيء . كان الخادم يمرّ بين الطاولات ، فناداه ماتيو ، ودفع ثم نهض من غير ان يعرف تماماً ما كان يفعله . وخلّف حياته وراءه، لقد تبدّلت . واجتاز السطيحة ، وذهب يرتفق الدرابزون، مواجهاً البحر .

وكان يُحسّ انه كئيب خفيف : كان عارياً ؛ لقد سرقوا منه كل شيء . لم يبق لي شيء بعد ، حتى ولا ماضيّ . ولكنه كان ماضياً زائفاً ، وانا لست آسفاً عليه. وفكر : لقـــد حرّروني من حياتي : وكانت حياة رديئة فاشلة ، ملرسيل ، ايفيش ، دانيال ، حياة قذرة ، ولكن الامر لديّ الآن سواء ، ما دامت قد ماتت . فمنذ هذا الصباح، منذ ألصقوا هذه المناشير البيضاء على الجدران ، أصبحت جميع الحيوات فاشلة ، جميع الحيوات ميتة . فلو فعلت ما كنت أريد ، لو استطعت مرة ، مرة واحدة ، ان اكون حرّاً ، لكان هذا مع ذلك ، خديعة قذرة، لأني كنت أكون حرّاً من اجل السلام ، هذا السلام الخادع ،وكنت اكون الآن هنا ، مع ذلك ، مواجهاً البحر ، مستنداً الى هذا الدرابزون وخلف ظهري جميع المناشير البيضاء ؛ جميع هذه المناشير التي تتحدث عني ، على جميع جدران فرنسا ، والتي تقول ان حياتي قد ماتت ، وانه لم يكن ثمة سلامٌ قط : فما كانت بي حاجةٌ لان أجهد هذا الجهد كله ، ما كانت بي حاجة لان اشعر بهذا الندم كلّه . البحر ،الشاطيء، الخيمات ، الدرابزون : باردة ، ليس فيها دم . كانت قد فقدت مستقبلها القديم ، ولم تكن قد اعطيت بعـــد مستقبلاً جديداً ، كانت تطفو في

الحاضر . كان ماتوران يطفو حياً بعد العاصفة ، عارياً فوق شاطيء ، وسط الاسمال الممتلئة بالماء ، وسط الصناديق المبقورة ، والأشياء التي ليس لها استعمال معين والتي لفظها البحر . وخرج شاب أسمر من خيمة، وكان يبدو هادئاً فارغاً ، فنظر الى البحر متردداً : حي بعد العاصفة، اننا جميعاً احياء بعد العاصفة،وكان الضباط الألمان يبتسمون ويسلّمون ، وكان المحرّك يدور ، وكانت المروحة تدور ، وحيّا شمبرلن وابتسم،ثم استدار ووضع قدمه على السلم .

المنفى في بابل ، اللعنة على اسرائيل وحائط المبكي ، لم يكن قد تغيّر شيء على الشعب اليهودي منذ كان ابناؤه يمرّون مقيّدين بين ابراج آشور الحمر ، تحت انظار الفاتحين القساة ذوي اللحى المجعّدة ؛ وكان شالوم ينطنط وسط هؤلاء الرجال ذوي الشعر الاسود والحلق القاسي . وكان يفكر بأنه لم يتغيّر شيء . كان شالوم يفكر بجورج ليفي . كان يفكر : اننا لا نملك بعد حس التضامن فيما بين اليهود ، تلك هي اللعنة الالهية الحقيقية ، وكان يشعر انه سريع التأثر من غير ان يكون ذا مزاج رديء جداً ، لأنه رأى على الجدران هذه المناشير البيضاء . وكان قد طلب عوناً من جورج ليفي ، ولكن جورج ليفي كان رجلاً صلباً ، يهودياً ألزاسياً : فهو قد رفض ، لم يرفض تماماً ، وانما هو همدر ولوى ذراعيه ، وتحدث عن امه العجوز ، وعن الازمة ؛ ولكن الناس جميعاً كانوا يعرفون انه يحتقر امه ، وانه لم يكن ثمة ازمة في مبيع الفراء . وقد أخذ شالوم هو ايضاً يهمدر ، ورفع ذراعيه المرتعشتين الى السماء ، وكان قد تحدث عن الهجرة الجديدة وعن اليهود المساكين المهاجرين الذين تألموا عن جميع الآخرين، تألموا في اجسامهم ، وكان ليفي رجلاً صلباً ، غنياً لئيماً ، فاذا هو يهمدر اقوى من ذي قبل ، ويدفع شالوم الى الباب ، بيده الضخمة ، وهو يزفر في أنفه ؛ وكان شالوم يهمدر وهو يتقهقر ، وذراعاه في الهواء ، وكانت به

رغبةً لأن يبتسم،لأنه كان يفكر في المزاح الذي كان العمال يتبادلونه ولا شك ، خلف الباب . وعند زاوية شارع « كاتر سبتمبر » كانت تقوم ملحمة برّاقة وغنيّة ؛ فتوقف شالوم مسحوراً ، وهو ينظر الى الأمصرة المجمّدة ، والى المعجّنات الجافـة والى سبحات المقانق ذات اللون النحاسي البرّاق والى الامعاء المنتفخة المجعّدة بشروجها الصغيرة الموردة ، ويفكر في ملاحم فيينا . وكان يتحاشى مـا وسعه ذلك ان يأكل لحم الخنزير ، ولكن المهاجرين المساكين مضطرون الى ان يغتذوا بما يجدون . وحين خرج من الملحمة كان يحمل باصبعه خيطاً وردياً مربوطاً بعلبة صغيرة يخيّل الى الناظر انها ، لشدة بياضهـا ودقتها ، علبة حلويات.وكان مستاء . كان يفكر : « ان جميع الفرنسيين اغنياء لؤماء » أغنى شعب في اوروبا كلها . ودلف شالوم الى شارع « كاتر سبتمبر » وهو يستنزل لعنة السماء على الاغنياء اللؤماء ، فرأى بطرف عينه ، كما لو ان السماء استجابت لدعوته ، فريقاً من الفرنسيين الجامدين البكم امام منشور ابيض . فحاذاهم وهو يخفض نظره ويقرص شفتيه ، لأنه لم يكن مستحباً في هذه اللحظة ان يُفاجأ يهودي مسكين وهو يبتسم في شوارع باريس . بيرنانشاتز ، جوهريّ : كان هنا حانوته . وتردّد لحظة ، وقبل ان يمرّ بالباب الكبير ، أدخل علبته في محفظته . وكانت المحركات تدور ، وتدور ، وتهدر ، وكانت الارض الخشبية تهتزّ ، وكانت رائحة اثير وبنزين تتصاعـد ، وكان الاوتوكار يغرق في اللهب ، « اوه ! انك اذن جبار يا بيار ! » وكانت الطائرة تسبح في الشمس ، وكان دانيال يربّت على المنشور بطرف عصاه ويقول : « انني هادىء جداً ، ولسنا من البلاهـة بحيث نذهب للقتال بـلا طائرات . » وكانت الطائرة تمرّ فوق الاشجار ، فوقها تماماً ، ورفع الدكتور شميت رأسه ، وكان المحرك يهدر ، فرأى الطائرة بين الغصون، لهب ميكة في السماء ، وفكر : « رحلة ميمونة ، رحلة ميمونة ! »

وابتسم ؛ وكان العرب مركومين في قعر السيارة، مهزومين، مستسلمين ، مزرقين ، وخرج من الكوخ زنجي صغير ، فلوّح بيده ونظر طويلاً الى السيارة الكبيرة الراحلة ، لقد رأيت اليهودي القصير ، فقد اشترى مني اوقية مقانق ، لا غير ، وكنت اظن انهم لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير ! وعاد الزنجي الصغير والمترجم فدخلا بخطى بطيئة ، وما يزال رأساهما ممتلئين بصخب المحركات . وكان ثمة طاولة حديدية مستديرة ، مطلية باللون الاخضر ، وفي وسطها ثقب ليستقرّ فيه ساعد المظلّة ، وكانت مبقّعة هنا وهناك بلون اسمر ، كالإجاصة ، وكانت الجريدة على الطاولة « لوبوتي نيسوا » ، ولم تكن مفتوحة . وسعل ماتيو ، وكانت جالسة بالقرب من الطاولة ، وكانت قد تناولت فطور الصباح في الحديقة ، كيف تراني سأخبرها الخبر ؟ لا مجال للمشاكل على الاطلاق ، فليتها تستطيع ان تسكت ، كلا ، ان السكوت هو ايضاً اكثر مما ينبغي ، ليتها تستطيع ان تنهض وتقول : « إذن ، سأعدّ لكم سندويشات للسفر . » بكل بساطة . كانت ترتدي مغطف النوم ، وكانت تقرأ بريدها . وقالت له : « ان جاك لم يهبط . لقد عمل الى ساعة متأخرة هذه الليلة . » كلما كانا يلتقيان من جديد ، كانت كلماتها الاولى دائماً عن جاك ، وبعد ذلك يصبح غير وارد اطلاقاً . وابتسم ماتيو وسعل . وقالت : « إجلس ، ان هناك رسالتين لك . » وتناول الرسالتين ، وسأل :

— هل قرأت الجريدة ؟

— لم اقرأها بعد . لقد حملتها ماريت مع البريد ، ولم اقرر بعد ان افتحها . انني لم أكن مغرمة قط بقراءة الجرائد ، أما الآن فانني أشمئز منها .

وكان ماتيو يبتسم ويهزّ برأسه موافقاً، ولكن أسنانه ظلّت مضغوطة . وكان قد حلّ بينهما ما حل في المرة السابقة . كان حسبهما ان يريا

إعلاناً على جدار ، ليحلّ بينها ما حلّ في المرة السابقة : لقد عادت فاصبحت امرأة جاك،ولم يكن يجد بعد ما يقوله لها . وفكر : « فخذ خنزير نيء ، هذا ما احبّه للسفر . »

وقالت اوديت بحيوية :

— اقرأ ، اقرأ رسائلك ، ولا تهتمّ بي . والحق ان عليّ ان اصعد لأرتدي ثيابي ؛

وتناول ماتيو الرسالة الاولى التي كانت تحمل طابع بياريتز ، وكان ذلك في الواقع كسباً للحظة قصيرة . حتى اذا نهضت قال لها : « بالمناسبة ، انني ذاهب .. » لا ، ان ذلك سيبدو عارياً اكثر مما ينبغي . « انني ذاهب . » هذا أفضل : « انني ذاهب . » وعرف خطّ بوريس وفكّر في أسف : « مضى أكثر من شهر من غير ان اكتب له . » وكان المغلّف يحتوي بطاقة رسالة . وكان بوريس قد كتب عنوانه الخاص ووضع طابعاً على نصف البطاقة الأيسر . أما على اليمين ، فقد كتب عدة اسطر :

« عزيزي بوريس .

انـني في حالة { جيدة [1] / سيئة }

وهذا هو سبب صمتي : غيظ مشروع ، غير مشروع ، ارادة سيئة ، انقلاب مفاجيء ، جنون ، مرض ، كسل ، مجرّد خجل[2] ؛

سأكتب لك رسالة طويلة بعد .... ايام .

وتفضّل بقبول اعتذاراتي العميقة والتعبير عن صداقتي المستغفرة ؛

التوقيع :

قالت اوديت : — اراك تضحك وحدك ؛

---

١ — إحذف الكلمة التي لا لزوم لها

٢ انظر الهامش السابق ·

قال ماتيو : — انه بوريس : هو في بياريتز مع لولا.
وبسط لها الرسالة فأخذت هي ايضاً تضحك ، وقالت :
— إن ذلك الشخص لطيف . هل هو ... هل هو في سنّ ... ؟
قال ماتيــو : — إنه في التاسعة عشرة . ذلك متوقف على مدة الحرب .
ونظرت اليه اوديت في رقة ، وقالت له :
— إن تلامذتك يأكلون حساءهم على رأسك .
وكان التحدث اليها يصعب شيئاً فشيئاً . وفضّ ماتيو الرسالة الاخرى وكانت من غوميز ، زوج ساره . ولم يكن ماتيو قد رآه مرة اخرى منذ ذهــابه الى اسبانيا . كان قد أصبح الآن كولـونيلاً في الجيش النظامي .
« عزيزي ماتيو .
« جئت في مهمة الى مارسيليا حيث لقيتني ساره والطفل . وانا مسافر ثانيــة يوم الثلاثاء ، ولكني اود ان اراك . انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم الاحد واحجز لي غرفــة في اي مكان ، وسأتدبر امري لاقوم بوثبة الى « جوان ليبان » . إن لدينا اشياء كثيرة نريد ان نتبادل الكلام فيها . مع ودّي .

غوميز »
وضع ماتيو الرسالة في جيبه ، وكان يفكّر في تململ « غداً السبت أكون قد ذهبت . » وكانت به رغبة لان يرى غوميز من جديد ؛ إنه في هذه الفترة الصديق الوحيد الذي يرغب في رؤيته : إن هذا كان يعرف قليلاً ما عساها تكون الحرب . « ربما استطعت ان ألقاه مرة اخرى في مارسيليا ، بين قطارين .. » وسحب الرسالة من جيبه وقد غدت مدعوكة : إن غوميز لم يكن قد ترك فيها عنوانه . وهزّ ماتيو كتفيه في انزعاج ، وألقى بالرسالة على الطاولة ؛ كان غوميز قــد ظلّ

شبيهاً لنفسه ، بالرغم من انه أصبح كولونيلا : متغطرساً وعـاجزاً .
وكانت اوديت قد قررت ان تفتح الجريدة ، فأمسكت بها في الهواء ،
في طرف ذراعيها الجميلتين المتباعدتين ، وراحت تجيل فيها نظرها بعناية،
ثم قالت :

— اوه !

والتفتت الى ماتيو وسألته بلهجة خفيفة :

— ولكن انت ، لا تملك الكراسة ٢ ؟

فأحسّ ماتيو بأن وجهه يحمرّ ، وطرف بعينيه وقال مضطرباً :

— بلى .

وكانت اوديت تنظر اليه في قسوة ، كما لو أنه كان مذنباً . وأضاف
بسرعة :

— ولكني لن اذهب اليوم ، فأنا باقٍ ثمانياً واربعين ساعة بعد :
إن هناك صديقاً قادماً لرؤيتي .

وأحسّ بالانفراج لهذا القرار المفاجيء : إنّ ذلك كان يؤجّل الامر
الى اليوم التالي تقريباً : « إن بين « جوان ليبان » و « نانسي » طريقاً
قصيرة ، فهم لن يحدثوا لي المشاكل بسبب تأخري بضع ساعات : »
ولكن نظر اوديت لم يكن ليبرقّ ،وقد كان هو يتخبط تحت هذا النظر،
وكان يردّد : « سأبقى ثمانياً واربعين ساعة بعد ، سأبقى ثمانياً واربعين
ساعة . » بينما كانت « ايلا بيرنانشاتز » تعقد ذراعيها الهزيلتين السمراوين
حول عنق أبيها . وقالت ايلا بيرنانشاتز :

— كم انت حبّوب يا بابا الصغير !

ونهضت اوديت فجأة وقالت :

— انني اذن أتركك . يجب علي اي حال ان ارتدي ثيابي ، وأعتقد
ان جاك لن يلبث طويلاً حتى يهبط فيجتمع اليك .

ومضت وهي تشد معطف النوم على خاصرتيهـا الدقيقتين ، وفكر

ماتيو : « لقد كانت متحفظـــة ، أجل ، كانت متحفظة » وأحسّ شعوراً من العرفان يداخله . يا لها من فتاة جميلة ، يا لهـا من طائشة صغيرة جميلة ، ودفعها وهو يوسّع عينيه ، وكان « وايس » واقفاً بالقرب من الباب ، وكانت تبدو عليه بهجة يوم الاحد . وقال السيد بيرنانشاتز وهو يمسح خدّه :

– انك تلوثينني ، وتتركين على وجهي آثار الاحمر . يا لك من وجه مخلوط !

وأخذت تضحك :

– انت تخاف مما قد تفكر به الضاربات على الآلة الكاتبة عندك ! إذن خذ ! خذ ! خذ !

وقبّلته في أنفه ، ثم أحسّ شفتيها الحارتين على جمجمته . فقبض عليها من كتفيها وأبعدها على مدى ذراعيه الطويلتين . وكانت تضحك وتتخبّط ، وكان يفكر : يا للفتاة الجميلة ، الفتاة الصغيرة الجميلة ، وكانت الام سمينة رخوة ذات عينين واسعتين ومستسلمتين كانتـا تشعرانه بالانزعاج ، أما « إيلا » فكانت تنتسب اليه ، وكانت على الاخص لا تنتسب لاحد ، فهي قد صنعت نفسها ، وفي باريس ، إنني اقول لهم دائماً : العِرْق ، ما هو العرق ؟ هل تظنون « إيلا » يهودية اذا التقيتم بها في الطريق ؟ انها دقيقة كالباريسية ، ذات بشرة حارّة كفتيات الجنوب ، ووجه صغير متعقّل ومتحمّس ، وجه متوازن ، مريح ، بلا عاهة ، ولا عرق ، ولا مصير ، وجه « فرنسي » حقيقي » . وتركها وتناول علبة الجواهر من على المكتب فمدّها لها وقال : «خذي» وفيما كانت تنظر الى الجواهر ، أضاف :

– في العام القادم ستصبح أضخم مرتين ، ولكنها ستكون الاخيرة : فان العقد سيكون قد انتهى .

ولرادت مرة اخرى ان تعانقه ، ولكنه قال لها : « هيا ! عيد

سعيد ، عيد سعيد ! أهربي بسرعة ، فسوف تتأخرين عن ساعة الدرس . »

ومضت وهي ترمي ببسمة لـ « وايس » : صبيّة أغلقت الباب فاجتازت مكتب السكرتيرات ، وذهبت ، بينما فكّر شالوم ، وهو جالس على أطراف فخذيه ، وقبعته على ركبتيه : يا للفتاة اليهودية الجميلة ! كان لها رأس قرد صغير ، يتجمّع كلّه الى الامام، ويمكن إمساكه في جوف يد ، وعينان كبيرتان حسيرتان ، جميلتان جداً ، ولا بدّ انها ابنة بيرنانشاتز . وقام شالوم وألقى تحية صغيرة لم يبد عليها انها لاحظتها . وعاد فجلس وفكر : يبدو عليها انها اذكى مما ينبغي ، اننا هكذا ، نحن الآخرين ، إن تعابيرنا مطبوعة بالحديد الأحمر على سحنتنا ؛ فكأننا نعانيها كعذاب الاستشهاد. وكان السيد بيرنانشاتز يفكر بالجواهر ويقول لنفسه : « ليس هذا تشميراً سيئاً لها . » كانت تساوي مئة ورقة ، وفكر بأن « ايلا » كانت قد قبلتها على غير حماس بالغ ، او لامبالاة : كانت تعرف ثمن الاشياء ، ولكنها كانت تجد من الطبيعي ان تملك المال ، وان تتلقى هدايا جميلة ، وان تكون سعيدة . يا إلهي ، اذا لم أفعل انا غير هذا ، مع المرأة التي عندي ، وخلفي جميع عجائز كاركوفيا ، اذا لم انجح الا في انجاب هذه الصبية الصغيرة، ابنة يهود بولونيين ، لا ترهق نفسها اكثر مما ينبغي ، ولا تتسلّى بأن تعذّب نفسها ، صبية وتجد من الطبيعي ان تكون سعيدة، فأحسب اني لم أضع وقتي هدراً . والتفت الى وايس وسأله :

ـ أتدري اين هي ذاهبة ؟ انني أعطيك الفاً . أهي ذاهبة الى محاضرة في السوربون ؟ ان ذلك عجيبة من العجائب !

فابتسم وايس بغموض من غير ان يتخلى عن هيئته المستعارة ، وقال:

ـ لقد جئت اودّعك يا معلم .

فتأمله السيد بيرنانشاتز من فوق نظارتيه :

– هل انت ذاهب ؟

فهزّ وايس رأسه بالايجاب ، ونظـــر اليه السيد بيرنانشاتز بعينين واسعتين :

– كنت على يقين من ذلك ! انت من البلاهة بما فيه الكفاية لتكون حاصلاً على الكراسة ٢ ، أليس كذلك ؟

فقال وايس مبتسماً : – هذا هو الواقع ، انا من البلاهة بما فيه الكفاية لأكون كذلك .

قال السيد بيرنانشاتز وهو يشبك ذراعيه : – انك اذن تضعني في وضع حرج . فما الذي سأفعله بدونك ؟

وردّد بشرود : « مـا الذي سأفعله بدونك ؟ مـــا الذي سأفعله بدونك ؟ » وكان يحاول ان يتذكر كم كان عدد أطفال وايس . وكان وايس يلحظ اليه بهيئة قلقة ، فقال :

– ستجد من يحلّ محلي طبعاً .

– آه لا ! سيكون عليّ ان أدفع لك من غير ان تعمل شيئـــاً ؛ وانت لا تريدني ان آخذ على عاتقي شخصاً آخر فوق هذا . إن مكانك ينتظرك ، يا بنيّ .

وكان الانفعال بادياً على وايس ، وكان يفرك أنفـــه وهو يحول عينيه ، وكان قبيحاً قبحاً فظيعاً . وقال :

– يا معلّم ...

فقاطعه السيد بيرنانشاتز : ان عبارات الشكر أمرٌ فاحش ، ثم انه لم يكن ليكنّ لوايس كثيراً من الودّ ، لأنه هو انما كان رجلاً يحمل مصيره على وجهه ، بعينيه اللمّاحتين ، وهذه الشفة السفلى الضخمة التي كانت ترتعش طيبةً ومرارة . وقال :

– حسناً ، حسناً . انك لن تترك المؤسسة ، بـــل ستمثلها امام السادة ضباط الأرض . انت ملازم ، اليس كذلك ؟

فقال وايس : — بل انا نقيب :

ففكر بيرنانشاتز : « نقيب هالك ! » وكانت هيئة السعادة بادية على وايس ، وكانت اذناه الواسعتان قرمزيتين . نقيب هالك — وتلك هي الحرب ، النظام العسكري المتسلسل . وقال :

— اية حماقة ملعونة ، اليس كذلك ؟

فقال وايس : — هيم !

— أليست هي حماقة ؟

قال وايس : — بكل تأكيد . ولكني كنت أعني انها بالنسبة الينا، ليست حماقة الى هذا الحد .

فسأله السيد بيرنانشاتز في دهشة :

— بالنسبة الينا ؟ بالنسبة الينا ؟ من تقصد ؟

فخفض وايس عينيه وقال :

— بالنسبة الينا ، نحن اليهود . فبعد الذي صنعوه ليهود المانيا ، نجد مبرّراً لنقاتل .

ومشى السيد بيرنانشاتز بضع خطى ، وكان منزعجاً ، فسأله :

— ماذا تعني : نحن اليهود ؟ انا لا اعرف ذلك . انني انا فرنسي؛ فهل تحسّ نفسك يهودياً ؟

قال وايس : — ان قريبي من « غراتز » موجود في بيتي منذ يوم الثلاثاء . وقد أراني ذراعيه . لقد حرقوه بسجائرهم من المرفق حتى الإبط .

فتوقف السيد بيرنانشاتز مبهوتاً ، وأمسك بمسند كرسيٍ بين يديه القويتين بينما ألهبه غضبٌ غامضٌ حتى أعماق عينيه ، وقال :

— ان الذين فعلوا ذلك ، الذين فعلوا ذلك ...

وكان وايس يبتسم ، فهدأ السيد بيرنانشاتز :

— ليس ذلك لأن قريبك يهودي يا وايس . وانما لأنه انسان ؛

اني لا اطيق ان يُضطهد انسان . ولكن ، ما هو اليهودي ؟ انه انسان يعتبره الناس الآخرون يهودياً . خذ « ايلا » مثلاً . هل تظنها يهودية ، اذا لم تكن تعرفها ؟

ولم يكن وايس يبدو مقتنعاً ، فتقدم منه السيد بيرنانشاتز ولمس صدره بسبابته الممدودة :

– اسمع يا صغيري وايس ، هذا ما استطيع ان اقوله لك : لقد تركت بولونيا عام ١٩١٠ ، وقدمت الى فرنسا ، فتقبلوني فيها قبولاً حسناً ، ووجدتني فيها سعيداً ، فقلت لنفسي : حسناً ، ان فرنسا هي بلدي الآن . وفي عام ١٩١٤ جاءت الحرب . حسناً : قلت اني أخوض الحرب لأن هذا بلدي . وانا اعرف ما هي الحرب ، فقد كنت في طريق « شومان ديدام » . اما الآن فأقول لك : انني فرنسي ، لا يهودي فرنسي ، بل فرنسي . يهود برلين وفيينا ، يهود معسكرات الاعتقال ، ارثي لهم ، ويملأني غضباً ان افكر بأن هناك اناساً يُعذّبون . ولكن أصغ إليّ جيداً : ان كل ما استطيع ان افعله لأحول دون ان يُقتل فرنسي ، فرنسيّ واحد ، من اجلهم ، سوف أفعله ، انني أحسّني أقرب الى اول شخص ألقاه الساعة في الشارع مني الى اخوالي في « لنز » او احفادي في كاركوفيا . ان قصص اليهود الألمان امرٌ لا يعنينا .

وكانت هيئة وايس تبدو غامضة وعنيدة ، فقال في بسمة مزرية :

– حتى ولو كان هذا صحيحاً يا معلم ، فانه يحسن بك ألاّ تقوله . ينبغي على الذين يذهبون للقتال ان يجدوا مبررات لذهابهم .

فأحسّ السيد بيرنانشاتز باحمرار الاضطراب يصعد الى وجنتيه . وفكر في أسف : « يا له من مسكين ! » وقال له فجأة :

– انت على حق : انني لست إلاّ إنساناً سقيماً عاجزاً ، وليس لديّ ما أقوله عن هذه الحرب ما دمت لا اشارك فيها . متى تذهب ؟

قال وايس : ــ في قطار الساعة السادسة عشرة والنصف .
ــ قطار اليوم ؟ وإذن ؟ ماذا تراك تفعل هنا ؟ إذهب ، اذهب بسرعة الى زوجتك . هل انت بحاجة الى مال ؟
ــ ليس في هذه الفترة ، أشكرك .
ــ إذهب ، وسوف ترُسل لي امرأتك فأدبِّر معها كل شيء. هيا، هيا . وداعاً .

وفتح الباب ودفعه الى الخارج . وكان وايس يسلِّم ويتمتم بعبارات شكر غير مفهومة . ولمح السيد بيرنانشاتز ، من فوق كتف وايس ، رجلاً جالساً في غرفة الانتظار ، وقبعته على كتفيه ، فعرف فيه شالوم وقطّب حاجبيه : انه لم يكن يُحبّ ان يُدعى الملتمسون الى الانتظار . وقال :
ــ ادخل . هل مضى وقت طويل وانت تنتظر ؟
فقال شالوم وهو يبتسم ابتسامة خضوع :
ــ نصف ساعة صغيرة . ولكن ما هي نصف الساعة ؟ انك مشغول جداً . اما انا ، فأملك الوقت كله . فما الذي افعله من الصباح حتى المساء ؟ انني انتظر . إن الحياة في المنفى ليست الا انتظاراً كما تعلم .
قال السيد بيرنانشاتز : ــ ادخل ، ادخل . كان عليهم ان يخبروني.
فدخل شالوم ، وكان يبتسم ويسلِّم . ودخل السيد بيرنانشاتز خلفه وأغلق البـــاب . وكان يعرف شالوم تماماً : « لقد كان ذا شأن في الحركة النقابية البافــارية . » وكان شالوم يزوره بين الفترة والفترة ، فيستدين منه ألفين او ثلاثة آلاف فرنك ويختفي لبضعة اسابيع .
ــ خذ سيكاراً .
فقال شالوم وهو يقترب قليلاً : « انني لا ادخن » . وأخذ السيد بيرنانشاتز سيكاراً فأداره بين أصابعه ثم أعاده الى العلبة . وقال :
ــ إذن ؟ هل الامور عندك كما تروم ؟

وكان شالوم يبحث عن كرسي . فقال له السيد بيرنانشاتز في عجلة :
– اجلس ، اجلس .
لا . لم تكن لدى شالوم رغبة بالجلوس . واقترب من الكرسي فوضع محفظته على المقعد ليكون في وضع أيسر ، ثم التفت الى السيد بيرنانشاتز وأرسل أنّة طويلة منغمة وقال :
– آه ، إن الامور ليست قط على ما يرام . إنه لا يحسن بالانسان ان يعيش على أرض الآخرين ، فهم لا يتحملونــه الا على كره ، ويأخذون عليــه الخبز الذي يأكله . ويا لذلك الاحتراس الذي يقابلوننا به ، ذلك الاحتراس الفرنسي . حين اعود الى فيينا ستكون هذه هي الصورة التي أحفظها من فرنسا : سُلّم مظلم يُرقى بمشقّـــة ، وزر يُضغط ، وباب يُفتح نصف فتحة : « ماذا تريد ؟ » ثم يُغلق . شرطة الغرف المفروشة ، دار البلدية ، الصف الطويل في مفوضية الشرطة. وهذا طبيعي اذا تعمقنا الموضوع ، فنحن في بلدهم . ومع ذلك فكّر قليلاً : إن بوسعهم ان يشغّلونا . فانا شخصياً لا أطلب الا ان اكون نافعاً لشيء . ولكن من يستطيع ان يجد عملاً محتاج الى بطاقة العمل ، ولكي يحصل المرء على بطاقـــة العمل ، فيجب ان يكون مستخدماً في مكان ما . وهكذا لا استطيع ان اكسب قوتي ، ولو كنت مسلّحـــاً بأعمق ارادة في العالم . ولعل هذا هو ما يشقّ عليّ احتماله اكثر من أي شيء آخر : أن اكون عبئاً على الآخرين . ولا سيما حـــين يُشعرونك بذلك في مثل هذه القسوة . وكم من وقت ضـــائع : كنت بدأت في كتابة مذكراتي ، وقد كان من شأن ذلك ان يعود عليّ ببعض المال . ولكن هناك كثيراً من الاعمال التي ينبغي ان تُعمل كل يوم : وهكذا كان لا بدّ لي من ان اترك كل شيء .
وكان قصيراً ، شديد الحيوية ، وكان قد وضع محفظته على الكرسي ، بينما كانت يداه المتحرّرتان تتطايران حول اذنيه الحمراوين : « ما أشد

ما تبدو عليه هيئة اليهودي ، ذلك الشخص . » واقترب السيد بيرنانشاتز من المرآة على غير اكتراث وألقى عليها نظرة سريعة : متر وثمانون ، انف أفطس ، رأس ملاكم اميركي تحت نظارتين سميكتين ؛ كلا ، لسنا من جنس واحد . ولكنه لم يكن يجرؤ على ان ينظر الى شالوم ، فقد كان يُحس نفسه مشبوهاً . « ليرحل . ليته يرحل على الفور » ولكن كان ينبغي الاّ يعوّل على ذلك . فان شالوم انما كان يتميّز في نظره عن مجرد الشحاذ بطول زيارته وانتعاش حديثه الفكه . وفكر السيد بيرنانشاتز : « يجب ان اتحدّث » وكان لشالوم الحق في ذلك . كان له الحق باوراقه المالية الثلاث وبربع ساعة من الحديث . وجلس السيد بيرنانشاتز على حافة مكتبه . وكانت يده اليمنى التي ادخلها في جيب سترته تداعب علبة سكائره . وقال شالوم بصوت كان يصعد ويتدحرج بلهجة نبوية ، بينما كان شعاع من المرح يرتعش في عينيه الفاتحتين :

— إن الفرنسيين ناسٌ قساة . ناس قساة . فالأجنبي هو في نظرهم مشبوه مبدئياً ، إن لم يكن مذنباً .

إنه يحدّثني كما لو انني لم اكن فرنسياً . عجباً : انا يهودي، يهودي من بولونيا، وصلت الى فرنسا يوم ١٩ تموز ١٩١٠، ولا يذكر ذلك أحدٌ هنا ، أما هو ، فلم ينس ذلك . يهودي كان محظوظاً . والتفت الى شالوم فتأمله في غيظ . وكان شالوم يخفض رأسه قليلاً ويقدّم له جبينه، بدافع الاحترام ، ولكنه كان ينظر اليه مواجهة ، من تحت حاجبيه المقوّسين . وكان ينظر اليه ، وكانت عيناه الكبيرتان الممتقعتان تريانه يهودياً . يهوديان ، في الظلّ ، معزولان جيداً في مكتب بشارع « كاتر سبتمبر » . يهوديان ، ضائعان ؛ وحولهما ، في الشوارع وفي البيوت الاخرى ، ليس ثمة إلاّ فرنسيون . يهوديان ، السمين منهما أصاب النجاح ، والقصير السيء التغذية لم يكن له حظ . لوريل وهاردي . وقال شالوم:

ـ انهم ناس قساة . ناس لا يعرفون الرحمة !

وهزّ السيد بيرنانشاتز كتفيه فجأة ، وقال بجفاف : « يجب ان يضع المرء نفسه محلهم ـ ولم يستطع ان يقول : محلنا ـ اتدري كم تحوي فرنسا من الاجانب منذ ١٩٣٤ ؟ »

قال شالوم : ـ أعرف ، أعرف . وأجد ذلك شرفاً كبيراً لفرنسا؛ ولكن ما الذي تعمله لتستحقّه ؟ انظر : إن شبانها يعبرون الحي اللاتيني ، فاذا كان ثمة من يشبه يهودياً ، انقضّوا عليه بالقبضات .

فقال السيد بيرنانشاتز ملاحظاً :

ـ ان وزارة بلوم قد أساءت الينا كثيراً .

كان قد قال : الينا ، فأقرّ مشاركة هذا الاجنبي القصير . نحن . نحن اليهود ، ولكن ذلك كان بدافع الإحسان . كانت عينا شالوم تتأملانه في إلحاحٍ مبجِّل . وكان هزيلاً وقصيراً ، وكانوا قد ضربوه وطردوه من بافاريا ، وها هو الآن هنا ، ولا بدّ انه ينام في فندق قذر ويقضي نهاره في المقهى ؛ وقد أحرقوا قريب وايس بسكائرهم ؛ وكان السيد بيرنانشاتز ينظر الى شالوم فيحس بأنه هو شخصياً مدبَّق ؛ ولم يكن ما يشعر به نحوه وداً ، كلا : وانما كان ... كان ...

« كانت تنظر اليه ، وكانت تفكر : « انه رجل قاس . انهم موسومون ، والحروب انما تقع بسببهم » ولكنها كانت تشعر بأن حبها القديم لم يكن ميتاً »

وكان السيد بيرنانشاتز يجسّ محفظته . وقال اخيراً بصوت خفيّ :

« مهما يكن من امر ، فلنأمل الاّ يدوم هذا اطول مما ينبغي . »

فغمز شالوم شفتيه ورفع رأسه الصغير بحيوية ،ففكر السيد بيرنانشاتز : « لقد قمت بالحركة قبل اوانها . »

« رجل قاس . يأخذ النساء ويقتل الرجال ؛ يفكر بأنه قويّ . ولكن ذلك غير صحيح . كل ما في الامر انه موسوم . »

وقال شالوم : — ان ذلك يتوقف على الفرنسيين . فاذا استعاد الفرنسيون حسّ رسالتهم التاريخية ...

فسأله السيد بيرنانشاتز ببرودة : — اية رسالة ؟

فالتمعت عينا شالوم بالحقد ، وقال بصوت قاسٍ وثاقب :

— ان المانيا تتحداهم وتهينهم بمختلف الاشكال ، فماذا ينتظرون ؟ أتراهم يعتقدون أن بإمكانهم إطفاء غضب هتلر ؟ ان كل تراجع جديد من فرنسا يطيل العهد النازي عشرة أعوام . وفي هذه الاثناء نكون هنا ، نحن الضحايا ، ننتظر ونحن نقضم قبضاتنا . لقد رأيت اليوم المناشير البيضاء على الجدران ، فداخلني بعض الامل . ولكني كنت حتى الأمس ما أزال افكر : لم يبق في عروق الفرنسيين دمٌ بعد ، وسوف أموت في المنفى .

يهوديان في مكتب بشارع « كاتر سبتمبر » . وجهة نظر اليهود في الاحداث العالمية . سوف تكتب جريدة « جوسوي بارتو » غداً : « ان اليهود هم الذين يدفعون فرنسا الى الحرب » . ونزع السيد بيرنانشاتز نظارتيه فمسحها بمنديله : كان ممتلأً من فرط الغضب . وسأل بلطف :

— واذا وقعت الحرب ، هل تخوضها ؟

فقال شالوم : — سيتطوع كثير من المهاجرين ، وانا من ذلك على يقين . (وأضاف وهو يشير الى جسمه الصغير الهزيل) ولكن انظر اليّ : ايّ مجلس عسكري يرغب فيّ ؟

فقال السيد بيرنانشاتز بصوت هادر :

— اذن هل ستحلّ عن ظهرنا ؟ هل ستحلّ عن ظهرنا ؟ ماذا اتيت تفعل عندنا ؟ انني انا فرنسي ، ولست يهودياً ألمانياً . طز باليهود الالمان . اذهب فقُمْ بها في مكان آخر ، حربك هذه !

وتأمله شالوم لحظة في ذعر ، ثم استعاد بسمته المتواضعة ، ومدّ

يده فتناول محفظته واقترب من الباب وهو يمشي القهقرى . وسحب السيد بيرنانشاتز محفظة نقوده من جيبه وقال :

– انتظر .

وكان شالوم قد ادرك الباب ، فقال له :

– لست بحاجة لشيء . انني اطلب احياناً معونة من اليهود. ولكنك على حق : انت لست يهودياً ، وقد أخطأتُ العنوان .

وخرج ، فنظر السيد بيرنانشاتز طويلاً الى الباب من غير ان يأتي بحركة . « انه رجل قاس . ان لهم نجماً،وهم ينجحون في كل شيء، ولكن الحرب تقع بسببهم . وكذلك الموت والعذاب بسببهم . انهم اللهب والحريق ، انهم يؤذون ، وقد آذاني ، وانا أحمله كشظيّة خشبية تحت أظافري ، وكحُمّة محرقة تحت أجفاني ، وكخَبث في قلبي . » هذا ما تفكره بشأني . ولم تكن به حاجة لأن يذهب فيسألها في ذلك ، لقد كان يعرفها ، ولو كان بوسعه ان يدخل في هذا الرأس الاسود القَطّ، فانه واجدٌ في كل لحظة هذه الفكرة الثابتة الصلبة ، فانها قاسية ، على شاكلته ، انها لا تنسى ابداً . وكان ينحني ، وهو في المنامة ، فوق ساحة « جيلو » ، وكان الطقس ما يزال رطباً ، والسماء زرقاء فاتحة، رمادية لدى الاطراف،وكانت تلك هي الساعة التي يسيل فيها الماء على البلاط وعلى الوضم الخشبي لبائعي السمك،وكان ذلك يشعر بالرحيل والصباح ؛ الصباح ، عرض البحر الكبير ، وهناك ، الحياة بلا نـــدم ، ودخان القنابل الخفيف المستدير على ارض كاتالونيا المشقّقـــة . ولكن خلف ظهره ، خلف الشباك المفتوح ، في الغرفة الملأى بالنوم والليل ، كانت ثمة تلك الفكرة الميتة التي تترصده ، التي تدينه ، كان ثمـــة ندمه : سوف يرحل غداً ، وسوف يعانقهم على رصيف المحطة ، وسوف تعود هي الى البيت مع الصغير ، وستهبط الدرج الضخم وهي تقفز ، وسوف تفكر : لقد رحل مرة اخرى الى اسبانيا : انها لن تغفر له

أبداً رحيله الى اسبانيا ، لقد كان ذلك جلداً ميتاً على قلبها . كان ينحني مطلاً على ساحة « جيلو » ليؤخر لحظة العودة الى الغرفة : كان بحاجة الى صُراخ ، والى اغنياتٍ مريرة ، والى آلام عنيفة وقصيرة ، لا الى هذه العذوبة الفظيعة . وكان الماء يجري في الساحة . الماء وروائح الصباح المبتلّة ، وصيحات الصباح الجبلية . وتحت شجر الدلب، كانت الساحة زلقة ، مائعة ، بيضاء خفيفة كسمكة في البحـــر . وفي هذا الليل ، كان زنجي قد غنّى ، فبدا الليل ثقيلاً جافاً ، ليلاً اسبانياً . واغمض غوميز عينيه ، فأحس بشوق اسبانيا والحرب يخترقه عنيفاً قاسياً . انها لا تفهم ذلك . لا الليل ولا الصبح ولا الحرب .

كان بابلو يصرخ بأعلى صوته :

ــ بان ، بان ! بان ، بان ، بان ، بان !

والتفت غوميز ودخل الى الغرفة . وكان بابلو قد وضـع قبعته، واخذ بندقيته وراح يستعملها كما يستعمل مجموعة من السلاح . وكان يعدو عبر غرفة الفندق وهو يطلق في الفراغ طلقات هائلة كانت تفقده توازنه . وكانت ساره تتبعه بنظرها الميت . وقال غوميز :

ــ هذه مجزرة .

فأجاب بابلو من غير ان يكفّ : ــ انني أقتلهم جميعاً .

ــ من هم ، جميعاً ؟

كانت ساره جالسة على حافة السرير ، وهي في معطف النوم وكانت تلفق جورباً . قال بابلو :

ــ جميع الفاشيست .

فارتمى غوميز الى خلف وراح يضحك ، ثم قال :

ــ اقتلهم ، ولا تدع منهم احداً . وذلك الشخص ، هناك ، لقد نسيته .

فعاد بابلو في الاتجاه الذي اومأ اليه غوميز وخطّط الهواء ببندقيته ؛

وقال :

- بان ، بان ! بان ، بان ، بان ! ليس من هدنة !

وتوقف والتفت الى غوميز وهو يلهث ، والرصانة والحماسة باديتان عليه . وقالت ساره :

- اوه ! انت ترى يا غوميز ! كيف استطعت ؟

وكان غوميز قد ابتاع عشية الامس مجموعة اسلحة لبابلو . وقال وهو يداعب رأس الصغير :

- يجب ان يتدرّب على القتال ، والاّ لأصبح جباناً كالفرنسيين .

فرفعت ساره عينيها اليه ، فرأى انه قد جرحها جرحاً عميقاً . وقالت :

- انني لا افهم كيف يُتهم الناس بالجبن لأنهم غير راغبين في القتال !

فقال غوميز :

- هناك فترات يجب ان يرغب الناس بها في القتال .

قالت ساره : - ابداً . في اي حال . ليس ثمة ما يستحق ان اجد نفسي من اجله ذات يوم على الطريق ، وبيتي مهدم الى جانبي ، وطفلي مسحوق بين ذراعي .

فلم يجب غوميز . لم يكن ثمة ما يُجاب به . كانت ساره على حق . من وجهة نظرها ، كانت على حق . ولكن وجهة نظر ساره كانت من الوجهات التي ينبغي إهمالها مبدئياً ، والاّ لما وصلنا ابداً الى شيء ما . وضحكت ساره ضحكة خفيفة مريرة :

- حين عرفتك يا غوميز ، كنت من دعاة السلام .

- ذلك انه كان ينبغي في تلك الفترة ان اكون من دعاة السلام : ان الهدف لم يتغيّر . وانما اختلفت الوسائل لبلوغ ذلك الهدف .

فصمتت ساره على اضطراب . وظلّ فمها مفترّاً ، وكانت شفتها

المتدلّية تكشف أسنانها النخرة . وراح بابلو يدير بندقيته حول رأسه وهو يصرخ :

– انتظر قليلاً ، أيها الفرنسي القذر ، ايها الفرنسي الجبان !

قالت ساره : – أترى ؟

فقال غوميز بحماسة : – بابلو، ينبغي ألاّ تطلق النار على الفرنسيين . ان الفرنسيين ليسوا فاشيست .

فصاح بابلو : – ان الفرنسيين جبناء .

واخذ يطلق على ستائر النافذة التي تطايرت متثاقلة . ولم تقل ساره شيئاً ، ولكن غوميز كان يؤثر او لم ير النظرة التي رمت بها بابلو . لا ، لم تكن نظرة قاسية : وانما كانت بالاحرى نظرة دهشة وتردد ، كما لو انها ترى ابنها للمرة الاولى . وكانت قد وضعت على مقربة الجورب الذي كانت تلفقه ، وكانت تنظر الى هذا الاجنبي الصغير ، هذا الوحش الصغير السليم الذي كان يطلق على الرؤوس ويشجّ الجماجم ، ولا بدّ انها كانت تفكر مذعورة : « انا الذي صنعته » . وأحسّ غوميز بالخجل ، وفكر : « ثمانية ايام . كانت ثمانية ايام كافية . »

وقالت ساره فجأة : – غوميز ، هل تعتقد حقاً بأن الحرب واقعة ؟

فقال غوميز : – ارجو . ارجو ان ينتهي الامر بهتلر الى قسر الفرنسيين على القتال .

قالت ساره : – أتعرف ما الذي ادركتُه يا غوميز هذه الايام ؟ أدركتُ ان الرجال أشرار .

فهز غوميز كتفيه :

– انهم ليسوا أشراراً ولا أخياراً . فكل امرىء يتبع صالحه .

قالت ساره : – لا ، لا . انهم أشرار .

ولم تكن تنزع بصرها عن بابلو الصغير ، وكان يبدو انها تتنبأ له

بمدره ، وأضافت :

— أشرار ، ومندفعون لايذاء بعضهم .

قال غوميز : — لست شريراً .

فقالت ساره من غير ان تنظر اليه :

— بلى ، انت شرير ، يا عزيزي غوميز ، انت شرير جداً . وليس لك من عذر : فان الآخرين أشقياء . اما انت ، فشرير وسعيد .

وسادت لحظة صمت طويلة . وكان غوميز ينظر الى تلك الرقبة القصيرة السمينة ، والى هذا الجسم الذي فقد رونقه والذي امسكت به ذراعاه طوال الليالي ، وكان يفكر : « انها لا تكنّ لي الودّ ، ولا اللطف . ولا الاحترام . انها تحبني ، بكل بساطة ، فأينا أشدّ شراً من الآخر؟»

على ان الندم ما لبث ان استبد به فجأة : لقد وصــل ذات مساء من برشلونة سعيداً ، هذا صحيح ، سعيداً جداً . وكان قد أخذ اذناً لثمانية ايام ، وكان سيرجع في الغد . وفكر : « لست انساناً طيباً . »

— هل هناك ماء حارّ ؟

فقالت ساره : — ماء فاتر . الصنبور الأيسر .

قال غوميز : — حسناً . سأحلق ذقني .

ودخل غرفة التواليت تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيــه ، فأجرى الماء واختار شفرة ، وفكّر : « حين أذهب ، ستنفذ ذخيرة الاسلحة في وقت قصير . » ولا شك في ان ساره ، بعد ذهابه ، ستخفيها في خزانة الادوية الكبيرة ، الاّ اذا وجدت من الأيسر ان تنساها هنــا . وفكّر : « انها لن تعلّمه الا على ألعاب البنات » ترى متّى يشاهــد بابلو مرة اخرى ، وماذا تراها تكون قد صنعت به ؟ ان هيئة الصبي على اي حال ، هيئة مقاومة ! واقترب من المغسلة ، ورآهما عبر المرآة: كان بابلو واقفاً في وسط الغرفة ، لاهثاً ، متورداً ، متباعد الساقين ، ويداه في جيبه . اما ساره ، فكانت قد جثت امامه تنظر اليه من غير

ان تنبس بكلمة . وفكر غوميز : « تريد ان تعرف ان كان يشبهني» .
وأحس بالضيق فأغلق الباب من غير ضجة .
« ... لحقت بي مع الصغير . انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم الأحد واحجز لي ... » وحطّت يدٌ قوية على كتفه اليسرى ، ويدٌ اخرى على كتفه اليمنى . ضغطةٌ حارّة وودية . هوذا اذن : وأعاد الرسالة الى جيبه ورفع عينيه .

– مرحباً .

قال جاك وهو يغرق نظره في عيني ماتيو :

– لقد قالت لي اوديت ... يا عزيزي المسكين !

ومن غير ان ينزع عينيه عن أخيه ، جلس في الاريكة التي غادرتها اوديت منذ لحظة ، وشدّت يدٌ لا تكاد تنتسب اليه بنطلونه ببراعة ، واشتبكت ساقاه وحدهما . كان يجهل هذه الاحداث المحلية الدقيقة : فهو لم يكن بعد الا نظرة . قال ماتيو :

– اني لن اذهب اليوم ، كما قد لا تعلم .

– أعرف ذلك . ألا تخشى ان يسببوا لك المتاعب ؟

– اوه .. قضية بضع ساعات ...

وتنفّس جاك بعمق :

– ماذا تريد ان أقول لك ؟ في الزمن الماضي ، كان بالامكان ان يقال لمن يرحل الى القتال : دافع عن اولادك ، دافع عن حريتك او بيتك ، دافع عن فرنسا . كان بالامكان على اي حال ايجاد اعذار ليجازف بنفسه . اما اليوم ...

وهزّ كتفيه . وكان ماتيو قد خفض رأسه وراح ينكث الارض بكعبه . وقال جاك بصوت نفّاذ :

– اراك لا تجيب . انك تؤثر الاّ تتكلم خشية ان تقول اكثر مما ينبغي قوله . ولكني اعرف ما تفكر به . قل .

وكان ماتيو ما يزال يحكّ حذاءه بالأرض . فقال من غير ان يرفع رأسه :

ـ كلا ، انك لا تعرفه .

ومضت فترة صمت قصيرة ، ثم سمع صوت اخيه المتردّد :

ـ ماذا تعني ؟

ـ انني لا افكر في شيء على الاطلاق .

فقال جاك في انزعاج لم يكد يبين :

ـ قد يكون هـذا ، انك لا تفكر في شيء ، ولكنك يائس ، فالأمران سيّان .

وجهد ماتيو في ان يرفع رأسه ويبتسم :

ـ بل انني لست يائساً كذلك .

قال جـاك : ـ مهما يكن ، فانك لن تقنعني بانك ذاهبٌ وانت مستسلم ، كالخروف الذي يُساق الى المسلخ ؟ /

قال ماتيو : ـ الواقع انني ، مع ذلك ، اشبه قليلاً ، هذا الخروف ، الا ترى ذلك ؟ انا ذاهب لأنني لا استطيع ان افعل شيئاً آخر . وان تكون هذه الحرب عادلة او غير عادلة ، بعد ذلك ، فهذا في نظري أمرٌ ثانوي جداً .

وقلب جاك رأسه الى خلف ليتأمل ماتيو بعينيه نصف المغمضتين :

ـ انك يا ماتيو تدهشني : تدهشني بصورة هائلة ، فانا لم أعـد أعرفك . كيف ؟ كان لي أخٌ متمرّد ، وقح ، لاذع ، لا يريـد قط ان يكون مخدوعاً ، ولا يستطيع ان يرفع خنصره من غير ان يبحث لماذا يرفع خنصره ولا يرفع سبابته ، خنصر اليد اليمنى لا خنصر اليد اليسرى . وهنا تأتي الحرب ، فيرسلونه في الخط الامامي ، ويذهب متمرّدي ومحطّم الصحون الذي اعرفه ، يذهب بكل وداعة ، من غير ان يتساءل ، وهو يقول : انا ذاهب لأنني لا استطيع ان افعل شيئاً آخر .

قال ماتيو : – ليس الذنب ذنبي فأنا لم استطع قط ان انجــح في تكوين رأي لي حول هذا النوع من المسائل .

فقال جاك : – ولكن المسألة واضحة: اننا أمام سيد – واقصد به بنيش – يتعهّد تعهداً جازماً بأن يجعل من تشيكوسلوفاكيا اتحاداً على الطراز السويسري . لقد التزم ذلك ، وهذا ما قرأته في محاضر جلسات مؤتمر السلام ، وانت ترى اني اذكر لك مصادري . وكان هذا الوعد يعني منح ألمان السوديت سيادة حقيقية اتنوغرافية . حسناً . ولكن هـــذا السيد ينسى، تعهداته تماماً ، فينصب تشيكيين على الألمان يديرونهم ويحكمونهم ويراقبونهم . والألمان لا يحبون ذلك : وهذا حقهم الصريح . لا سيما واني اعرفهم ، انا ، هــؤلاء الموظفين التشيكيــين ، فقد كنت في تشيكوسلوفاكيا : كم هم مزعجون ! واذن ، فالمراد هــو ان تريق فرنسا ، وهي بلد الحرية كما يقولون ، دمها ليستمرّ الموظفون التشيكيون في ممارسة عنتهم على السكان الألمان ، ومن أجل هذا تراك انت ، استاذ الفلسفة في ليسيه باستور ، ذاهباً لتقضي آخر سنوات شبابك على عمق عشرة اقدام تحت الارض ، بين « بتنش » و « ويسمبورغ » . فاذا اتيت تقول لي بأنك ذاهب في استسلام ، وانه لا يهمك كثيراً ان تكون هذه الحرب عادلة او غير عادلة ، فان ذلك يغيظني قليلاً .

كان ماتيــو ينظر الى اخيه في تململ ؛ وكان يفكر : « سيادة اتنوغرافية ، ما كنت لافكر في هذا ابداً » ومع ذلك ، فقد قال ، إراحة لضميره :

– ليست هي السيادة الاتنوغرافية ما يريده السوديت الآن ، وانمــا يريدون الارتباط بالمانيا .

فبدت على وجه جاك كزازة ألم :

– ارجوك يا ماتيو ، لا تتكلم كحارس بنايتنا ، ولا تُسمّهم السوديت. فالسوديت هي جبال . وانما قل : ألمان السوديت اذا اردت ، او الألمان

فقط . ماذا إذن ؟ يريدون الارتباط بالمانيا ؟ ذلك لأنهم قد دُفعوا حتى نفد صبرهم . فلو انهم أُعطـوا في البدء ما كانوا يطلبون ، لما بلغنا ما نحن فيه الآن . ولكن بنيش قد خدع وتثعلب لأن بعض الأعيان الطراطير عندنا تورطوا فجعلوه يعتقد بأن فرنسا تقف وراءه : وهذه هي النتيجة .

ونظر الى ماتيو في حزن وأضاف :

— قد أحتمـل هذا كلّه : فاني اعرف منذ وقت طويل ما الذي يساويه السياسيون . اما ان تفقد انت الرجل العاقل ، الجامعي ، حس ردود الفعل البدائية بحيث تنقل اليّ بكل هدوء بأنك ذاهب الى المسلخ لأنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً آخر ، فاني لا أستطيع ان أحتمل ذلك. فاذا كنتم كثيرين تفكرون على هذا النحو ، فان فرنسا هالكة يا عزيزي المسكين !

فسأله ماتيو : — ولكن ما الذي تريدنا ان نفعله ؟

— ماذا ؟ اننا ما زلنا ، يا ماتيو ، في عهد ديموقراطي . واعتقد انه ما يزال في فرنسا رأيٌ عام .

— وبعد ذلك ؟

— حسناً ! لو أن ملايين من الفرنسيين ، بدلاً من ان يستنفـدوا قواهم في منازعات عابثة ، انتصبوا جميعاً ليقولوا لحكامنا : « إن الذين السوديت يريدون العودة الى احضان جرمانيا ؟ فليعودوا إليهـا : فهذا انما يعنيهم وحدهم ! » لما وُجد رجل سياسي واحد يجازف باشعال حرب من أجل هذه الترّهة .

ووضع يده على ركبة ماتيو وأضاف بلهجة مصالحة :

— انا اعرف انك لا تحب العهـد الهتلري . ولكن يمكن للناس مع ذلك الاّ يقاسموك آراءك المسبقة ضده : فهو عهد فتيّ ناشط قدّم دلّته ، وهو يمارس على امم اوروبا الوسطى جاذبية لا جدال فيها .

ثم إن هذه ، على اي حال ، قضيتهم : فليس لنا ان نتدخل فيها.
وخنق ماتيو تثــاؤبة ، وردّ ساقيه تحت كرسيه ، ثم ألقى نظرة خفية على وجه أخيه المترهل بعض الشيء ، وفكر بأنه كان يشيخ ؛ وقال بوداعة :
— ربما ، ربما كنتَ على حق .
وهبطت اوديت السلّم وجلست بالقرب منهما في صمت . وكانت على جمال حيوان وديع وعلى هــدوئه : كانت تجلس وتنهض وتعود الى الجلوس ، وهي واثقة من انها لم تكن لتُرى . والتفت اليها ماتيو في ضيق : إنه لم يكن يحب ان يراهما معاً . فاذ يكون جاك موجوداً ، لا يتغيّر وجه اوديت ، بل يبقى أملس هارباً ، كوجه تمثال ذي عينين بلا حدق . ولكن المرء كان مضطراً الى ان يتمعن فيه بطريقة اخرى .
وقال وهو يبتسم :
— إن جاك يرى أني لست حزينــاً ، من جراء ذهابي ، بما فيه الكفاية . وهو يحاول ان يبث الحزن العميق في نفسي بان يوضح لي باني انما اذهب للموت من أجل لا شيء .
فبادلته اوديت بسمة . ولم تكن بسمة المجاملة التي كان ينتظرها ، بل كانت بسمة له وحده ، وفي لحظة ، كان البحر هناك من جديد ، وذبذبة البحر الخفيفة والظلال الصينية التي كانت تعدو على الامواج ، ودفقة الشمس التي كانت تخفق في البحر ، والنبات الأخضر ، والإبر الخضر التي كانت تغطي الأرض ، والظلّ المدبّب لشجر الصنوبر ، والحرّ الأبيض النافذ ورائحة القطران ، وكل كثافة صبيحة ايلولية في « جوان ليبان » . اوديت ، ابنتها العزيزة . متزوجة زواجاً سيئاً ، ومحبوبة حباً سيئاً ؛ ولكن هل يحق القــول بأنها قد أضاعت حياتها ، حين يكون بوسعها ان تولد من جديد ، اذ تبتسم ، حديقة على ضفة الماء ، وحرارة الصيف على البحر ؟ ونظر الى جاك ، فألفاه سميناً ممتقع الوجه ، وكانت

يداه ترتجفان ، وكان يصفق بيده الجريدة في حماس ، وفكر ماتيو : « ممّ تراه يخاف ؟ » في الساعة الحادية عشرة من صباح السبت ٢٤ ايلول ، كان باسكال مونتاستروك ، المولود في نيم يوم ٦ شباط ١٨٩٩ والملقب بـ « لوبورنيو » [1] لأنه زرع سكيناً في عينه اليسرى يوم ٦ آب ١٩٠٧ إذ كان يحـاول ان يقطع حبل الأرجوحة التّي كان يجلس فيها رفيقه الصغير -بولو تروفييه ليرى ما عسى يحدث من ذلك — كان باسكال مونتاسترّوك يبيع كعادته كل يوم سبت سوسناً وازراراً ذهبية على رصيف « باسي » ، قرب محطة المترو؛ وكان له تكنيكه الخاص إذ كان يأخذ الباقات ، الباقات الجميلة في سلّته الخيزرانية الموضوعة على مقعد قابل للطيّ ، ويهبط الى الطريق ، والسيارات تجري وهي تطلق اصواتها ، فيصيح ، « الباقات ، الباقات الجميلة لسيدتك » وهو يشهر الباقة الصفراء ؛ فتهجم السيارة عليه ، كالثور في الحلبة ، ولا يتحرك هو ، بل يتراجع بالسلّة ، ويلقي رأسه الى خلف ، ويدع للسيارة ان تمر إزاءه كحيوان ضخم بليد ويصيح من الباب المفتوح : « الباقات ، الباقات الجميلة ! » وكان السائقون عادة يقفون ، فيصعد الى الموطيء، وتأتي السيارة لتقف بازاء الرصيف ، لأن ذلك كان عطلة نهاية الاسبوع ، ولأنهم كانوا يحبون ان يعودوا الى مساكنهم الجميلة في شارع « فيني » او في شارع « رانولا » وهم يحملون لنسائهم باقات . « البـاقات الجميلة » ، وقفز الى خلف ليتفادى السيارة ، السيارة المئة التي تمر من غير ان تقف ، « إبتعد إذن ! » لا ادري ما بالهم هذا الصباح ؛ انهم يسوقون بسرعة وبوحشية ، وهم منحنون على مقاودهم ، صمّ كأنهم طرشان بالفعل . انهم لم يكونوا ليدوروا الى هذا الحدّ في شارع « شارلز ديكنز » او في جادة « لامبال » ، بل كانوا يدخلون الى المحطات بأبهة كبيرة ، كما لو انهم كانوا يريدون المضيّ حتى «بونتواز» ،

[1] تعني بالعربية « الأعور » .

وإن باسكال لوبورنيو لم يعد يفهم من ذلك شيئاً : « ولكن الى اين هم ذاهبون ؟ الى اين يذهبون ؟ » فأن يمضي هو متأملاً سلته الملأى بالازهار الصفر والوردية ، إن ذلك ليثير الشفقة . وقال : — إن ذلك جنون محض . اجمل انتحـــار في التاريخ . لماذا ؟ لقد اصيبت فرنسا بمذبحتين مريعتين خلال مئة عام ، الاولى في اثناء حروب «الامبراطورية» والأخرى عام ١٩١٤ . وبالاضافة الى ذلك ، فان نسبة المواليد تتدنى كل يوم . وها هم يختارون هذه الفترة ليشنّوا حرباً تكلّفنا ثلاثة ملايين رجل او اربعة ؟ وقال وهو يدقّ كلماته دقّـاً : ثلاثة ملايين رجل او اربعة لن يكون بامكاننا بعد ان نصنعهم مرة اخرى . وسواء خرجنـــا منتصرين او مهزومين ، فان البلاد ستنتقل الى صفّ الدرجة الثانية من الامم : فهذا امر يقينيّ . ثم إن هناك امراً آخر سأقوله لك : سوف تُبتلع تشيكوسلوفاكيا قبل ان يتاح لنا ان نقول « اوف » ليس امامنا الا ان ننظر الى خارطة : انها تشبه قطعة لحم بين شدقي الذئب الالماني. فاذا شدّ الذئب قليلاً على أسنانه ...

قالت اوديت : — ولكن ذلك لن يكون الا موقتـــاً ، فان الدولة التشيكوسلوفاكية ستُبنى من جديد بعد الحرب .

قال جاك وهو يضحك بوقاحة :

— هكذا اذن ؟ آه : انني اصدّقك تماماً ! هناك كل المظاهر في الواقع بان الانكليز سيسمحون باعادة بنـــاء اتون الحريق . خمسة عشر مليون نسمة ، تسع جنسيات مختلفة ، إن ذلك تحدّ للعقل السليم . (وأضاف في قسوة) ينبغي على التشيك الاّ يخطئوا ، فإنّ مصلحتهم الحيوية هي ان يتفادوا هذه الحرب بأي ثمن .

« ممّ هو خائف ؟ » كان ينظر الى السيارات تجري ، وهو يشدّ في يده باقته اللامجدية ، وكانت الطريق تشبه طريق شانتيي ، ذات امسية من امسيات التبضّع ، اذ يكون ثمة من يحمل صناديق وفراشاً وعربات اطفال

وماكينات خياطة على سقوف سياراتهم ؛ والسيارات كلها تكون ملأى بالمحافظ والرزم والسلال حتى لتنفجر. وقال باسكال لبورنيو : «كفى!» كانت السيارات تجرى وهي محمّلة جداً حتى أنّ الحدائد التي تقي من الوحل كانت تصدم العجلات لدى كل ارتجاجة . وفكر بأنهم يهربون ، انهم يهربون . وقفز قفزة خفيفة الى الخلف ليتجنب سيارة «سالمسون» ، ولكنه لم يكن يفكر في الصعود الى الرصيف . كانوا يهربون ، اولئك السادة ذوو الوجـــوه الملوّنة بالمساحيق ، المدلّلة ، والاولاد السمان ، والسيدات الجميلات ، كأنما كانت النار في إستهم ، كانوا يفرّون امام الالمان ، وامام قصف الغارات ، وامام الشيوعية . وكان يفقد هناك كل زبائنه . ولكنه كان يجد ذلك مضحكاً جداً ، هذا الصفّ من السيارات ، وهذا الهرب المجنون نحو مقاطعة نورماندي ، وكان ذلك يجزئه عن أشياء كثيرة ، حتى أنه ظل واقفاً في عرض الطريق ، تلامسه السيارات الفارّة وهو آخذ في القهقهة من كل قلبه .

– وكيف نستطيع ، من فضلك ، ان ننجدهم ؟ الواقع انه ينبغي علينا في آخر الأمر ان نهاجم المانيا . ولكن من اين ؟ في الشرق يقوم خط سيغفريد ، وسوف نحطّم لاعيه أنفنا . وفي الشمال ، تقوم باجيكا ، فهل ترانا سننتهك حياد بلجيكا ؟ إذن ، قل لي ، قل لي : من اين ؟ ام علينا ان نقوم بالدورة عن طريق تركيا ؟ إن ذلك شيء روائي محض ، وكل ما نستطيع ان نفعله هو أن نبقى على سلاحنا ، في انتظـــار ان تصفّي ألمانيا حسابها مع تشيكوسلوفاكيا . وبعد ذلك ، ستأتي لتصفّي حسابنا ...

قالت اوديت : – وإذن ، ففي تلك الفترة ...

فأدار اليها جاك نظرة زوج ، وسألها ببرود :

– ماذا ؟ (وانحنى على ماتيو) هل حدثتك عن « لوران » الذي كان رئيساً أعلى في شركة « اير فرانس » والذي بقي مستشار « كوت »

« غي لاشمبر » ؟ اسمع إذن : انني اقدم لك من غير تعليق ما قاله لي في تموز الماضي : إن كل ما يملكه الجيش الفرنسي اربعون قاذفة وسبعون مطـاردة . فاذا كان هذا صحيحاً ، فانالالمان سيكونون في باريس في رأس السنة ! »

قالت اوديت غاضبة : — جاك !

« مم هو خائف ؟ » كان باسكال يضحك ويضحك ، وكان قد قد ترك باقته تسقط ليضحك على كيفه ، وقفز قفزة الى الخلف،فمرت عجلة على سوق الباقة . مم هو خائف ؟ إنها غاضبة لأن هناك من سمح لنفسه بان يواجه هزيمة فرنسا . إنها ليست قريبة الى النفس تماماً : فالكلام يخيفها . إنهم يخافون المناطيد ، وقد رأيتها انا عام ١٩١٦ ، فلم تكن تذهب بعيداً ، ويعود الامر من جديد ؛ كانت السيارات تمر بأقصى سرعتها على السوق المطحونة ، وكان باسكال يحس الدمع في عينيه لفرط ما كان يجد ذلك باعثاً على الضحك . غير ان موريس لم يكن يجد هذا ممتعاً على الاطلاق . كان قد دفع للرفاق تكاليف الدورة ، وكان راسلاه ما يزالان يحرقانه من الضربات الكثيرة التي تلقاها . وها هو الآن وحده؛ وينبغي له عما قليل ان يطلع زيزيت على ذلك . ورأى المنشور الابيض في أعلى الجدار الرمادي لمصانع « بينهويت » فاقترب ، وكان محتاجاً الى قراءته وهو وحده ، وفي بطء :

« بأمر من وزير الدفاع الوطني والحرب ومن وزير الطيران » .

الموت ، ان ذلك لم يكن شيئاً مريعاً جداً ، وانما كان حادثاً من حوادث العمل ، وكانت زيزيت قاسية ، وكانت من الفتوة بحيث تستطيع ان تستأنف حياتها من جديد ، فان الامر يكون يسيراً جداً دائماً حين لا يكون ثمة اطفـال . اما فيما عدا ذلك ، فهو سيذهب ، ثم يحتفظ في النهاية ببندقيته ، فهذا امر متفق عليه . ولكن متى تجيء النهاية ؟ بعد عامين ؟ لقد دامت الحرب الاخيرة اثنين وخمسين شهراً . وطوال اثنين

وخمسين شهراً يجب إطاعة الرقباء والمعاونين ، وجميع اولئك الابقار الذين طالما كرههم . يجب اطاعتهم على الرأس والعين ، وتحيتهم في الشارع بينما يكون مضطراً الى ادخال يديه في جيوبه ، اذ يلتقي بأحدهم ، حتى يمنع نفسه من الانقضاض عليه ولكمه في وجهه . فاذا كانوا في القطار ، كان عليهم ان يقفوا مرتبكين ، كأنهم يستشعرون في ظهورهم رجفة الرصاص ؛ واذا كانوا في الراحة ، وجب عليهم ان يتظاهروا بالطيبة والطاعـــة كما لو كانوا في الثكنة . اوه ! متى يأتي يوم الهجوم الاول لأطلق عليه رصاصي ، ذلك المعاون الذي سيمشي امامي ! واستعاد مشيته ، وكان يستشعر الحزن والرقّة كما كان يُحسّ في عهد الملاكمة ، اذ هو في غرفته يخلع ثيابه ، قبيل الحفلة بربع ساعة . لقد كانت الحرب طويلة ، طويلة جداً ، فلا ينبغي التفكير بها اكثر مما ينبغي ، والاّ لانتهى الامر بان يجد الانسان انه لم يكن لشيء معنى ، حتى ولا النهاية ، حتى ولا العودة وفي يده البندقية . درب طويلة ، طويلة جداً . وربما مات وهو في منتصف الطريق ، كما لو لم يكن له هدف آخر غير ان يَدَعهم يثقبون جلده ليدافع عن مصانع شنايدر او عن صندوق السيد « دو واندل » . كان يمشي في الغبـــار الاسود بين جدار مصانع « بينهويت » وجدار ورشات « جيرمان » ؛ وكان يرى عن يمينه ، في البعيد ، السقوف المائلة لمشاغل عمال السكك الحديدية للشمال ، وابعد من ذلك ، المدخنة الكبيرة الحمراء للمحرقـــة ، وكان يفكر : « درب طويلة ، طويلة جداً » وكان « لوبورنيو » يضحك بين السيارات ، وكان موريس يمشي في الغبار ، وكان ماتيو جالساً على شاطيء البحر ، يستمع الى جاك ، ويقول لنفسه : « لعلّه على حق » ، وكان يفكر بأنه سيتجرّد من ثيابه ، ومن مهنته ، ومن هويته ، ويذهب عارياً ليخوض أسخف الحروب ، ليخوض حرباً خاسرة مقدّماً ، وكان يُحسّ نفسه يسيل في أعماق الغُفل ؛ انه لم يكن بعد شيئاً ، لا الاستاذ القديم لبوريس ، ولا

العشيق القديم لمراسيل القديمة ، ولا العاشق الاقدم لايفيش ؛ لا شيء الا اسماً غفلا ، بلا عمر ، سُرق منه المستقبل وأصبحت امامه ايام لا يمكن التنبؤ بها . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ، توقف الكار في « سافي » فنزل منه « بيار » ليزيل خدر ساقيه . وكان ثمة أكواخ مسطّحة صفراء على حافة الطريق المزفّتة : وخلفها كانت « سافي » تتدرّج بخفاء نحو البحر . وكان ثمة عربٌ يطبخون ، وهم مقرفصون فوق رقعة واسعة من الارض المحمّرة ، وكانت الطائرة تحلّق فوق رقعة رمادية صفراء ، كانت هي فرنسا . وفكر بيار في حسد : « كم يستطيع هؤلاء ألاّ يبالوا ! » ؛ وكان يمشي بين العرب ، وكان يستطيع ان يلمسهم ، ومع ذلك فهو لم يكن حاضراً بينهم : لقد كانوا يدخنون « كيفهم » بهدوء ، اما هو فكان ذاهباً ليحطّم رأسه في الألزاس ؛ وتعثّر بمدّرة من الارض ، وسقطت الطائرة في جيب هوائي وفكّر الشيخ : « انني لا احب الطائرة » . وكان هتلر ينحني فوق الطاولة ، وكان الجنرال يشير الى الخارطة ويقول : « خمس فرق من الدبابات ؛ الف طائرة تنطلق من « دريسد » و « تمبلهوف » و « ميونيخ » . وكان شمبرلن يضغط منديله على فمه ويفكر : « هذه هي رحلتي الثانية في الطائرة . انني لا احب السفر في الطائرة » . انهم لا يستطيعون ان يساعدوني ؛ فهم مقرفصون ، تحت الشمس ، شبيهين باوعية صغيرة من الماء المدخن ، وهم مسرورون ، وهم وحدهم على الارض ؛ وفكر في يأس : « آه ! يا إلهي ! يا إلهي ! ليتني استطيع ان اكون عربياً ! »

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين ، صعد « فرنوا هانوكين » ، وهو صيدلي من الدرجة الاولى في « سانت – فلور » ، طوله متر وسبعون ، ذو انف مستقيم وجبين متوسط ، وحول خفيف ، ولحية في شكل اكليل ، ورائحة قوية للفم ولشعر الفرج ، والتهاب في

الامعاء استمر حتى السابعة من عمره ، وعقدة اوديب صُفيت حوالى الثالثة عشرة ، وحائز للبكالوريا في السابعة عشرة ، واستمناء حتى فترة الخدمة العسكرية بمعدل مرتين او ثلاثة في الاسبوع ، مشترك في جريدتي « تان » و « ماتان » . زوج بلا اولاد لـ « اسبرانس ديولافوا » ، كاثوليكي ممارس لواجبات التناول بمعدل مرتين او ثلاث كل ثلاثة أشهر — صعد فرانسوا هانوكين الى الطابق الاول فدخل غرفة الزواج حين كانت امرأته تجرب قبعة وقال : « هذا هو حقاً ما كنت اقوله لك ، انهم يستدعون حملة الكراسة رقم ٢ » ووضعت امرأته القبعــة على طاولة الزينة ، ونزعت الدبابيس من فمها وقالت : « انت ذاهب اذن بعد ظهر اليوم ؟ » فقال : « نعم ، في قطار الساعة الخامسة » . قالت زوجته: « اي ارتباك ! انني مضطربة جداً ، ولن يكون لديّ الوقت لأعدّ كل شيء . ماذا ستأخذ معك ؟ قمصان طبعاً وسراويل طويلة ، فانت تملك منها ما هو قطني وما هو صوفي وما هو من المسلين ، وأفضلها الصوفي . اوه ، ثم زنانير من الفلانيل ، حبذا لو تأخذ منها خمسة او ستة بعد ان تلفّها » . فقال هانوكين : « لا حاجة للزنانير ، فهي أعشاش للقمل » « اية فظاعة ، ولكن لن يدركك القمل ، فأرجوك ان تأخذها ، إرضاءً لي ؛ حتى اذا كنت هناك عرفت ماذا تصنع بها؛ ومن حسن الحظ اني ما زلت احتفظ ببعض المعلّبات ، تلك التي اشتريتها عام ١٩٣٦ ، في فترة الاضرابات ، فكنت تسخر مني ، وعندي علبة كرنب بالحمر الابيض ، ولكنك لن تحبّ ذلك ... » فقال وهو يفرك يديه : « ان ذلك يحدث لدي حموضة ، ولكن اذا كان لديك علبة فاصولياء ... » قالت اسبرانس : « علبة فاصولياء ، ولكن كيف لك ان تسخّنها ؟ » قال هانوكين : « هكذا ! » « كيف هكذا ؟ انهــا تسخّن في الماء الغالي » « هل عندك اذن فراخ مجمّدة ؟ » « نعم عندي ، بالاضافة الى مورتاديلا بعث بها الاقارب في كليرمون » . وحلم

لحظة وقال : « سآخذ سكيني السويسري » . « نعم ، واين تراني سأضع زجاجة الترموس لقهوتك ؟ » « آه ، نعم ، قهوة ، يجب ان يكون هناك شيء حار ليماسك به بطني (واضاف وهو يبتسم بكآبة) هذه هي المرة الاولى التي آكل فيها ، منذ تزوجت ، من غير ان ابدأ طعامي بالحساء . ضعي لي بعض الخوخ ، وزجاجة كونياك » . « هل تأخذ الحقيبة الصفراء ؟ » فانتفض : « الحقيبة ؟ على الاطلاق ، ان هذا غير لائق ، ثم اني لست حريصاً على إضاعتهـا . ان كل شيء يُسرق هناك . سوف آخذ مزماري ذا القربة » « ايّ مزمار ؟ » « المزمار الذي كنت آخذه حين اذهب للصيد ، قبل زواجنا . فماذا فعلت به ؟ » « ماذا فعلت به ؟ آه ، لا ادري يا عزيزي المسكين ، لقد أضعتَ لي رأسي ، اعتقد اني وضعته في العليّة » « في العلية ؟ يا إلهي ! مع الفئران ! سيكون ذلك رائعاً ! » « انك تحسن صنعاً إذا أخذت الحقيبة معك ، فهي ليست كبيرة ، وبوسعك ان تراقبهـا جيداً . آه ! انا اعرف اين هي : عند ماتيلد . لقد اعرتها اياها للنزهة» . « أعرت ماتيلد مزماري ؟ » « ولكن لا ، انت تحدثني عن المزمار ؟ قلت لك زجاجة الترموس » . فقال هانوكين بحزم : « مهما يكن ، فانا اريد مزماري » « آه يا عزيزي ! ما الذي تريده أن اقول لك ، انظر الى ما لديّ من عمل ، فساعدلي قليلاً ، وابحث عنه بنفسك ، مزمارك ، وبوسعك ان تنظر في العليّة » وصعد السلم ، فدفـع باب العلية ، وأحسّ برائحة الغبار ، ولم يكن يميّز شيئاً ، وفرّت فأرة بين ساقيه ففكر : « لعنة الله عليها ! لا بدّ انه الجرذان قد التهمته ! »

وكان ثمة صناديق ، وتمثال من خيزران ، وخريطة للكرة الارضية ، وفرن قديم ، واريكة طبيب اسنان ، وأرغن ، وكان ينبغي ازاحة هذا كله . ليتها قد خطر لها ان تضعه في صندوق ، بمنجى من كل شيء . وفتح الصناديق واحداً بعد الآخر ، وكان يغلقها في غضب . لقد كان

المزمار لطيفاً سهل الاستعمال ، جلدياً ، وله فتحة ، وكان يمكن ان ندخل فيه اشياء كثيرة ، وكان له قطاعان . والحق ان هذه الاشياء هي التي تساعدك على تمضية اللحظات السيئة ، ولا يشك أحد في أهمية ذلك. وفكر في غضب : « مهما يكن من أمر ، فلن اذهب والحقيبة معي ، فانا أفضل الاّ أحمل شيئاً » .

وجلس على صندوق ، وكانت يداه سوداوين من الغبار ، وكان يُحسّ الغبار كصمغ جاف خشن على جسمه كله ، وكان يرفع يديه في الهواء حتى لا يلطّخ معطفه الاسود ، وكان يخيّل اليه انه لن يملك الشجاعة ابداً ليخرج من العليّة ، لم يبق لي ميلٌ لشيء ، وهذه الليلة التي سيقضيها من غير ان يتناول حتى حساء يمسك عليه بطنه كانت تشعره بان كل شيء عبث ، وكان يستشعر الوحدة والضياع ، وهو هناك ، فوق ، على صندوقه ، مع تلك المحطة الصاخبة المظلمة التي كان تنتظره على مثني متر تحته ، ولكن صرخة اسبيرانس المرتعشة جعلته ينتفض ، وكانت صرخة انتصار : « لقد وجدته ! لقد وجدته ! » ففتح الباب واسرع الى السلم : « اين هو ؟ » « وجدت مزمارك ، كان موجوداً تحت ، في خزانة القبو » . وهبط السلم فتناول المزمار من يدي زوجته، ففتح قرسته وتأملها ومسح عليها بظاهر كفّه ، ثم وضعه على السرير وقال : « اسمعي يا عزيزتي : كنت أتساءل اذا كنت احسَن صنعاً بان ابتاع لي زوجاً من الأحذية ؟ »

الى المائدة ! الى المــائدة ! وكانوا قد دلفوا الى نفق الظهر المعمي للابصار ؛ اما في الخارج ، فكانت السماء بيضاء من الحرارة ، والشوارع الميتة البيضاء ، والارض الحرام ، في الخارج كانت الحرب ؛ وخلف المصاريع المغلقة ، كانوا يطبخون على البخار ، ووضع دآنيال منشفته على ركبتيه ، وعقد هانوكين منشفته على عنقه ، وتناول برونيه منشفة الورق من على الطاولة مدعكها على عنقه ، ووضع جاكي سارل الى

قاعة الطعام الكبيرة الحالية تقريباً، ذات الزجاج المخطّط بالأشعة الطبشورية، وعلّقت له المنشفة على صدره ؛ كانت تلك هي المدنة : الحرب ، أجل، الحرب ، ولكن الحرارة ! الزبدة في الماء ، والمدرة الضخمة في القاع ، ذات جوانب فضفاضة زيتية ، والماء الرمادي من فوق ، واطراف الزبدة الصغيرة الميتة التي تطفو وبطنها في الهواء ، وكان دانيال ينظر الى فقاعات الزبدة تذوب في صحيفة الفجل ، ومسح برونيه جبينه ، وكان الجبن يعرق في صحيفته كما يعرق الرجل النشيط في عمـــله ، وكانت بيرة موريس فاترة ، فدفع قدحه وقال : « تفه ! لكأنها بول ! » وكانت قطعة ثلج تسبح في خمر ماتيو ، فشرب ، وأحس اولاً بماء بارد في فه ، ثم ما لبث مستنقع صغير من الخمر الطائش الذي ما يزال حاراً بعض الشيء ان ذاب ماء ؛ وأدار شارل رأسه قليلاً وقال : « وايضاً حساء ؟ لا بد انهم مجانين حتى يقدموا لنا الحساء في عزّ الصيف » . ووضعوا صحيفتـــه على صدره ، فكانت تبعث الحرارة في جلده عبر المنشفة والقميص ، وكان لا يرى اكثر من طرف الخزف المطلي، فأغرق ملعقته بعد تقدير سريع ، ثم رفعها عمودياً ، ولكن من يضطجع على ظهره لا يكون واثقاً قط من الوضع العمودي ، ولذلك سقط بعض الحساء في الصحن وهو يقرقر ، وأعاد شارل الملعقة بهدوء الى ما فوق شفتيه، وأمالها من جهة ثم طز ! هكذا يحدث له دائماً ، وسال المائع الساخن على خده فأغرق ياقة قيصه . الحرب ، آه ، نعم ، الحرب : قالت زيزيت : لا ، لا ، ليس الراديو ، لا اريد بعد أن افكر فيه : قال موريس : بلى ، قليل من الموسيقى ، شيرسو ، غورب ، ث شرور، يانجي ، اخبار ، اغنية « القبعات والغلالات » ، واغنية « سأنتظر » بطلب من هوغيت ارنال ، ومن بيار دوكروك وزوجته وابنتيـــه في « لاروش كانيلاك » ومن الآنسة اليان في « كالفي » وجان فرلسا روكيت لصغيرته ماري مادلين من فست ن الضاربات على الآلة الكاتبة

في تول لاصدقائهن الجنود . سأنتظر الليل والنهار ، خذ مزيداً من السمك المطبوخ ، فقال ماتيو : لا ، شكراً ، لا يمكن للقضية الا ان تُسوّى ، وكان الراديو يفرقـع ، ويدرج فوق الساحات البيضاء الميتة ، ويحطم الواجهات ، ويدخل في المدينة الى المخانق المظلمة ، وكانت اوديت تفكر : لا يمكن للقضية الا ان تسوّى ، فقد كان هذا يقيناً ، وكان الطقس حاراً جداً . وكانت الآنسة اليان وزيزيت وجان فرنسوا روكيت واسرة دوكروك من بلدة « روش كانيلاك » يفكرون : لا يمكن للقضية الا ان تسوّى ؛ وكان الطقس حاراً جداً . وسأل دانيال : ما تريد ان يفعلوا ، وكان شارل يفكر بانها كانت غارة كاذبة ، وهم سيتركوننا هنا ، ووضعت ايلا بيرنانشاتز شوكتها ، وارتدّت برأسها الى خلف ، وقالت : اَما انا ، فاني لا اؤمن بالحرب . سأنتظر دائماً عودتك ؛ وكانت الطائرة تحلّق فوق زجاج مغبّر ملقىً على ظهره ، وعلى طرف الزجاج ، بعيداً جداً ، كان يُرى بعض المسك ، وانحنى هنري نحو شمبرلن وصاح في اذنه : انهـا انكلترا ، انكلترا والجمع الذي يتدافع عند حواجز المطار ، منتظراً رجوعه ، يا حبيبي ، دائماً ، وحدث له وهنٌ قصير ، وكان الطقس حاراً جداً ، وكانت به رغبة لان ينسى الفاتح الذي يشبه رأسه رأس الذبابة ، وفندق دريسن والمذكرة ، رغبة لان يصدق ، يا الهي ، يصدّق بان القضية يمكن ان تسوّى بعـد ، وأغمض عينيه ، يا لعبتي الحبيبة ، بناء على طلب السيدة دورانتي وحفيدتها الصغيرة ، من بلدة دوكازفيل ، الحرب يا الهي أجل ، الحرب والحرارة والقيلولة الحزينة الخاضعة ؛ كازا ، هذه كازا ، وتوقف الاوتوكار في ساحة بيضاء مقفرة ، فكان بيار اول الخارجين ودخلت في عينيه الدموع المحرقة ؛ وكان ما يزال في الاوتوكار بعض آثار الصباح ، اما في الخارج ، حيث الشمس مشعة ، فقـد كان ثمة موت الصباح . انتهى الصباح ، يا لعبتي الحبيبة ، انتهى الشباب ، وانتهت الآمال ، وهذه

كارثة الظهر الكبرى . وكان جان سيرفان قد دفع صحنه ، وكان يقرأ الصفحة الرياضية في « باري – سوار » ، ولم يكن قد بلغه قرار التعبئة الجزئية ، فقد كان في عمله ، وعاد منه ليتناول الغداء ، وسيعود اليه حوالى الساعة الثانية ، وكان لوسيان رينيه يكسر جوزاً بين كفّيه ، وكان قد قرأ المناشير البيضاء ، وكان يفكر : ان ذلك خداع ، وكان فرنسوا ريستوت ، فتى المختبر في معهد « ديريان » ، يمسح صحنه بالخبز ولا يفكر بشيء ، وكانت زوجته لا تفكر بشيء . في الصباح، كانت الحرب قطعة ثلج قاطعة في رؤوسهم ثم ذابت فأضحت مستنقعاً صغيراً فاتراً . يا لعبتي الحبيبة ، الطعم السميك المظلم لاحم البقر البورغونيوني، ورائحة السمك ، وجلد اللحم بين ضرسين ، وبخار الخمر الاحمر ، والحرارة ، الحرارة ! مستمعيّ الاعزاء ، ان فرنسا التي لا تتزعزع ، على كونها مسالمة ، تواجه مصيرها بحزم . X

كان تعباً ، وكان سادراً ، وقد أمرّ يده ثلاث مرات امام عينيه، وكان النهار يؤذيه ، وقال داوبورن الذي كان يمصّ رأس قلمه لزميله في « المورننغ بوست » : « لقد اصيب بضربة الخيزران » . ورفع يده وقال بوهن :

– ان واجبي الاول ، الآن وقـد عدت ، هو ان اكتب تقريراً للحكومتين الفرنسية والانكليزية عن نتائج مهمّتي ، والى ان انجزه ، يصعب عليّ ان اقول عنه شيئاً .

وكان الظهر يلفّه بكفنه الابيض ، وكان داوبورن ينظر اليه ويفكر في دروب طويلة مقفرة بين صخور رمادية وصدئة تحت نار السماء . وأضاف العجوز بصوت اكثر وهناً :

– سأكتفي بما يلي : انني على ثقة من ان المعنيين جميعاً سيواصلون جهودهم ليحلوا مسألة تشيكوسلوفاكيا حلاً سامياً ، لان سلام اوروبا في عصرنا هذا متوقف على هذا الحل .

كانت تنقر فتات خبز على الخوان نقراً دقيقاً . وهي منزعجة قليلاً ، كما يحدث اذ تكون مصابة بزكام العلف ، وقد قالت لي : ان في معدتي كرة من الهواء ، وذرفت بعض الدمع ، من الذعر : ان ذلك سيعكّر كل عاداتها . فقلت لها : « في الاوقات الاولى . في الاوقات الاولى فقط » . وهي تفكر بأنها شقية ، وهذا البرد الخفيف الغامض في رأسها ، تحسبه شقاء . وهي تقف مستقيمة ، وتفكر بأنه لا يحق لها ان تسترخي ، وان جميع نساء فرنسا شقيات مثلها . انها لائقة ، هادئة ، مهيبة ، وهي تبدو إذ تضع ذراعيها الجميلتين على الخوان ، كأنها جالسة بأبهّة على صندوق حانوت كبير . وهي لا تفكر ، ولا تريد ان تفكر بأنها ستصبح أهدأ كثيراً مما هي ، بعد ذهابي . بمَ تفكر؟ بأن هناك لطخة صدأ على مقبض سكينها . وتقطّب حاجبيها ، وتحك اللطخة بطرف ظفرها الاحمر . ستكون اهدأ كثيراً . امها ، صديقاتها، المعمل ، السرير الكبير الخاص بها وحدها ، انها لا تكاد تأكل ، وهي ستقلي البيض فوق ركن من الفرن ، اما الصغيرة فلا يصعب تغذيتها ، فهناك الحساء دائماً ، وكنت اقول لها : ولكن اعطيني اي شيء ، الشيء نفسه دائماً ، ولا تحاولي ان تؤلّفي لوائح مختلفة ، فانا لا انتبه قط لما آكل ، فكانت تعاند : لقد كان ذلك واجبها .

– جورج ؟

– عزيزتي ؟

– هل تريد بزوراً مغلية ؟

– لا شكراً .

وشربت بزورها المغلية وهي تتنهّد ، وعيناها حمراوان . ولكنها لا تنظر اليّ ، وانما تنظر الى الخزانة ، لانها هناك ، تجاهها تماماً . وليس لديها ما تقوله لي ، او انها ستقول لي : حذار من البرد . ولعل الامر يبلغ بها ان تتخيلني هذا المساء في القطار ، شكلاً صغيراً هزيلاً مركوماً

في جوف القاطرة ، غير ان الامر يتوقف هنا ، اذ انه بعد ذلك أصعب مما ينبغي : انها تفكر بحياتها هنا . بأن ذلك سيخلّف فراغاً . فراغاً صغيراً جداً ، يا اندريه : اني قليلاً ما اترك ضجّة . كنت في اريكة ومعي كتاب ، وكانت تشمّ رائحة الجوارب، ولم يكن لدينا ما نقوله. ستكون الاريكة هنا دائماً - المهم ، هو الاريكة. وستكتب لي . ثلاث مرات في الاسبوع . بكل دقة . وستكـــون رصينة كل الرصانة ، وستبحث طويلاً عن الحبر والريشة ونظارتيها الشقراوين ، ثم تجلس بهيئة مهيبة امام هذه الطاولة غير المريحة التي ورثتها عن جدتها « فاسور » : « الصغيرة تنبت اسنانُهـــا ، امي تزورنا بمناسبة الميلاد ، ماتت السيدة السولان ، اميليان تتزوج في ايلول ، الخطيب ممتاز ،مسنّ بعض الشيء، يعمل في « التأمينات ». اما اذا اصيبت الصغيرة بالشهاق ،فانها ستخفي عني النبأ ، حتى لا تورث لدي القلق . « مسكين جورج ، ليس هو بحاجة الى ذلك ، فهو يقلق من أجل لا شيء» وسوف ترسل لي رزمة المقانق والسكر وكيس القهوة وكيس التنباك وزوج الجوارب الصوفية ، وعلبة السردين ، واقراص الميتا ، والزبدة المملحة . رزمة بين عشرة آلاف ، شبيهة بالعشرة الآلاف الاخرى ؛ فاذا اخطأوا واعطوني رزمة جاري ، فلن اتنبّه الى ذلك ، الرزم والرسائل وحساء جانيت المطبوخ، واللطخـــات على مقبض السكين . والغبار على الخزانة ، ان ذلك كله يكفيها ؛ وسوف تقول ، في المساء : انني تعبة ، ولا استطيع بعد أن أصمد . ولن تقرأ الصحف ؛ لن تقرأها اكثر مما تقرأها الآن : فهي تكرهها لأنها ورق منثور هنا وهناك ولا يمكن استعماله للمطبخ او للمرحاض قبل مضي ثمان واربعين ساعة . وستأتي السيدة هيبرتو حاملة لها الانباء، لقد احرزنا نصراً كبيراً ، او ان الامور لا تسير على ما يرام ، يا صديقتي الصغيرة ، الامور لا تسير . وقد سبق لهنري وباسكال ان اتفقا مع زوجتيهما على لغة مرقمة لينبئاهما اين يكونان : وذلك بوضع خطوط تحت

بعض الأحرف . غير ان الامر مع اندريه لم يكن مجدياً . ومع ذلك فقد حاول ، ليرى النتيجة :
– بوسعي ان ابلغك اين اكون .
فسألته في دهشة : – ولكن اليس ذلك ممنوعاً ؟
– طبعاً ، غير أننا سنتدبر الامر . فانت ستقرأين مثلا الاحرف الكبيرة، كما كان يحدث في حرب ١٩١٤ .
فقالت وهي تتنهد : – ان هذا معقّد جداً .
– ولكن لا ، سترين ، انه سهل جداً .
– نعم ، غير أنهم سيكشفون امرك ، فيضعون رسائلك في السلة ، ويأخذني القلق .
– ان الامر يستحق المخاطرة .
– اوه ! اذا شئت ، ولكنك تعلم يا عزيزي ، أنا والجغرافية ... سأنظر في خارطة ، فأرى دائرة تحتها اسم ، فماذا يجدبني ذلك ؟
وهكذا . وهذا أفضل، على نحو ما ، هـذا أفضل كثيراً ، فهي ستقبض راتبي ...
– هل اعطيتك النوكيل ؟
– نعم يا حبيبي ، لقد وضعته في الخزانة .
هذا أفضل كثيراً ؛ فلا بدّ انه امرٌ مزعج ان نترك شخصاً شديد نفاد صبر، كثير القلق ، ولا بدّ ان نُحسّ اننا مخطئون . ورفعت كرسيي.
– اوه ، كلا ، لا حاجة بك يا حبيبي الى ان تطوي منشفتك .
– صحيح .
ولم تسألني الى اين انا ذاهب . انها لا تسألني قط ذلك . وقلت لها:
– انني ذاهب لارى الصغيرة .
– لا توقظها .
لن اوقظها ؛ كنت اذا رغبت في ذلك ، أُخفق في احداث ضجة

كافية لإيقاظها ، فانا أخفّ مما ينبغي . ودفع الباب . وكان مصراعٌ قد انفتح ، فدخل منه أصيل طبشوريّ باهر ؛ وكان نصف الغرفة لما يزل في الظلّ ؛ غير ان النصف الآخر كان يبعث الشرارات تحت نور مغبّر ، وكانت الصغيرة نائمة في مهدها ، فجلس جورج بقربها ؛ شعرها الاشقر ، فمها الصغير النقيّ ، وهاتان الوجنتان المليئتان المتهدلتان قليلاً ، واللتان تجعلانها شبيهة بقاضٍ انكليزي . لقد بدأت تحبني ؛ وكانت الشمس تزداد انتشاراً ، فدفع المهد الى الوراء قليلا . أجل ، هكذا ! انها لن تكون جميلة ، فهي تشبهني . يا للطفلة المسكينة ، حبذا لو كانت تشبه أمها . انها ما تزال طرية ، فكأنها بلا عظام . ومع ذلك ، فهي تحمل في نفسها هذا القانون الصارم الذي كان قانوني ؛ ان الخلايا ستتكاثر وفق قانوني ، وستصلُب الغضاريف وفق قانوني ، وستتعظّم الجمجمة وفق قانوني . طفلة صغيرة هزيلة ذات ملامح فاقدة المعنى ، وشعر كاب ، وانحراف جانبي في الكتف اليمنى ، ونظر حسير ؛ انها ستعيش بلا ضجة ، ومن غير أن تلامس الارض ، متجنّبة الناس والاشياء بحيل عظيمة ، لانها ستكون أخفّ وأضعف من ان تزيحهم عن امكنتهم . يا إلهي ! يا لجميع هذه الاعوام التي ستجيئها ، واحداً بعد الآخر ، من غير هوادة ، وكل ذلك بلا جدوى ، ولا فائدة ، لان كل شيء مكتوبٌ هنا ، في لحمها ، وينبغي ان تعيش قدرها دقيقة دقيقة ، وان تظنّ انها تخترعه ، وهو في الواقع موجود هنا ، برمته ، يثير الاشمئزاز لسهولة التنبؤ به ، لقد أعديتها ، فلماذا ينبغي ان تعيش قطرةً قطرة كل ما سبق لي ان عشته ، ولماذا ينبغي دائماً ان يتكرّر كل شيء ، الى ما لا نهاية ؟ طفلة هزيلة ، روح صغيرة متبصّرة متورّعة ، تملك كل ما ينبغي لتتعذّب جيداً . اما انا ، فاني ذاهب ، فانا مدعوّ لاعمال اخرى ، وسوف تنمو ، هنا ، بعناد ، وبلا حكمة ، وسوف تمثلني . والشُهاق ، وفترات النقاهة الطويلة ، وذلك الحنق المسعور

الشقي برفيقاتها الجميـلات السمينات ذوات اللحم الوردي والمرايا التي ستنظر فيها وهي تفكر : هل اكون من القبح بحيث لا أُحبّ ؟ هذا كلّه ، يوماً بعد يوم ، مع الاحساس بسابق الرؤية ، اتكون يا الهي العظيم بحاجة اليه ؟ واستيقظت لحظة ، ونظرت اليه بفضول رضين ، وقد كانت هذه في نظرها لحظة جديدة تماماً ، وهي تعتقدها جديدة كل الجدّة . واخرجها من المهد وشدّها بين ذِراعيه بكل قواه : « يا صغيرتي ! يا طفلي الصغير ! . يا صغيرتي المسكينة ! » ولكنها خافت ، فبدأت تصرخ .

« جورج ! » قال من خلف الباب صوت مليء بالعتاب . واعاد الصغيرة بكل هدوء الى مهدها . ونظرت اليه لحظة اخرى، نظرة قاسية شرسة ثم انغلقت عيناها ، وانفتحتا وهما تطرفان ، ثم انعقدا تماماً . لقد بدأت تحبني . ينبغي ان اكون موجوداً هناك في كل ساعة ، ان اعوّدها على حضوري بعمق كبير حتى لا تستطيع بعد ان تراني . فكم يدوم هذا الفراق ؟ خمسة اعوام ، ستة اعوام ؟ سأجد فتاة حقيقية صغيرة تنظر اليّ مذعورة وتفكر : « أهذا بابا ؟ » وستشعر بالخجـل امام صديقاتها الصغيرات. هذا ايضاً ، قد عشته . حين عاد ابي من الحرب ، كنت في الثانية عشرة ؛ وكان بعد الظهر قد اكتسح الغرفة كلها تقريباً. بعد الظهر ، الحرب . لا بدّ ان تشبه الحرب بعد ظهر لا نهاية له . ونهض بلا ضجة ، وفتح النافذة برفق وسحب المصراع البرّاني.

الغرفة ١٩ ، هذه هي . لم تكن تجرؤ على الدخول ، وظلت واقفة امام الباب، وحقيبتها في يدها ، وهي تجهد في اقناع نفسها بأنها كانت تحتفظ ببعض الأمل. ولنفرض انها كانت بالمصادفة غرفة صغيرة جميلة، مع بساط تحت السرير ، وزهور في قدح ، مثلا ، على لوحة المغسلة! ان هذه امور تحدث ، فغالباً ما تلتقي بأشخاص يقولون لك : « في هذه الباخرة او تلك ، لا حاجة بك الى ان تستأجر درجة ثانية، فالثالثة

لا تقلّ فخامة واناقة عن الاولى » :
وفي تلك اللحظة ، ربما كانت « فرانس » هادئة ، وربما قالت : « آه ! حسنا ! هذه غرفة ليست كالاخرى . حبذا لو كانت الدرجة الثالثة هكذا دائماً ... » وخيّل الى « مود » انها كانت « فرانس » : فرانس مصالحة ، مائعة ، تقول : « اوه ! يمكننا ان نتـدبر الامر هكذا » ولكنها تظل مجلّدة ، في اعماق نفسها ، مجـلدة وخاضعة : وسمعت خطى ، ولم تكن تحب ان تفاجأ وهي تتسكع في الممرات ، فقد حدثت يوماً سرقة فاستجوبوها بطريقة مزعجة ، حين يكون المرء فقيراً . فيجب ان يتنبه للأمور الصغيرة ، لأن الناس لا يعرفون الشفقة. ووجدت نفسها فجأة في وسط الغرفة ، ولم تُصب بالخيبة ، فقد كانت تتوقع ذلك . ستة أمكنة : ثلاثة أسرة بعضها فوق بعض الى يمينها ، وثلاثة اخرى الى يسارها : « اجل ... ها نحن ذا ! » ولم يكن ثمة زهور على المغسلة ، ولا بساط تحت السرير ، فهذا لم تصدقه قط . ولم يكن ثمة كرسي ، ولا طاولة . وسوف يشعر اربعة اشخاص بالضيق فيها ، ولكن المغسلة كانت نظيفة . وكانت بها رغبة للبكاء ، ولكن لم يكن في ذلك فائدة : ما دام الامر متوقعاً . لم تكن فرانس تستطيع ان تسافر بالدرجة الثالثة ، فذلك هو الواقع الذي ينبغي الانطلاق منه، وليس فيه مجال للنقاش ، كما انه لا مجال للنقاش بان « روبي » لم يكن يستطيع السفر بالسكة الحديدية ، وهو يولي ظهره للمحرك. وربما كان ممكناً ان يميل المرء الى التساؤل لماذا كانت فرانس تصر على قطع تذاكر في الدرجة الثالثة . ولكن فرانس لم تكن تستحق اي عتاب على هذه الناحية : كانت تقطع تذاكر في الدرجة الثالثة لانها كانت تملك حسّ التوفير ، ولانها كانت تدير مالية جوقة « بابيس » بحكمة ؛ فمن ذا الذي يستطيع اذن يُنحي عليها باللائمة ؟ ووضعت « مود » حقيبتها على الارض ، وحاولت لحظة ان تثبت جذورها في الغرفة ، وان تتظاهر

بأنها نازلة فيها منذ يومين ، بحيث تبدو لها السرر والنافذة الصغيرة ورؤوس الحلزونات المطلية باللون الاصفر والتي تشوك الجدران ، مألوفة حميمة . وتمتمت في قوة : « انها جيدة جداً ، هذه الغرفة » ثم شعرت بالتعب ، فتناولت حقيبتها وظلت واقفة بين السرر من غير ان تعرف ما يجب ان تفعله ، فاذا بقيت فيجب ان أخرج امتعتي من الحقيبة ، ولكنني لن ابقى بالتأكيد ، واذا رأت فرانس اني بدأت ارتب اقامتي ، وهي تملك روح المناقضة ، فستجد سبباً آخر لتعزم على الذهاب . وكانت تحس نفسها مؤقتة في الغرفة ، وفوق هذه الباخرة ، وعلى الارض ؛ كان الربان طويلا سميناً ذا شعر ابيض . وارتعشت ، وفكرت : « سنكون مع ذلك في وضع مريح ، نحن الاربع ، ولكن ليتنا نستطيع ان نظل وحدنا . » غير انها كانت تكفيها نظرة لتفقد هذا الامل : فقد وضع أحدهم امتعته على السرير الايمن : سلة من خيزران مقفلة بقضيب صديء وحقيبة من ليف – لا ، بل من ورق مقوى – ذات زوايا مفتقة ؛ ثم انها سمعت ، زيادة في النحس ، صوتاً خفيفاً ، فرفعت عينيها فرأت امرأة في الثلاثين من عمرها ، ممتقعة جداً ، مقروصة المنخرين ، مغمضة العينين ، متمددة على السرير الاعلى من الجهة اليمنى . اذن ، فقد انتهى الامر . لقد نظر الى ساقيها حين كانت تمر على ظهر السفينة ، وكان يدخن سيكاراً ، وكانت تعرف جيداً هذا النوع من الرجال الذين تنبعث منهم رائحة السيجار وماء الكولونيا : هكذا ، سيأتين غداً ، صاخبات متزينات ، الى سطح الدرجة الثانية ، حين يكون الناس قد أخذوا امكنتهم ، وتعارفوا فيما بينهم واختاروا كراسيهم الطويلة القابلة للطي ، وسيسير روبي باستقامة ، رافعاً رأسه الضاحك الحسير النظر ، يتهادى مؤخره ، بينما تقول دوسيت بصوت ثاقب : « ولكن لا ، تعال يا ذئبي ، ما دام الربان هو الذي يريد ذلك » وسيتابعها بالنظر السادة المحترمون الجالسون على السطح ، وعلى ركبهم اغطية ، سيتابعونها

بنظر بارد ، وستطلق النساء افكاراً خبيثة لدى مرورهما ، وفي المساء ، سيلتقيان في الممرات ببعض السادة المفرطين في الود الذين لهم في كل مكان يد . فاذا بقينا يا إلهي هنا ، بين هذه السرر المصفحة الاربعة المطلية باللون الاصفر ، كنا في وضع طيب ، يا الهي ، وأصبحنا فيما بيننا .

ودفعت فرانس الباب ، ودخل روبي خلفها . وسألت فرانس بأقوى صوتها : « ألم يُنزلوا الامتعة ؟ »

فأومأت لها مود بأن تصمت ، وهي تشير الى المريضة . ورفعت فرانس عينيها الكبيرتين الصافيتين للتين لا جفون لها نحو السرير الاعلى، وظل وجهها متصلفاً لا تعبير فيه ، على مألوف عادتها ، ولكن مود فهمت ان القضية كانت خاسرة . وقالت مود في حماسة :

— لن نكون هنا في وضع سيء جداً ، فالغرفة قائمة في الوسط تقريباً : والاحساس بالتمايل والاهتزاز ادنى من امكنة اخرى .

لم يجب روبي الا بهز كتفيه ، وسألت فرانس بصوت متجرد :

— وكيف نتقاسم السرر ؟

— كما تشائين . (واضافت مود) هل تريدين ان آخذ السرير التحتاني ؟

ولم تكن فرانس تستطيع ان تنام اذا كانت تحسّ شخصاً فوقها ، فقالت :

— سنرى ، سنرى ...

وكان للربان عينان صافيتان مثلجتان في وجه أحمر . وفُتح الباب ، فبرزت سيدة ترتدي ثوباً اسود . فتمتمت ببضع كلمات وذهبت تجلس على سريرها ، بين الحقيبة والسلة . وكانت تبدو في الخمسين من عمرها، وهي ترتدي ثياباً فقيرة جداً فوق جلد مصفرّ متشقّق ، وكانت عيناها تبدوان وكأنهما خارجتان من رأسها . ونظرت اليها مود وفكرت ..

« انتهى الامر . » وأخرجت أصبع أحمر من محفظتها فأخذت تعيد صبغ شفتيها . ولكن فرانس نظرت اليها من زاوية العين نظرة رضى شديد حتى ان مود احست بالانزعاج فتركت اصبع الاحمر يسقط في محفظتها .
وساد صمت طويل لم يكن غريباً على مود : فقد سبق له ان ساد في غرفة شبيهة كل الشبه ، حين كانت في الباخرة « سان جورج » الى طنجه ، وقبل ذلك بعام ، على ظهر « تيوفيل غوتيه » حين ذهبن يمثلن على مسرح « البوليتون » في « كورانتيا » . وتعكر الصمت فجأة من جراء خنة خفيفة غريبة : كانت المرأة ذات الثوب الاسود قد سحبت منديلها ونشرته ثم وضعته على وجهها : كانت تبكي بغير عنف ، ولكن بغير احتراس ايضاً ، كمن يستسلم لأزمة قادمة تدوم طويلا .
وبعد فترة ، فتحت سلتها واخرجت منها قطعة خبز مزبدة ، وقطعة لحم مشوي وزجاجة ترموس ملفوفة بمنشفة . وأخذت تأكل وهي تبكي ، وفتحت الزجاجة فسكبت منها قهوة حارة في الغطاء ، وفمها ممتلىء ، ودموع كبيرة ملتمعة تسيل على خديها . ونظرت مود الى الغرفة بعينين جديدتين : انها قاعة انتظار ، لا اكثر من قاعة انتظار في محطة صغيرة حزينة من محطات الريف . المهم الا يكن داعراً . ونشقت وارتدت برأسها الى خلف بسبب « الرتل » ، وكانت فرانس تنظر اليها ، من جانب ، ببرود . وقالت فرانس بصوت مرتفع :
ــ هذه الغرفة أصغر مما ينبغي ، فلن نرتاح فيها ابداً . كانوا قد وعدوني في كازابلانكا بان نكون وحدنا في غرفة لستة امكنة .
كانت المشكلة تبتدىء ، وكان في الجو شيء ينذر بالشؤم ؛ وقالت مود بصوت منخفض :
ــ بوسعنا ان ندفع على التذاكر مبلغاً إضافياً .
فلم تجب فرانس . وكانت قد جلست على السرير الايسر وبدت وكأنها تفكر . وبعد لحظة ، أشرق وجهها وقالت بمرح :

ــ اذا اقترحنا على الربان ان نقدم حفلة مجانية في قاعات الدرجة الاولى ، فربما وافق على نقل امتعتنا الى غرفة افضل ؟

فلم تجب مود : كان على روبي ان يجيب . وقل روبي بحيوية :

ــ فكرة ممتازة .

فارتعشت مود فجأة ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها . والتفتت الى فرانس وقالت بصوت مبتهل :

ــ هيا يا فرانس ! انت رئيسة فرقتنا ، وعليك انت ان تذهبي لرؤية الربان .

فقالت فرانس في دعابة :

ــ كلا يا عزيزتي .. فماذا تأملين من امرأة مسنة مثلي اذا ذهبت لترى الربان ؟ سيكون اوفر لطفاً مع غندورة صغيرة في مثل عمرك .

رجل طويل أحمر الوجه ذو شعر ابيض وعينين رماديتين . ولا بد انه نظيف الى حد بعيد من الدقة ، فقد كان يبـــدو كذلك دائماً . ومدت فرانس ذراعها وضغطت على زر الجرس وقالت :

ــ الافضل ان ننهي المسألة على الفور .

وكانت المرأة ذات الثوب الاسود ما تزال تبكي . ورفعت رأسها فجأة وبدت كأنها تلاحظ وجودهم ، ثم سألت في قلق :

ــ أتراكم ستغيرون غرفتكم ؟

فنظرت اليها فرانس نظرة مثلجة . وأجابت مود بحيوية :

ــ ان معنا أمتعة كثيرة يا سيدتي . فسوف يضيق بنـــا المكان وسوف نزعجك .

قالت السيدة : ــ انكم لا تزعجونني . فانا احب الرفقة .

وطُرق الباب فدخل الخادم ، وفكرت مود « انتهى الامر » وأخرجت اصبع الاحمر وعلبة الابيض ، فاقتربت من المرآة وأخذت تتزين باهتمام

وقالت فرانس :

– هل لك ان تسأل الربان اذا كانت لديه دقيقة ليستقبل الآنسة مود اسيني من جوقة « بابيس » .

فقال – كلا ، كلا . اراهنك ان لا .

أرائك الخيزران ، ظل شجر الدلب . كان دانيال يستحم في ذكريات قديمة ضجرة ؛ في فيشي ، عام ١٩٢٠ ، كان غافياً في اريكة من خيزران ، تحت اشجار الحديقة الكبيرة ، وكانت على شفتيه بسمة المجاملة نفسها ، وكانت امه تسرد بالقرب منه ، وكانت مارسيل تسرد بالقرب منه جوارب للصغير ، وكانت تحلم احلاماً حول الحرب/: فكان نظرها غائماً شارداً . الطنين الابدي للذبابة الضخمة ، كم انقضى من الوقت منذ ايام فيشي وهذه الذبابة ما تنفك تطن،وتنبعث رائحة النعنع ، وخلفهم ، كان في صالون الفندق من يوقع على البيانو ، منذ عشرين عاماً ، منذ مئة عام . بعض اشعة الشمس على الاصابع ، تجعد زغب السلاميات ، وكانت بعض اشعة الشمس تسخن ، في قعر الفنجان الفارغ ، مستنقع قهوة وصخرة سكّر سمراء دقيقة ذات الف رأس ملتمع . وسحق دانيال قطعة السكر ، بدافع من رغبة شرسة لانه يحس تحت ملعقته هذا الانهيار للرمل وهو يصر . وكانت الحديقة تتداعى للانحدار برفق نحو النهر ، والماء فاتر بطيء ، ورائحة النبات مسخنة ، ومجلة « لاريفو دي دوموند » قد تركها السيد دولسيتّراغ ، الكولونيل المتقاعد ، على طاولة تقوم في الناحية الاخرى من الدرج . الموت ، الخلود ، لن نفلت منه ، الخلود العذب الناعم ، الاوراق الخضر الدبقة ، فوق الرؤوس ؛ التلة الصغيرة الخالدة للاوراق الاولى الميتة . وكان اميل ، الحي الوحيد ، يقلب الارض تحت شجر الكستناء . كان ابن اصحاب الملك ؛ وكان قد رمى بالقرب منه ، على حافة الحفرة ، كيساً من الكتان الرمادي . وكان في الكيس « زيزي » الكلبة الميتة : كان اميل

يحفر لها قبرها ، وعلى رأسه قبعة كبيرة من القش ؛ وكان العرق يلتمع على ظهره العاري . كان فتى صغيراً متوحشاً ذا وجه فظ ، هو صخرة مع شقين افقيين مزبدين بدلاً من العينين ، وكان في السابعة عشرة . وكان قد بدأ يرفع تنانير الفتيات ، وكان بطلاً محلياً في لعبة البليار ، وكان يدخن السيكار : ولكنه كان يملك هذا الجسم اللذيذ الذي لا يستحقه .

قالت مارسيل :

ـ آه ، ليتني اجرؤ على تصديقك ..

طبعاً . طبعاً لم تكن تجرؤ على ان تصدقه . ومع ذلك ، فما عسى ان يؤثر فيها ، تلك ، ان تقع الحرب ؟ انها تزدد سماً في ثقب ما من الريف . أتراها لن تهرب ؟ وسوف تفوت ساعة القيلولة . كان يضغط قدمه على المقلب ويثقل بكل قواه . ما اشهى ان توضع اليدان بعذوبة على الجنبين ، وان تصعدا . وهما تضغطان قليلاً ، كما يفعل المدلل ، فيما هو يقلب الارض ، وان تلامسا العضلات الظهرية في الذهاب والاياب ، وان تغمسا أطراف الاصابع في ظل الإبطين الرطب . ان عرقه يشبه رائحة الصعتر . وشرب جرعة من عصير الفاكهة .

قالت مارسيل :

ـ ستقع أشياء جميلة جداً : وها هي النغبثة في باديء الأمر .

ـ ولكن كيف يمكن لك يا عزيزتي مارسيل ، ان تنخدعي بذلك؟ ان « الهوم فليت » ستقوم برحلتها الصغيرة في بحر الشمال ، وسيجند مئتا الف رجل في فرنسا ، وسيحشد هتلر اربع فرق مصفحة على الحدود التشيكية ، وبعد ذلك تقر عيون هؤلاء السادة ، ويسعهم ان يتحادثوا بهدوء حول طاولة .

أجساد النساء ، يمكن الإمساك بها . مطاط ، لحم منزوع عظمه ، تمتليء منه يداك باكثر مما تود . اما ذلك الجسم ، فقد كان ينادي

أصابع نحّات تلامسه ، وينبغي اتخاذه نموذجاً للنحت . واستقام دانيال فجأة في اريكته ، وأدار نحو مارسيل عينين ملتمعتين . هذا لا يُعمل، فتلك دعارة ، وانا لم ابلغ بعد سنها . انني أشرب قدح عصير ، واتحدث بجد عن الحرب الآتية ، وفي هذه الاثناء يلامسُ النظر ، في غير ما اكتراث ، ظهراً فتياً عارياً ، ردفاً مشرئباً بعض الشيء ، ويتطفل على جميع الخطوط التي يمنحها أصيل يوم صيفي . فلتأتِ الحرب ، لتأت إذن ، كي تقهر عينيّ وتغرقهما في محجريهما ، لتكشفَ لهم اخيراً عن اجسام ملطّخة ، دامية ، مقطعة ، لتنتزعني من الابدي، من الشهوات الابدية الصغيرة المائعة ،من البسمات ، من ظلال الاوراق، من طنين الذباب ، نبعٌ من نار يصعد الى السماء ، لهب يحرق الوجه والعينين ، حتى ليحسب المرء ان خديه يُنتزعان ، لتأت اخيراً اللحظة التي ليس لها من اسم ولا تذكّر بشيء .

وقالت مارسيل في تسامح لطيف ، ولم تكن تقدّر قط كفاءتها السياسية :

ــ ولكن لنفكر : ان المانيا لا تستطيع ان تتراجع ، أليس كذلك؟ وقد وصلنا نحن الى حدّ التنازلات، فماذا بعد ؟

فقال دانيال بمرارة : ــ لا تخافي ، سنقدم على جميع التنازلات الواجبة ، فليس هناك من حد . ثم ان المانيا يمكنها ان تسمح لنفسها بترف التراجع ، فمن ذا الذي يجرؤ على ان يسمي ذلك تراجعاً ؟ سيقال انه كرم وتسامح .

كان اميل قد نهض ، وكان يمسح جبينه بظاهر يده ، وكان إبطه يلتهب تحت الشمس وكان ينظر الى السماء باسماً ، كأنه ربٌ،ربّ فتي ! وجرح دانيال ذراع اريكته بظفره : كم مرة ، يا الهي ، كم مرة يا الهي قال : رب فتي ، وهو يتأمل مراهقاً في الشمس . كلمات تكتمها عمة عجوز في صدرها ؛ انني لوطيّ ، كان يقولها ، وكانت ما تزال

كلمات ، فلم تكن لتمسه ، وفكر فجأة : ماذا تستطيع الحرب ان تغير في ذلك ؟ سيكون هنا ، جالساً على حافة منحدر ، في فترة هـدأة موقتة ، وسينظر في شرود الى ظهر عار لجندي يقلب الارض او يبحث عن قمله ، فتتمتم شفتاه من تلقاء نفسهما ، وهما ممطوطتان : رب فتي ؛ ان الجميع يثورون في كل مكان .

وقال فجأة : — ثم اننا قائمون هنا نقلق انفسنا . وحين تبدأ الحرب؟ أتصور أننا ينبغي ان نعيش كل اسبوع باسبوعه آنذاك .

قالت مارسيل وقد بدا عليها مثل الذعر :

— اوه ! دانيال ... كيف يمكنك ان تقـول ذلك ؟ سيكون الوضع ... مريعاً .

كلمات . دائماً . كلمات .

وقال دانيال وهو يبتسم : — إن ما هو مريع ، أن ليس هنـاك قط ما هو مريع حقاً . ليس ثمة درجات قصوى .

ونظرت اليه مارسيل في شيء من الدهشة ، وكانت عيناها كابيتين متوردتين : كان النعاس يستولي عليها ، هذا ما فكر به دانيال في رضى .

— لو قلت لي ان هذه آلام نفسية ، لفهمت . ولكن هناك الاماً جسدية يا دانيال ..

قال دانيال وهو يهددها باصبعه :

— آه ! لقد بدأت منذ الان تفكرين بآلامك القـادمة . حسناً ، سترين ! سترين ! انا اتصور ان هذا ايضاً مغالى به جداً .

فابتسمت له مارسيل وهي تخنق تثاؤبه . وقال دانيال وهو ينهض :

— هيا ، المهم الا تعذبي نفسك يا مارسيل . انظري ، ها انت، من اجل لا شيء ، تفوتين عليك ساعة القيلولة . انك لا تنـامين نوماً كافياً ؛ وعلى من كان في وضعك ان ينام كثيراً .

فقالت مارسيل وهي تتثاءب وتضحك معاً :

ـ أنا لا انام نوماً كافياً ؟ على العكس ، انني خجلة لاني لا اقرأ بعد شيئاً ، وانما اقضي النهار فوق سريري .

ففكر دانيال : « من حسن الحظ »وهو يقبّل طرف اصابعها وقال :

ـ أراهن أنك لم تكتبي للسيدة امك .

قالت :

ـ هذا صحيح . انني ابنة رديئة (وتثاءبت وأضافت) سأفعل ذلك قبل ان انام .

فقال دانيال بحيوية :

ـ لا ، لا . استريحي على الفور . فانا الذي سأرسل لها كلمة .

قالت مارسيل متأثرة مفتونة :

ـ اوه ! يا دانيال : كلمة من صهرها ، كم ستكون فخورا !

ورقيت الدرج وهي تتهادى ، فعاد يجلس في اريكته . وتثاءب ، وسال الزمن ، ثم لاحظ انه كان يستمع الى البيانو . ونظر الى ساعته : كانت الساعة الثالثة والخامسة والعشرين ، وسوف تهبط مارسيل في الساعة السادسة لتقوم بنزهتها المشهّية للاكل . وقال لنفسه في شيء من الخوف المبهم : ان امامي ساعتين ونصفاً . فيما مضى كانت وحدته كالهواء الذي يتنفسه الانسان ، وكان ينعم بها من غير ان يراها . اما الآن ، فإنه يُعطاها اطرافاً صغيرة لاهثة ، ولا يعرف بعد ما عساه يفعل بها . غير ان اعجب ما في الامر ، ان ضجري يخف بالاحرى حين تكون مارسيل حاضرة . وقال في نفسه : لقد اردت ذلك ، لقد اردته ! وكان ما يزال في كأسه بعض شراب العصير فشربه . حين قرر ذلك المساء من حزيران ان يتزوجها ، كان يختنق من الضيق ، وكان يحسب انه يغرق في الهول . حدث ذلك كله لينتهي الى ما انتهى اليه هنا ، في اريكة الخيزران ، الى مذاق العصير يفسُد رويداً رويداً في فمه ، والى هذا الظهر العاري ، وسيكون الشأن في الحرب شبيهاً ،

ان الهول مرصود دائماً لليوم التالي . انا المتزوج ، انا الجندي : انني لا اجد سواي . حتى ولا انا : وانما سلسلة من الجري العجيب ، من الحركات الصغيرة المبعدة عن المركز ولا مركز . ومع ذلك فهنالك مركز : هو انا ، انا — والهول هو الوسط . ورفع رأسه ، وكانت الذبابة تطن على مستوى عينيه ، فطردها . فرار آخر . حركة صغيرة من يده ، لا شيء تقريباً ، ومع ذلك كن يفر ، ماذا تهمني هذه الذبابة ؟ ليتني اكون من حجر ، جامداً ، لا احس ، بلا حركة ، ولا ضجة ، أعمى اصم ، والذباب وابو المقص والدعسوق تصعد على جسمي وتهبط ، تمثالاً فظاً ذا عينين بيضاوين ، بلا هدف ولا هم ، فربما نجحت في ان انطابق مع نفسي . ليس ذلك من اجل ان اقبل نفسي ، كلا ، وانما من اجل ان اكون اخيراً موضوع كرهي بالذات . وحدث تمزق ، اربع انغام من احدى معزوفات البولونيز ، وبرق هذا الظهر ، هناك ، وتنمل في ربلة الابهام ، ثم اشبه نفسه من جديد . ليتني اكون ما انا ، اكون لوطياً ، شريراً ، جباناً ، اكون اخيراً هذا القذر الذي لا يبلغ حتى ان يوجد . وقرب ما بين ركبتيه ، ووضع باطن يديه على فخذيه ، واخذته الرغبة في ان يضحك : لا بد ان هيئتي هيئة عاقلة ، وهز كتفه : أبله ! ليتني أكف عن الاهتمام بهيئتي ، وعن النظر الى نفسي خصوصاً ، فأنا اثنان حين انظر الى نفسي . ليتني اوجد . في الظلام اتفاقاً . وأكون لوطياً ، كما تكون السنديانة سنديانة . وانطفىء . وأطفيء النظر الداخلي . وفكر « أطفيء » ، وانفجرت الكلمة كالرعد وانتشرت اصداؤها في قاعات فارغة هائلة . ليت بالامكان طرد الكلمات ، فهي تفرخ طائفة من وقف التنفيذ ، وكان كل منها يعطيه موعداً في نهاية نفسه ... وحدث تمزق جديد ، فوجد دانيال نفسه وسنان ضجراً ، شخصاً ليس امامه الا ساعتان ، وهو يتلوى كما يطيق . ليتني اكون كما يرونني ، كما يراني ماتيو — ورالف برأسه الصغير القذر ، واطرد

الكلمات كما اطرد البرغش . واخذ يعدُّ في ذهنه : واحد ، اثنان ، وجاءته كلمات : تسلية مصطاف . ولكنه عدَّ باسرع من ذي قبل ، وقرب حلقات السلسلة فعجزت الكلمات عن المرور . خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية . الاعماق البحرية ، كانت هناك صورة متلبدة ، قبيحة ، تألفها تلك الاعماق السفلى ، عنكبوت بحري ، وكانت تتفتح ، اثنان وعشرون ثلاثة وعشرون ، ولاحظ دانيال انه كان يحبس نفَسه ، فحرره ، سبعة وعشرون ، ثمانية وعشرون ، وكان ذلك ما يزال يقلب الارض ، هناك على صفحة الماء : الصورة كانت جرحاً مفتوحاً ، فما مرأ ، وكانت تنزف ، انها انا ، اما الشفتان المفترّتان ، والدم الذي يقرقر بين الشفتين ، ثلاثة وثلاثون ، وكانت الصورة مألوفة لديه ، ومع ذلك فهو يكوّنها للمرة الاولى . لا بد من طرد الصور ايضا ، كان مأخوذاً بخوف خفيف غريب . ليتني استطيع ان انسرب ، ان أنداعى للانسرب كما يحدث حين يود المرء ان ينام . ولكني سأنام ! ونفض نفسه ، وعام على السطح . اي سكوت في الخارج ، هذا السكوت الساحق ، نصف الميت ، الذي كان يبحث عنه عبثاً في نفسه ، كان هناك في الخارج ، وكان يبعث على الخوف . وكانت الشمس المتناثرة تغطي الارض بدوائر متحركة صفراء ، الكلبة الميتة ، ضجة النهر هذه على رؤوس الشجر ، الظهر العاري ، القريب جداً ، البعيد جداً ، وكان يشعر انه غريب عن نفسه غرابة مريعة حتى انه ترك نفسه يمضي من جديد ، ويسيل الى خلف ، وها هو ذا الان يرى الحديقة من تحت ، كغاطس يرفع رأسه وينظر الى السماء عبر الماء . لا ضجة ، ولا صوت ، أي صمت حوله ، فوقه ، تحته ، وهو وحده ثقب صغير ثرثار وسط هذا الصمت . واحد ، اثنان ثلاثة ، لا بد من طرد الكلمة ، وليعبر صمت الحديقة . ولينضمّ وليتوحّد عبري ، حتى يساوي نفَسي . وليسحق كل عمود هوائي رويداً وبعمق ، الكلمات التي تحاول ان تولد ، يسحقها على غرار المكبس ، ليتني

اكون كالشجرة ، كالظهر العاري ، كالدوائر الهلالية المرتعشة فوق الارض الوردية . حبذا لو اغمض عيني : فان العيون تنفذ الى ابعد مما ينبغي ، خارج اللحظة ، خارج نفسي ، فتحط هناك على الورق ، على هذا الظهر : ان النظر المطارد ، الهارب ، المنسرب ، المنتهي في نهاية نفسه ابداً ، يجس من بعيد . ولكنه لم يجرؤ على اغماض جفنيه : فلا بد ان اميل كان ينظر اليه من تحت ، بين الفينة والفينة ، فاذا فعل ، فسوف يظهر بهيئة سيد مسن اخذه النعاس الهضمي ، فالافضل ان يركز نفسه على شيء ، وان يعطي عجيزته للنظر ، فيضبطه ويغذيه وينسرب في داخله ذاته ، متحرراً من العيون ، في ليلي الكثيف ، وحدق في حاشية الحديقة ، الى الشمال ، فاذا هي حركة كبيرة خضراء مسمرة : موجة مجمدة في اللحظة التي تنتثر فيها ، والنظر الشارد ، المرتد بلا انقطاع من ورقة الى اخرى . كان يذيب نفسه في هذه البرقشة النباتية ، واحد « شهيق » اثنان « زفير » ثلاثة « شهيق » اربعة « زفير » . وكان يهبط وهو يستدير ، والتقى في الطريق برغبة ناغلة بالضحك ، انني اقوم بدور الدرويش ، شريطة الا أبتلع لساني ، وكان قد اصبح فوقه ، وكان يتوغل فيلتقي بكلمات في اسمال : خرف ، تحد ، كانت تصعد من جديد الى السطح . تحد نحو السماء الصافية ، يفكر فيه من غير صورة ، ولا كلام . وهو يأتي منفتحاً كفم ميزاب . وتحت الشفق ، طلب مر ، ابتهال غير مجد . ايلي ، ايلي ، لاما ساباشتاني ، تلك كانت آخر الكلمات التي التقى بها ، وكانت تصعد كفقاعات خفيفة ، وكانت تلاوين حاشية الحديقة الخضراء هناك ، غير مرئية ولا مسماة ، امتلاء حضور ازاء عينيه ، يجيء ويستمر في المجيء . وشقه ذلك كالمنجل وكان عجيباً ، موئسا ، لذيذاً . مفتوح ، مفتوح ، القشرة تنفجر ، مفتوح ، مفتوح ، ممتليء ، انا نفسي للابد ، لوطي ، شرير ، جبان . انهم يرونني ، لا ، حتى هذا لا : وانما ذلك يراني . كان موضوع نظر .

نظر كان يعيث فيه حتى الاعماق ، ينفذ اليه كضربات سكين ، ولم يكن نظرة . نظر كثيف ، هو الليل بذاته ، ينتظره هناك ، في اعماق نفسه ويحكم عليه بأن يكون هو نفسه ، جباناً ، منافقاً ، لوطياً الى الأبد. هو نفسه ، خافقا تحت هذا النظر ومتحدياً هذا النظر . النظر . الليل . كما لو ان الليل كان نظراً . انني مرئي. شفاف ، شفاف ، مخترق. ولكن من قبل من ؟ قال دانيال بصوت مرتفع : لست وحدي . فاستقام اميل . وسأل :

– ماذا هناك ، ياسيد سيرينو ؟

فقال دانيال – كنت اسألك عما اذا اوشكت ان تنتهي .

فقال اميل – اكاد انتهي : بعد دقيقتين .

ولم يكن يتعجل العودة الى قلب الارض ، بل كان ينظر الى دانيال في فضول وقح . ولكن ذلك كان نظراً انسانياً . نظراً كان من الممكن النظر اليه . ونهض دانيال ، وكان يرتعش خوفاً :

– الا يرهقك ان تعمل في وضح الشمس ؟

فقال اميل – لقد اعتدت .

وكان له صدر جذاب ، ممتلىء بعض الشيء ، ذو نقطتين صغيرتين ورديتين ، وكان يستند على مقلبه بهيئة اثارة ، في ثلاث خطوات ... ولكن كان ثمة ذلك التلذذ الغريب الغريب الذي كان أعنف من جميع الشهوات ، كان هناك ذلك النظر . وقال دانيال :

– إن الحر اثقل من ان اطيقه . واظن اني صاعد لارتاح لحظة .

وحنى رأسه قليلاً ورقي الدرج . كان فمه جافاً ، ولكنه كان مصمماً : ففي غرفته ، بعد اسدال الستائر ، واغلاق المصاريع ، سيعيد التجربة .

الساعة ١٧،١٥ في سان فلور ، كانت السيدة هانوكين تصطحب زوجها الى المحطة ، وكانا قد سلكا الطريق الشديدة الوعورة . وكان

السيد هانوكين يرتدي بدلته الرياضية ويحمل مزماره على جنبه ، وقد انتعل حذاء جديداً كانت فرجته تجرحه . وفي منتصف الطريق ، التقيا بالسيدة كالفيه التي كانت واقفة بالقرب من بيت كاتب العدل لتلهث قليلاً . وقالت حين لمحتهما :

— آه ! يا للساقين المسكينتين ! انني اصبح امرأة عجوزاً .

قالت السيدة هانوكين : — بل انت انضر من اي وقت آخر . انني لا اعرف كثيرين يسلكون الطريق الوعرة من غير ان يستردوا انفاسهم .

وسألت السيدة كالفيه : — والى اين تراكما تركضان هكذا ؟

قالت السيدة هانوكين :— آه يا عزيزتي جان . انني اصحب زوجي ، فهو ذاهب : لقد استدعاه الجيش .

فقالت السيدة كالفيه — غير ممكن . انني لم اكن اعرف هذا ! إذن اذن (وخيل الى السيد هانوكين انها كانت تنظر اليه باهتمام خاص) لا بد أن يكون امراً قاسياً ان تذهب في مثل هذا اليوم الجميل .

قال السيد هانوكين :—من يدري ! لابأس !

وقالت السيدة هانوكين :— انه شجاع جداً .

قالت السيدة كالفيه وهي تبتسم للسيدة هانوكين :

— من حسن الحظ . هذا ما كنت اقوله امس لزوجي : سيذهب الفرنسيون جميعاً بشجاعة .

واستشعر السيد هانوكين الفتوة والشجاعة ، وقال:

— اعذرينا ، لقد آن لنا ان نذهب .

فقالت السيدة كالفيه :— اذن الى اللقاء القريب .

قالت السيدة هانوكين وهي تهز رأسها : — آه الى اللقاء القريب .

فقال السيد هانوكين بقوة : — بلى الى اللقاء القريب ! الى اللقاء القريب !

واستعادا سيرهما ، وكان السيد هانوكين يمشي بخطوة حية ، فقالت له السيدة هانوكين : — مهلاً يا فرانسوا ، فأني لا استطيع ان أتبعك ، بسبب قلبي .

والتقيا الماري التي كان ابنها يؤدي الخدمة العسكرية : فصاح بها السيد هانوكين :

— اليس لديك ما تريدين ان تقوليه لابنك ، ايتها الماري ؟ فربما التقيت به ، انني اعود جندياً .

فبدت الماري مبهوتة ، وقالت وهي تضم يديها :

— يا يسوع !

فبعث لها السيد هانوكين باشارة خفيفة ودخلا المحطة .

وكان شارلو هو الذي يثقب التذاكر ، فسأل :

— واذن ياسيد هانوكين ، انه اليوم بوم الكبير ، هذه المرة ؟

فأجابه السيد هانوكين وهو يبسط له التذكرة :

— بل هو الزيمبادابوم ، وورومبا الحب .

وكان كاتب العدل ، السيد بينو ، على المحطة ، فصاح بهما من بعيد :

— اذن انت ذاهب للقصف في باريس ؟

فقال السيد هانوكين — نعم ! او لألقي القنابل في نانسي (واضاف باقتضاب) : لقد استدعيت .

قال كاتب العدل : — هكذا اذن ! هكذا اذن ! ولكن قل لي : هل لديك الكراسة رقم ٢ ؟

— اجل

قال : — هيا ، ستعود الينا عما قريب ، فهذا كله شيء مصطنع .

فاجاب السيد هانوكين بجفاء :

— لا اعتقد هذا . فعندك في الدبلوماسية ، كما تعلم ، من تلك

الظروف التي تبدأ بالمزاح وتنتهي بالدم :
ــ وهل ... يدفعك هذا الى القتال من اجل التشيكيين ؟
فاجاب السيد هانوكين ــ التشيكيين او غير التشيكيين ، ان الناس يقاتلون دائما من اجل ملك بروسيا .
وضحكا وتبادلا السلام . وكان قطار باريس يلج المحطة ، ولكن السيد بينو تمهل ليقبل يد السيدة هانوكين .
وصعد السيد هانوكين الى حافلته من غير ان يستعين بيديه ، ورمى عزماره على مدي يده في الركن الذي كان قد حجزه ، وعاد الى الممر فأخفض الزجاج وابتسم لزوجته .
وقال :
ــ كوكو ، هأنذا ! انني في حالة جيدة، وهنا مكان متسع جداً، فاذا ظل كذلك ، كان بامكاني ان امد ساقي لانام .
ــ اوه ! سيصعد ركاب في كليرمون .
ــ اخشى ذلك .
وقالت له : ــ اكتب لي . كلمة صغيرة كل يوم : ولا حاجة لأن تكون طويلة .
ــ اتفقنا .
ــ لاتنس ان تلبس زنارك الفلانيل ، ارضاء لي .
فقال في مهابة جادة :ــ اقسم لك بذلك.
ونهض فعبر الممر وهبط الى العتبة ، وقال :
ــ قبليني يا عزيزتي .
وقبلها على خديها المترهلين . فذرفت دمعتين . وقالت :
ــ يا آلهي ... هــذه المتاعب كلها ... هل كنا بحاجة الى هذا ؟
فقال : ــ هيا ! هيا ! شت ! هل تريدين أن ...

وصمتا . وكان يبسم لها، وكانت تنظر اليه وهي نبتسم وتبكي قليلاً، ولم يبق لديهما شيء يقولانه . وكان السيد هانوكين يتمنى لو ينطلق القطار باسرع ما يمكن .

الساعة السابعة عشرة والدقيقة الثانية والخمسون في « نيور » . عقرب الساعة الكبير يتحرك في رعشات كل دقيقة وينوس قليلاً ثم يقف . القطار اسود ، المحطة سوداء . السناج . لقد حرصت على المجيء . بدافع الواجب . وقد قلت لها : « لا حاجة بك الى المجيء ، فنظرت الي نظرة مدهوشة : « ولكن كيف يا جورج ؟ ان هذا غير معقول» فقلت لها : « لا تبقي اطول مما ينبغي . انك لا تستطيعين ان تتركي الصغيرة وحدها . » قالت : « سأطلب من الأم كورنو ان تسهر عليها. ساضعك في القطار ، ثم اعود . » وهي الآن هنا ، أنحنى عند نافذة حافلتي وانظر اليها . ان بي رغبة للتدخين ، ولكني لا اجرؤ ، وافكر بأن ذلك لن يكون محتشماً . وهي تنظر الى نهاية الرصيف ، حامية بيدها عينيها ، بسبب الشمس ، ثم تذكر بين الفينة والفينة أني هنا ، وأن عليها ان تنظر الي . وترفع رأسها وتضع عينيها علي ، وتبتسم لي ، وليس لديها ما تقوله لي . والحق اني كنت قد ذهبت :

— وسائد ، أغطية ، برتقال ، عصير ، سندويش .

— جورج ؟

— حبيبي ؟

— هل تريد برتقالا ؟

ان قربة مزماري مليئة حتى لتنفجر . ولكنها راغبة في أن تعطيني شيئاً . لأني ذاهب . فاذا رفضت ، انتابها الندم . انني لا احب البرتقال .

— لا ، شكراً

— اوه ، لا ؟

ـ حقاً لا . انت لطيفة جداً .

بسمة ممتقعة . لقد قبلت منذ لحظة هاتين الوجنتين الباردتين الريّانتين ، وزاوية هذه البسمة . وقد قبّلتني ، فشعرت من ذلك ببعض الخجل : لِمَ هذه القصص كلها ؟ ألأني ذاهب يا إلهي ؟ هناك كثيرون ذاهبون، صحيح ان هناك من يقبّلهم أيضاً . فما اكثر النساء الجميلات الواقفات هكذا ، عند الشمس الغاربة ، في الدخان والسناج ، رافعات بسمة مصبوغة نحو رجلٍ منحنٍ عند نافذة حافلته ! ثم ماذا ؟ اننا نحن، لا بد ان نبدو مضحكين بعض الشيء : فهي جميلة اكثر مما ينبغي ، باردة اكثر مما ينبغي ، وانا قبيح اكثر مما ينبغي .

وقالت ، وكانت قد قالتها ، ولكن لا بدّ من ملء الوقت : « اكتب لي ، ما استطعت الى ذلك . لا حاجة الى ان تكون الرسائل طويلة جداً .. »

لن تكون طويلة . فلن يكون عندي ما أقوله ، ولن يحدث لي شيء، ذلك أنه لا يحدث لي شيء قط. ثم اني سبق ان رأيتها تقرأ الرسائل ، بهيئتها الجادّة ، المهتمّة ، المضجرة ؛ انها تضع نظارتيها على طرف أنفها ، وتقرأ بصوت منخفض ، لنفسها ، وتجد وسيلة لتقفز بعض الأسطر .

ـ اذن سأقول لك يا حبيبي المسكين الى اللقاء . حاول ان تنام قليلاً ، هذه الليلة .

أجل ، يجب ان يُقال شيءٌ ما . ولكنها تعلم اني لا انام ابداً في القطار . وهي سوف تردّد ذلك بعد حين للأم كورنو : « لقد ذهب . كان القطار غاصاً . يا لجورج المسكين ، ارجو مع ذلك ان يستطيع النوم » .

انها تنظر حولها ، نظرة شقية ؛ وقبعتها القشّية الكبيرة تتحرك على رأسها . وتوقف بالقرب منها شاب وامرأة شابة .

– يجب ان اذهب ، من اجل الصغيرة (تقول هذا بصوت مرتفع بعض الشيء ، بسببها . انهما مهيبـــان لأنهما جميلان ، ولكنهما لا ينتبهان لها) .

– طبعاً يا عزيزتي . الى اللقـــاء . عودي بسرعة . سأكتب فور تمكّني من ذلك .

دمعة صغيرة ، مع ذلك . لماذا ، يا إلّهي ، لماذا ؟ انها تتردّد . ولنفرض انها فجأة تمدّ لي ذراعيها ، وتقول لي : « ان هذا كله ليس الا سوء تفاهم . اني احبك ، احبك ! »

– حذار من البرد .

– نعم . نعم . الى اللقاء .

ومضت . ايماءة يسيرة من يدها ، وها هي تمضي ، رويداً ، وهي تؤرجح قليلاً ردفها الجميل الصلب ، الساعة السابعة عشرة والدقيقـــة الخامسة والخمسون . ليس لديّ بعد رغبة في التدخين . وظل الشاب والشابة على رصيف المحطة . اني انظر اليهما ، انه يحمل مزماراً بقربة، وقد تحدّثا عن نانسي : فهو ايضاً من المجندّين . انهما لا يقولان بعد شيئاً ، وانمـــا يتبادلان النظر . وانا انظر الى يديهما ، يديهما الجميلتين اللتين لا تحملان خاتماً . المرأة ممتقعة ، فارعة دقيقة ، ذات شعر أسود متشعّث ؛ اما هو فطويل أشقر ، ذو بشرة مذهبة ، وذراعاه العاريتان تخرجان من قيص حريري ازرق . واصطفقت الابواب وهما لا يسمعانها ؛ بل لقد كفّا عن تبادل النظر ، لم تبق لهما حاجة الى تبادل النظر ، انهما معاً من الداخل .

– الى السيارة نحو باريس ؟

وترتعش من غير ان تقول شيئاً . ولا يقبّلها هو ، وإنما يحبس في يديه الذراعين الجميلتين العاريتين ، على مستوى الكتفين ؛ ثم يهبط بيديه رويداً على طولها ويقف لدى المعصمين ؛ معصمان هزيلان واهنان . ويبدو

انه يشدّهما بكل قواه . وتدَعه هي يفعل ، وذراعاها متدليتان بسكون ، ووجهها مستنيم .

– الى السيارة .

وينطلق القطار ، فيقفز الى العتبة ، ويظلّ هنا متشبثاً بقضبان النحاس. وتلفتت هي اليه ، فتبيّض الشمس وجهها ، وتغمز بعينيها وتبتسم : انها بسمة عريضة حارة ، واثقـــة جداً ، هادئة جداً ، رقيقة جداً : حتى انه لا يمكن لرجل مهما بلغ من الجمال والقوة ان يحمل لنفسه وحده بسمة مثل هذه . انها لا تراني ، وهي لا ترى غيره ، وتطرف بعينيها ، وتقاتل الشمس لتراه لحظة اخرى . وانا ابتسم لها ، ابادلها بسمتها . الساعة الثامنة عشرة . غادر القطار المحطة ، وهو داخلٌ في الشمس ، فجميع واجهاته تلتمع . وقد ظلت على المحطة ، صغيرةً غامضة. هناك مناديل يُلوّح بها حولها . وهي لا تتحرك ولا تلوّح بمنديل ، وتتدلى ذراعاهـــا على طول جسمها ، ولكنها تبتسم ، وكأنها تستنفد نفسها بالابتسام. وهي ما تني الآن تبتسم ، من غير شك ، ولكن بسمتها لا ترى بعد . وانما هي التي تُرى . انها هنا من اجله ، من أجل جميع الذين يذهبون ، من أجلي انا . ان زوجتي في بيتنا الهادىء ، جالسة بالقرب من الصغيرة ، والصمت والسلام يتشكلان حولها من جديد . اما انا ، جورج المسكين ، فذاهب ، لقد ذهب ، وارجو ان يستطيع النوم . انني اذهب ، أهرب من الشمس وابتسم بكل قواي لشكل صغير مظلم ظلّ على رصيف المحطة .

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق . كان « بيتو » يذرع الطريق في شارع « كاسيت » ، فقد كان لديه موعد في الثامنة عشرة ، ونظر الى ساعة يده ، الساعـــة الثامنة عشرة والدقيقة العاشرة ، سأصعد بعد خمس دقائق . وعلى بعد خمسمئة وثمانين كيلومتراً جنوب غرب باريس ، كان جورج مرتفقاً قضيب الاستناد ، يدلف بين المراعي ، وينظر الى

اعمدة التلغراف ، ويعرق ويبتسم ، وكان بيتو يقول لنفسه : « اية حماقة يمكن لهذا المزعج ان يكون قد ارتكبها بعد ؟ » وانتابته رغبة عنيفة بأن يصعد ويدق ويصيح : « ما الذي فعله بعد ؟ انا لا دخل لي في الأمر » . ولكنه قسر نفسه على ان يستدير ، مأذهب حتى ذلك المصباح ، هناك ، ومشى ، المهمّ ألاّ يبدو بمظهر المستعجل ، بل كان يأخذ على نفسه مبدأ المجيء . وكان عليه ان يجيب ، على ورق معنون ، اذا كنت ترغبين يا سيدتي في التحدث اليّ ، فانا في مكتبي كل يوم من العاشرة حتى الظهر . وأولى المصباح ظهره ، وحثّ خطاه ، بالرغم منه . باريس : خمسمئة وعشرة كيلومترات ، ومسح جورج جبينه ، وكان ينحدر نحو باريس ، كالسرطان ، وكان « بيتو » يفكر : انها قضية قذرة ، وكان يعلو تقريباً ، وخلفه القطار ، واستدار في شارع « رين » ودخل البنـــاية رقم واحد وسبعين وصعد الى الطابق الثالث ودق الجرس ؛ وعلى بعد ستمئة وثمانية وثلاثين كيلومتراً في باريس ، كان هانوكين ينظر الى ساقي جارته ، وكانتا ساقين كبيرتين بارزتي الربلات في جوربين حريريين مزغبرين بعض الشيء ؛ وكان بيتو قد دق الجرس ، وكان ينتظر على الدرج وهو يمسح جبينه ، وكان جورج يمسح جبينه ، في ضجيج الشاحنات ، اية حماقة عساه قد ارتكب ، فتلك حكاية قذرة ، وكان بيتو يشقّ عليه ان يلتهم ، وكانت معدته خصوصاً مبهمة مقرقرة ، ولكنه كان يقف باستقامة ، ورأسه مرفوع بصلابة ، وهو ينفخ منخريه قليـــلاً ، وكان يمطّ شفتيه ذلك المطّ المريع ، وانفتح الباب ، ودلف قطار هانوكين الى نفق ، ودلف بيتو الى ظلام رطب كانت تنبعث منه رائحة الغبار ، وقالت له الخادمة : « تفضّل بالدخول » فاذا بامرأة بضّة معطرة ، ذراعاها عاريتـــان رخوتان ، رخاوة البشرات الاربعينية اللذيذة النضرة ، ووسط شعرها الاسود خصلة بيضاء ، تهرع اليه فيشتم رائحتها الناضجة .

ــ اين هو ؟

وانحنى ، كانت قد بكت . وفكّت جارة هانوكين ساقيها المتشابكتين، فرأى طرفاً من فخذها فوق ربطة الساق ، ومطّ شفتيه مطّتهما المريعة وقال :

ــ عمّن تتحدثين يا سيدتي ؟

قالت :

ــ اين فيليب ؟

وأحس بحنان شديد ، فلعلّها ستبكي امامه ، وهي تلوي ذراعيها الجميلتين ، ولا بد ان امرأة من وسطها تحلق شعر إبطيها .

وانبعث صوت رجل فجعله ينتفض ، وكان صادراً من غرفة الانتظار.

« اننـــا يا صديقتي العزيزة نضيع وقتنا . فاذا شاء السيد بيتو ان يدخل مكتبي ، أطلعناه على الأمر » .

سقط في الشرك ! ودخل ، وهو يرتجف من الغضب ، وغرق في الحرارة البيضاء ، وكان القطار يخرج من النفق ، ودخل سهم من الدخان الابيض الى الحافلة . وجلسوا وقد اولوا النهار ظهورهم بالطبع، وانا في وضح النور . وكانا اثنين .

وقال الرجل السمين المرتدي الثياب العسكرية : « انا الجنرال لاكاز » وأشار الى جاره ، وهو عملاق كئيب ، وأضاف :

ــ هوذا السيد جاردي ، طبيب عقــلي ، تفضّل بفحص فيليب والاعتناء به قليلا ، في هذه الفترة الاخيرة .

وعاد جورج الى قاطرته وجلس ، وكان رجل قصير أسمر ينحني الى الأمام ، ويتحــدث ، وكانت له هيئة الاسبان : « ان معلمك يساعدك ، هذا جميل جداً ، وهذا حسنٌ بالنسبة للموظفين . اما انا ، فليس لي راتب ثابت ، انني خادم مقهى ، وكل ما اصيبه تبرعات الزبائن . تقول لي ان هذا لن يدوم ، وإنما القصد منه إخافتهم ، اريد

كثيراً ان اصدقك ، ولكن اعترف بان ذلك يدوم منذ شهرين ، فكيف يتأتي لها ان تأكل ، زوجتي ؟ »

قال الجنرال :

– ان فيلب ، ابن زوجتي ، ترك البيت ، في ساعات الصباح الاولى من غير ان يعلمنا ، وحوالى العاشرة وجدت امه هذه الرسالة على طاولة غرفة الطعام (ومدّها له من فوق المكتب وهو يضيف بلهجة متسلطة) اطلع عليها ، ارجوك .

وتناول بيتو الرسالة في اشمئزاز ، ذلك الخط القذر ، المنقّط ، غير المنتظم ، المليء بالشطب واللطخ . كان قادماً ، وكان ينتظر ساعات برمتها ، وكنت اسمعه يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، ثم يذهب تاركاً قصاصات مدعوكة من الورق ، مليئة باحرفه الذبابية ، في كل مكان ، على الارض ، وعلى الكرسي ، وتحت الباب ؛ وكان بيتو ينظر الى الخط من غير ان يقرأه ، شبيهاً بسلسلة من الرسوم العجيبة الذائعة التي تثير قرفه ، كم اودّ لو اني لم ألتق به قط .

« امي الصغيرة . هوذا زمن القَتَلة . اما انا ، فأختار الاستشهاد ، ربما أصبت ببعض الهموم الشاقة : وهذا ما اتمناه لنفسي . فيليب » .

ووضع الرسالة على المكتب وابتسم ، وقال :

– زمن القَتَله . ان تأثير رامبو قد احدث خسائر مريعة .

فنظر اليه الجنرال وقال :

– سنعود عما قليل الى قضية التأثيرات . هل تعرف اين ابن زوجتي ؟

– وكيف تريدني ان أعرف ذلك ؟

– متى رأيته للمرة الاخيرة ؟

وفكر بيتو . « هكذا اذن ! انهم يستجوبونني » والتفت الى السيد لاكاز وقال في لهجة تتسم بعدم الكلفة :

ـ لم اعد اذكر . ربما منذ ثمانية ايام .
وكان صوت الجنرال يأتيه الآن مجانباً :
ـ هل اطلعك على نياته ؟
فقال بيتو وهو يبتسم للام :
ـ كلا ،انت تعرفين فيليب ، فهو يتصرف تصرفات مفاجئة . وانا مقتنع بأنه لم يكن يعرف مساء امس ما سيفعله هذا الصباح .
واضـــاف الجنرال : ـ ومنذ ذلك الحين ، هل كتب او اتصل بك ؟
وتردد بيتو ، ولكن اليد كانت قد انطلقت ، يداً وديعة ، خاضعة ، غرقت في جيب الثوب الداخلي ، وتبعها القرار ، فمدت اليد قصاصة الورق . وخطفت السيدة لوكاز الورقة بشراهة ، انني لا استطيع بعد ان احكم على يدي . كان ما يزال يستطيع ان على يحكم وجهه ، فمط شفتيه تلك المطة المريعة ، وهو يرفع حاجباً :
ـ تلقيت هذا صباح اليوم .
فقرأت السيدة لوكاز بجهد : ـ « ليتوس اي ايرابانلوس » : من اجل السلام .
كان القطار يجري ، وكانت الباخرة تهتز ، وكانت معدة بيتو تغني ، فنهض في مشقة وقال موضحاً في تأدب :
ـ ان هذا يعني : فرح ومتسكع . انه عنوان قصيدة لفيرلين :
فرماه الطبيب النفسي بنظرة :
ـ قصيدة خاصة بعض الشيء ،
وسألت السيدة لاكاز :
ـ هذا كل شيء ؟
وكانت تقلب الورقة بين يديها :
ـ مع الأسف ، نعم ياسيدتي العزيزة ، هذا كل شيء :

وسمع صوت الجنرال القاطع :
– ماذا تريدين اكثر من ذلك يا صديقتي العزيزة ؟ انني أجد هذه الرسالة واضحه كل الوضوح، ويدهشني ان يدعي السيد بيتو عدم معرفة نوايا فيليب .

والتفت بيتو فجأة اليه ، ونظر الى الثوب العسكري – لا الى وجهه بل الى الثوب العسكري – وصعد الدم الى رأسه . وقال:
– اسمع يا سيدي ، لقد كان فيليب يكتب لي مثل هذه الاوراق الانيقة ثلاث مرات او اربعاً في الاسبوع ، فانتهى بي الامر الى عدم الاهتمام بها ، وتعذرني اذا قلت لك عندي شواغل اخرى .

قال الجنرال :
– لقد كنت يا سيد بيتو تدير منذ ١٩٣٧ مجلة عنوانها «لوباسيفيست»[1] اتخذت فيها موقفاً محدداً ، ليس ضد الحرب فقط ، بل ضد الجيش الفرنسي ايضاً . وقد تعرفت الى ابن زوجتي في تشرين الاول ٣٧ في ظروف اجهلها فأقنعته بآرائك . ولقد تبنى تحت تأثيرك سلكاً غير مقبول تجاهي ، لأنني ضابط ، وتجاه امه لانها تزوجتني ، وقد ظهر امام الجمهور بمظاهر واضحة العداء للنزعة العسكرية . وهو اليوم يهجر بيتنا في احرج ساعات التوتر العالمي ، وهو يخبرنا ، بواسطة الكلمة التي قرأتها ، انه يريد ان يكون شهيد السلام ، انت في الثلاثين من عمرك يا سيد بيتو ، وفيليب لم يبلغ العشرين ، ولن ادهشك اذا قلت لك انني اعتبرك شخصياً مسؤولاً عن كل ما يحدث لابن زوجتي على اثر فراره .

قال هانوكين لجارته :
« اسمعي ، سأقول لك: انا مجند ». فقالت : آه ، يا الهي . وكان جورج ينظر الى خادم المقهى ، فيجده لطيفاً ، وكانت به رغبة لأن

١– «المسالم»

يقول له : وانا كذلك مجند ، ولكنه لم يكن يجرؤ ، وذلك بدافع من الحشمة ، وكان القطار يهزه هزاً مريعاً ، وفكر : انني جالس فوق العجلات .

قال بيتو بصوت حاسم : — انني ارفض كل مسؤولية . انا افهم مصابك، ولكني لا استطيع مع ذلك ان اقبل ان اكون بالنسبة اليك كبش المحرقة. لقد جاء فيليب غربزيني الى مقر المجلة في تشرين الاول ٣٧ ، وهذا واقع لا افكر في افكاره . وقد اعطانا قصيدة بدت لنا مليئة بالوعود ، فنشرناها في عدد كانون الاول . وعاد بعد ذلك مراراً ، فاستعملنا كل شيء لثنيه : فقد كان متحمساً لنا اكثر مما ينبغي ، واصارحك القول اننا لم نكن نعرف ما نفعل به . (كان يجلس على طرف فخذيه ، ويحدّد في « بيتو » نظره الازرق المزعج . وينظر اليه يشرب ويدخن ، وينظر الى شفتيه تتحركان ، ولم يكن يدخن ، ولم يكن يشرب ، وكان يضع بين الفينة والفينة ، اصبعاً في أنفه او ظفراً بين اسنانه من غير ان يكف عن النظر اليه)

وصاحت السيدة لاكاز فجأة :

— ولكن اين يمكن ان يكون ؟ اين يمكن ان يكون ؟ وماذا يفعل؟ انك تتحدث عنه كما لو انه مات .

وصمتوا ، وكانت قد انحنت الى الامام بوجه قلق يملأه الاحتقار ، وكان بيتو يرى منبت صدرها من فتحة القميص ، وكان الجنرال متصلباً في اريكته ، وكان ينظر . وكان يمنح بضع دقائق من الصمت لألم أمّ مشروع . ونظر الطبيب النفسي الى السيدة لاكاز في هيئة ود متنبه . كما لو انها كانت احدى مريضاته . ثم هزّ رأسه الكبير الكئيب، والتفت الى بيتو وعاد الى الهجوم :

— انني اقرّك يا سيد بيتو ، ان فيليب لم يكن قد فهم جميع افكارك . غير ان هذا لا ينفي انه كان فتى شديد القابلية للتأثر، وكان

يكنّ لك اعجاباً هائلاً .

ـ اهذه غلطتي ؟

ـ ربما لم تكن غلطتك . ولكنك كنت تستغل تأثيرك استغلالاً سيئاً ،
قال بيتو : ـ عجيب ! ولكن ما دمت قد فحصت فيليب ، فانت تعلم انه كان مريضا .

فقال الطبيب وهو يبتسم :

ـ ليس تماماً . لا شك في ان وراثته كانت ثقيلة ، من جهة ابيه (اضافها وهو يرمي الجنرال بنظرة) ولكنه لم يكن تماماً مريضا نفسياً كان فتى متوحداً ، غير متأقلم ، كسولاً وانانيــاً . كان ذا عادات مضحكة طبعاً ، ومخاوف جنونية ، مع طغيان الافكار الجنسية . وقد جاء يراني عدة مرات ، في هذه الفترة الاخيرة ، وقد ثرثرنا ، فاعترف لي بأنه ... كيف يمكنني القول ؟ (وتوجه الى السيدة لاكاز) اعذري خشونة الاطباء . بالاختصار : استمناء منتظم . انا اعرف ان كثيراً من زملائي لا يرون في هذا الا نتيجة.اما انا فأميل مع الدكتور اسكيرول الى اعتباره سبباً . لقد كان ـ بكلمة واحدة ـ يجتاز بمشقة ما يسميه السيد ماندرس ، ازمة اصالة المراهقين : كان بحاجة الى مرشد . وقد كنت راعياً رديئاً يا سيد بيتو ، كنت راعياً رديئا .

وكان يبدو على نظر السيدة لاكاز انه مستقر على بيتو بالانفــاق ، ولكنه كان غير قابل للتحمل . وقد آثر بيتو ان يلتفت بصراحــة الى الطبيب النفسي وقال :

ـ اعتذر عما سأقول امام السيدة لاكاز ، ولكن ما دمت تلجئني الى ذلك ، فاصارحك بكل وضوح اني كنت وما ازال اعتبر فيــليب نموذجاً كاملاً للمتحلل . فلئن كان بحاجة الى مرشد ، فلماذا لم تهتم به؟ كان ذلك واجبك .

فابتسم الطبيب النفسي بكآبة وامتص شفتيه وهو يتنهد . كانت تبتسم

وكانت مستندة الى باب الغرفة ، وقد قف شعرها ، وكانت تبسم بسمة فاتنة ، وقال لها الربّان :

ـ ينبغي يا صغيرتي ان تعودي اليّ في الساعة التاسعة ، فاقول لك ما امكنني أن افعله لك ولصديقاتك (وكانت له عينان فارغتان صافيتان وقد لامس صدرها وعنقها واضاف) لا تنسي ، موعدنا ، هنـا ، الساعة التاسعة مساء .

ـ شاء الجنرال لاكاز ان يعطيني بضع صفحات من مذكرات فيليب فظننت ان من واجبي ان اطلع عليها . اسمع يا سيد بيتـو : ينتج من قراءة هذه المذكرات انك كنت تمارس نوعاً من « الشانتاج » على هذا الفتى المسكين . كان يبـدو انك ، بعد وثوقك من مدى حرصه على تقديرك ، كنت تستغل ذلك لتطلب منه بعض الخدمات التي لا يوضحها في مذكراته . وقد اتجه له في الفترة الاخيرة ان يتمرد ، فاظهرت له له احتقاراً ساحقاً كان من نتيجته انه افضى به الى اليأس .

ماذا تراهم يعرفون ؟ ولكن الغضب كان اقوى ، فابتسم بدوره وكانت مود تبسم وتسلّم ، كانت مؤخرتها قد اصبحت في الخارج ، في الهواء الطلق ، بينما كانت قامتها تنحني وتغطس في هواء الغرفـة المعطر الحار :

ـ ولكن طبعاً ، يا كابتين. الى الساعة التاسعة اذن ، الساعة التاسعة ، هذا مفهوم .

ـ افضى به الى اليأس ، ولكن من كان يذله كل يوم ؟ أأنا الذي صفعته يوم السبت الماضي والجميع على المائدة ؟ أأنا الذي كنت اتظاهر باعتباره مريضاً وارسله الى طبيب نفسي ، واضطره الى الاجـابة على اسئلة مذلّة .

وسأل خادم المقهى : ـ أأنت ايضا مجند ؟

فابتسم له جورج ابتسامة مسكنة ، ولكن كان عليه ان يتكلم ،

ان يجيب على اسئلة المرأتين الشابتين ، فقال :
ـ لا ، انا ذاهب الى باريس لشؤوني .
وانتفض لصوت السيدة لاكاز الثاقب :
ـ انراكما لن تصمتا ؟ الا تستطيعان أن تسكتا ؟ ما اشد ما تحتقرانه ! فتى في العشرين قد نزعتما ثيابه ولطختماه ، أفلا تحترماني أنا ؟ ربما يكون قد القى نفسه في السين وانتما هنا تتبادلان تحمل المسؤوليات . اننا جميعاً مذنبون : لقد كان يقول : لا يحق لكم ان تدفعوني الى النهاية .
كان الجنرال محمر الوجه كل الاحمرار ، وكانت مود محمرة الوجه كل الاحمرار ، وقالت :
ـ حسناً ، سنأتي لناخذ امتعتنا ، وسننام هذه الليلة في الدرجة الثانية .
قالت فرانس ـ اترين يا عزيزتي ، لقد عقدت الامور ، وهي لم تكن من الصعوبة كما كنت تتخيلين .
قال من غير ان يرفع صوته ، وهو يحدد فيها عينيه الخشبيتين : « روز ! » فارتعشت ، ونظرت اليه فاغرة الفم ، وقالت :
ـ هذا قذر ... انني خجلة !
ومد يده القوية واطبقها على ذراع زوجته وردد : « روز ! » بصوت لا لحن له . وتجمع جسم السيدة لاكاز ، واطبقت فمها ، وهزت رأسها وبدأت تستيقظ ، فنظرت الى الجنرال وبسم لها الجنرال ، وكان كل شيء قد عاد الى نصابه . وقال :
ـ انني لا اشاطر زوجتي قلقها ، ان ابن زوجتي قد ذهب بعد ان سرق عشرة آلاف فرنك من خزانة امه . فيصعب علي إذن ان اصدق انه يريد ان يضع حداً لايامه.
وساد صمت . كانت الباخرة قد بدأت ترقص قليلاً ، واحس بيتو بأنه دبق ، وكان قد انزرع بالقرب من سريره وفتح حقيبته التي انبعث منها

رائحة من عطر الخزامى ومعجون الاسنان وتبغ أشقر شعر لها بالدوار، وفكر : — لقد قال لنا الخادم إن سفرتنا ستكون سيئة ! كان الجنرال يتأمل ، وكان يبدو على زوجته مظهر الصبي العاقل ، وكان بيتو لا يفهم ، وغرّدت معدته ، وكان رأسه يؤلمه ، وكان لا يفهم . كان يحس الصعود ، هوب ، ثم يشعر بالسكر ، وكانت الارض الخشبية تهتز تحت قدميه ، كان الهواء حاراً ودبقاً ، وكان ينظر الى الجنرال ، فلا يحس بعد القوة على كرهه . وقـــال الجنرال ، كما لو انه ينهي هذا الحديث :

— ارى يا سيد بيتو ان بوسعك ومن واجبك ان تساعدنا للعثـــور على ابن زوجتي . لقد اكتفيتُ حتى الآن باعلام مراكز الشرطة ،ولكن اذا لم نجد فيليب بعد ثمان واربعين ساعة ، فان في نيتي ان اضع القضية بين يدي صديقي المدعي العام ديترن، وان اطلب اليه بالمناسبة نفسها اذا كان لا يحسن بالعدالة ان تحقق قليلاً في المورد المادي لجريدة « الباسيفيت» .

قال : — انني ... طبعاً سأساعـــدك . وبوسع الجميع ان يحشروا أنفهم في حسابات « الباسيفيت » ، ونحن نستطيع ان ننشرها في وضح النـــهار .

وغطست الباخرة ، وكانت هي الجبال الروسية ، وأضاف وهو يدفع صوته عبر حنجرته المنقبضة :

— ولكن ... ولكني لا ارفض ان اساعدكم . بدافع انساني محض ، يا جنرالي .

وحنى الجنرال رأسه وقال :

— هكذا افهم القضية .

كانت تصعد رويداً ، رويـــداً ، بالخفية ، ثم تهبط كذلك ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يمتنـــع عن النظر الى السرر او المغسلة ليميز شيئاً يرتفع او يهبط ، ولكن لم يكن يُرى شيء ، باستثناء موجة زرقاء

مظلمة تلامس بين الفترة والفترة ، طرف النافذة السفلي ، وما تلبث ان تختفي . لقد كانت حركة صغيرة حية حيية ، خفقة قلب ، وكان قلب بيار يخفق منسجماً ؛ ولن تكف طوال ساعات وساعات عن ان تصعد وتهبط ؛ وكان لسان بيار ثمرة كبيرة ذات عصير في فمه : وكان يسمع ، لدى كل ابتلاع ، طقطقة غضروفية في مكان ما من اذنيه ، ثم انه كان ثمة ذلك الاكليل الحديدي الذي كان يشد صدغيه ، وتلك الرغبة في التثاؤب . ولكنه كان هادئاً جداً : لن يصاب بدوار البحر الا من يريده . وما كان له الا ان ينهض ، وان يخرج من غرفته ، وان يقوم بنزهة صغيرة على السطح ، حتى يجد نفسه من جديد ، ويذهب هذا الاشمئزاز الخفيف . وقال : « سأرى مود » وترك الحقيبة ونهض صلباً جامداً على حافة السرير ، وكان هذا يشبه اليقظة . وكانت الباخرة الآن تصعد وتهبط تحت قدميه ، ولكن المعدة والرأس كانا متحررين ؛ وعادت عينا مود المستهينتان فظهرتا من جديد — والخوف والعار . سأقول لها اني كنت مريضاً ، ضربة شمس يسيرة ، شربت اكثر مما ينبغي . يجب ان اوضح الامر ، سوف يتكلم ، وسوف تخرقه بنظرها القاسي . وكم أنّ ذلك متعب ! وابتلع رضابه على مشقة ، فانسرب الى اعماق حنجرته في حسيس حريري فظيع ، وكان ماء تفه قد بدأ يسبح في فمه ، متعباً ، متعباً ، وفرّت افكاره فلم يجد بعد الا عذوبة كبيرة مهجورة ، رغبة في الصعود والهبوط بانتظام ، وفي التقيؤ المتمهّل الطويل ، وفي ان يستلقي على الوسادة ، هوهيس ، هوهيس ؛ بلا أفكار : محمولاً في اهتزاز العالم الكبير ؛ وسوف يستدرك نفسه قبل فوات الاوان : فلن يصاب بدوار البحر الا من يريده . ووجد نفسه برمته ، صلباً وجافاً ، جباناً ، عاشقاً محتقراً ، ميتاً مقبلاً من اموات الحرب ، وجد كل خوفه المتبصر المثلج . واخذ الحقيبة الثانية من فوق السرير الاعلى ، فوضعها على السرير الاسفل وباشر فتحها . وقد ظل

مستقيماً ، من غير ان ينحني ، بل من غير ان ينظر الى الحقيبة ، وكانت أصابعه المخدرة تتلمس القفل على غير هدى . هل القضية تستحق؟ هل تستحق الصراع ؟ انه لن يكون بعد إلا عذوبة واسعة ، ولن يفكر بعد في شيء ، ولن يشعر بعد بالخوف ، كان حسبه ان يستسلم . « يجب ان اذهب لأرى مود » ورفع يداً فجال بها في الهواء بعذوبة مهتزة احتفالية بعض الشيء . حركات عذبة ، خفقات عذبة لجفوني ، ومذاق عذب في جوف فمي ، ورائحة عذبة للخزامى ولمعجون الاسنان ، والباخرة ترتفع بعذوبة ، وتهبط بعذوبة ، وتثاءب فأبطأ الزمن ، واصبح سكّرياً حوله ، كان حسبه ان يتصلب وان يخطو ثلاث خطوات خارج الغرفة ، في الهواء الطلق ، ولكن ما الغاية من ذلك ؟ أمن اجل ان يجد الخوف مرة اخرى ؟ وكنس الحقيبة بظاهر يده وتداعى للسقوط على السرير . شراب سكّري ، انه لا يشعر بعد بالخوف ، ولا يشعر بعد بالخجل ، وكم هو لذيذ ان يشعر بدوار البحر .

جلس على حافة الرصيف ، وكانت ساقاه تتدليان فوق الماء : كان تعباً ، وقال : « لن تكون مارسيليا رديئة لو لم يكن فيها هذه البيوت الكثيرة . » وكانت القوارب تتحرك تحته قليلا ، لا كثيراً ، وكانت قوارب صغيرة ، كثيرة العدد ، وعليها زهور او ستائر جميلة حمراء او تماثيل عارية .

كان يرى القوارب ، وكان فيها قوارب تقفز كالماعز واخرى لا تتحرك ، وكان يرى الماء شديد الزرقة ، ويرى في البعيد جسراً حديدياً كبيراً ؛ وما هو بعيد يجد المرء لذة في النظر اليه ؛ فهو يريح العينين . وكانت عيناه تؤلمانه : كان ينام تحت قاطرته وكان رجال قد أتوا يحملون المصابيح ، فالقوا عليه الضوء وطردوه بكلمات جارحة ؛ وبعد ذلك وجد تلة من الرمل ، ولكن النوم لم يرجع . وسأل : « اين تراني سأنام هذه الليلة ؟ » وكان ثمة بالتأكيد أمكنة جيدة ، مع قليل من

العشب . ولكن كان ينبغي معرفتها : وقد كان عليه ان يسأل الزنجي .
كان جائعاً ، وقد وقف ، فأحس ركبتيه متصلبتين ، وقد فرقعتا ،
وقال موضحاً : « لا أملك بعد ما آكله ، فيجب ان اذهب الى المطعم» .
واستعاد سيره ، وكان قد مشى طوال النهار ، وكان يدخل ويسأل :
« هل عندكم عمل ؟ » ثم كان يمضي ؛ كان الزنجي قد قال : « ليس
هناك من عمل » والسير في المدن متعب ، بسبب البلاط . وقد اجتاز
الرصيف ، موارباً ، بهدوء ، وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار ،
ليتجنب الترام ، فحين كان يسمع جرسه ، كان ذلك يرعبه . وكان
ثمة ناس كثيرون ، رقعاء يمشون بسرعة وهم ينظرون اقدامهم ، كما
لو انهم كانوا يبحثون عن شيء ما ، وكانوا يصطدمون به اذ يحاذونه
فيعتذرون له ، حتى من غير ان يرفعوا اليه عيونهم ؛ وقد كان يود
لو يوجه اليهم الكلام ، ولكنهم كانوا يبدون من رخاصة العود بحيث
انهم كانوا يخجلون من ذلك . وصعد الى الرصيف فرأى مقاهي ذات
أسطحة جميلة ، ثم رأى ، مطاعم، ولكنه لم يدخل : كان على الطاولات
خوانات ، والخوانات معرضة للتلطيخ . ودلف الى زقاق مظـلم كانت
تنبعث منه رائحة الغوط ، وسأل : « ولكن اين تراني سآكل في هذه
الحالة كلها ؟ » وفي تلك اللحظة بالذات وجد ما كان يناسبه : فقد
رأى ، امام بيت صغير منخفض ، عشر طاولات خشبية تقريباً ؛ وكان
قد وُضع على كل طاولة صحنان او اربعة ، ومصباح صغير مستدير
لا بد انه لا يضيء كثيراً ، ولم يكن ثمة خوانات . وكان على احدى
الطاولات رجل قد بدأ يأكل مع سيدة كان يبدو عليها انها شريفة جداً ،
فاقترب غرولويس منهما وجلس على الطاولة المجاورة وابتسم لهما . فنظرت
اليه السيدة برصانة وأرجعت كرسيها قليلا ؛ ونادى غرولويس الخادمة ،
وكانت امرأة قصيرة جميلة هزيلة بعض الشيء ولكن لها مؤخرة صلبة
نشيطة .

— ماذا تقدمون هنا من طعام ، يا جميلتي ؟

كان حلوة ، وكانت رائحتها طيبة ، ولكنها لم تكن تبدو مسرورة برؤيته . ونظرت اليه مترددة ، وقالت وهي تومىء الى ورقة على الطاولة.

— ان لائحة الطعام امامك .

قال غرولويس : — آه ، حسناً .

واخذ اللائحة وتظاهر بأنه ينظر اليها ، ولكنه كان يخشى ان يمسكها بالمقلوب .

وكانت الخادمة قد ابتعدت،وراحت تتحدث الى سيد كان قد انزرع على عتبة الباب . وكان السيد يستمع اليها وهو يهز رأسه فيما هو ينظر الى غرولويس. واخيراً تركها واقترب من غرولويس بهيئة حزينة فسأله:

— ماذا تريد يا صديقي ؟

فقال غرواويس مندهشاً : — ولكنني اريد ان آكل . لا شك ان لديكم حساءً وقطعة من شحم الخنزير .

فهزّ السيد رأسه في حزن وقال :

— لا ، ليس لدينا حساء .

قال غرواويس : — ان معي مالا . فانا لا اطلب دينا .

قال السيد :— انا متأكد من ذلك . ولكن لا بد انك قد اخطأت، فأنت لن تكون هنا على كيفك ، وسوف تزعجنا .

فنظر اليه غرولويس وسأله :

— ولكن اليس هذا مطعماً ؟

قال المعلم : — بلى ، بلى ، ولكن لنا نوعاً معيناً من الزبائن .. وانت تحسن صنعاً بان تذهب الى الناحية الاخرى من « الكانوبيير » ، فستجد هناك عدداً من المطاعم الصغيرة التي تناسبك تماما .

وكان غرولويس قد نهض ، فحك رأسه بارتباك وقال :

— ان معي مالاً . واستطيع ان اريك اياه .

قال السيد بحيوية :

– ولكن لا ، لا ، فانا اصدق كلامك .

وأخذه بلطف من ذراعه وخطا معه بضع خطوات في الطريق وقال:

– اذهب من هنا ، فستجد الرصيف وتتبعه الى اليمين ، ولا يمكن ان تضلّ .

قال له غرولويس وهو يلامس بشرته ، ويحس بالارتباك :

– انت رجل شريف .

ووجد نفسه ثانية على الرصيف ، وسط رجال قصار سود كانوا يركضون بين قدميه ؛ وكان يسير ببطء شديد ، خشية ان يصدم أحدهم ، وكان حزيناً ، وفي تلك الساعة كان يهبط من « كانيغو » الى « فيلفرانش » ، وكان القطيع يقفز امامه ، فيشعر بالرفقة ، وكان غالباً ما يلتقي السيد باردو صاعداً الى مزرعة « الفتيل » والذي لم يكن يمر من غير ان يقدم له سيكاراً وضربتين لطيفتين في جنبيه، وكان الجبل احمر صامتاً ، وفي جوف الوادي كان يرى دخان « فيلفرانش » . لقد كان ضائعاً ، فجميع هؤلاء الاشخاص كانوا يسيرون بسرعة مفرطة ، ولم يكن يرى الا أعلى رؤوسهم او قلانسهم ، وكانوا من الجنس القزم . وفرّ صبي بين ساقيه ، فنظر اليه ضاحكاً وقال لرفيقه :

– أنظر الى هذا ، الا تظن انه يضجر وحده ، هناك في الاعالي؟

ورآهما غرولويس يركضان ، فشعر بالارتباك ؛ لقد كان يخجل من ان يكون طويلا الى ذلك الحد . وقال : « ان لهم عاداتهم » واستند الى الجدار . كان حزيناً ورقيقاً ، لا يقل حزناً عن اليوم الذي كان فيه مريضاً . وفكر بالزنجي الذي كان لطيفاً ومرحاً الى ذلك الحد ، صديقه الوحيد ، وقال : « كان عليّ الا أدعه يذهب » ثم اخترقت رأسه فجأة فكرة صغيرة مرحة بعض الشيء : ان الزنجي يمكن ان يُرى

من بعيد ، فليس العثور عليه بالأمر الصعب ؛ ثم استعاد سيره ، وهو يحس انه اقل وحدة مما كان ، وكان يبحث عنه بعينيه ويفكر : « سوف ادعوه الى قدح » .

كن جميعاً على الساحة وقد توردت وجوههن بالشمس الغاربة. كانت هناك جان واورسول والشقيقات كلابو والماري وجميع الاخريات . وكن قد بدأن بالانتظار في بيوتهن ، واذ لاحظن ان الوقت يمر ، عدن الى الساحة ، الواحدة تلو الاخرى ، ورحن ينتظرن ، وقد رأين ، عبر المرآة التي ذهب التماعها ، المصابيح الاولى تضيء في مقهى الارملة « ترامبلان » فتحدث ثلاث لطخات مضببة في اعلى الواجهة . رأين هذه اللطخات فشعرن بالحزن : كانت الام ترامبلان قد اضاءت مصابيحها في مقهاها المقفر ، وجلست على طاولة من المرمر ، ووضعت على المرمر سلتها وراحت تلفق جواربها القطنية من غير قلق ، لانها كانت ارملة . اما هن ، فكن يبقين خارجاً في انتظار رجالهن ، وكن يشعرن خلفهن ببيوتهن الفارغة ومطابخهن التي كان الظلام يغمرها رويداً رويداً ، وكان امامهن تلك الدرب الطويلة الخطرة ، وفي نهاية « كان » . ونظرت الماري الى الساعة في برج الكنيسة فقالت لاورسول : « ستبلغ الساعة التاسعة ، فربما احتفظوا بهم » وكان رئيس البلدية قد قال ان ذلك كان مستحيلاً ، ولكن ما ادراه ، فهو لم يكن يعرف خبراً منهن عادات المدن . فلماذا تراهم قد صرفوا شباباً اشداء اتوا يعرضون أنفسهم؟ ربما قيل لهم : « آه حسناً ! ما دمتم هناك ... » ثم احتفظوا بهم . ووصلت روز الصغيرة وهي تركض ، وكانت تلهث وتصيح « ها هم اولاء ! ها هم اولاء ! » فأخذت جميع النساء يركضن ايضاً ؛ ولقد ركضن حتى مزرعة « داربوا » ، حيث كان يطل درب طويل ، فرأينهم على الطريق البيضاء ، بين البراري ، وكانوا على عرباتهم يسيرون في صف طويل ، كما في الذهاب ؛ وكانوا عائدين على مهل ،

يغنون : وكان على رأسهم شابان ، وكان منهاراً على مقعده ، ويداه ممسكتان بالاعنة في استرخاء ، وكان ينام، بينما الحصان يمشي بدافع العادة. ورأت الماري ان عيناً من عينيه كانت تحيط بها هالة سواد . ففكرت بأنه تنازع مرة اخرى مع احدهم . وكان واقفاً خلفه ، على عربة ، رونار الابن يغني بأعلى صوته ، ولكن لم يكن المرح بادياً عليه . وكان الآخرون يعقبونه ، فقد اصبحوا اشباحاً سوداء في السماء الصافية : والتفتت ماري نحو الام كلابو وقالت لها :

« لقد ثملوا ، وكانوا بحاجة الى هذا » وكانت عربة شابان تتهادى على مهل وهي تصّر ؛ فأفسحت لها النساء المكان لتمرّ . ومرّت فأطلقت لويز شابان صرخة ثاقبة : « يا إلّهي ، انه لا يعود الا بحيوان واحد ، فماذا فعل بالآخر ، لقد باعه ليشرب » وكان رونار الابن يغني بأعلى صوته ، وكان يذبذب عربته بين حفرة واخرى ، وكان وراءه آخرون يغنّون وقوفاً في عرباتهم ، والسوط في ايديهم . ورأت الماري رَجُلها، ولم يكن يبدو عليه انه سكران ، ولكن حين رأت عن كثب وجهه المقطّب ، ادركت انه شرب وانه سيضرب . وفكرت منقبضة القلب : « انه أسوأ من حيوان » ولكنها كانت مع ذلك مسرورة انه قد عاد ، فقد كان في المزرعة عمل كثير ، وقد كان من الافضل ان يضرب بين وقت وآخر ، ايام السبت ، وان يكون موجوداً للعمل الكبير : كان قد تداعى للسقوط على كرسي ، على سطيحة حانة ، فطلب قدحاً ، وقدموا له خمراً أبيض في كأس صغيرة جداً ، وكانت ساقاه تؤلمانه ، فمدّهما تحت الطاولة وحرّك اصابعه في حذائه وقال : « هذا طريف» ، وشرب وقال : « هذا طريف : لقد بحثت عنه طويلاً مع ذلك » . لو جاء لأجلسه قبالته ، ولنظر الى وجهه الطيّب الأسود ؛ وكان حسبه ان يراه حتّى يضحك ، ويضحك الزنجي ايضاً ، وكانت تبدو عليه هيئة الاطمئنان والرقة كالبهيمة : « سوف اعطيه تبغاً يدخّنه وخمراً

يشربه » .

وكان جاره ينظر اليه : إنه يجدني غريباً لأني اتكلم وحدي ؛ وكان شاباً في العشرين من عمره ، سيء النمو ، هزيلاً ، ذا بشرة بناتية ، وكان جالساً مع شاب أسمر جميل ، أفطس الانف ، في اذنيه زغب وعلى ساعده الأيسر سرطان موشوم . وادرك غرولويس انهما كانا يتحدثان عنه بلغتهما المحلية ، فبسم لهما ونادى الخادم :

ـ قدح آخر من الخمر نفسه يا صغيري . واذا كان لديك اقداح اكبر ، فلا تتردّد .

ولم يكن الخادم ليتحرك ، ولم يكن ليقول شيئاً ، ولكن كان ينظر اليه بهيئة من له هيئتان . وأخرج غرولويس محفظة نقوده ووضعها على الطاولة .

ـ ما بك يا صغيري ؟ اتظن اني لا أستطيع ان ادفع ؟ خذ ! وأخرج الاوراق الثلاث ذات الألف وأمرّها تحت أنفه .

ـ ماذا أقول لك ؟ هيا ، اعطني قدحاً من خمرك القذر .

وأعاد محفظته الى جيبه ولاحظ ان الفتى القصير المجعّد كان يبسم له بأدب . وسأله :

ـ كيف الحال ؟

ـ ماذا ؟

ـ كيف الحال ؟

قال غرولويس : ـ لا بأس . انني ابحث عن أسوّدي .

ـ ألست من هنا ؟

قال غرولويس وهو يضحك : ـ لا . لست من هنا . اتريد ان تشرب قدحاً ؟ انا الذي أدعو .

فقال المجعّد : ـ ان هذا لا يُرفَض . ولكن هل استطيع ان أصحب رفيقي ؟

وقال بضع كلمات لرفيقه ، بلغتهما المحلية . وابتسم الرفيق ونهض في صمت ، وأقبلا يجلسان تجاه غرولويس . وكانت تنبعث من القصير رائحة عطر . وقال غرولويس :

— أشمّ منك رائحة عطر .

— كنت عند الحلاّق .

— آه ! هذا هو السبب . ما هو اسمك ؟

فقال القصير : — اسمي ماريو ، والرفيق ايطالي ، واسمه ستاراس. اننا بحريان .

وضحك ستاراس وسلّم من غير ان ينبس بكلمة . وقال ماريو :

— انه لا يعرف الفرنسية ، ولكنه ظريف . هل تعرف الايطالية ؟

قال غرولويس : — لا .

— لا بأس . سترى : انه على كل حال ظريف .

وتحدّثا فيما بينهما بالايطالية . كانت لغة جميلة ، وكانا يبدوان وكأنهما يغنيّان . وكان غرولويس مسروراً بعض الشيء ان يكون معهما ، لأن ذلك كان يحقّق له رفقةً ، ولكنه ظل يشعر ، في أعماقه ، بأنه وحيد .

— ماذا تشربان ؟

قال ماريو : — أنيسون .

فقال غرولويس : — ثلاثة أنيسون . ما هذا ، أهو خمر ؟

— لا ، لا ، أفضل من هذا . وسترى .

وملأ الخادم ثلاثة أقداح من مشروب ، وسكب ماريو ماءً في الأقداح ، يتحوّل المائع الى غيمة بيضاء أخذت تدور . قال ماريو :

— على صحتك .

وشرب بصخب ، ثم مسح فمه بكمّه . وشرب غرولويس ايضاً : لم يكن ذلك رديئاً جداً ، وكان فيه مذاق الأنيسون . وقال ماريو :

ـ انظر الى ستاراس ، فهو سوف يسلّيك .
وكان ستاراس قد بدأ يُحوِل عينيه ، وكان في الوقت نفسه يقطّب أنفه ، ويمطّ شفتيه ويحرّك اذنيه كالأرنب . وضحك غرولويس ، ولكنه شعر بأنه مصدوم ومستاء : وفكّر بأنه لم يكن يحبّ ستاراس . وكان ماريو يضحك حتى لتسيل دموعه ، وكان يقول وهو ما يفتأ يضحك :
ـ لقد انبأتك . انه ظريف ، هذا الأخ . وهو الآن سيقدم لك فصل الصحن .
ووضع ستاراس قدحـــه على الطاولة ، وقبض على صحنه في كفّه العريضة ، ثم أمرّ ثلاث مرات متواليات يده اليسرى مبسوطة على يده اليمنى . وبعد المرة الثالثة ، كان الصحن قد اختفى . وانتهز ستاراس دهشة غرولويس ، فأدخـــل يده بين ساقيه ، وأحسّ غرولويس بان شيئاً صلباً كان يلامس ساقيه ، ثم ظهرت اليد ، وهي تحمل الصحن . وضحك غرولويس باعتدال ، بالرغم من ان ماريو ضرب على فخذيه وهو يبكي من الفرح .
وكان ماريو يقول بين شهقتين : ـ آه ! ايها القذر ! أقول لك ؟ ألن تنتهي من المزاح معنا ؟
وهدأ تدريجياً ، وحين استردّ رصانته ، سقط على الرجال الثلاثة صمت ثقيـــل . وكان غرولويس يجدهما متعبين ، وكان راغباً بعض الرغبة في ان يذهبا ، ولكنه فكر بان الليل يوشك ان يهبط ، وان عليه ان يستعيد مشيه على غير ما هدى في الشوارع الطويلة الغارقة في الظلام ، وان يبحث بحثـــاً لا ينتهي عن مكان يأكل فيه وعن آخر ينام فيه ، فانقبض قلبه وطلب دورةً اخرى من الأنيسون . وانحنى ماريو اليه ، فشمّ غرولويس رائحته . وسأله ماريو :
ـ هكذا إذن ، انت لست من هنا ؟

قال غرولويس : — لست من هنا ولا أعرف أحداً . والشخص الوحيد الذي اعرفه لا استطيع ان اعثر عليه (ثم فكر وقال) الا اذا كنتما تعرفانه . إنه الأسود .

فهزّ ماريو رأسه هزّة غامضة .

وانحنى فجأة نحو غرولويس وهو يغضّن عينيه ، وقال :

— مارسيليـــا هي البلد التي يهزل فيها الناس ويضحكون . فاذا لم تعرف مارسيليا ، لم تضحك في حياتك قط .

فلم يجب غرولويس . فقد هزل كثيراً في فيلفرانش ، ثم في مواخير « بربينيان » حين أدّى خدمته العسكرية : ولقد انتهى ذلك . ولكنه لم يكن ليتصوّر أن بوسع المرء ان يهزل في مرسيليا . وسأل ماريو :

— اراك غير راغب في الهزل ... ألست تحلم احياناً باللعب الجميلة؟

قال غرولويس : — ليس الأمر كذلك . ولكني افضل الآن ان آكل . فاذا كنت تعرف مطعماً فاني ادعوكما الى الطعام بسرور .

حين هبط الليل ، كانت الأجرام قد تبخّرت ، فلم يبق إلاّ كتل غازية غامضة ، سحائب مظلمة ؛ كانت تمشي بسرعة ، خافضة الرأس ، مخسوفة الكتفين ؛ وكانت خائفة من الاصطدام فجأة بالحبال ، وكانت تسير بحذاء الحاجز ؛ تودّ لو يتأكلها الليل ، ولا تكون الاّ بخـــاراً معلّقاً في هذا البخار الهائل وان تتمزّق شيئاً فشيئاً بالأطراف . ولكنها كانت تعلم جيداً ان ثوبها الأبيض كان فانوساً. كانت تعبر سطح الدرجة الثانية ، فلا تسمع ضجة ، باستثناء شكوى البحر السرمدية ؛ ولكن كان في كل مكان رجال جامدون صامتون ينفذون فوق ظل البحر المنبسط ، وكانت لهم عيون : وبين الفترة والفترة كانت نارٌ مدبّبة تثقب الليل ، فيحمرّ منها وجه ، وتلتمع عينان ، تنظران اليها ، ثم تغيبان . لقد ودّت لو انها تموت .

كان لا بد من هبوط درج ، وعبور سطح الدرجة الثالثة ، وارتقاء

درج آخر ، وهي صلبة كأنها سلّم ، شديدة البياض ؛ اذا رآني أحد ، فلن يكون ثمة مجال للشك ، إن غرفتــه فوق ، وحيدة ؛ ولدى هذا الرجل عمل ، فلا يمكن ان يحتفظ بي طوال الليل. وكانت تخشى ان يجد في ذلك لذة ، فيرسل في كل مساء خادماً يبحث عنها في الصالون، كالربّان اليوناني ، ولكن لا ، فانا مفرطة الهزال بالنسبة لرجل سمين مسنّ مثله ، فهو سيصاب بالخيبة ، اذ لن يجد الا عظاماً . ولم تكن بها حاجة للطرق ، فقد كان الباب مشقوقاً ، وكان ينتظرها في الظلام، وقال :

ـــ ادخلي ، يا جميلتي .

فترددت لحظة ، وهي منقبضة الحلق ؛ فجذبتهـــا الى الغرفة يد ، وانغلق الباب . وأُلصقت فجأة ببطن كبير ، وانسحق على فمها فم مسنّ تنبعث منه رائحة الفلين . واستسلمت وكانت تفكر في خضوع متكبّر : « تلك هي المهنة ، وهذا جزء من مهنتي » . وضغط الربّان على الزرّ فخرج رأسه من الظلام ، وكان بياض عينيه مائعاً مزرقاً ، مع نقطة حمراء في العين اليسرى . وتخلّصت وهي تبتسم ؛ كان كل شيء قد أصبح أصعب جداً منذ أن أضيئت المصابيح ؛ كانت حتى ذلك الحين تتصوّره بكتل كبيرة ، اما الآن ، فقد أخذ يوجد حتى في ادقّ التفاصيل ، إنها ستضاجع كائناً فريداً في العالم ، كجميع الكائنات ، وستكون هذه الليلة ليلة فريدة ، كجميع الليالي ، ليلة حب فريد غير قابل للتعويض ، ضائع ضياعاً لا يعوّض . وكانت مود تبتسم وتقول:

ـــ مهلاً يا كابتن : مهلاً ، فانت كثير الاستعجال : يجب ان نتعارف.

ما هذا ؟ واستقام على مرفق ، مرتاباً : كانت الباخرة تبدو جامدة ؛ وأخذته ثلاثة تقيؤات او اربعة كان أحدها قوياً جداً فخرج من أنفه، وكان يُحسّ بأنه فارغ ولكنه صافي الذهن . وفكر : ما هذا ؟ ووجد نفسه فجأة جالساً على سريره ، ودائرة حديدية تحيط رأسه ، وذلك

الضيق الذي كان يألفه أشدّ الألفة يعضّ قلبه . وكان الزمن قد عاد يجري ، وكان آليةّ متصلبة متقطعة ، وكانت كل لحظة تمزّقه كأنها سنّ منشار ، وكانت كل لحظة تقرّبه من مارسيليا ومن الارض الرمادية التي سيموت فيها . ومن جديد ، كان العالم هنا ، حول غرفته ، عالم محطات فظيع ، عالم دخان واثواب عسكرية وأرياف مكتسحة ، عالم لم يكن يستطيع ان يعيش فيه ، ولم يكن يستطيع ان يتركه ، وفيه ذلك الثقب الموحل الذي كان ينتظره في « فلاندر » . جبان ، ابن ضابط يخشى خوض الحرب : كان يشمئز من نفسه ، وكان مع ذلك يتشبث بالحياة تشبثاً يائساً . وهذا أشد سوءاً : لا اريد ان اعيش لما انا عليه من قيمة ؛ بل ... من اجل لا شيء ،من أجل لا شيء ، لأني أعيش. وكان يحسّ نفسه قادراً على كل شيء ، لينقذ جلده ، على الفرار ، وعلى طلب الإعفاء ، وعلى الخيانة ، ومع ذلك فانه لم يكن حريصاً الى هذا الحد على جلده . ونهض : ماذا سأقول له ؟ أني كنت مصاباً بضربة شمس ، او بنوبة ملاريا ، او اني لم اكن في حالتي الطبيعية ؟ واقترب من المرآة وهو يتهاوى ، فرأى انه كان ممتقعاً كالليمونة . اكتمل الأمر : لا أستطيع ان أعوّل بعد حتى على وجهي . ولا بد ان رائحة القيء تنبعث مني ، فوق كل ذلك . ورش ماء الكولونيا على وجهه وتغرغر بماء « بوتو » . وفكر في غيظ : ما اكثر المشاكل ! هذه هي المرة الاولى التي أهتم فيها بما يمكن لامرأة ان تفكر به عني . نصف بغيّ ، عازفة كمان في فرقة مبتذلة ؛ ولقد عرفت نساء متزوجات ، وربات أُسر . وفكر وهو يرتدي معطفه : أما هذه ، فانها تمتلكني ، وهي تعرف ذلك .

وفتح البـــاب وخرج ، كان الربان عارياً تماماً ، وكانت له بشرة شمعية ملساء ، بلا شعر ، ما عدا خمس او ست بيضاء ، على الثديين ، ولا بد ان الشعر الباقي قد سقط بسبب السن ، وكان يضحك ، وكان يشبه صبياً سميناً عفريتاً ، ولامست مود بطرف أصابعها فخذيه الكبيرتين

الملساوين فتلوّى وهو يقول :

ــ انك تدغدغيني !

وكان يعرف رقم الغرفة : ٢٧ ؛ وسلك ممراً الى اليمين ، ثم آخر الى اليسار . وكان يسمع ضربات كبيرة منتظمة على الحاجز ؛ هذه هي الغرفة ٢٧ . كانت ثمة امرأة شابة متمدّدة على ظهرها ، صفراء كالميتة ؛ وكانت سيدة عجوز جالسة على السرير محمرة العينين متورمتها ، تأكل خبزاً وجبناً .

وقالت : ــ اوه ! السيدات الثلاث هنا ؟ لقد كنّ لطيفات جداً ، وقد ذهبن اذ نقلوهن الى الدرجة الثانية ؛ سوف اشتاق لهن .

وكان ينظر اليها في دهشة ، ووضع يده على عظمتها الحرقفية :

ــ كنت تكونين ملتفة التكوين ، مع هذا الوجه الجميل ، ولكنك في الواقع هزيلة .

وضحكت ؛ حين كان احد يلمس عظمتها الحرقفية ، كان ذلك يضحكها :

ــ الا تحب الهزيلات يا كابتن ؟

فسارع بجيب : ــ آه ! انا لا اكرههن على الاطلاق .

وصعد الدرج وهو يركض ؛ كان يجب ان يرى مود . وهذا هو الآن ممر الدرجة الثانية ، ممر جميل ذو سجادة ، وكانت الابواب والحواجز ملمعة بالازرق الرمادي . وكان محظوظاً : فقد ظهر روبي فجأة ، يتبعه خادمٌ يحمل حقائبه . قال بيار :

ــ مرحباً ، انت في الدرجة الثانية ؟

قال روبي ــ نعم ! ان فرانس تخشى ان تكون مريضة . وقد اتفقنا جميعاً على ذلك : فحين تكون الصحة معرّضة ، فيجب ان نتحمل التضحيات .

ــ اين هي مود ؟

كانت مود مضطجعة على جنبها ، وكان الربّان يربّت على فخذيها بلطف وشرود ؛ وكانت تحسّ نفسها مهانة عميق الإهانة : « لو لم اكن الشخص الذي يناسبه ، لما كان مضطراً الى مثل ذلك » . وأمرّت يدها على خاصرتيه لتبادله ملاطفته : كانت بشرته مترهلة . وقال بيار بصوت ثاقب :

– مود ؟ من يعرف اين هي ؟ انكم تعرفونها : لقد أخذتها الرغبة بأن تمضي لمغازلة البحارة ، الا ان تكون المغازلة للربان ! انها تعشق السفر بالبحر ، وهي لا تنفك تعدو في الباخرة من طرف الى طرف .

قال الربان : – ايتها الفضولية الصغيرة !

وضحك وقبض على معصمها وقال :

– اريد ان اطوف بك طوفة الملاّك .

والتمعت عيناه للمرة الاولى . فاستسلمت مود ، وهي متأثرة ، بسبب تغيير غرفتهنّ ، فيجب على اية حال ان يُعوّض عن ذلك ، وكانت آسفة اشد الأسف لكونها مفرطة الهزال ، فهي تشعر كما لو انها خدعته ؛ وكان الربان يبتسم ، وهو يخفض عينيه ، وكانت هيئته بريئة وداخلية ، فيما هو يشد معصم مود ويقودها من يدها في رقة صلبة. وكانت مود مسرورة وهي تفكر : « من اللئيم جداً ان أرفض شيئاً يرغب فيه ، بعد الإزعاج الذي سببناه له ، لا سيما وانه لا يحب الهزيلات » .

– شكراً ! شكراً جداً !

أخفض رأسه واستعاد ركضه . كان يجب العثور على مود ؛ ستكون على سطح الباخرة . ورقي سطح الدرجة الثانية في الظلام ، وكان شبه مستحيل ان يُعرف الاشخاص ، الا ان ينظر ليهم المرء عن كثب . اني بليد ، فما عليّ الا ان انتظرهـا هنا : فمن حيث أنت، لا بد ان تسلك هذا السلّم . وكان الربان قد اغمض عينيه تماماً ، وكان يبدو في

هيئة هادئة دينية راقت كثيراً لمود ، وكانت تحس بمعصمها متعباً ، ولكنها كانت مسرورة ان ترضيه ، ثم انها كانت تحس نفسها وحيدة، كما كان يحدث وهي صغيرة اذ يأخذها الجد « تيغينور » على ركبتيه، وينام فجأة وهو يترنح برأسه . كان بيار ينظر الى البحر ويفكر : « انني جبان » وكان هواء رطب يسبل على خديه ويصفق خصلة شعره ، وكان ينظر الى البحر يهبط ويرتفع ، وينظر الى نفسه في دهشة ويفكر : « جبان . لم اكن لأصدق ذلك قط » . جبان الى حد يدعو الى البكاء. كان حسبه يوماً واحداً حتى يكتشف كينونته الحقيقية ، ولولا اخطار الحرب هذه ، لما عرف شيئاً ابداً . لو كنت في عام ١٨٦٠ مثلاً ، لكان انطلق يتنزه في الحياة بيقين هاديء ، ولكان انتقد بقسوة جبن الآخرين ، ولما كان لشيء على الاطلاق ان يكشف له طبيعته الحقيقية . لا حظ . يوم ، يوم واحد : اما الآن فقد كان يعرف ، وكان وحده . كانت السيارات والقطارات والقوارب تحرث هذا الليل الصافي الرنّان ، وتتجه جميعاً نحو باريس ، وهي حاملة شباباً مثله لم يكونوا ينامون ، وهم يُطلون من فوق المترسة ، او يلصقون الأنف بالزجاج المظلم . وفكر : ليس هذا بالعدل . ان هنك الوفاً من الناس ، وربما ملايين ، عاشوا في عصور سعيدة ولم يعرفوا قط حدودهم : لقد تُرك لهم ربحُ الشك . ربما كان الفريد دوفيني جباناً . وموسيه ؟ وسانت بوف ؟ وبودلير ؟ لقد كانوا محظوظين . وتمتم وهو يضرب بقدمه : « اما انا ! ما كان لها قط ان تعرف ، وقد كانت تمضي في ان تنظر اليّ نظرة العبادة ، وما كانت لتبقى اكثر من الأخريات ، وكنت سأهجرها بعد ثلاثة أشهر. ولكنها الآن تعلم . انها تعلم . القحبة وهي تمسكني » .

وكان الظلام سائداً في الخارج ، ولكن في الحانة كان النور غزيراً جداً حتى ان غرولويس كان مبهوراً به . وكان ذلك أدعى الى الضحك ،

اذ ان الناس لم يكونوا يرون مصابيح : وانما كان ثمة انبوب طويل أحمر يتلوى حول السقف ، ثم انبوب آخر ، ابيض ، وكان الضوء صادراً من هناك ، وكانوا قد ألصقوا مرايا في كل مكان ، وفي المرآة المواجهة ، كان غرولويس يرى رأسه برمته ، وجمجمة ستاراس ، ولم يكن يرى ماريو ولا ديزي اللذين كانا قصيرين جـداً . وكان قد دفع ثمن الطعام وثمن اربع دورات لأقداح الأنيسون ، وطلب عرقاً ، إذ هم جالسون في جوف الحانة ، تجاه المشرب ، وكان ذلك لذيذاً ، يحيط بهم صخب قطني مهدهد . وكان غرولويس يتفتح ، وكانت به رغبة لأن يصعد على الطاولة ويغني ، ولكنه لم يكن يعرف الغناء . وكان في احيان اخرى يغمض عينيه ، فيسقط في ثقب ويشعر بأنه مرهق كما لو أن شيئاً فظيعاً قد حدث له ، فيفتح عينيه ثانية ، ويحاول ان يتذكر ما وقع ، ولكنه يتأكد آخر الأمر انه لم يحدث له شيء قط . ومهما يكن من أمر ، فقد كان راضياً على الأغلب ، وكان متوتراً بعض الشيء بكل بساطة ، ولكنه مرتاح ؛ وكان يجهد في ان يُبقي عينيه مفتوحتين . وكان قد مدّ ساقيه الطويلتين تحت الطاولة ، احداهما بين ساقي ماريو ، والأخرى بين ساقي ستاراس . وكان يتطلع في المرآة فيضحك ، وحاول ان يقلّد ستاراس ، ولكن لم يكن يستطيع ان يُحوِل عينيه ولا ان يحرك اذنيه . وتحت المرآة ، كان ثمة سيدة صغيرة رصينة تدخن بتفكير ، ولا بد انها ظنته يوجّه اليها حركات وجهه ، لأنها مدّت له لسانها ، ثم حبست قبضتها اليمنى في يدها اليسرى ، وأغلقت القبضة اليمنى ثم أخذت تُديرها وهي تقهقه . وصرف غرولويس عينيه مبهوتاً ، وقد أخذه الخوف من ان يكون قد جرحها .

وكانت ديزي جالسة بلصقه ، صغيرة ، صلبة ، حارة . ولكنها لم تكن تنشغـل به . كانت رائحتها طيبة ، وكانت مزينة كما ينبغي ، ولكن غرولويس كان يجدها أرصن مما يجب ، فهو يحب المغندرات

الصغيرات الضاحكات اللواتي يقمن ببعض المضايقات ، كأن ينفخن في أذنك ، او يهمسن بكلام بذيء لا تفهمـــه على الفور . كانت ديزي منتعشة وجادة ، وكانت تتحدث عن الحرب مع ماريو بلهجة جدية ، وكانت تقول :

ــ سنخوضها هذه الحرب . فان وجب ان نخوضها ، خضناها .

وكان ستاراس جالساً باستقامة على الكرسي ، تجاه ديزي ، وكان يبدو حفيتاً ، ولكن لا شك في ان ذلك كان بدافع المجاملة ، اذ لم يكن يفهم شيئاً . وكان غرولويس قد بدأ يميل اليه لالتزامـــه الهدوء وعدم غضبـــه . وكان ماريو ينظر الى ديزي نظرة خبث ، وكان يهز رأسه ويقول :

ــ انا لا اقول لا ، لا اقول لا .

ولكن لم يكن يبدو عليه انه مقتنع . وقالت ديزي :

ــ انا افضل الحرب على الإضراب ، الا تفضل انت الحرب على الإضراب ؟ ما عليك الا ان ترى إضراب عمال أحواض السفن ، كم كلف الجميع ، نحن والآخرين .

قال ماريو : ــ انا لا اقول لا .

وكانت ديزي تتكلم باجتهاد وبلهجة شقية ؛ وكانت تهز رأسها وهي تتكلم ، وقالت بقسوة : ففي الحرب تنتهي الإضرابات . الجميع يعملون . آه ! آه ! ليتك رأيت البواخر عام ١٩١٧ ، كنت آنذاك طفلاً . وانا ايضاً كنت طفلة ، ولكني لا زلت اذكرها ، كما ترى . كانت هي « النوبة » اذ كنت ترى النيران حتى « الاستاك » ، وتلك الرؤوس التي كانت تُرى في الشوارع ؟ لقد كنت تحسب نفسك لا ادري اين ، فتشعر بالاعتزاز ، والصفوف الطويلة في شارع بوتاريل ، كان هناك انكليز واميركان وطليان وألمان وحتى هندوس ... آه ! وكم كانت امي تجمع من المال !!

قال ماريو : — ولكن لم يكن هناك ألمان ، فقد كنا في حرب معهم.
قالت ديزي : — اقــول انه كان هناك ألمان ، في ثياب عسكرية ايضاً ، وعلى قبعاتهم شيء ما . الا تظن اني رأيتهم ؟
قال ماريو : — كنا في حرب معهم .
فهزت ديزي كتفيها :
— هذا صحيح ، ولكن هناك ، في الشمال ، اما هؤلاء فلم يكونوا يأتون من الفنادق ، وانما يصلون من البحر ، ليتاجروا .
ومرّت بغيّ طويلة ، سمينة شقراء كالزبدة ، ولكن هيئتها كانت أرصن مما ينبغي هي ايضاً . وفكر غرولويس : « انما تأتيهم هذه الهيئة من السكنى في المدينة » وانحنت نحو ديزي ، وهي تبدو غاضبة :
— اما انا ، فلا احب الحرب ، هل تفهمين ؟ لأن أُسّي مليئــة بالحرب ، واخي قد خاض حرب ١٤ ، فعلك تريدين ان يعود اليها ؟ ومزرعة خالي ، ألم تحترق ؟ الا يعني هذا شيئاً في نظرك ؟
وبدت ديزي مبهوتة لحظةً ما ، ولكنها ما لبثت ان استعادت رباطتها ، وسألتها :
— انت اذن تفضلين الإضرابات ؟ قوليها اذن ؟
ونظر ماريو الى الشقراء الطويلة ، فمضت من غير ان تلوي ، وهي تهز رأسها . وجلست غير بعيدة عنهم ، وأخذت تتحدث بحماسة الى رجل قصير حزين كان يمضغ قشّة . وكانت تومىء الى ديزي وتتحدث بسرعة مدهشة . ولم يكن الرجل القصير ليجيب ، وكان يمضغ قشّته من غير ان يرفع بصره ، بل كان لا يبدو انه يسمعهــا . وقال ماريو موضحاً :
— انها من « سيدان » .
فسألت ديزي : — اين هي ؟
— في الشمال .

فهزت كفيها :

ـ إذن لماذا تراها تهذي غاضبة ؟ انهم معتادون في الشمال .

وتثاءب غرولويس بكل قواه ، وتدحرجت دموع على خديه ، كان ضجراً ، ولكنه كان مسروراً لانه كان يحب كثيراً ان يتثاءب . ورماه مارو بنظرة مريعة . وأخذ ستاراس يتثاءب ايضاً .

وقال ماريو وهو يشير الى غرولويس :

ـ ان الرفيق منزعج ، فكوني لطيفة معه يا ديزي .

والتفتت ديزي الى غرولويس ووضعت ذراعها حول عنقه . ولم تكن بعد قط على هيئتها الرصينة :

ـ صحيح يا حبيبي انك ضجر ، والى جانبك فتاة جميلة ؟

وكان غرولويس يهم باجابتها حين لمح الزنجي . كان واقفاً امام المشرب ، وكن يشرب مائعاً أصفر في قدح كبير . وكان يرتدي ثوباً أخضر وقبعة من قش ذات شريط متعدد الالوان . وقال غرولويس : « آه ! حسناً » وكان ينظر الى الزنجي فيشعر بالسعادة . وسألته ديزي مندهشة :

ـ ما بك ؟

فأدار رأسه نحوها ونحو ستاراس ونظر اليها في ذهول . كان خجلاً من وجوده معهم . ونفض كتفيــه ، ليُسقط ذراع ديزي ، ونهض مقترباً من الزنجي يسترق الخطى . وكان الزنجي يشرب ، وكان غرولويس يضحك من فرط السرور . وكانت ديزي تقول خلفه بلهجة مرة : « ما الذي دهاه ، هذا المثقوب ؟ لقد آلمني » ولكن غرولويس لم يكن ليكترث بها : لقد تحرر من ماريو وستاراس . ورفع يده اليمنى فوق الزنجي وأرسل له ضربةً كبيرة بين الراسلين . فاوشك الزنجي ان يختنق ، وقد سعل وبصق ثم استدار الى غرولويس بهيئة غضبة . وقال غرولويس :

ـ هذا انا »

فقال الزنجي بصوت ثاقب : — ألست مجنوناً يا ترى ؟
فردّد غرولويس : — انت ترى ان هذا انا .
قال الزنجي : — انا لا اعرفك .
فنظر غرولويس الى الزنجي في حزن :
— الا تذكر ؟ لقد التقينا امس ، وكنت قد سبحت في البحر ؟
وسعل الزنجي وبصق . وكان ستاراس وماريو قد نهضا ، ووقفا الى جانبي غرولويس .
وفكر غرولويس في غضب : « اتراهما لن يحلاّ عن ظهري ؟ »
وشده ماريو برفق من كمه وقال :
— هيا ، تعال . انت ترى جيداً انه غير راغب فيك .
فقال غرولويس بلهجة تهديد :
— بل هو الزنجي الذي ابحث عنه .
قال الزنجي :
— خذاه . ففي اية ساعة تعودانه الى النوم ؟
وكان غرواويس ينظر الى الزنجي وهو يُحسّ بأنه شقي : لقد كان هو نفسه ، وكان جميلا جداً ومرحاً جداً بتلك القبعة القشية الجميلة ، فما الذي يدعوه الى ان ينسى وان يكون عاقاً ؟ وقال :
— لقد سقيتك جرعة خمر .
وردد ماريو : — هيا ، تعال . ليس هو زنجيّك : إنهـم جميعاً متشابهون .
وشد غرولويس على قبضتيه والتفت الى ماريو :
— حُلّ عن ظهري ، اقول لك . هذا لا يعنيك .
فتراجع ماريو خطوة ، وقال بلهجة قلقة :
— ان جميع الزنوج متشابهون .
وصاحت ديزي : — دعه يا ماريو . إنه وحش . وتعال الى هنا .

وكان غرولويس يهمّ بأن يَضرب،حين فُتح الباب وظهر زنجي آخر يشبه الاول كل الشبه ، وهو يضع قبعة من قش ويرتدي ثوباً وردياً. ونظر الى غرولويس في غير اكتراث ، واجتاز الحانة بخطوة راقصة وذهب يرتفق المشرب . وفرك غرولويس عينيه ، ثم راح يجيل نظره بين الزنجيين ، وأخذ يضحك . وقال :

ـ لكأنه هو نفسه مرتين .

وعاد ماريو يقترب :

ـ اترى إذن ؟

وكان غرولويس مرتبكاً . ولم يكن يحب كثيراً ستاراس ولا ماريو، ولكنه كان يشعر انه مذنب نحوهما . فأخذهما من ذراعيهما وقال موضحاً:

ـ كنت أحسب انه الزنجي الذي ابحث عنه .

وكان الزنجي قد اولاه ظهره وعاد الى الشرب . ونظر ماريو الى ستاراس ، ثم التفتا كلاهما الى ديزي . وكانت ديزي واقفة ، ويداها على خاصرتيها ، وكانت تنتظرهما . ولم يكن يبدو عليها انها مطمئنة . قال ماريو :

ـ هِمْ !

فقال ستاراس : ـ هِمْ !

واستدارا على عقبيهما ، فأمسك كل منهما باحدى ذراعي غرولويس وسحباه . وقال ماريو :

ـ سوف نبحث عن زنجيِّك .

كان الشارع ضيقاً مقفراً ، وكانت تنبعث منه رائحة الملفوف ، وفوق السطوح كانت النجوم تلتمع . وفكر غرولويس بحزن : « انهم جميعاً متشابهون » . وسأل :

ـ هل هناك كثير منهم في مارسيليا ؟

ـ كثيرٌ ممَّن يا صديقي ؟

- كثير من الزنوج ؟

فقال ماريو وهو يهز رأسه : - لا بأس بعددهم .

وفكر غرولويس : انني اسود تماماً ، وقال الربان :سوف اساعدك، وسأكون وصيفك . وكان ماريو قد امسك غرواويس من قامته، وكان الربان قد امسك القميص من حمالته ، ولم تستطع مود ان تمتنع عن الضحك : « ولكنك تمسك به على المقلوب ! » وكان ماريو ينحني الى أمام ، وكان يشد بقوة قامة غرولويس ويفرك رأسه بمعدته ويقول : « انت صديقي ، اليس كذلك يـا ستاراس ؟ انه صديقي الصغير ، وأحدنا يحب الآخر » وكان ستاراس يضحك في صمت ، وكان رأسه يدور ويدور ، وكانت اسنانه تلمـع ؛ كان ذلك كابوساً ، وكان رأسه يضج بالصراخ وبالاضواء ، وكان يمضي نحو صراخ آخر واضواء اخرى ، وهما لن يتركاه طوال الليـل ، ضحكة ستاراس ، ووجهه الأسمر الذي كان يصعد ويهبط ، وفم ماريو الصغير الذي كان يشبه فم نمس ، لقد كانت به رغبة في التقيؤ ، وكان البحر يصعد ويهبط في معدة بيار ، كان يعرف جيداً انه لن يعثر بعد ابداً على زنجية ، وكان ماريو يدفعه ، وكان ستاراس يجذبه ، كان الزنجي ملاكاً ، وانا في الجحيم . وقال :

- كان الزنجي ملاكاً .

وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه ، وكان مـاريو يدفعه ، وستاراس يجذبه ، وانعطفا الى زاوية الشارع ، واغمض بيار عينيه ، ولم يكن ثمة بعد الا اشعة المصباح الغامزة على البلاط وخرير المياه المزبد عند صدر السفينة .

المصاريع مغلقة ، والنوافذ مغلقة ، وكانت تنبعث رائحـة البق والفرمول . وكان منحنياً فـوق الجواز ، وكانت الشمعة تضيء شعره الرمادي المجعّد ، ولكنها كانت تعكس ظل رأسه على الطاولة برمتها ،

« لماذا تراه لا يضيء الكهرباء ، فهو سوف ينتزع عينيه . » وتنحنح فيليب : كان يحس نفسه غارقاً في الصمت والنسيان ، انا هناك موجود، موجود أخيراً ، انني صلب ، افرض نفسي . انها لم تستطع ان تبلع لقمة واحدة ، ففي حلقومها كتلة دمع ، وهو مشدوه ، فاليد التي رفعها علي تتجنف ، وهو لم يكن ليتصورني قادراً على ذلك ، انا هذه قد ولدت ، ومع ذلك فانا هنا ، تجاه هذا القصير ذي الشارب الرمادي الذي نسيني تماماً . هنا ، هنا ! هنا حضوري الرتيب وسط العُمي والصُمّ ، اذوب ظلا ، وهناك ، تحت نيران الشمعدان ، بين الكرسي والاريكة ، انا موجود ، ولي شأن . وضرب بقدمه ، فرفع الشيخ عينيه ، عينيه الحسيرتين ، القاسيتين ، الدامعتين والمتعبتين .

— هل كنت في اسبانيا ؟

قال فيليب : — نعم . منذ ثلاث سنوات .

— ان الجواز غير صالح بعد . وقد كان ينبغي تجديده .

قال فيليب بنفاد صبر : أعرف ذلك .

— انا ، الامر عندي سواء . هل تتكلم الاسبانية ؟

— كالفرنسية .

— اذا ظنوك اسبانياً ، كنت محظوظاً ، بشعرك الكستّاني .

— هناك اسبان شُقر .

فهز الشيخ كتفيه :

— انا ، اقول لك ، لا يهمني ...

وكان يتقلب صفحات الجواز بشرود . « اني انا هنا عند مزوّر . » ولم يكن يبدو ذلك صحيحاً . منذ هذا الصباح ، لم يكن يبدو على شيء أنه صحيح . لم يكن المزوّر يشبه مزوّراً ، وانما كان يشبه دركياً .

— انك تشبه دركياً .

فلم يُجب الشيخ ، وأحس فيليب بالانزعاج . اللامعنى . لقد عاد

الى هنا مرة اخرى ، اللامعنى الشفاف والعشية البارحة ، حين كنت أمرّ عبر نظراتهم ، حين كنت زجاجاً متمايلا على ظهر زجاج وكنت أمر عبر الشمس . انني الآن ، هناك ، كثيف كالميت ، وتساءلت : « اين هو ؟ ماذا يفعل ؟ اتراه مع ذلك يفكر بي ؟ » ولكن لم يكن يبدو على الشيخ انه يعرف ان ثمة على الارض مكاناً اكون فيه جوهرة ثمينة . قال فيليب :

ــ واذن ؟

فوضع الشيخ عليه نظره المتعب :

ــ ايكون بيتو هو الذي ارسلك ؟

ــ هذه هي المرة الثالثة التي تسألني فيها هذا . (وأضاف فيليب في إقدام) أجل ، ان بيتو هو الذي أرسلني .

قال الشيخ : ــ حسناً . في العادة أقوم بذلك مجاناً . اما انت ، فهو يكلفك ثلاثة الاف فرنك .

قطّ فيليب شفتيه على شاكلة بيتو :

ــ ارجو ذلك . فلم تكن لدي نية بان اطلب منك خدمة مجانية .

وقهقه الشيخ . وفكر فيليب في غيظ : ان رنة صوتي مزيفة . لست أملك بعد الوقاحة الطبيعية . لا سيما تجاه الشيوخ . فبيني وبينهم حساب قديم جداً من الصفعات التي لم يوف ثمنها . ويجب ان اردها كلها قبل ان استطيع التحدث اليهم نداً لند .

وفكر في فورة : « ولكن الصفعة الاخيرة ، الاخيرة في الزمن ، قد مُحيت . » وقال :

ــ تفضّل .

وسحب محفظته بحيوية ووضع ثلاثة اوراق على الطاولة . فقال الشيخ :

ــ يا لك من ابله صغير ! انني الآن سأقبضها وأرفض ان اقوم بعملك .

فنظر اليه فيليب في قاق ، وتحرك ليستردّ الاوراق . فنفجر الشيخ ضاحكاً . وقال فيليب :

ــ كنت احسب ...

وكان الشيخ ما ينفك يضحك ، وسحب فيليب يده في مـــا يشبه الغضب وأخذ يبتسم وقال :

ــ انني اعرف الناس . اعرف انك ما كنت لتفعل ذلك .

وكف الشيخ عن الضحك . وكان يبدو عليه المرح والاستياء :

ــ انه يعرف الناس . يا للممحون المسكين ! انك تأتي الي ، ولم يسبق لك ان رأيتني من قبل ، وتخرج فلوسك فتضعها على الطاولة ، وهذا عمل يفضي بك الى الهلاك . هيا ، هيا ، دعني اعمـــل . انني آخذ منك الف فرنك على الفور ، فقد يخطر لك ان تغـــير رأيك . وستحمل لي الباقي حين تأتي لتأخذ اوراقك .

صفعة اخرى ، وسأردّها كلها . وجاءته الدموع في عينيه . وكان على حق بان يغضب ، ولكن ما كان يشعر به انما هو الذهول . كيف تراهم يفعلون جميعاً ليكونوا قساة الى هـــذا الحد ، انهم لا يلقون السلاح قط ، فهم ابداً مترصدون ، وعند ادنى غلطة ينقضّون عليك ويؤذونك . ماذا فعلت له ؟ ولهم هم ، هناك ، في الصالون الازرق، ماذا فعلت لهم؟ سأتعلم قواعد اللعب ، وسأكون قاسياً ، وسوف اجعلهم يرتجفون .

ــ متى يكون جاهزاً ؟

ــ غداً صباحاً .

ــ كنت اظن ... لم اكن اظن ان ذلك يقتضيك هذا الزمن الطويل .

قال الشيخ : ــ نعم ؟ والاختام ، اتظن انني اخترعها ؟ هيا ، اذهب ، وعد صباح الغد ، فليس الليل اطول مما ينبغي للقيام بعملك .

وفي الخارج كان الليل ، الليل المغنّي الفاتر بكل شياطينه ؛ والخطى

التي ترن طويلا خلفك ، من غير ان تجرؤ على ان تدير رأسك ، ليلاً في سانت اوان ، ان الحي غير مأمون .

وسأل فيليب بصوت ابيض :

– في اية ساعة أستطيع ان أجيء ؟

– في الساعة التي تريد ، ابتداء من السادسة .

– هل هناك ... هل هناك فنادق قريبة ؟

– جادة سانت اوان ، وما عليك الا ان تختار . هيا ، اذهب .

قال فيليب في حزم: – سأعود في الساعة السادسة .X

وأخذ صندوقه الصغير ، فأغلق الباب وهبط الدرج . وانبثقت دموعه عند سطيحة الطابق الثالث ، وكان قد نسي ان يأخذ منديلا ، فمسح عينيه بكمه ، وتنشق مرتين او ثلاثاً ، انني لست جباناً . كان اللئيم فوق يظنه جباناً ، وكان احتقاره يتبعه كأنه نظر . انهم ينظرون الي . وسارع فيليب يهبط الدرجات الاخيرة . « الباب من فضلك » وتثاءب الباب ، فغطس فيليب . انني لست جباناً وليس ثمة من يفكر بهذا الا ذلك الشيخ القذر . والحق انه لا يفكر به بعد ، هكذا قال مقرراً. انه لا يفكر بي بعد ، فقد بدأ العمل . وانطفأ النظر ، وحث فيليب خطوه . « ماذا ، فيليب ؟ هل انت مذعور ؟ » « لست مذعوراً ، لا استطيع . » « الا تستطيع يا فيليب ؟ الا تستطيع ؟ » وكان قد انزوى ثانية لدى الجدار . كان بيتو يلامس جنبيه وصدره ، ويمس حلمة ثدييه عبر القميص ، ثم ارسل له ضربة على فمه باصبعين من يده اليمنى « وداعاً يا فيليب ، اذهب ، فاني لا احب المذعورين . » وكان الشارع قد عمر بالتماثيل الليلية ، هؤلاء الرجال المستندين الى الجدران لا يقولون شيئاً ، ولا يدخنون ، وينظرون اليك تمر ، بلا حركة ، بعيونهم الملأى بالليل . كان يعدو تقريباً ، وكان قلبه يخفق خفقاً اسرع ، « ان من يراك يعرف انك جبان ، اذهب ، اذهب »

سيرون ، سيرون جميعاً ، سيأتيها كالآخرين ، سيقرأ اسمي ، وسيقول: « عجباً ! بالنسبة لولد من اسرة غنية ، بالنسبة لشاب صغير ، ليس الامر سيئاً الى هذا الحد . »

الى يمينه فندق مضيء . وكان الخادم واقفاً على العتبة ،وكان يُحوِل عينيه ؛ اتراه ينظر اليّ ؟ وابطأ فيليب في مشيته ، ولكنه خطا خطوة اخرى فعبر الباب ، ولا بد ان الخادم يُحول الآن في ظهره ، وكانت الحشمة تقتضيه الا يعود أدراجه . الساقي يُحول او مبارزة العمالقة ذوي العين الواحدة . او هذا ايضاً : حكاية قذرة للعملاق ذي العين الواحدة ، انه ينظر الى نفسه في المرآة ، ذات يوم ، لأنه كان يشعر بتآكل فوق الخدين : ان عيناً اخرى قد نبتت له بجانب الاولى ! اي يأس ! من المستحيل ان ندعوهم الى القيام بمناورات جماعية ، وبالطبع ، ظلت العين الاولى وحدها اطول مما ينبغي ، كانت عصابة وحدها . وكان على الرصيف المقابل فندق آخر ، فندق « كوتكارنو » ، بناء صغير في طابق واحد . هل اذهب اليه ؟ وفكر : واذا سألوني عن اوراقي ؟ ولم يجرؤ على العبور ، فاستعاد سيره على الرصيف نفسه . لا بدّ من الجرأة ، ولكني هذا المساء لا املك منها ذرة ، فقد افرغني الشيخ ، ونظر الى لافتة « قهوة ، خمور ، مشروبات » وفكر : او ربما كان انفي مصاباً بضربة . ودفع الباب .

كان مقهى صغيراً فيه طاولتان فحسب، وكانت نشارة الخشب تعلق بالنعل . ونظر اليه صاحب المقهى بحذر ، وفكر فيليب في غيظ : « ان ثيابي آنق مما يجب » . وقال وهو يقترب من المشرب : « قدح خمر » فتناول صاحب المقهى زجاجة كانت سدادتها مزودة بصنبور من التنك ، فسكب الخمر ، وكان فيليب قد وضع صندوقه الصغير وراح ينظر اليه مسروراً : كان خيط من الخمر يسيل من صنبور التنك ، وكان كأنه يسقي خضاراً . وشرب فيليب جرعة وفكر : « لا بد انه خمر رديء » ، ولم يكن يشرب منه قط ، فقد كان له مذاق خمر مشيّط ،

وقد حرق له حنجرته . وسارع يضع القدح . وكان صاحب المقهى ينظر اليه . أكان في عينيه الهادئتين سخرية ؟ واخذ فيليب القدح ثانية وحمله الى شفتيه بحركة مهملة : كان حلقومه يلتهب ، وكانت عيناه تتبللان ، وشرب القدح جرعة واحدة . وحين وضعه ، أحسّ انه غير مكترث ، وجذل بعض الشيء . وفكر : « هذه فرصة للمراقبة » . وكان قد اكتشف منذ خمسة عشر يوماً ، انه لم يكن يحسن المراقبة ، فانا شاعر ، وانا لا احلل . ومنذ ذلك الحين كان يقسر نفسه على رسم البيانات والجردات ، حيث كان يستطيع ، فكان يقوم مثلا بعد الاشياء المعروضة في واجهة . ورمى نظرة دائرية ، مبتدأ بآخر صف من الزجاجات ، فوق ، خلف المشرب .. اربع زجاجات « بير » ، زجاجة « غودرون » ، زجاجتا « نوالي » ، كوز « روم » .

وكان شخص قد دخل ، عامل ذو قبعة . وفكر فيليب : « انه بروليتاري » . ولم تتح له الفرصة من قبل ان يلتقي بكثيرين ، ولكنه كان يفكر كثيراً بهم . كان رجلا في حوالي الثلاثين ، ذا عضلات ، ولكن بنيته غير منتظمة ، ذراعاه أطول مما ينبغي وساقاه ملتويتان ، ولا شك في ان العمل اليدوي هو الذي شوهه ؛ وكان له تحت أنفه زغب صلب أصفر ؛ وكان يضع على قبعته شارة مثلثة الالوان ويبدو مستاءً ومضطرباً . وقال :

– قدح من الخمر الابيض ، بسرعة يا معلم .

فقال صاحب المقهى : – سنُغلق .

فسأله العامل :

– لن ترفض تقديم قدح ابيض لمجنّد !

وكان يتكلم بمشقة ، وبصوت أبحّ ، كما لو انه قضى نهاره وهو يصيح . وقال موضحاً وهو يغمز بعينه اليمنى :

– اني ذاهب صباح الغد .

وتناول صاحب المقهى قدحاً وزجاجة ، وسأله وهو يضع القدح على المشرب .

ــ واين انت ذاهب ؟

فقال الرجل : ــ الى سواسون . فانا تابع للدبابات .

ورفع القدح حتى فمه ، وكانت يده ترتعش ، وسال خمر على الارض . وقال :

ــ سوف ننفذ الى لحومهم .

فقال صاحب المقهى : ــ هيه !

قال الرجل ــ نعم ، هكذا .

وضرب ضربتين بظاهر يده اليمنى على قبضته اليسرى . وقال صاحب المقهى .

ــ يجب ان تحسن ذلك . فالخنازير اقوياء .

ــ اقول لك هكذا .

وشرب ، وطقطق بلسانه ، وغنى . وكان يبدو مهتاجاً ، متعباً ؛ وكانت ملامحه تنفرج كل لحظة ، وعيناه تغتمضان ، وشفتاه تتدليان : ولكن سرعان ما كانت ترفع جفنيه قوة شديدة لا هوادة فيها، وتشدّ الى الاعلى شفتيه ، فكان يبدو فريسة منهكة لمرح لم يكن يريد بعد ان ينتهي . والتفت الى فيليب :

ــ وهل انت مجنّد ؟

فقال فيليب وهو يتراجع ــ بعد ...

ــ وماذا تنتظر ؟ يجب ان ننفذ الى لحومهم .

كان بروليتارياً : وابتسم له فيليب ، وجهد في ان يخطو نحوه خطوة . وقال البروليتاري ..

ــ انني اقدم لك جرعة خمر أبيض . قدحان يا معلم : واحد لك ، وواحد له : انها دورتي .

فقال صاحب المقهى بقسوة : — لست عطشاً . ثم انها ساعة الاغلاق، فانا انهض في الرابعة .

ومع ذلك ، فقد دفع امام فيليب قدحاً ، وقال البروليتاري :

— سوف ندقّ اقداحنا .

ورفع فيليب قدحه . كان منذ لحظة في غرفة مزوّر ، وها هو يشرب مع عامل . لو كانوا يرونني ! وقال :

— نخبك !

فقال البروليتاري : — نخب النصر !

فنظر اليه فيليب في دهشة : كان يريد بلا شك ان يمزح ؛ فالعمال من انصار السلام .

وقال الرجل :

— قل مثلي ، قل : نخب النصر !

وكان يبدو عليه الجدّ والاستياء ، وقال فيليب :

— لا اريد ان اقول ذلك .

قال الرجل : — لماذا ؟

وكان يحرّق الأرم . وقطعت جُشأةٌ كلامَه . فبيّض عينيه ، وأرخى فكّه وتمايل رأسه لحظة بميوعة . وقال صاحب المقهى :

— قل مثله !

وكان البروليتاري قد تماسك، فجاء يكلمه عن كثب ، وكانت رائحة الخمر تنبعث منه . لن اقول : نخب النصر .

— الا تريد ان تقــول : نخب النصر ؟ وتفعل هذا لي انا ؟ انا المجنّد ؟ انا عسكري الـ ٣٨ ؟

وقبض عليه البروليتاري من ربطة عنقه ودفعه الى المشرب :

— أتفعل ذلك معي : الا تريد ان تدق قدحك بقدحي ؟

ما عساه كان يفعل ، بيتو ؟ ما عساه كان يفعل ، لو كان مكاني ؟

وقال صاحب المقهى بصوت قاسٍ :

— هيا ، افعل ما يقوله لك : فانا لا اريد مشاكل . ثم ارجوكما ان تخليا المكان ، فأنا أنهض في الساعة الرابعة .

وأخذ فيليب قدحه وتمتم :

— نخب النصر .

وشرب ؛ ولكن حنجرته كانت منقبضة ، وحسب انه لن يستطيع ان يبتلع . وكان الرجل قد تركه وهو يقهقه بهيئة مكتفية ، ماسحاً شاربه بظاهر يده . وقال موضحاً لصاحب المقهى :

— لم يكن يريد ان يقول : نخب النصر . وأمسكتك من ربطة العنق : أتفعل ذلك معي ، ايها الفرنسي الرديء ؟ مع مجنّد ، مع عسكري الـ ١٤ ؟

ورمى فيليب قطعة من اربعين فلساً على الطاولة ، وتناول صندوقه ، وعجّل بالخروج . كان ذلك رجلاً عربيداً ، وكان لا بد من الاستسلام ، وقد كان بيتو يستسلم : انني لست جباناً .

— هيه ! اسمع ، ايها الشاب الصغير !

وكان الرجل قد خرج في أعقابه ، وسمع فيليب صاحب المقهى يغلق البـاب ويدير المفتاح . فأحسّ بأنه مثلج : كان يخيّل اليه انهما كانا يُحبسان معاً . وقال الرجل :

— لا تهرب هكذا . قلت لك ان علينا ان ننفذ الى لحومهم . وهذا يستحق الاحتفال .

واقترب من فيليب ولفّ عنقه بذراعه ، وكان ماربو قد أخذ ذراع غرولويس وراح يشدّه بحنان ، كان ذلك هو الجحيم ، وكانوا يمشون في الأزقّة المظلمـة ، ولم يكونوا ليقفوا قطّ ، فان غرولويس كان متضايقاً جداً ، وكانت به رغبةٌ في التقيّؤ ، وكانت اذناه تطنّان . قال فيليب :

– الواقع اني مستعجل بعض الشيء .
وسأل غرولويس : – اين نذهب ؟
– سنبحث عن زنجيّك .
– انك لن تخدعني . فحين ادفع للشرب ، فيجب ان تشرب .
مفهوم ؟
ونظر غرولويس الى ماريو فأخذه الخوف . كان ماريو يقــول :
« واذن يا صديقي ، يا صديقي الصغير ، انت متعبٌ يا صديقي ! »
ولكن وجهه كان قد تغيّر . وكان ستاراس قد أخذ ذراعه اليسرى ، كان ذلك هو الجحيم . وحاول ان يحرّر ذراعه اليمنى ، ولكنه أحسّ ألماً شديداً في مرفقه ، فقال :
– ولكن اسمع انت ، انك تحطّم لي ذراعي .
وغطس فيليب فجأة وأخذ يعدو . انه عربيد ، ولا بأس من الفرار امام عربيد . وترك ستاراس ذراعه فجأة وتراجع خطوة . واراد غرولويس ان يلتفت ليرى ما كان يدبّره ، ولكن ماريو كان متشبثاً بذراعه ، وكان فيليب يسمع خلفه تنفّساً قصيراً : « عكروت صغير ، قذر ، انا لا اخاف ، وسوف اؤدبك ، انا ! » « ماذا دهاك ، يا صديقي الصغير ، ماذا دهاك ؟ ألسنا بعد اصدقاء ؟ » وفكر غرولويس : سوف يقتلانني ، وكان الخــوف يثلجه حتّى العظام ، فقبض على ماريو من عنقه بيده الفارغة ورفعه عن الارض ؛ ولكن في اللحظة نفسها ، انشقّ رأسه حتّى ذقنه ، فترك ماريو وسقط على ركبتيه ، وكان دمه يسيل على حاجبيه . وحاول ان يتماسك بان يتعلّق بمعطف ماريو ، ولكن ماريو قام بقفزة الى الخلف ، ولم يره غرولويس بعد ذلك . كان يرى الزنجي الذي ينزلق على الارض ولكن من غير ان يمسّها ، ولم يكن يشبه قط سائر الزنوج ، وكان قادماً نحوه ، مفتوح الذراعين ، ضاحكاً ، فمدّ غرولويس يديه ، وكان في رأسه ذلك الألم النحاسيّ الهائل ، وصاح

به : الى النجدة ، فتلقّى ضربة اخرى على أمّ رأسه وسقط وانفه في الساقية ، وكان فيليب ما يزال يركض ؛ فنـدق كندا ، وتوقّف ، واستعاد نفَسه ونظر خلفه ، فاذا هو قد تخلّص منه . وشدّ ربطة عنقه ، ثم دخل الى الفندق بخطى موزونة .

تمايل ، ارتجاج ؛ تمايل ، ارتجاج . كانت اهتزازات الباخرة تصعد لولبياً في ربلاته وفخذيه وتنتهي ميتة في أسفل بطنه وقد اصبحت ارتعاشات كثيفة . ولكن رأسه ظلّ حرّاً ، وكل ما حدث تقيّؤٌ او تقيّؤان حامزان بعض الشيء . وكان يشدّ بقوة على دربزون المترسة بين يديه. الساعة الحادية عشرة ؛ كانت السماء تنغل بالنجوم ، وكانت نارٌ حمراء ترقص بعيداً فوق البحر ؛ ربما كانت هذه هي الصورة الاخيرة التي تعود الى عيني ، وتثبت فيهما الى الأبد ، حين أكون في حفرتي مقلوباً، وفكّي منتزَع ، تحت سماء متواترة اللمع . هذه الصورة الصافية السوداء، مع هذا الحفيف من النخيل ، وهذا الحضور للناس ، البعيد جداً خلف ناره الحمراء ، في الظلام . لقد رآهم ، في الثياب العسكرية ، متلاصقين كالسردين خلف منارتهم ، منسربين بصمت نحو الموت . وكانوا ينظرون اليه من غير ان ينبسوا ، وكانت النار الحمراء تنسرب على الماء ، كانوا ينسربون ، وكانوا يمشون صفاً امام بيار وهم ينظرون اليه . إنه يكرههم جميعاً ، وهو يحسّ نفسه وحيداً مصدوماً تحت اعين الليل المزدرية ؛ وقد صاح بهم : انا المحقّ ، انا المحقّ ، انني على حق بان أخاف، فقد صُنعت لأعيش ، لأعيش ، لأعيش ! لا لأمـوت : فلا شيء هنك يستحق ان أموت من أجله . انها لا تجيء ، فأين عساها تكون ؟ وانحنى فوق الجسر المقفر . ايتها القذرة ! ستدفعين لي ثمن هذا الانتظار. لقد عرفْ عارضات وفتيات رائعات الجسم ، ولكن هذه المزياة الصغيرة الأقرب الى التشوّه ، كانت اول امرأة يشتهيها بهذا العنف . انه يعبد ان يلامس رقبتها ، عند منبت الشعر الأسود ، وأن يُصعِدَ اغتلام

البطن الى الرأس بهدوء، وان يعكّر أفكاره الصغيرة الواضحة، سأضاجعك، سأضاجعك، وسأدخل في احتقارك فأنقبه كأنه فقاعة ؛ وحين تمتلئين مني وتصرخـــين « يا حبيبي بيار » وانت تديرين عينين بيضاوين، فسنرى ماذا يحلّ بنظرك المحتقِر، سنرى اذا كنت ستسمّينني جباناً.

« الى اللقـــاء ايتها العزيزة، ايتها الصديقة العزيزة، الى اللقاء، عودي، عودي ! »

كان ذلك همساً نثره الهواء. وأدار بيار رأسه، فدلف الهواء الى اذنه. هنالك، فوق الجسر الامامي، كان ثمة مصباح صغير معلّق فوق غرفة الربان يضيء ثوباً ابيض قد نفخـــه الهواء. وهبطت ذات الثوب الابيض الدرج بهدوء، وهي تمسك بالحاجز، بسبب الهواء والارتجاج، وكان ثوبها المتنفخ تارة والملتصق تارة اخرى بفخذيها يشبه جرساً يدقّ. واختفت فجأة، ولا بد انها تعبر ما بين الجسرين، وسقطت الباخرة في ثقب، وكان البحر فوقها، ابيض اسود، ثم صعد بمشقّة، فبدا رأس المرأة وهي ترقى سلّم الدرجة الثانيـــة. لهذا السبب اذن غيّروا لهنّ الغرفة. كانت عَرِقةً دَبِقة، مبعثرة الشعر قليلاً، وألمّت ببيار من غير أن تراه، بهيئتها الشريفة الرصينة.

وتمتم بيار : « قحبة ! » وأحسّ نفسه غارقاً في ضجر شديد، ولم تكن له فيهـــا رغبة بعد، ولم تكن له رغبة بعد في ان يعيش. وكانت الباخرة تسقط وتسقط في جوف البحر، وكان بيار يسقط خفيفاً كالقطن رخواً، وتردّد لحظة، ثم ترك لفمه ان يمتلىء بالصفراء، فانحنى على الماء الأسود وقاء من فوق الجسر.

قال الخادم : « القُسيمة الصغيرة، الآن »

ووضع فيليب صندوقه، وأخذ الريشة فغطّها في الحبر. وكان الخادم ينظر اليه، ويداه متشابكتان خلف ظهره. أكان يخنق تثاؤبة ام ضحكة؟ وفكر فيليب في غضب : لأني انيق اللباس. إن جميع الناس يقفون عند

الملبس ، اما الباقي فلا يرونه . وكتب بيد ثابتة :
ايزيدور دوكاس .
رحالة تجارة .
وقال للخادم وهو ينظر في عينيه : « إصحبني » .
فتناول الخـادم عن اللوحة مفتاحاً كبيراً وصعدا ، أحدهما خلف الآخر . وكان الدرج مظلماً ، فقد كانت المصابيح الزرق تضيئه من بعيد لبعيد ؛ وكان حذاء الخادم يخفق على الدرجات الحجرية . وخلف أحد الابواب ، كان طفل يبكي ؛ وكانت رائحة المراحيض منبعثة . وفكر فيليب « انه بيت مؤنث » . بيت مؤنث ، تلك كانت عبارة حزينة غالباً ما قرأها في روايات طبيعية ، فكان دائماً ينفر منها . وقال الخادم وهو يضع المفتاح في قفل :
ـ هذه هي .
وكانت غرفة واسعة ذات أرض مربّعـة ؛ وكانت الجدران مطلية بالمغرة حتى منتصفها ، وبعد ذلك بالأصفر الكابي حتى السقف. كرسي واحدة ، وطاولة واحدة : وكانتا تبدوان ضائعتين في وسط الغرفة ؛ نافذتان ومغسلة تشبه بلوعة مطبخ ، وسرير كبير عند الجدار . وفكر فيليب : « لقد وضعوا سرير العرس في المطبخ » .
ولم يكن الخادم ليذهب . وقال في بسمة :
ـ الاجرة عشرة فرنكات . وسأطلب اليك ان تدفع فوراً .
فمد له فيليب عشرين فرنكاً وقال :
ـ احتفظ بها كلها ، وأيقظني عند الساعة الخامسة والنصف .
فلم يبد على الخادم انه متأثر ، وقال وهو يمضي :
ـ مساء الخير يا سيدي . ليلة سعيدة .
وارهف فيليب اذنه لحظة ، وحين كف عن سماع رنين الحذاء على الدركات ، ادار المفتاح مرتين في القفل ، ووضع المزلاج وحمل الطاولة

فأسندها الى الباب ، ثم وضع الصندوق على الطاولة ونظر اليه مرتخي الذراعين . وانطفأ شمعـــدان الصالون ، وانطفأت شمعة المزوّر ، وأكل الظلام كل شيء . ظلام مغفل . وهذه الغرفة الطويلة العارية ، كانت وحدها تلمع في الظلام ، فاقدة الشخصية كالليل . وكان فيليب ينظر الى الطاولة مخدّراً لا عمل له . وتثاءب . ولم يكن مع ذلك ناعساً : كان فارغاً . ذبابة منسيّة تستيقظ في بدء الشتاء ، اذ يكون جميع الذباب الآخر ميتاً ، ولا تملك بعد القدرة على الطيران . كان ينظر الى الصندوق الصغير ويقول لنفسه : يجب ان افتحـــه ، فينبغي ان آخذ منامتي . ولكن الرغاب كانت تتخدر في رأسه ، فلا يتأتى له حتّى ان يرفع ذراعه . كان ينظر الى الصندوق الصغير . وكان ينظر الى الجدار ويفكر : ما الفائدة ؟ ما جدوى الامتناع عن الموت ما دام هذا الجدار موجوداً هنـــا ، قبالتي ، بألوانه القذرة المزدهية ؟ ولم يكن حتى خائفاً بعد .

وهوب ! انه يرتفع ، وهوب ! انه يهبط ! لم يكن خائفاً بعد ، كان الطست يصعد ويهبط ، مليئاً بالزبد ، وكان هو يصعد ويهبط ، متمدداً على ظهره ، ولم يكن خائفاً بعد . وسوف يغضب الخادم حين يدخل لأني قئت على الارض ، ولكن طز فيه . كان كل شيء عذباً جداً ، الماء في فمه ، ورائحة القيء ، وهذه الكرة في صدره ، لم يكن جسمه الا عذوبة ، ثم هذه العجلة التي كانت تدور وتدور وتدور وهي تسحق جبينه ، كان يراها وكان يتسلى بان يراها ، كانت عجلة سيارة تاكسي مع دولاب رمادي مستعمل . كانت العجلة تدور ، وكانت الافكار المألوفة تدور وتدور ، ولكنه لم يكن يكترث بها ، فهو يستطيع اخيراً ان لا يكترث بها ، فبعد ثمانية ايام سيطلقون عليّ النار في « أرغون » ولكن لا يهمني ، إنها تحتقرني ، وتفكر بأبي جبان ، ولكن طز ، ما عسى ذلك ان يهمني اليوم ، ما عساه يهمني ؟ طز ، طز ، اني

لا افكر بشيء ، ولا أخاف شيئاً ، ولا آخذ على نفسي شيئاً.

وهوب ! انه يرتفع ، وهوب ! انه يهبط ؛ ما ألذّ ان لا يكترث الانسان بشيء !

الساعة الحادية عشرة ، احدى عشرة ضربة في السكون . ومدّ يده ففتح الصندوق الصغير ، وكان خدّه الأيمن يحرقه كالمشعل ؛ الساعة الحادية عشرة ، وأضاء الشمعدان في الليل ، كانت جالسة في الاريكة ، مكتومة ممتلئة ، بذراعيها الجميلتين العاريتين ، وكان خده يحرقه ، وكان العذاب يعود من جديد ، وكانت اليد ترتفع ، والخد يحرق ، لست جباناً ، لست جباناً ، ونشر منامته ، الساعة الحادية عشرة ، ليلة سعيدة يا ماما ، كنت أقبّل محظيّة الجنرال على وجنتيها المعطرتين ، وانظر الى ذراعيها ، وانحني امامه ، ليلة سعيدة يا ابي ، ليلة سعيدة يا فيليب ، ليلة سعيدة يا فيليب . هذا بالأمس ؛ هذا بالأمس فقط . وكان يفكر في ذهول: كان هذا بالأمس ؛ ولكن ما الذي فعلته ؟ ما الذي حصل منذ ذلك الحين ؟ لقد وضعت منامتي في صندوقي الصغير ، وخرجت كما أخرج كل يوم ، فاذا بكل شيء يتغيّر : لقد سقطت صخرة خلفي على الطريق فحفرتها ، فليس في مكنتي بعد أن اعود ادراجي ؛ ولكن متى ، متى حدث هذا ؟ لقد أخذت صندوقي الصغير وفتحت الباب بهدوء ، وهبطت الدرج ... كان ذلك بالأمس . انها جالسة على الاريكة ، وهو واقف امام المدفأة ، أمس . الجو لذيذ ورائق في الصالون ، انا فيليب غرازيني ، ابن زوجة الجنرال لاكاز ، ليسانس ادب ، شاعر المستقبل ، أمس ، امس ، امس الى الأبد ؛ كان قد نزع ثيابه ، فارتدى منامته : وفي الغرفة المؤثثة ، كانت حركاته حركات جديدة متردّدة ؛ وكان ينبغي تعلمها ، كان الـ « رامبو » في الصندوق الصغير ، فتركه فيــه ، ولم تكن له رغبة في القراءة . مرة واحدة ، لو صدقتني مرة واحدة ، ولو وضعت ذراعيها الجميلتين حول عنقي ، ولو قالت لي ، انني واثقة ،

فانت شجاع ، وستكون قوياً ، لما ذهبت . انها محظية ، كانت تصل الى غرفتي كلمات الجنرال ، كلمات متحجرة ، وكانت تلقيها ، فهي أثقل من ان تتحملها ، وتدحرجت الكلمات تحت السرير ، ولقد تركتها تتكدس طوال خمسة اعوام ، يكفي ازاحة السرير للعثور عليها جميعاً، وطن ، شرف ، فضيلة ، اسرة ، في الغبار ، وانا لم اسيء استعمال اي منها لمصلحتي . وكان قد ظل عاري القدمين على البلاط ، فعطس، سآخذ برداً ، وكان الزر بالقرب من الباب ، فأطفأه وتوجه الى السرير متلمساً ، وكان يخشى ان يسير على حشرات ، من مثـــل العنكبوت الكبير الذي له ارجل كأصابع الانسان والذي يشبه يداً مقطوعة ، او رتيلاء ، ماذا لو كانت هنا واحدة ، ماذا لو كانت هنا واحدة ؟ واندس تحت الغطاء ، فصرّ السرير . كان خده يحترق ، مشعل في الليل ، لهب احمر ، فأسنده على الوسادة ، انهم ينامون ، وقد ارتدت هي قميصها الوردي ذا التخاريم : تصوُّرُ ذلك ، هذا المساء ، هو أقل مشقة وألماً ، انه لن يستطيع هذا المساء ان يمسّها ، فيشعر بالخجل ، وهي ، المحظية ، لن تتداعى لذلك مهما كان ، بينما يكون ابنها يتصوّر برداً وجوعاً في الطرقات ، انها تفكر فيّ ، وهي تتظاهر بالنوم ، انها تراني ممتقعاً صلباً ، متشنّج الشفتين ، جافّ العينين ، تراني امشي في الليـــل ، تحت النجوم . انه ليس جباناً ، ليس صغيري جباناً ، صغيري ، ولدي ، حبيبي : ليتني هناك ، ليتني استطيع ان اكون هناك ، من اجلهـــا وحدها ، فأشرب هذه الدموع التي تتدحرج على خديها وألامس تينك الذراعين الجميلتين الرقيقتين ، ماما ، يا امي الصغيرة . وقال صوت غريب في اذنيه : ان الجنرال مستشار : وانفلت مثلث أخضر ، واخذ يدور ، الجنرال مستشار :

كان المثلث يدور ، انه رامبو ، وكبُر كالفطر ، وأصبح جافاً متصلب القشرة ، التهاباً في الخد ، في النصر ، « نخب

النصر » : لست جباناً ، صاح فيليب ، وقد استيقظ منتفضاً . كان جالساً على السرير ، والعرق يسيل منه ، وعيناه ثابتتان ، وكان ينبعث من الغطاء رائحة الكبريت ، بأي حق هم شهودي ؟ الغـلاظ . انهم يحكمونني وفق قواعدهم ، وانا لا اقبل الا قواعدى . إن لي اعيادي الزاهية ! ولي كبريائي ! فأنا من جنس السادة . وفكر في غضب : آه ! فيما بعد ! يجب الانتظار ! فيما بعد سيضعون لوحة مرمرية على جدار هذا الفندق : هنا قضى فيليب غرازيني ليلة ٢٤ ــ ٢٥ ايلول ١٩٣٨ . ولكني سأكون ميتاً . وتسرّب من تحت الباب همس غامض عذب . وفجأة مات الليل . وكان ينظر اليه من اعماق المستقبـــل ، بعيون هؤلاء الرجال اللابسين المعطف الاسود والذين كانوا يخطبون تحت اللوحة المرمرية . كانت كل دقيقة تتسرب في الظلام ، ثمينة مقدسة منصرمة . وذات يوم ، ستكون هذه الليلة قد انصرمت ، مجيدة منصرمة كليالي مالدورور ، كليالي رامبو . ليلي . وقـــال صوت رجل : « زبزيت » فتهاوت الكبرياء ، وتمزّق الماضي . وكان الحاضر . ودار المفتاح في القفل ، فقفز قلبه الى صدره . لا ، هذا في الباب المجاور . وسمع باب الغرفة المجاورة يصر ، وفكّر : « انهما على الاقل اثنان ، رجل وأمرأة »

كانا يتكلمان . ولم يكن فيليب يسمع كل ما يقولانه . ولكنه فهم ان الرجل كان يدعى موريس ، فطمأنه ذلك قليلاً . وعاد الى النوم ، فمد ساقيه ، وابعد عن ذقنه الغطاء خشية ان يلتـــقط بثوراً . وارتفعت اغنية صغيرة على الناي ، اغنية صغيرة غريبة .

قال الرجـــل بلطف : ــ لا تبكي ، لا تبكي ، فهذا لا يفيد شيئاً ..

وكان له صوت حارّ قاس يتناول الكلمات بجفاء ودفع ، فتخرج من جوف حلقه مسرعة تارة بطيئة تارة ، خشنة حازمة ، ولكنها كانت

تمتد كلها في تموّج غامض عذب . وانقطع الناي بعد خرّة او خرتين .
وانحنى عليها ، فأخذها من كتفيها . وكان فيليب يحس يدين قويتين
على كتفيه ، وكان وجهٌ ينحني فوقه، وجه هزيل اسمر ، اسود تقريباً ، ذو خدين
مزرقّين ، وانف يشبه انف ملاكم ، وفم جميل مرّ ، فم زنجي .
وردد الصوت :

– لا تبكي يا صغيرتي ، لا تبكي ، هدئي نفسك .

وهدأ فيليب تماماً . وكان يسمعهما يروحان ويجيئان ، وكأنهما في
غرفتي . وسحبا شيئاً ثقيلا على الارض، ربما كان السرير او صندوقاً،
ثم خلع الرجل حذاءه .

قالت زيزيت : – الاحد القادم .

وكان لها صوت اكثر ابتذالاً ولكنه اكثر غناءً . وكان يراها
رؤية اسوأ : ربما كانت شقراء ذات وجه ممتقع جداً ، كسونيا في
« الجريمة والعقاب »

– واذن ؟

– اوه ! موريس ، لقد نسيت ! كنا متفقين على ان نذهب الى
« كورباي » ، لدى جان .

– ستذهبين بدوني .

قالت : – لن تكون لدي الرغبة في الذهاب اليها .

وخفضا صوتهما ، فلم يكن فيليب يفهم ما كانا يقولان ، ولكنه
كان يستشعر السعادة لأنهما كانا حزينين . كانا من البروليتاريا ٥
بروليتاريين حقيقيين . اما ذاك فقد كان عربيداً فظاً .

وسألت زيزيت : – هل كنت في نانسي ؟

– في الماضي نعم .

– وكيف هي ؟

– لا بأس .

– ارسل لي رزمه من البطاقات البريدية . اريـــد ان اتصوّر حيث تكون .

– ولكنهم لن يتركونا فيها ، لو تعلمين .

بروليتاري حقيقي . إنه لم يكن راغباً في خوض الحرب ، ولم يكن يفكر في النصر : كان ذاهباً ، في حزن عميق ، لانه لم يكن يستطيع ان يفعل شيئاً آخر . قالت زيزيت :

– يا حبيبي الكبير .

وصمتا . وكان فيليب يفكر : « انهما حزينان » . وبللت عينيــه دموع عذبة . ملاكان حزينان رقيقان . سأدخل وامد لهما يدي ، واقول لهما : « انا ايضاً حزين ، بسببكما ، من اجلكما . ومن اجلكما تركت بيت اهلي . من اجلكما ومن اجل جميع الذين يذهبون الى الحرب . » سنقف انا وموريس الى جانبيها ، وسأقول لها : « انني شهيد السلام» واغمض عينيه وقد هدأ : انه لم يكن بعد وحده ، فقــد كان هناك ملاكان حزينان يحرسان نومه : الشهيد ، نائما على ظهره ، كصريــع من حجر ، وملاكان حزينان عند سريره ، ومعهما غصون النخيل . كانا يتمتمان ، يا حبيبي الكبير ، يا حبيبي الكبير ، لا تتركني ، احبك وكلمة اخرى عذبةً وثمينة ، لا يذكرها بعد ، ولكنهـــا كانت ارق الكلمات الرقيقة ، كلمة دارت واشتعلت كإكليل من نار ، وحملها فيليب في نومه .

قال غرولويس « هكذا اذن ، هكذا اذن ! » وكان قد جلس على الرصيف ، ولم يكن ليتصوّر قط ان بامكانه ان يعاني مثل هذا الالم في جمجمته ، كان كل وجع يوقظ فيه خدراً جديداً . وقـــال : « اوه ! اما ذاك ، آه طز اذن ! » وحمل يده الى خدّه . فأحس بالزوجة وكان ذلك يدغدغه ، ولا بد انه دم . وقال : « إذن سأضمد نفسي برباط . اين تراهما قد وضعا كيسي ؟ » وتلّمس في ما حوله،

فالتقت يده شيئاً قاسياً ، واذا هي محفظة ، وتساءل : « اتراهما قد فقدا محفظتها ؟ » فأخذها وفتحها ، فاذا هي فارغة . وبحث في جيبه فأخذ عودَ ثقاب وحكّه بالزفت : وكانت المحفظة محفظته . وقال ملاحظاً : « إذن حسناً ، ليس الامر رديئاً الان » وكان دفتره العسكري قد بقي في جيب صدارته ولكن المحفظة كانت خالية . « ما الذي سأعمله ؟ » وكان ما يزال يفتش الارض بيديه ، وقال : « لن اذهب الى رجال الشرطة ، فهذا ما لا يُعمل » واغمض عينيه لحظة واخذ ينفخ: كان رأسه يؤلمه جداً حتى انه كان يتساءل عما اذا لم يكن في داخله ثقب ، ولمس رأسه في حيطة ، فلم يكن يبدو عليه انه مشقوق ، ولكن الشعر كان قد تجمّد في طاقات لزجة ، ثم انه كان يكفيه ان يشد قليلا حتى يحس كما لو انه كان يُطرق بمطرقة . وقال : « لا يروق لي ان اذهب الى الشرطة ، ولكن ما الذي سأفعله ؟ » وكانت عيناه تألفان الظلام ، فميّز كتلة غامضة ، على بعد امتار منه ، على الطريق . انه كيسي . ومشى على اربع ، لانه لم يكن يستطيع ان يتماسك على ساقيه : « ما هذا ؟ » كان قد وضع يده في مستنقع ، وفكر بقلب منتفض : « لقد كسروا زجاجتي » . وأخذ الكيس فإذا القماش مبلل والزجاجة شظايا . وقال غرولوبس : « اوه ! لقد بالغا كثيراً ! » وترك الكيس ، وجلس في جدول الخمر ، وسط الشارع واخذ يبكي ، وكانت الغصّات تمر من انفه وتهزه ، وكان لديه إحساسٌ بأن رأسه ينفجر : انه لم يبك مثل هذا البكاء منذ موت العجوز ، كان شارل عارياً تماماً ، وساقاه في الهواء ، امام ست ممرضات خنقت اشدّهن خضرةً جناحيها وحرّكت فكيها ، وكان هذا يعني : صالح للخدمة ، وتضاءل ماتيو واستدار ، وكانت مارسيل تنتظره ، منفرجة الساقين ، وكانت مارسيل لعبةً كبيرة الفم ، وحين اصبح

ماتيوكومة كله ، قذفه جاك ، فسقط في ثقب الصواريخ الاسود، سقط في الحرب ، وكانت الحرب مستعرة ، وحطمت قنبلة الزجاج وتدحرجت عند اسفل السرير ، وانتصبت ايفيش ، فتفتحت القنبلة ، فـاذا هي باقة زهر ، خرج منها اوفانباخ ، وقالت ايفيش : « لا ترحل ، لا تذهب الى الحرب ، وإلا فما هو مصيري ؟ » نصر ، وكان فيليب يشك الحربة بالمدفع ، ويهتف بالنصر ، النصر نخب النصر ، فهـرب القياصرة الاثنا عشر ، وكانت القيصرة محررة ، وحل قيوده ، وكانت عارية ، قصيرة وسمينة ، وكانت تحول نظرها ، وكانت المتفجـرات والمتفرقعات تعدو نحو الربّان بكل قوة اوتيتها قدماها ، وكان بيـار يقبض عليها من ظهورها ويضعها في حزمته ، التي كانت المستودع ، ولكن الرابعة ارادت ان تطير ، فقبض عليها من اغمادها ، وهي ضاجّة ناحصة ، فانفجر ضاحكاً واخذ ينتف ريشها ، وكانت المفرقعات قد اكلت خدّيه ولثتيه ، ولكن بقيت عيناه ، عيناه الكبيرتـان المليئتان بالاحتقار ، وفرّ بيار مطلقاً لساقيه العنان ، كان يهرب من الجندية ، ويهرب ، ويعدو في الصحراء ، وسألته مود : « هل استطيع ان ارفع أدوات المائدة ؟ » وكان فيغيه ميتاً ، وكان يشعر ، ونزع دانيـال بنطلونه ، وكان يفكر : هناك نظر ، وكان ينتصب امام نظر، جبان لوطي ، لئيم ؛ كأنه تحد . انه يراني ، يراني كـما انا . ولم يكن هانوكين يستطيع النوم ، كان يفكر : انني مجند ، وكان ذلك يبدو له غريباً ، وكان رأس جارته يثقل على كتفه ، وكانت رائحته شعراً وزيتاً ملمعاً ، وكان يترك ذراعه تسقط وتلامس فخذها ، وكان ذلك لذيذاً ، ولكنه متعب بعض الشيء . كان قد سقط على بطنه ، ولم يبق له بعد ساقن . وصاحت : « حبيبي » وقال الصوت النائم : « ماذا تروين ؟ » قالت اوديت : « كنت أحـلم ، نم يا حبيبي ، نمْ » واستيقظ فيليب منتفضاً : لم تكن تلك صيحة الديك ، وانما كان انين

امرأة رقيقاً ، هاه ، هاه ، هاه ، وظن اولاً انهـا كانت تبكي ، ولكن لا ، فقد كان يعرف جيداً تلك الشكاوى ، وقد استمع اليها غالباً ، اذ كان يلصق اذنه بالباب ، وهو ممتقع من الغضب والبرد ، ولكن ذلك لم يكن يثير اشمئزازه هذه المرة . كان شيئاً جديداً ورقيقاً، موسيقى الملائكة .

قالت زيزيت بصوت أبح : — هاه ، كم أحبك ، اوه ، اوه ، اوهوهو هاها !

وساد صمت : كان يثقل عليها بكل جسمه الصلب ، الملاك الجميل ذو الشعر الاسود والفم المر . فكانت مسحوقة ريثـا . واستقام فيليب فجأة وجلس ، وفي فمه مرارة ، والحسد يفري قلبه . ومع ذلك فقد كان يحب كثيراً زيزيت :

« ها آآه »

وتنفس : كانت صرخة قاطعة ونهائية : لقد انتهيا : وبعد لحظة ، سمع صفقاً مبللاً : كانت اقدام عارية تركض على البـلاط ؛ وغنى الصنبور ، عصفور في الاغصان ، وأجريت جميع مجاري الماء بقرقرات مريعة . وكانت زيزيت قد عادت الى موريس ، نضرة كل النضارة ، باردة الساقين ؛ وصر السرير ، واستلقت بالقرب منه ، في السرير المحرق الرطب ، وشدت جسدها الى جسده ، وكانت تشم رائحـة عرقه الحمراء .

— اذا متّ ، فلن يبقى لي الا ان انتحر .

— لا تقولي هذا .

— لن يبقى لي الا ان انتحر يا مومو :

— سيكون هذا مؤسفاً ، فانت رشيقة وانت عاملة ، تحبين ان تأكلي جيداً ، وتحبين ان تضاجعي جيداً : فانظري كل ما سوف تفقدينه :

قالت زيزيت بهوس :

ـ انت ، احب ان اضاجعك انت . ولكنك انت لا تهتم بذلك ، فانت ترحل ، وأنت مسرور .

قال موريس : ـ لا ، لست مسروراً ، ويغيظني ان اذهب .

سوف يذهب ، سيرحل وسيستقل القطار الى نانسي ، ولن أراها ابداً ، لن ارى وجهه ، ولن يعرف ابداً من انا . وخمشت قدماه الغطاء : اريد ان اراها .

ـ ليتك لا تذهب ، ليتك تستطيع الا تذهب ...

وقال لها موريس بلطف :

ـ لا تبكي ...

اريد ان اراها . وقفز من السرير ، وكانت الرتيلاء تترصّده قابعة تحت السرير ، ولكنه ركض باسرع منها ، وضغط على الزر ، فتلاشت في النور . اريد ان اراها .

ولبس بنطلونه ، ووضع قدميه العاريتين في حذائه وخرج . وكان مصباحان ازرقان يضيئان الممر . وعلى الباب التاسع عشر ، كانت ورقة رمادية قد عُلّقت بمسمار : « موريس غرنو » واستند فيليب الى الجدار وكان قلبه يثب في صدره ، وكان يلهث كما لو انه عدا . ماذا استطيع ان افعل ؟ ومد يده ولمس الباب لمساً خفيفاً : كانا هناك ، وراء الجدار ، انني لا اطلب شيئاً ، الا ان اراها . وانحنى وألصق عينه على ثقب القفل . فتلقى لفحة باردة على قرنيته ، وخفق جفنيه ولم ير شيئاً على الاطلاق ، لقد اطفأ النور . وطرق الباب وهو يفكر : « اريد ان اراها » فلم يجيبا . وانقبض حلقه وطرق طرقاً اشد . وقال الصوت : « من هناك ؟ » وكان صوتاً مفاجئاً قاسياً ، ولكنه سيتغير . سيفتح الباب وسيتغير الصوت . وطرق فيليب : إنه لم يكن يستطيع ان يتكلم . فقال الصوت نافد الصبر :

ـ ماذا ؟ من هناك ؟

فكفّ فيليب عن الطرق ، وكان يكاد يختنق ، فأخذ نفَساً طويلا ودفع صوته عبر حلقومه المنقبض قائلاً :

ـ أودّ ان اتحدث اليك .

وساد صمت طويل . وكان فيليب يفكر في ان يذهب، حين سمع وقع خطى ، ونفَساً ازاء الباب ، وطقّة . انه يشعل النور .وابتعدت الخطى، انه يرتدي بنطلونه . وتراجع فيليب واستند الى الجدار ، وكان خائفاً. ودار المفتاح في القفل ، ثم انفتح الباب فرأى رأساً أحمـــر منفوشاً ذا وجنتين عريضتين وبشرة مجعّدة . وكان للرجل عينان فاتحتان بلا جفون، وكان ينظر الى فيليب في دهشة هزلية ، وقال :

ـ لقد اخطأت الباب .

كان ذلك صوته ، ولكنه اذ يمر في فمه ، يصبح متغيراً . وقـــال فيليب :

ـ كلا ، لم اخطىء .

ـ واذن ، فماذا تريد مني ؟

كان فيليب ينظر الى موريس ويفكر : « ان الامـــر لا يستحق بعد » ولكن كان قد فات الاوان وقال :

ـ اريد ان احدثك .

كان موريس متردداً ، ورأى فيليب في عينيه انه موشك على ان يغلق الباب ، فاستند بقوة الى المصراع وردّد :

ـ اريد ان احدثك .

قال موريس : ـ انا لا اعرفك .

وكانت عينـــاه الصفراوان قاسيتين خبيثتين . وكان يشبه المرصّص الذي كان قد جاء يصلح الحوض . وقال صوت زيزيت القلق :

ـ ماذا يا موريس ؟ ماذا يريد ؟

وكان الصوت حقيقياً ، وكذلك كان الوجه الرقيق الذي لا يُرى ،

وسحنة موريس الضخمة هي التي كانت حلماً . كابوسا . وانطفأ الوجه الرقيق ، وخرج رأس موريس من الظلام ، قاسيا كثيفا ، حقيقيا . وقال موريس :

– انه شخص لا اعرفه ، ولا ادري ما الذي يريده مني .

فتمتم فيليب : – يمكنني ان اكون نافعا لك .

وكان موريس يجسه بعينه في حذر . وفكر فيليب : انه يرى بنطلوني الفلانيل ، ويرى حذائي المصنوع من جلد العجل ، ويرى صدارة منامتي السوداء ذات الياقة الروسية . وقال وهو يتقوس عند الباب :

– كنت ... كنت في الغرفة المجاورة . واني ... اقسم لك ان بامكاني ان اكون نافعا لك .

وصاحت زيزيت :

– عد واتركه يا موريس ، اتركه .

وكان موريس ما يزال ينظر الى فيليب . وفكر لحظة ، ثم اشرق وجهه المكفهر قليلا ، فسأله وهو يخفض صوته بعض الشيء :

– ايكون أميل هو الذي ارسلك ؟

فصرف فيليب عينيه وقال :

– نعم ، انه اميل .

– وماذا يريد ؟

فارتعش فيليب :

– لا استطيع ان اتكلم هنا .

فاستلى موريس متردداً :

– وكيف حدث انك تعرف اميل ؟

فقال فيليب مبتهلا : – دعني ادخل ، فماذا يضيرك ان تدعني ادخل ؟ ثم انني لا استطيع ان اقول شيئا في هذا الممر .

وفتح موريس الباب وقال :

— ادخل . ولكن لا لأكثر من خمس دقائق . انني اريد ان انام .
فدخل فيليب ، وكانت الغرفة شبيهة كل الشبه بغرفته ، ولكن كان على الكراسي ثياب وجوارب وسروال صغير وحذاء امرأة على البلاط الاحمر ، بالقرب من السرير ، وعلى الطاولة موقد غاز وقدر . وكانت تنبعث رائحة شحم قد برد . وكانت زيزيت جالسة في السرير ، وهي تشد غلالة من صوف بنفسجي حول كتفيها . وكانت قبيحة ذات عينين غارقتين متحركتين . وكانت تنظر الى فيليب نظرة عداء . وأغلق الباب فارتعش .

— نعم ، ماذا يريد مني اميل ؟

فنظر فيليب الى موريس بضيق : لم يكن يستطيع بعد ان يتكلم . وقالت زيزيت بصوت غاضب :

— هيا ، عجّل . انه ذاهب صباح الغد ، وليس هذا وقتاً مناسباً لإزعاجنا .

وفتح فيليب فمه وبذل جهداً كبيراً ، ولكن لم يخرج منه اي صوت . وكان يرى نفسه بعيونها ، فيجد ذلك شيئا لا يطاق . وسألت زيزيت :

— انني اتحدث اليك بالفرنسية ، اليس كذلك ؟ اقول لك انه ذاهب صباح الغد .

والتفت فيليب الى موريس فقال بصوت مختنق :

— يجب الا تذهب .

— اذهب الى اين ؟

— الى الحرب

وكان موريس يبدو بهيئة مشدوهة ، وقالت زيزيت بصوت ثاقب :

— هذا شرطيّ .

وكان فيليب ينظر الى البلاط الاحمر ، وذراعاه متدليتان ، فيحس نفسه مخدراً كل التخدير ، حتى ليشعر من ذلك بما يشبه اللذة . وأخذه

موريس من كتفيه يهزه :
— هل تعرف انت اميل ؟
فلم يجب فيليب ، فعاد موريس يهزه هزاً أشد :
— اتراك ستجيب ؟ اسألك ان كنت تعرف اميل ؟
فرفع فيليب على موريس عينين يائستين ، وقال بصوت خافت وسريع :
— اعرف شيخاً يزوّر الاوراق .
فتركه مويس فجأة ، وخفض فيليب رأسه وأضاف :
— ويمكنه ان يزوّر اوراقك .
وساد صمت طويل ، ثم سمع فيليب صوت زيزيت المنتصر :
— ما الذي كنت اقوله لك ؟ انه مخبر .
فجرؤ على رفع عينيه ، وكان موريس ينظر اليه نظرة مريعة ، وقد مدّ يده الكبيرة المشعرة ، فتراجع فيليب واثباً الى خلف ، وقال وهو يرفع مرفقه :
— ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ، فأنا لست شرطياً .
— ماذا جئت تفعل هنا إذن ؟
فقال فيليب وهو يوشك ان يبكي :
— انني مسالم .
فردّد موريس في ذهول :
— مسالم ! لم يكن ينقصنا غير هذا .
وحك رأسه لحظة ثم انفجر ضاحكاً وقال :
— مسالم ! اتسمعين يا زيزيت ؟
فاخذ فيليب يرتجف ، وقال بصوت منخفض :
— امنعك من الضحك .
وعض على شفتيه ليمنع نفسه من البكاء ، ثم اضاف بمشقة :
« فحتى لو لم تكن مسالماً ، فعليك ان تحترمني »

فردد موريس :ـ احترملك، احترملك ؟

قال فيلب بهدوء رصين :

ـ اني فراري . واذا عرضت عليك اوراقاً مزوّرة ، فلأني حصلت على مثلها . وبعد ، غد سأكون في سويسرا .

وتطلع الى موريس مواجهة : كان موريس قد قرّب ما بين حاجبيه ، فتشكل على جبينه ثلم بشكل Y ، وكان يبدو وكأنه يفكر . وقال فيليب :

ـ تعال معي ، فانا أملك مالاً لشخصين .

ونظر اليه موريس في اشمئزاز ، وقال :

ـ قذرٌ صغير ! أرأيت يا زيزيت كم هو رخو؟ان الحرب بالتأكيد تثير رعبك ، وانت لا تريد بالطبع ان تحارب الفاشيست ، بل انت اميل الى معانقتهم ، أليس كذلك ؟ انهم هم الذين يحمون فلوسك ، يا غلام الاغنياء !

قال فيليب : ـ لست فاشستياً .

فقال موريس : ـ لا ، بل انا . هيا ، حلّ عن ظهري ايها القذر ! والا ارتكبت جريمة .

وكان ساقا فيليب هما اللتين تريدان ان تهربا . ساقاه وقدماه . انه لن يهرب . وجر ساقيه الى الامام ، واقترب من موريس ، واخفض قسراً هذا المرفق الطفولي الذي كان يرتفع من تلقاء نفسه . ونظر الى ذقن موريس ، ولم يكن يتوصل الى رفع نظره حتى العينين الصفراوين اللذين لا اجفان لهما . وقال :

ـ لن أذهب .

وظلا لحظة وجهاً لوجه ، ثم انفجر فيليب :

ـ ما اقساكم جميعاً ! جميعاً . لقد كنت هنا ، اسمعكما تتحدثان ، فاؤمل ... ولكنك كالآخرين ، انت جدار . تدينون دائماً ، من غير

ان تحاولوا الفهم ؛ هل تعرف من أكون ؟ انما من أجلكم ، قد هربت ، وقد كان بوسعي ان ابقى في بيتي ، حيث آكل حين أجوع وحيث أعيش في وسط دافيء ، بين اثاث جميل وتحت امرتي الخدم ، ولكني تركت كل شيء من اجلكم . وانتم ، يرسلونكم الى المسلخ ، فتجدون ذلك جيداً ، ولا ترفعون إصبعكم ، ويضعون بندقية بين أيديكم فتفكرون بأنكم ابطال ، واذا حاول أحد ان يتصرف تصرفاً آخر ، وصفتموه بانه غلام الاغنياء ، وبأنه فاشيستي ، وبأنه جبان ، لأنه لا يفعل كما يفعل جميع الناس . انا لست جباناً ، فانت تكذب ، ولست فاشستيا ، وليس الذنب ذنبي اذا كنت غلام اغنياء . ان هذا لو تعلم أسهل ، اسهل جداً من ان اكون غلام فقراء .

قال موريس في صوت أبيض :

— انصحك بان تذهب، لأني لا احب الخليط كثيراً ، وقد أغضب.

فقال فيليب وهو يضرب الارض بقدمه :

— لن أذهب . لقد كفاني ، أخيراً ! حسبي من جميع هؤلاء الاشخاص الذين يتظاهرون بأنهم لا يرونني ، او الذين ينظرون الي من عل ، وباي حق ؟ بأي حق ؟ انني انا موجود ، وانا أساويكم في القيمة . ولن اذهب ، سأبقى طوال الليل ، اذا لزم الامر ، اريد ان اشرح وجهة نظري مرة والى الابد .

قال موريس : — انك لن تذهب ! لن تذهب اذن !

وامسك به من كتفيه ، ودفعه نحو الباب ؛ واراد فيليب ان يصمد ولكن ذلك كان ميئساً : لقد كان موريس قوياً كالجاموس ؛ وصاح فيليب :

— دعني ، دعني . واذا اخرجتني ، بقيت امام بابك ، وأحدثت ضجة ، انا لست جباناً ، واريد ان تستمعوا الي . (وأضاف وهو يرفسه بقدمه) دعني ، دعني ايها الوحش .

ورأى يد موريس المرفوعة ، فكفّ قلبه عن الخفقان ، وقال :

ـ لا ! لا !

وصفعه موريس مرتين بقبضته . وقالت زيزيت :

ـ مهلا ، مهلاً ، انه طفل :

وترك موريس فيليب ، ونظر اليه في شيء من الاندهاش : وتمتم فيليب :

ـ انني ... انني اكرهك .

وقال موريس بلهجة مترددة :

ـ اسمع ، يا بني ...

قال فيليب : ـ سترون ، سترون جميعاً ، وسوف تخجلون .

وخرج وهو يركض ، فعاد الى غرفته وأغلق الباب المفتوح . وكان القطار يمضي ، وكانت الباخرة تصعد وتهبط ، وكان هتلر نائماً ، وكانت ايفيش نائمة ، وكان شمبرلن نائماً ، وارتمى فيليب على سريره وأخذ يبكي ، وكان غرولويس يترنح ، بيوت وايضاً بيوت ، كان رأسه مشتعلاً ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقف ، وكان ينبغي له ان يمشي في الليل على حذر ، في الليل المريع الهامس ، وكان فيليب يبكي ، وكان بلا قوة ، يبكي ويسمع همسها عبر الجدار ، وكان لا يتوصل حتى الى بغضهما ، كان يبكي منفياً في الليل البارد الذي يُرثى له ، في ليل الطرقات الرمادي ، وكان ماتيو قد استيقظ ، فنهض ووقف ازاء النافذة ، وكان يستمع الى همسات البحر ، وابتسم لليل الجميل الرائق .

الاحد ٢٥ ايلول

يوم عار ، يوم راحة ، يوم خوف ، يوم الرب ، كانت الشمس تشرق على يوم احد . المنارة ، الفانوس ، الصليب ، الحد : ان الرب يحمل صليبه في الكنائس ، وأنا احمل خدي في الشوارع المزينة بزينة يوم الأحد ، عجباً ، انت مصاب بورم ، ولكن لا : الواقع انهم جلدوني على خدي ، يا للشخص الصغير الدنيء الذي يحمل أليتيه على وجهه ، والرأس المشقوق ، المضمد ، القرعة ، اليقطينة ، لقد ضربوا من الخلف ، واحدة اثنتان ، كان يمشي في رأسه ، وكان النعل يخفق في رأسه ، اليوم أحد ، فأين ابحث عن العمل ، كانت الابواب مغلقة، الابواب الحديدية الكبيرة ، مسمرة ، صدئة ، مغلقة على ظلام ، على فراغ ذي رائحة نشارة ، وزيت مسوّد وحديد قديم ، على سطح الأرض المزروع نحاتة صدئة ، كانت مغلقةً الابواب الخشبية الصغيرة المربعة ، مغلقة على امتلاء ، على غرف ملأى حتى الانفجار بالاثاث ، والذكريات ، والاولاد ، والاحقاد ، مع تلك الرائحة الكثيفة لبصل عفن ، والياقة المستعارة اللامعة على السرير والنساء المتأمـلات خلف النوافذ ، كان يمشي بين النوافذ ، بين الانظار ، وقد حجّرته الانظار

وصلّبته . كان غرولويس يمشي بين الجدران القرميدية والابواب الحديدية، كان يمشي بلا فلس ولا شيء يأكله ، ورأسه يخفق كأنه قلب ، كان يمشي ونعلاه يضربان في رأسه ، فليك فلاك ، يمشيان ، وقد عرقا ، في الشوارع التي اغتالها الاحد ، وكان خده يضيء الجادة امامه وهو يفكر : « اصبحت شوارع حرب إذن ؟ » كان يفكر : « كيف لي ان آكل ؟ » وكانوا يفكرون : « أليس ثمة من يساعدني ؟ » ولكن الرجال الصغار السمر ، والعمال الكبار ذوي الوجوه المثلّمة كانوا يحلقون ذقونهم وهو يفكرون في الحرب ، يفكرون بأن امامهم يوماً بطوله يفكرون فيه بالحرب ، يوماً فارغاً بطوله يجرّون فيه قلقهم عبر الشوارع المغتالة . الحرب : الحوانيت المغلقة ، الشوارع المقفرة، ثلاثمئة وخمسة وستون احداً في العام : كان فيليب يُدعى « بيدرو كازاريس » وكان يحمل اسمه على صدره . كان بدرو كازاريس ، بدرو كازاريس ، بدرو كازاريس ، بدرو كازاريس راحلا في المساء نفسه الى سويسرا، وكان يحمل الى سويسرا خداً كبيراً مزدهرا موسوماً بخمسة أصابع ؛ وكانت النساء ينظرن اليه من نوافذهن .

وكان الرب ينظر الى دانيال .

أأدعوه الرب ؟ كلمة واحدة ويتغيّر كل شيء . كان مستنداً الى المصراعين الرماديين اللذين يغلقان حانوت السرّاج ، وكان الناس يسرعون نحو الكنيسة سوداً على الطريق الوردية ، سرمديين، كل شيء كان سرمدياً. ومرّت امرأة شابة ، شقراء رشيقة ، شعرها مجنون بدقّة ، وكانت تسكن في الفندق ، وكان زوجها يأتي ليراها يومين كل خمسة عشر يوماً ، وهو صناعي من « بو » ؛ وكانت قد ألقت على وجهها قناع النعاس لأن اليوم يوم أحد ، وكانت قدماها الصغيرتان تكردحان نحو الكنيسة ، وكانت روحها بحيرة من فضة . الكنيسة : ثقب ؛ وكانت الواجهة ذات طراز روماني ، وكان ثمة تمثال من حجر للمشاهدة ، في

المعبد الثاني ، الى اليمين وانت داخل . وابتسم لزوجة العقاد وابنهـا الصغير . أأدعوه الرب ؟ لم يكن مندهشاً ، وكان يفكر : لا بد ان يحدث هذا . عاجلاً او آجلاً . كنت أحسُّ جيداً انه كان ثمة شيء. كل شيء ، لقـد فعلت دائماً كل شيء كشاهد . فنحن نتبخّر ، بلا شاهد .

قالت نادين بيشون : — صباح الخير ، سيد سبرينو . انت ذاهب الى القداس ؟

فقال دانيال : — انا مسرع لذلك .

وتبعها بعينيه ، وكانت تعرج اكثر من المعتاد ، ولحقت بها فتاتان صغيرتان وهما تركضان ودرتا حولها بفرح . ونظر اليهما . اني ارشقهما بنظري المنظور ! ان نظري مجوّف ، فنظر الرب يخترقه من الطرفين . وفكر فجأة : « اني انشيء أدباً » . ولم يكن الرب بعدُ هنا . كان ثمة حضوره هـذه الليلة ، في عرق الغصاء ، وكان دانيال قد أحسّ نفسه قايين : هأنذا ، هأنذا كما خلقتني ، جبان ، أجوف ، اوطي. وبعد ذلك ؟ كان النظر هنـا ، في كل مكان ، أصمّ ، شفافاً مليئاً بالأسرار . وكان دانيال قد انتهى الى الوم ، ولدى اليقظة ، كان وحده . ذكرى نظر . كان الجمع يتدفق من جميع الابواب الفاغرة ، قفازات سوداء ، وياقات من خزف ؛ وجاود ارانب ، وكتب قدّاس العائلة في اطراف الأصابع . وقال دانيال في نفسه : آه ، لا بد من مخطّط . لقد تعبت من ان اكون هذا التبخّر الذي لا انقطاع له نحو السماء الفارغة . فانا اريد سقفاً . ولامسه الجزّار في مروره ، وكان رجلاً سميناً قرمزيّ الوجه يلبس النظـارات ، يوم الأحد ، ليتميّز بطابع خاص . وكانت يده المُشعرة تقبض على كتاب قداس . وفكر دانيال : سيجتلب اليه النظر ، فيقع عليه من النوافذ الزجاجية ؛ انهم جميعاً سيجتلبون اليهم النظر ؛ ان نصف البشر يعيشون تحت النظر .

أتراه يُحس بالنظر عليه حين يضرب بالسكين على اللحم الذي يتفتح تحت الضربات، فيكشف العظمة المستديرة المزرقة ؟ انه يرى ، ترى قسوته كما ارى يديه ، ويرى بخله كما ارى شعره النادر ، وهذا الطرف من الشفقة الذي يلتمع تحت البخل كما تلتمع الصلعة تحت الشعر ؛ انه يعرف ذلك ، وسوف يقلب الصفحات المقرّنة في كتاب القداس، وسوف يئن ، مولاي ، مولاي ، اني بخيل . وسيسقط نظر ميدوز من فوق محجراً . فضائل من حجر ، عيوب من حجر : أية راحة ! ان لهؤلاء الناس اساليب معاناة،هكذا قال دانيال في نفسه غاضباً ، وهو ينظر الى الظهور السوداء التي كانت تنغمر في ظلمات الكنيسة . وكانت ثلاث نساء تكردح معاً في اشراق الصباح الأحمر . ثلاث نساء حزينات مستغرقات، مسكونات . لقد أشعلن النار ، وكنسن الارض ، وسكبن الحليب في القهوة ، ولم يكن شيئاً بعد ، الا ذراعاً في طرف المكنسة ، والا يداً منغلقة على اذن ابريق الشاي . والا هذه الشبكة من الضباب التي تتدفع على الاشياء عبر الجدران ، من الحقول والغابات . وهن الآن يذهبن الى هناك ، في الظل ، وسيكن ماهن . وتبعهن من بعيد ، ماذا لو ذهبت الى حيث يقصدن ؟ قصة للضحك : هأنذا ، هأنذا كما صنعتني، حزين ، جبان ، لا يُرجى بُرئي . انك تنظر الي فيفر كل أمل : لقد تعبت من فرط الفرار من نفسي ، ولكني أعلم تحت نظرك اني لا استطيع بعد ان افر من نفسي . سوف ادخل ، وسوف انتصب واقفاً ، وسط هاتيك النسوة الراكعات ، كبناء من الظلم والطغيان . سوف اقول: « انا قايين ، واذن ؟ انت الذي صنعتني ، فاحملني » نظر مارسيل ، نظر ماتيو ، نظار بوبي ، نظر قططي ، كلها كانت تحط دائماً على جلدي . انني لوطي يا ماتيو . انني ، انني ، انني لوطي ، يا إلهي. كانت الدمعة في عين العجوز ذي الوجه المجعد ، وكان يمضغ شاربه المحمر بالتبغ ، بهيئـــة شريرة . ودخل الكنيسة منهوكاً ، عاجزاً ،

مغلقاً ، فدخل دانيال خلفه . وكانت تلك هي الساعة التي يأتي فيها ريبادو الى الملعب وهو يصفّر ، فكان الفتيان يقولون له : « واذن ، يا ريبادو ، هل انت اليوم على ما يرام » . كان ريبادو يفكر في هذا وهو يلفّ سيكارة ، وكان يُحسّ يديه خاويتين ، وكان ينظر بكآبة الى القاطرات والى صفوف البراميل ، فكان يشعر بأن شيئاً ما كان يعوز يديه ، وزن كرة مسمّرة تستقرّ في راحته ؛ كان ينظر الى البراميل ويفكر : « يوم أحد ، يا للحسرة ! » كان ماريوس وكلوديو وريمي قد ذهبوا كلّ بدوره ، وكانوا يلعبون لعبة الجندي الصغير ؛ وكان جول وشارلو يعمـلان ما يستطيعان ، فيدحرجان براميل على الخطوط الحديدية ، ويتعاونان لرفعها ويؤرجحانها في القاطرات ؛ كانا قويين ولكنهما شيخان ، وكان ريبادو يسمعهما يلهثان والعرق يسيل على ظهرهما العاري ؛ وهما لن ينتهيا من ذلك ابداً . وكان ثمة شخص طويل مضمد الرأس يذرع المستودع منذ ربع ساعة جيئة وذهاباً ؛ وقد انتهى بالاقتراب من جول ورأى ريبادو شفتيه تتحركان . وكان جول يستمع اليه بهيئته المخدّرة ثم نهض نصف نهضة وأطبق راحتيه على خاصرتيه واومأ الى ريبادو بحنية من رأسه . وسأل ريبادو :

— ما هذا ؟

فاقترب الرجل على تردد ، وكان يمشي كالبطة ، قدماه الى الخارج، لص حقيقي . ولمس ضماده بمثابة تحية ، وسأل :

— هل لديكم عمل ؟

فردد ريبادو : — عمل ؟

وكان ينظر الى الرجل : لص حقيقي ، كان ضماده مسوداً ، وكان يبدو عليه انه قوي ، ولكن وجهه كان ممتقعاً حتى ليثير الخـوف ؛ وقال ريبادو :

— عمل ؟

وكان احدهما يتفرس في وجه الآخر بتردد ، وكان ريبادو يتساءل

عما اذا كان الرجل لن يسقط مغمى عليه ، وقال وهو يحك رأسه :
– عمل ؟ ليس هذا ما ينقصنا .
فطرف الرجل بعينيه . لم تكن هيئته عن قرب رديئة جداً . وقال :
– اريد ان أعمل .
فقال ريبادو : – لا يبدو عليك انك سليم .
قال الرجل : – من اي شيء ؟
– اقول انك تبدو مريضاً .
فنظر اليه الرجل في دهشة وقال :
– لست مريضاً .
– انك مصفر جداً . ثم ما هذا الضماد ؟
فأوضح الرجل قائلا : – لقد ضربوني على رأسي . وليس هذا بذي بال .
– ومن الذي ضربك على رأسك ؟ الشرطة ؟
– كلا . رفاق . استطيع ان اعمل فوراً .
قال ريبادو : – سوف نرى .
فانحنى الرجل ، وتناول برميلا فرفعه بذراعه . ثم قال وهو يعيده الى الارض :
– استطيع ان اعمل .
قال ريبادو في اعجاب :
– يا ابن القحبة ! (واضاف) ما هو اسمك ؟
– اسمي غرولويس .
– هل معك اوراقك ؟
قال غرولويس – معي دفتري العسكري .
– ارني اياه .
وفتش غرولويس في جيب صدارته الداخلي وسحب دفتره بحيطة

ومده الى ريبادو . ففتحه ريبادو واخذ يصفر وقال :

— ولكن ما هذا ! ولكن ما هذا !

قال غرولويس بلهجة قلقة :

— انها اوراق قانونية .

— قانونية ؟ هل تعرف القراءة ؟

فنظر اليه غرولويس نظرة خبيثة :

— لا حاجة لمعرفة القراءة من اجل حمل البراميل .

ومد له ريبادو دفتره :

— ان معك الكراسة رقم ٢ يا بنيّ . انهم ينتظرونك في مونبليه ، في الثكنة . وانصحك بأن تدبّر امرك ، والا اعتبروك متمرداً .

فقال غرولويس مشدوهاً : — في مونبليه . ليس لدي ما افعله في مونبليه .

فغضب ريبادو وصاح به :

— اقول لك انك مجنّد فمعك الكراسة ٢ . انت مجنّد .

واعاد غرولويس دفتره الى جيبه وسأله :

— انك اذن لا تستخدمني ؟

— لا اريد ان استخدم فرارياً .

وانحنى ريباردو ورفع برميلا ، فقال ريبادو بحيوية :

— حسناً ، حسناً ، انت قوي من غير شك ، ولكن لن يجديني شيء على الاطلاق اذا اوقفوك بعد ثمن واربعين ساعة .

وكان غرولويس قد وضع البرميل على كتفه ، وكان يحدّق في ريبادو وهو يقطّب حاجبيه الكبيرين . وهز ريبادو كتفيه وقل :

— آسف .

ولم يكن ثمة ما يُقــال بعد . وابتعد ، وفكر : « انا لا اريد متمرداً » وقال :

– ايه شارلو !

فقال شارلو : – ماذا ؟

– انظر الى الرجل هناك ، انه متمرد .

قال شارلو : – مؤسف . كان بامكانه ان يساعدنا قليلاً .

فقال ريبادو : – لا أستطيع ان اوظف متمرداً .

قال شارلو : – طبعاً لا .

والتفتا معاً : كان الرجل الطويل قد وضع البرميل على الارض ، وكان يقلب بهيئة شقية دفتره العسكري بين اصابعه .

كان الجمع يحيط بهم ، يحملهم ، يطوف حولهم ويكثف وهو يطوف ، ولم يكن رنيه يعلم بعد اذا كان جامداً او اذا كان يدور مع لجمع . كان ينظر الى الاعلام الفرنسية التي ترفرف فوق مدخل « غار دوليست » ، كانت الحرب هناك ، في نهاية الخطوط الحديدية ، ولم تكن لتزعج ، وكان يستشعر تهديداً بكارثة اشدّ قرباً : ان الجموع شيء رخص ، فهناك دائماً مصيبة تطفو فوقها . « دفن غالياني ، إنه يزحف ، يجر ثوبه الصغير الابيض بين جذور الجموع السوداء ، تحت فظاعة الشمس ، وينهار البناء ، ولا ينظر ، لقد اخذوا المرأة ، الصلبة ، وقدمٌ مخرّمة حمراء تخرج من حذائها المنفجر » كان الجمع يحيط به ، تحت السماء الصافية الخالية ، اني اكره الجموع ، وكان يشعر عيوناً في كل مكان ، شموساً تفتّح زهوراً في ظهره ، وعلى بطنه ، وتشعل أنفه الطويل الأصفر ، الرحيل الى الضاحية في الآحاد الاولى من نوار ، وفي اليوم التالي تكتب الصحف : « الأحد الاحمر » ويبقى منها دائماً بعض الاعداد على البلاط . كانت ايرين تحميه بجسمها الصغير الملتف « لا تنظر ، انها تجرني من يدي ، انها تشدني والمرأة تمر خلفي ، تنزلق على الجمع ، كما ينزلق ميت على نهر الغانج » . كان ينظر في توبيخ الى القبضات المرتفعة ، في البعيد ، تحت الرايات المثلثة الالوان ، فوق

القبعات . وقالت :

— الاغبياء !

وتظاهر رينه بعدم السماع ، ولكن اخته تابعت ببطء مقتنع :

— الاغبياء : يرسلونهم الى المسلخ ويكونون مسرورين .

وكانت فاضحة . ففي الاوتوبيس وفي السينما وفي المترو ، كانت فاضحة ، اذا كانت تقول دائماً ما لا ينبغي ان يقال ، كان صوتها الصريح يلقي كلمات فاضحة . والقى نظرة خلفه ، فكان ذلك الرجل يشبه وجهه وجه النمس بعينين ثابتتين وانف متآكل ، كان يستمع اليها ووضعت إيرين يدها على كتفه ، وكانت تبدو وهي تفكر . لقد تذكرت انها كانت اخته الكبرى ، وفكر بأنها ستعطيه نصائح مضجرة ، ولكن مهما يكن من أمر فقد أزعجت نفسها لتصحبه الى المحطة ، وها هي الآن وحدها وسط هؤلاء الرجال الذين لا تصحبهم نساء ، كما كان يحدث اذ كان يصحبها لمشاهدة مباراة في الملاكمة في « بوتو » ، فينبغي ألا أؤذيها . كانت تقرأ ، متمددة على ديوانها ، وهي تدخن كثيراً ، وكانت تكون آراءها بنفسها ، كما تصنع قبعاتها . وقالت له :

استمع الي جيداً يا رينه ، انك لن تفعل كهؤلاء الاغبياء :

قال رينه بصوت منخفض : — لا ، لا ، لا .

وأضافت : — استمع الي جيداً ، انك لن تتحمس :

وكان صوتها ، اذ تكون مقتنعة ، يُسمع بعيداً . وقالت :

— ما الذي يجديك ذلك ؟ اذهب ، ما دمت لا تستطيع تجنب الأمر . ولكن لا تدعهم يلاحظونك اذ تكون هناك ، لا خيراً ولا شراً : فالامر سيان . واحم نفسك كلما كان في وسعك ان تحمي نفسك .

قال : — نعم ، نعم .

كان يمسكها بقوة من كتفيها ؛ وكانت تنظر اليه بتمعن ، ولكن من غير شغف ؛ كانت تتابع فكرته .

ـ لأني أعرفك يا رينه ، فانت مغرور صغير ، تعمل كل شيء ليتحدث الناس عنك . ولكن أحذّرك منذ الآن : اذا عدت ومعك وسام استحقاق ، فلن اكلمك بعد ذلك ابداً . ان ذلك أغبى مما ينبغي . واذا عدت بساق أقصر من الاخرى ، او بثقب في الوجه ، فلا تعتمد عليّ لأرثي لك ، ولا تأت لتروي لي ان ذلك حدث بالاتفاق : فهذه امور يمكن تفاديها بسهولة ، وبقليل من الحكمة .

قال : ـ نعم ، نعم .

وكان يفكر بأنها على حق ، ولكن ذلك شيء لا يُقال ، ولا يفكَّر به . وانما هو يُفعل تلقائياً ، وبهدوء، من غير كلام ، وبقوة الاشياء ، بحيث لا يكون ثمة بعد ما يؤاخذ به المرء نفسه . قبعات ، بحر من القبعات ، قبعات صباح الاثنين ، قبعات ايام العمل ، قبعات الورش ، اجتماعات السبت ، كان موريس على رضى ، وهو بين الجمهور الكثيف . وكان المدّ يتقاذف القبضات المرفوعة ، ويحملها بهدوء ، مع وقفات مفاجئة ، وتردّدات ، وانطلاقات جديدة ، نحو الاعلام المثلثة الألوان « ايها الرفاق ، ايها الرفاق ، قبضات أيار ، القبضات المزدهرة تسيل نحو « غارش » . نحو الساحات الحمراء في سهول « غارش » ، اسمي زيزيت والصقور تغني ، تغني جبال شهر أيار ، العالم الذي يولد . » وكانت تنبعث رائحة المخمل والخمر ، كان موريس في كل مكان ، كان يتكاثر ، وتنبعث منه رائحة المخمل ، ورائحة الخمر ، وكان يحك كمّه بقماشة معطف خشنة ، وكان شاب قصير مجعد يدفع له مزماره في جنبيه ، وكان وطء آلاف الاقدام يتسلل من ساقيه الى بطنه ، وكان ثمة شخير في السماء ، فوق رأسه ، ورفع أنفه فنظر الى الطائرة، ثم اطرقت عيناه ورأى تحته وجوهاً مقلوبة، انعكاسات لوجهه ، فبسم لها « بحيرتان صافيتان في جلد مدبوغ ، شعر قطّ ، ندبة ، وابتسم . وابتسم لصاحب النظارات الذي كان يبدو عليه الاجتهاد،

X وابتسم لصاحب اللحية الهزيل المنقع الذي كان يقرص شفتيه ولا يبتسم.
كان ذلك يصرخ في اذنيه، ويضحك ويضحك ، بلا مزاح يا جوجو،
هذا انت ، أيجب ان تقوم الحرب حتى نلتقي ؟ كان اليوم يوم أحد.
حين تغلق المصانع ، وحين يجتمع الناس وينتظرون ، فارغي الايدي ،
والاكياس على ظهورهم ، في المحطات ، تحت قدر حديدي ، يكون
اليوم يوم أحد ، وليس من اهمية كبيرة ان يكونوا ذاهبين الى الحرب .
او الى غابة فونتنبلو . كان داليال واقفاً امام مركع يشم رائحة كهفية.
وبخورية هادئة ، وينظر الى هذه الرؤوس العارية تحت نور بنفسجي ،
واقفاً وحده وسط هؤلاء الرجال الراكعين ، يحيط به رجال واقفون،
رجال بلا نساء في رائحة الخمر المحمومة ، ورائحة الفحم والتبغ ،
ناظراً الى القبعات تحت نور الصباح ، وهو يفكر : هذا يوم الاحد ،
كان بيار نائماً ، وضغط ماتيو على انبوب،فخرج معجون وردي وهو
يهسهس ، ثم التوى وسقط على شعر الفرشاة . ودفع صبي صغير
موريس وهو يضحك : « هيه سيمون ! سيمون ! » فالتفت سيمون،
وكان خداه أحمرين وكان يضحك ، فقال : « اسمع ! تمكننا ان نقول
إنه احد مظلم » وأخذ موريس يضحك ، وردد « احدٌ مظلم » ،
فبادله بسمته شاب جميل كانت بجانبه امرأة ليست ساذجة اكثر مما ينبغي،
وهي انيقة الملبس ؛ وكانت تتشبث بذراعه وتنظر اليه نظرة ابتهال ،
ولكنه لم يكن ينظر اليها ، ولو قد نظر اليها لانغلق احدهما على الآخر
واصبحا شخصاً واحداً . زوج وحده . كان يضحك ، وكان ينظر
الى موريس ، وكانت المرأة غير موجودة في نظره ، وزيزيت غير
موجودة « انها تلهث ، ورائحتها عنيفة ، وهي رخوة جداً تحتي ،
حبيبي ، حبيبي ، أدخل فيّ » ، وكان ما يزال ثمة بعض البلل ، كأنه
نضح ، بين جسمه وقميصه ، بعض سناج ، بعض قاق تفيه ورقيق ،
ولكنه كان يضحك في حرية ، وكانت النساء فائضات عن اللزوم ؛

كانت الحرب هنا ، الحرب ، الثورة ، النصر . سنحتفظ ببنادقنا .
جميع هؤلاء : المجعّد وصاحب اللحيــة وصاحب النظارات ، والشاب الطويل ، سيعودون ببنادقهم وههم ينشدون « الانترناسيونال » وسيكون يوم أحد . احداً الى الابد . ورفع قبضته .
— انه يرفع قبضته . هذا ذكي ؛ /
والتفت موريس ، وقبضته في الهواء ، فسأل :
— ماذا ؟ ماذا ؟
كان هو صاحب اللحية الذي سأله :
— اتريد ان تموت من اجل السوديت ؟
قال موريس : — اخرس .
فنظر اليه صاحب اللحية نظرة استياء وتردّد ، فكأنه كان يحاول ان يتذكر شيئاً ما ؛
وصاح فجأة :
— تسقط الحرب !
فتراجع موريس الى خلف ، واصطدم مزماره بأحد الظهور ، فقال :
— هل ستغلقه ؟ هل ستغلقه بوزك الكبير ؟
فصاح صاحب اللحية : — تسقط الحرب ! تسقط الحرب !
وكانت يداه قد بدأتا ترتجفان وعيناه تقلبان ، فلم يكن يستطيع ان يكفّ بعد عن الصراخ . وكان موريس ينظر اليه في ذهول حزين ، من غير غضب ، وقد فكر لحظة ان يرسل له قبضته في وجهه، ليحمله فقط على الصمت ، كما يُضرب الاولاد اذ يصابون بالفُواق ، ولكنه كان ما يزال يُحسّ لحماً طرياً بين أصابعه ، فلم يكن فخوراً : لقد ضرب فتى صغيراً ؛ ولن يعيد ذلك . وأدخل يديه في جيبيه، واكتفى بالقول :
— حلّ عني ، ايها القذر !

فظل صاحب اللحية يصرخ بصوت متعب ومصالح ـ صوت ثري ؛ وشعر موريس فجأة شعوراً مزعجاً بأن المشهد كان مزوراً . ونظر فيما حوله فاختفى فرحه . كانت تلك غلطة الآخرين ، فانهم لم يكونوا يعملون ما كان عليهم ان يعملوه . في الاجتماعات ، حين يأخذ احدهم ينهق حماقات ، يرتدّ عليه الجمع فيمحوه ، وتُرى ذراعاه في الهواء لحظة ، ثم لا شيء على الاطلاق . وبدلاً من هذا ، كان الرفاق قد تراجعوا ، وخلّوا المكان حول صاحب اللحية ، وكانت المرأة الشابة تنظر اليه في فضول ، وقد تركت ذراع رجلها ، وكان الفتية ينصرفون ولم تكن هيئتهم صريحة ، بل كانوا يتظاهرون بانهم لا يسمعون .

وصاح صاحب اللحية :

ـ لتسقط الحرب !

وكان استياء غريب قد سقط على ظهر موريس. كان ثمة تلك الشمس ،وذلك الشخص الذي كان يصيح وحده، وجميع هؤلاء الرجال الصامتين الذين يخفضون رؤوسهم ... وأصبح استياؤه ضيقاً ، فأبعد الجمع بضربات من كتفه، وتوجه الى مدخل المحطة ، نحو الرفاق الحقيقيين الذين كانوا يرفعون قبضاتهم تحت الاعلام . وكان شارع مونبارناس مقفراً . الاحد . وعلى سطيحة « الكوبول » كان ثمة خمسة اشخاص او ستة يشربون او يأكلون ؛ وكانت بائعة ربطات العنق واقفة على عتبة بابها ؛ وفي الطابق الاول من البناية ذات الرقم ٩٩ ، فوق « كوسموس » ظهر رجل في قيص قصير على النافذة وارتفق الدرابزون . واطلق موبير وتيريز صيحة فرح ، كان هناك منشور . هناك ، هناك ، هناك ، على الجدار ، بين « الكوبول » والصيدلية ، كان هناك منشور كبير أصفر مؤطر بالاحمر « ايها الفرنسيون » ، وما يزال رطباً . ودلف موبير وقد دخل عنقه في كتفيه وبرز رأسه ، وتبعته تيريز ، وكانت فرحة كمجنونة صغيرة : كانا قد مزّقا ستة مناشير ، تحت انظار البورجوازيين

الطيبين ، كان رائعاً ان يكون للمرء معلم شاب ورياضي طويل القامة يعرف ما يريد .

قال موبير : – قذارة !

ونظر حوله : وكانت فتاة صغيرة قد توقفت ، يمكن ان تكون في العاشرة ، وكانت تنظر اليها وهي تداعب خصلاتها ، وردد موبير بصوت مرتفع :

– قذارة !

وقالت تيريز بصوت قوي خلف ظهر موبير :

– كيف تسمح الحكومة بلصق هذه القذارات ؟

ولم تجب بائعة ربطات العنق : كانت امرأة سمينة ناصعة ، وكانت بسمة مبهمة تتثاءب بين خديها . ✕

« ايها الفرنسيون

ان المطالب الالمانية غير مقبولة . لقد فعلنا كل شيء للمحافظة على السلام ، ولكن لا يستطيع أحد ان يطلب من فرنسا ان تنكر تعهداتها وتقبل بأن تصبح امة من الدرجة الثانية . فاذا تركنا اليوم التشيكيين ، فإن هتلر سيطلب منا الالزاس غداً ...

وأمسك موبير المنشور من طرف ، ونزع منه شريطاً من الورق الأصفر ، شبيهاً بشريحة من لحم البط . واخذت تيريز المنشور من زاويته اليمنى ، ونزعته ، فاستقرت منه في يدها قطعة كبيرة :

فرنسا ان

وتقبل بان

امة من

فاذا ترك

سيط

وكان باقياً على الجدار نجمة صفراء غير منتظمة . وتراجع موبير

لحظة لينظر الى صنيعه : نجمة صفراء ، نجمة صفراء تماماً ، مع كلمات محطمة غير مؤذية . وابتسمت تيريز ونظرت الى يديها بقفازيهما؛ فكان عليهما اثر من المنشور ، ورقة رقيقة ملتصقة بقفازها الايمن : « جمهو ... » ففركت ابهامها بسبابتها فالتفّت الجلدة الصغيرة الصفراء في كريّة، وجمّت وهي تلتفّ ، واصبحت قاسية كرأس دبوس ، وفرجت تيريز ما بين اصابعها ، فسقطت الكريّة ، واحسّت بشعور مسكر من القدرة .

– انني اطلب قطعة بفتاك صغيرة ، يا سيد ديزيريه ؛ قطعة بفتاك صغيرة بثلاثمئة غرام ، شيء جميل ، ولكن اقطعها لي كما ينبغي : أمس ، أعطاني وكيلك لحمتي ، فلم اكن مسرورة ، كنت ملأى بالاعصاب . ولكن قل لي ، ماذا هناك ، قبالتنا ؟ إذن ، بعد اربع وعشرين ساعة ، تكون الستائر سوداء . هل مات أحد ؟ »

فقال اللحام : « لست ادري . بعد اربع وعشرين ساعة ، لا يكون لديّ زبائن ، فهم يشترون بضاعتهم من محل « برتيه » . انظري هذه ان كانت تعجبك : انها وردية ، طرية ، وهي تزبد كالشمبانيا ، ثم ليس فيها عصب ، حتى اني لآكلها نيئة . » قالت السيدة ليوتيه : « بعد اربع وعشرين ساعة ، انا اعرف، انه السيد فيغبيه ؟ لا اعرفه، ايكون مستأجراً جديداً ؟ » « اوه ، كلا ، انه السيد القصير ، ولا تعرف غيره ، الذي كان يعطي تيريز ملبساً . » « اوه ، ذلك الذي كان لائقاً جداً ؟ يا للخسارة ! سأحزن عليه انا ، السيد فيغبيه ، هل هذا ممكن ! » « ولكن اسمع : فقد كان عجوزاً بما فيه الكفاية ، حتى يموت » قالت السيدة ليوتيه : « اوه ، لقد قلت لزوجي ، لو كنت تعلم ، انه مات في وقت مناسب ، هذا العجوز القصير ، إن لديه حاسة شم جيدة ، فربما ندمنا نحن الاخرين ، بعد ستة اشهر ، لأننا لم نكن في مكانه . اتدري انهم صنعوا اختراعاً ؟ » « اوه ! من

هم ؟ » « هم ، الالمان . اختراع يقتل الاشخاص كالذباب ، وفي آلام فظيعة . » « ايكون هذا ممكناً يا إلهي ؟ يا لقطّاع الطـرق ! ولكن ما هو ؟ ما هو ؟ » « آه ، هو نوع من الغـاز ، او من الأشعة اذا شئت ، هكذا شرحوا لي . » فقال اللحام وهو يهز رأسه: « انها إذن أشعة الموت ! » « نعم ، شيء من هذا القبيل ، أليس من الأفضل ان نكون تحت الارض ؟ » «انت على حق تماماً . هذا مـا أقوله دائما ، فليس ثمت بيت بعد ، ولا همّ . هكذا اود لو اموت: انام مساء ، فلا استيقظ في الصباح . » « ويبدو انه مات هكذا . » « من ؟ » « العجوز القصير » « هناك اشخاص محظوظون ، اما نحن فيجب ان نعاني كل شيء ، بالرغم من اننا نساء . لقد رأيت كيف كانت الامور تجري في اسبانيا . كلا . اريد ضلعاً . ثم اليس عندك معاليق لقطني ؟ حين امكر : وهذه حرب اخرى ! لقد اشترك زوجي في حرب ١٤ ، وقد اتى الان دور ابني ، اؤكد لك ان الرجال مجانين. ايكون التفاهم صعباً الى هذا الحد ؟ » « ولكن هتـلر لا يريد ان يتفاهم الناس، يا سيدة بونوتان ؟ » « ماذا، هتلر ؟ انه يريد السوديت الذين يخصونه ، ذلك الرجل ؟ اما انا ، فأعطيه اياهم ! ولكني لا ادري ان كانوا بشراً ام جبالاً ، وابني سيذهب ليحطّم رأسه من اجل ذلك . نعم ، اعطيه اياهم ! اعطيه اياهم ! اتريدهم ؟ هـا هم ! وهنا يتع في الشرك . واضافت بجد : ولكن قل لي ، اليوم هو موعد الدفن ؟ الا تعرف في اية ساعة ؟ لانني سأقف على النافـذة لأراهم يمرون . »/ماذا يريدون جميعاً مني ، بحربهم هذه ؟ كان يمسك الدفتر وكان يشدّه بكل قواه ، ولم يكن يستطيع تقرير إعـادته الى جيبه : كان هذا كل ما يملكه في الدنيا . وفتحه من غير ان يكف عن السير ورأى صورته فاستشعر بعض الاطمئنان ، هذه الرسوم الصغيرة السوداء التي تتحدث عنه ، ما دام ينظر اليها ، كانت اقل اثارة للقلق ، ولم

تكن تبدو رديئة الى حد بعيد . وقال : « مهما يكن ! مهما يكن ! أهي مصيبة الاّ يعرف المرء القراءة ؟ » فراري ، الشاب الصغير المرهق الذي كان يصعد جادة كليشي وهو يجر صورته من مرآة الى مــرآة ، هذا الشاب الصغير الذي لا حقد له ، كان رجلاً عاصياً ، فرارياً ، حازماً كبيراً ومريعاً ، ذا رأس حليق ، يعيش في برشلونه، في «الباريو ستينو » تخفيه فتاة تحبه . ولكن كيف يمكن للانسان ان يكون فرارياً؟ بأية عينين ينبغي ان يرى نفسه ؟

كان واقفاً في صحن الكنيسة ، وكان الكاهن يغني له ، وفكّر : « الراحة، الهدوء ، الهدوء، الراحة، كما يغيّره الخلود اخيراً في ذاته، لقد خلقتني كما انا ، وغاياتك لا تدرك ، انني اوفر افكارك عاراً ، انت تراني وانا اخدمك ، انتصب ضدك ، اشتمك ، واذ اشتمــك اخدمك ، انني مخلوقك ، وانت تحب ذاتك فيّ ، وتحملني انت الذي خلقت المسوخ والغيلان . ورن جرس صغير ، فأحنى المؤمنون رؤوسهم ولكن دانيال بقي مستقيما ، حملاق النظر . انت تراني ، وتحبــني » وكان يحس نفسه هادئاً ومقدساً .

ــ توقفت مركبة الموتى امام باب البناية رقم ٢٤ . وقــالت السيدة بونوتان « ها هم اولاء ، ها هم اولاء » وقالت البوابة : « الطــابق الثالث » وعرفت موظف موكب الدفن فقالت له : « صباح الخير ، يا سيد رينه ، كيف الحال ؟ » فقال رينه : « صباح الخير . ان من يريد ان يُدفن يوم أحد لا يفكر كم سيزعج الآخرين ! » قالت البوابة « ذلك انه كان يؤمن بحرية التديّن . » كان جــاك ينظر الى ماتيو ، وضرب على الطاولة وقال : « مع ذلك ، فاذا ربحناها، هذه الحرب ، اتدري من يفيد منها ؟ ستالين . » فقــال ماتيو بهدوء : « واذا لم نتحرك ذهبت الفائدة لهتلر . » « وبعــد ذلك ؟ هتلر ، ستالين ، الامر سواء . ولكن التفاهم مع هتلر يوفّر علينا مليوني رجل

ويجنبنا الثورة . » هكذا اذن . ونهض ماتيو وذهب يلقي نظرة من النافذة: لم يكن حتى مغتاظاً ، كان يفكر : « ما جدوى هذا كله ؟» لقد فر ، وكانت السماء تحتفظ بمظهر ايام الاحد الطيّب ، وكانت تنبعث من الشوارع رائحة الطبخ اللذيذ ، اللوز المزبّد ، الدجاج ، الاسرة . ومر رجل وامرأة ، وكان الرجل يحمل حلوى مغطاة بورق لامع ، وكان يحملها بخيط وردي لفّ طرفه على خنصره : كجميع الآحاد : « هذه ترهات ، ولا قيمة لذلك ، انظر كيف يسود الهدوء كل شيء ، ليس من حركة ، انه الموت الصغير الخاص بيوم الاحد، فليس عليك الا ان تستّرد عملك ، السماء موجودة ، وحانوت التغذية موجود ، والحلوى موجودة ، اما الفراريون فلا يوجدون . » الاحد الاخد،الذنَّب الاول امام مبولة ساحة كليشي ، وحرارة النهار الاولى ، انه يدخل المصعد الذي هبط منذ لحظة ، ويشم في القفص المظلم رائحة شقراء الطابق الثالث ، ويضغط على الزر الابيض ، الاهتزاز اليسير ، الانزلاق ، العذاب ، ويضع المفتاح في القفل ، ككل ايام الاحد ، ويعلق قبعته على المشجب الثالث ، ويسوّي ربطة عنقه امام مرآة المدخل ويدفع باب الصالون وهو يصرخ : « هأنذا ! » فماذا تراها ستفعل ؟ اتراها لن تأتي اليه ، ككل ايام الاحد ، وهي تتمتم : « يا حبيبي الجميل ؟ » كم كان ذلك متوقعاً ، وكم كان خانقاً من فرط التوقع ، ومع ذلك ، فقد فقد ذلك كله الى الابد . ليتني استطيع فقط ان اغضب ! وفكر : لقد صفعني ، لقد صفعني . وتوقف ، وكان يشعر بوجع في الخاصرة ، فاستند إلى شجرة ، ولم يكن غاضباً ، وفكر في يأس : « آه ! لماذا يجب الا اكون بعد صبيّاً ؟ » وعاد ماتيو يجلس قبالة جاك . كان جاك يتكلم ، وكان ماتيو ينظر اليه ، وكان كل شيء شديد الإضجار ، المكتب في الظل ، والموسيقى الخفيفة المنبعثة من الجهة الاخرى من شجرات الصنوبر ، وقطع الزبدة في صحن

الفجل ، والاقداح الفارغة على الصينية : سرمدية لا اهمية لها .

وأخذته الرغبة في ان يتكلم بدوره . من أجل لا شيء ، لكي لا يقول شيئاً ، ليحطّم هذا الصمت السرمدي الذي لا ينجح صوت اخيه في خرقه . وقال له :

— لا تدوّخ رأسك . الحرب او السلم سيّان .

قال جاك مندهشاً : — سيّان ؟ إذهب فقل هذا إذن لملايين الرجال الذين يتهيأون لمواجهة الموت .

قال ماتيو في طيبة ساذجة :— وماذا اذن ؟ انهم يحملون موتهم في نفوسهم منذ مولدهم . وحين ينتهي ذبحهم عن آخرهم ، ستظل الانسانية ممتلئة كأمتلائها في السابق : بلا فجوة ولا نقص .

قال جاك : — باستثناء اثني عشر الى خمسة عشر مليونا من الرجال .

قال ماتيو :—ليست القضية قضية عدد، انها ليست ممتلئة الا بنفسها، فليس ثمة من ينتقصها، وهي لا تنتظر أحداً. ستظل ماضية الى لا مكان، وسيطرح الرجال انفسهم الاسئلة نفسها على ذواتهم ، ويفوّتون عليهم الحيوات نفسها .

كان جاك ينظر اليه ويبتسم ، ليظهر انه لم يكن مخدوعاً :

— والى اين تريد ان تنتهي ؟

قال ماتيو :— الى لا شيء ، بالضبط .

وصاحت السيدة بونوتان منتعشة جداً : « ها هم اولاء ، ها هم اولاء ! سيضعون النعش في مركبة الموتى . » ليست الحرب شيئاً، كان القطار ينطلق ، مقنفذاً بالقبضات المرتفعة ، وكان موريس قد التقى بالرفاق : وكان دوباش ولوران يسحقانه على النافذة ، وكان يغني ، « سيكون نشيد الانترناسيونال هو الجنس البشري . » فقال له دوباش « انك تغني كأستي » فقال موريس : « حبذا ! » وكان يشعر بالحر

وكان صدغاه يؤلمانه ، وكان ذلك إجمل ايام حياته . كان يشعر بالبرد وكان بطنه يؤلمه ، وقد دق الجرس للمرة الثالثة ، وكان يسمع وقـع اقدام مستعجلة في الممر ، وكانت ابواب تصطفق ، ولكن لم يكن احد ليأتي : « ماذا تراهن يعملن ؟ سيتركنني ابول في لباسي » وركض احدهم بتثاقل ، ومر امام الغرفة فصاح به شارل :

— هي هو !

فاستمر الركض وانطفأ الوقع ، ولكنهم جعلوا يدقون دقات كبيرة فوق رأسه . ليذهبن فيبولج بهن ، فلو كانت « دورليـاك » الصغيرة التي تمد لهن خمس اوراق كل شهر ، على سبيل الهبة فقط ، لتضاربن من اجل الدخول الى غرفتها . وارتعش، لا بد ان ثمة نوافذ مفتوحة، فقد كان تيار هوائي مثلج يغلي تحت الباب ، انهن يهوّين ، نحن لم نذهب بعد ، وها هن يهوّين ، الضجة والهواء البارد والصراخ. كان يدخل كما يدخل في مطحنة ، انني في ساحة عامة . انه لم يعرف مثل هذا القلق ، منذ اخذت له الصورة التخطيطية الاولى للقلب . وصاح :

— هي هو ! هي هو !

الساعة الحادية عشرة الا عشر دقائق ، لم تكن جاكلين قد جاءت، وقد تركوه وحيداً طوال الليل . أتراهم لن ينتهوا قريباً ، فـوق ؟ كانت ضربات المطرقة تصدي في جرف عينيه ، فكأنهم كانوا يسمّرون نعشي . وكان يشعر بعينيه جافتين مؤلمتين ، وكان قد استيقظ منتفضاً ، في الساعة الثالثة صباحا ، بعد حلم مزعج ، او ما يشبه الحلم على اي حال : كان باقياً في « بيرك » ، الشاطيء ، المستشفيات ، كل شيء كان خالياً : ليس من مرضى بعد ، ولا ممرضات، وانما نوافذ سوداء وقاعات مقفرة ، والرمل الرمادي العاري على مدى النظر ، ولكن ذلك الفراغ لم يكن مجرد فراغ ، فإن هذا لا يرى الا في الاحلام . كان الحلم مستمراً ، كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما ، وكان الحلم مع

ذلك مستمراً : لقد كان فوق محمله في وسط غرفته ، ومع ذلك فان غرفته كانت خالية ، لم يكن لها بعد أسفل ولا أعلى ، ولا يمين ولا شمال . كان باقياً بين اربعة حواجز ، اربعة حواجز تتصادم على زاوية مستقيمة ، وشيء من الريح البحرية بين اربعة جدران . كن يسحبن في الممر شيئاً ثقيلاً خشناً ، لا شك في انه صندوق كبير لرجل غني . وصاح :

ـ هي هو ! هي هو !

وفتح الباب ، فدخلت السيدة لويز ، وقال :

ـ اخيراً !

قالت السيدة لويز :

ـ آه ! دقيقة ! ان عندنا مئة مريض يجب إلباسهم. فلكلٌ دوره .

ـ اين جاكلين ؟

ـ أتظن ان لديها الوقت للانشغال بك ؟ انها تُلبس فتيات « بوتيه » الصغيرات .

قال شارل : ـ اعطيني المبولة بسرعة ! بسرعة !

ـ ماذا يحدث لك ؟ ليست هذه ساعتك !

قال شارل : ـ اشعر بضيق . لا بد ان هذا هو السبب .

ـ صحيح ، ولكن عليّ قبل ذلك ان اهيئك ، على الجميع ان يكونوا مستعدين عند الساعة الحادية عشرة . مهما يكن من امر ، لا بد من ان تعجّل .

وحلت رباط منامته ، وشدت على بنطلونه ، ثم رفعته من جنبيه ودسّت المبولة تحته. كان الخزف بارداً وقاسياً ، وفكر شارل في ضجر : « ان معي اسهالا »

ـ ما الذي سأفعله اذا جاءني الإسهال في القطار ؟

ـ لا تهتم لذلك . لقد احتطنا لكل شيء .

كانت تنظر اليه وهي تداعب سلسلة مفاتيحها ، وقالت له :
— سيكون الطقس جميلا لذهابكم .
فأخذت شفتا شارل ترتجفان وقال :
— لم اكن اود ان اذهب .
قالت السيدة لويز : — عجباً ! عجباً ! هيّا ! هل انتهيت !
وبذل شارل جهداً اخيراً .
— انتهى .
وفتشت في جيب مريولها فأخرجت منه غطاء من ورق ومقصاً ، وقصت الورق الى ثماني قطع ، وقالت :
— انهض قليلا .
وسمع صوت دعك الورق ، واحس بحك الورق ، وقال :
— اوف !
قالت : — حسناً ! استلق على بطنك، بينما انا اضع المبولة ، سأنتهي من مسحك .
فاستلقى على بطنه ، وسمعها تمشي في الغرفة ، ثم احس بملامسة اصابعها الصناع . وكانت تلك هي اللحظة التي يفضلها . شيء . شيء مسكين صغير مهجور . وصلب فرجه تحته فلامس به الغطاء الرطب .
وقلبته السيدة لويز كأنه علبة ، ونظرت الى بطنه فأخذت تضحك :
— آه ! يا لك من مزّاح ! هيّا ! سنتحسّر عليك يا سيد شارل ، لقد كنت ناشراً حقيقياً للمرح والفرح .
وردّت الغطاء ونزعت منامته ، وقالت له وهي تدلكه :
— بعض ماء الكولونيا على الوجه . ستكون التواليت اليوم مقتضبة . ارفع ذراعيك . حسناً . القميص . السروال الآن . لا تتلوّ هكذا ، فلن استطيع ان ألبسك جوربك .
وتراجعت لتحكم على صنيعها، وقالت في رضى :

ـ ها أنت ذا نظيف كالفلس .
وسأل شارل بصوت معتكر :
ـ أتكون الرحلة طويلة ؟
فقالت له وهي تلبسه معطفه :
ـ على الارجح .
ـ واين نذهب ؟
ـ لا ادري . اعتقد انكم ستتوقفون اولا في ديجون .
ونظرت حولها ، وقالت :
ـ انظر لأرى اذا نسيت شيئاً . آه ! طبعاً ، وفنجانك ، فنجانك الأزرق ! انك حريص عليه كل الحرص .
وتناولته من على الرف وانحنت فوق الحقيبة . كان فنجاناً من الخزف الأزرق ذا اطراف بيضاء . وكان جميلا جداً .
ـ سأضعه بين القمصان حتى لا ينكسر .
قال شارل : ـ إعطيني اياه .
ونظرت اليه بدهشة ومدت له الفنجان . فأخذه ، واستقام على مرفقه ثم قذفه على الجدار . فصاحت السيدة لويز غاضبة :
ـ مخرّب ! كان يجب ان تعطيني اياه اذا كنت لا تريد ان تأخذه .
قال شارل : ـ لم ارد ان اعطيه ولا ان آخذه .
فهزت كتفيها ، واتجهت الى الباب ففتحته على مصراعيه . وسألها :
ـ اذن ، سنذهب ؟
قالت : ـ نعم . انت لا تريد ان تفوّت القطار ؟
قال شارل : ـ بهذه السرعة ؟ بهذه السرعة ؟
وكانت قد عادت تقف خلفه ؛ ودفعت المحمل ؛ ومد يده ليامس الطاولة في طريقــه ، ورأى لحظة النافذة وطرفاً من الجدار عبر المرآة المثبتة فوق رأسه ، ثم لم ير بعد شيئاً ، كان في الممر ، خلف حوالى

اربعين عربة مصطفة على طول الجدار ؛ وخيل اليه ان قلبه كان يُلوى ،
وبدأ موكب الموت يمشي . وقالت السيدة بونوتان : « ها هم اولاء يذهبون . ولكن عجباً ! ليس هناك كثيرون يصحبونه الى مقره الاخير »
كانوا يتقـــدمون ببطء ، وقفة بعد كل دورة عجلة ، وكانت الحفرة المظلمة في النهاية ، وكن يدفعن اليها المحامل اثنين اثنين ؛ ولكن لم يكن ثمة الا مصعد واحد ، وكان هذا يقتضي وقتاً . وقال شارل ،

— ما اطول الزمن !

قالت السيدة لويز : — لن يذهبوا بدونك .

كانت مركبة الموتى تمر تحت النافذة ؛ السيدة القصيرة المرتدية السواد، لا بد انها الأسرة ، وكانت البوابة قد اغلقت غرفتها بالمفتاح ، وكانت تتبع الممرضة ، الى جانب امرأة قوية ترتدي ثوباً رمادياً مع قبعة زرقاء، وارتفق السيد بونوتان الشرفة بالقرب من زوجته وقال : « الاب فيغييه» كان أخاً ثلاث نقاط » . « وما يدريك ؟ » فقال بلهجة مزهوّة : « ها ! ها ! » ثم أضاف بعد لحظة : « كان يرسم لي مثلثات على باطن كفي ، بإبهامه ، حين كان يشد على يدي » . وصعدت الى صدغي السيدة بونوتان موجة من الغضب ، لأن زوجها كان يتحدث بمثل هذا الاستخفاف عن ميت . وتابعت الدفن بنظرها وفكرت : « يا للرجل المسكين ! » .كان متمدداً هناك ، بطوله ، على ظهره ، وكانوا يحملونه نحو الحفرة ، وقدماه امامه . يا للرجل المسكين ، ان من المحزن ان لا يكون للانسان اسرة . ورسمت اشارة الصليب . بطوله كانوا يدفعونه نحو الحفرة المظلمة ، سيشعر بالمصعد يفر من تحته . وسأل :

— من يصحبنا ؟

فقالت السيدة لويز : — لا احد من عندنا . لقد عينوا الممرضات الثلاث التابعات للمقصورة النورماندية ، بالاضافة الى جورجيت فوكيه ، السمراء الطويلة التي تعرفها بكل تأكيد ، وهي تعمل في عيادة الدكتور

روبزتال .

قال شارل ، بينما كانت تدفعه بهدوء نحو الحفرة :

ـ آه ، لقد تذكرتها . سمراء ذات ساقين جميلتين . انها لا تبدو دمثة الاخلاق .

وكان قد لاحظها غالباً على الشاطيء وهي تراقب جماعة من الكسحى الصغار وتوزع الصفقات بالعدل ؛ وكان لها ساقان عاريتان ، وكانت تنتعل حـذاء مطاطاً . ساقان جميلتان عصبيتان مشعرتان ، وكان قد حدث نفسه بأنه يود لو تعتني هي بصحته . سينزلونه في الحفرة بالحبال، ولن ينحني احد فوقه ، الا هـذه المرأة القصيرة التي لا تبدو بمظهر مناسب ، فما أحزن ان يموت الانسان هكذا ؛ ودفعته السيدة لويز الى القمص ، وكان قد صف فيه محمل، في الظل ، لصق الجدار . وسأل شارل وهو يغمز بعينيه :

ـ من هناك ؟

فقال صوت : ـ انا بتروس .

قال شارل : ـ آه ، ايها الاست العجوز ! اننا اذن ننتقل ؟

فلم يجب بتروس ؛ وحدثت صدمة صغيرة ، فخيل لشارل انه كان يعوم على ارتفاع بضعة سنتمترات فوق محمله ؛ كانوا ينغمرون في الحفرة، وكانت ارض الطابق الثالث قد اصبحت فوق رأسه ، فكن يترك حياته من تحت ، من ثقب بلوعة . وقال في نشيج مقتضب :

ـ ولكن اين هي ؟ اين جاكلين ؟

فلم يبد على السيدة لويز انها تسمع ، وابتلع شارل دموعه بسبب بتروس . وكان فيليب يمشي . ولم يكن يستطيع بعد ان يتوقف ، فاذا كف عن السير ، أغمي عليه ؛ وكان غرولويس يمشي ، وكن قد جرح برجله اليسرى . ومر سيد في الشارع المقفر ، رجل سمين قصير ذو شارب وقبعة من قش ، فمد غرولويس يده وقال له :

– قل لي ، هل تعرف القراءة ؟
فوثب السيد وثبة جانبية صغيرة وحث خطاه . فقال غرولويس:
– لا تهرب . فلن آكلك .
ووسّع السيد خطوته ، فأخذ غرولويس يعرج خلفه ، وهو يمد له الدفتر العسكري ، وانتهى الامر بالسيد الى ان يركض وهو يطلق صرخة حيوان مفزع . وتوقف غرولويس ونظر اليه يبتعد وهو يحك رأسه فوق ضماده : وكان السيد قد اصبح صغيراً جداً ومستديراً كالكرة ، وقد تدحرج حتى منعطف شارع ، ثم نط مرة اخرى ، واستدار واختفى .
وقال غرولويس :
– آه ! لا لا ! آه ! لا لا !
قالت السيدة لويز : – يجب الا تبكي .
وكفكفت عينيه بمنديلها ، انني لم اكن اتصور اني ابكي . واستشعر شيئاً من الحنان ، كان لذيذاً ان يبكي المرء على نفسه :
– كنت كثير السعادة هنا .
قالت السيدة لويز : – ما كنت تبدو كذلك . بل كنت دائم الغضب من هذا او ذاك .

وثنت حاجز المصعد ودفعته الى الخارج . وتحامل شارل على مرفقيه ، فرأى توتور والطفلة غافالدا . كانت غافالدا ممتقعــة كالحرقة ، وكان توتور قد اندسّ تحت غطائه وهو يغمض عينيه . وكان رجالٌ ذوو قبعات يمسكون بالعربات لدى خروجها من المصعد ويجتازون بها عتبة العيادة ويختفون معها في الحديقة . واقترب رجل من شارل .
وقالت السيدة لويز : « هيا ، وداعاً وسفراً سعيداً » ارسل لنا بطاقة صغيرة لدى وصولك . ولا تنس : ان الحقيبة الصغيرة مع امتعة التواليت هي عند قدميك ، تحت الغطاء » .
وكان الرجل ينحني فوق شارل ، فصاح شارل :

– ها ! انتبه جيداً . من السهل ان يكون المرء شرساً اذا لم يكن متعوّداً .

قال الرجل :

– كفى ، ليس من البراعة ان تتم قصتك . لم افعل في حياتي شيئاً غير ان ادفع الشياطين الى محطة دانكرك ، والقاطرات الى لنز ، والعربات الى انزان .

وصمت شارل ، كان خائفاً : ان الفتى الذي كان يدفع محمل الطفلة غالفادا انعطف به على عجلتين اثنين فصدمه بالجدار . قالت جاكلين :

– انتظر ! انتظر ! انا التي سوف اقوده الى المحطة .

وكانت تهبط السلم وهي تعدو ، وكانت تلهث ، فقالت :

– السيد شارل .

وكانت تنظر اليه في نشوة حزينة ، وكان صدرها يرتفع بقوة ، وتظاهرت بأنها تسوّي غطاءه حتى تستطيع لمسه ، كان ما يزال يملك شيئاً على الارض ، فحيث يكون سيملك بعدُ هذا : هذا القلب الكبير الخفي المقدّر الذي سيظل يخفق من اجله ، في بيرك ، في عيادة مقفرة . قال :

– لقد تخليت عني !

– اوه ! يا سيد شارل ، كان الوقت ينقضي ، ولم استطع ، ولا بدّ ان السيدة لويز قد اخبرتك .

وكانت تدور حول المحمل ، حزينة منهمكة ، مستقرة على ساقيها ، وكان هو يرتجف من الحقد . كانت « واقفة » من الواقفات ، وكانت لها ذكريات عمودية ، وهو لن يبقى زمناً طويلاً بمنجى ، في هذا القلب . وقال بجفاء

– هيا ، هيا . لنعجل قوديني .

قال صوت ضعيف — ادخلي .

فدفعت مود الباب ، فانقلبت حنجرتها لرائحـــة قيء تنبعث . كان بيار متمدداً بطوله فوق السرير ، وكان ممتقعاً ، وكانت عيناه تأكلان له وجهه ، ولكنه كان يبدو هادئاً . وتحركت حركة تراجع ، ولكنها جهدت في الدخول الى الغرفة . وعلى كرسي ، عند رأس بيار ، كان ثمة طست مليء بماء مزبد عكر . وقال بيار بصوت طبيعي :

— انني لا أقيء بعد الا البلغم . فقد اخرجت كل ما في معدتي منذ وقت طويل . أبعدي الطست واجلسي .

وحملت مود الطست وهي تمسك انفاسها ووضعته بالقرب من المغسلة وجلست . وكانت قد تركت الباب مفتوحاً لتهوّي الغرفة . وساد صمت وكان بيار ينظر اليها في فضول مزعج وقالت :

— لم اكن اعلم انك مريض ، والا لجئت قبل الان .

فتحامل بيار على مرفقه وقال :

— انني الآن افضل قليلا ، ولكني ما زلت واهناً جـــداً . وانا لم انقطع عن الهذيان والانين منذ أمس . وربما كان من الافضل ان آكل شيئاً عند الظهر ، فما رأيك ؟ كنت افكر في طلب جناح دجاجة .

فقالت مود متضايقة :— لا ادري على الاطلاق . فانت نفسك تشعر جيداً ان كنت جائعاً .

وكان بيار يحدق بالغطاء في هيئة قلقة ، وقال :

— طبعاً ، ان هذا يثقل معدتي ، ولكن يمكنه ايضاً ان يثبتها ، ومن جهة اخرى ، اذا اخذني الغثيان من جديد ، فيجب ان يكون لدي ما أقيئه .

فنظرت اليه مود في ذهول ، كانت تفكر : « كم نحتاج الى وقت لمعرفة انسان . »

— سأقول للخادم اذن ان يأتيــك بحساء من الخضار وقطعة بيضاء

من الدجاجة .

وضحكت ضحكة مغتصبة وأضافت :

– اذا فكرت في ان تأكل ، فهذا يعني انك لست مريضاً .

وساد صمت . وكان بيار قد رفع عينيه وراح يراقبها بمزيج مزعج من الاهتمام واللامبالاة .

– احكي لي إذن : انكن الآن في الدرجة الثانية ؟

فسألته مود مستاءة : – من قال لك هذا ؟

– روبي . لقد لقيته أمس في الممرات .

قالت مود : – أجل . نعم ، نحن في الدرجة الثانية .

– كيف تدبرتنّ الامر ؟

– لقد اقترحنا ان نقدم حفلة موسيقية .

قال بيار : – آه ! هكذا إذن !

ولم يكن يكف عن النظر اليها ، ومد يديه على الغطاء وقال باسترخاء:

– ثم انك نمت مع الربان .

قال مود : – ماذا تزعم ؟

قال بيار : – لقد رأيتك خارجة من غرفته ، فليس هناك مجال للانخداع .

كانت مود منزعجة . لم يكن لديها ، على نحو ما ، حساب تؤديه له : ولكن كان مناسباً ، من جهة اخرى ، ان تخبره . وأخفضت عينها وسعلت ، وكانت تشعر بأنها مذنبة ، وهذا ما كان يردّ لها بعض الحنان تجاه بيار . وقالت :

– اسمع ، لو رفضت ، لما فهمت فرانس .

فقال صوت بيار الهادىء : – ولكن ما دخل فرانس في الامر ؟

فرفعت رأسها فجأة : كان يبتسم ، وكان قد احتفظ بهيئة الفضول المسترخي . وأحسّت بأنها مهانة ، وكانت تفضل ان يصرخ . وقالت

بجفاف :

– اذا حرصت على ان تعرف ، فاعرف اني حين اكون على ظهر باخرة ، انام مع الربان، لتستطيع جوقة بابيس ان تقوم بالرحلة في الدرجة الثانية . هكذا .

وانتظرت لحظة ان يحتج ، ولكنه لم ينبس بكلمة . وانحنت فـوقه وأضافت بقوة :

– انا لست قحبة .

– ومن الذي قال إنك كنت قحبة ؟ انك تفعلين ما تريدين او ما تطيقين . وانا لا اجد ذلك سيئاً .

قالت : – آه ! انك لا تجد ذلك سيئاً ! انك لا تجد ذلك سيئاً ؟

– كلا .

فقالت في اضطراب : – انت على خطأ . انت على خطأ اكبر .

فسألها بيار بلهجة مرح : – أهذا إذن رديء ؟

– آه ! لا تحاول ان تخلط علي الامور . كلا ، ليس هذا رديئاً : ولِمَ يكون رديئاً ؟ من الذين يطالبني بأن امتنع ؟ ليسوا هم الاشخاص الذين يدورون حولي ، طبعاً ، ولا رفاقي الذين يفيـدون مني ، ولا امي التي لا تكسب بعد شيئاً والتي ارسل لها فلوساً . ولكنك انت تجد ذلك رديئاً لأنك عشيقي .

وكان بيار قد شبك يديه فوق غطائه ، وكانت هيئته هيئة مريض خفية هاربة ، وقال بهدوء :

– لا تصرخي . ان بي صداعاً .

فتمالكت نفسها ونظرت اليه ببرودة ، وقالت بصوت منخفض :

– لا تخف ، فلن أصرخ بعد . ولكني احب مع ذلك ان اقول لك ان الامور قد انتهت فيما بيننا ، نحن الاثنين . لأنه يثير اشمئزازي ان انام مع هذا العجوز المليء بالحساء ، ولو كنت قد وبختني او رثيت

لي ، لحسبت انك متعلق بي بعض الشيء ، ولكان ذلك قد عزّاني قليلا . ولكن اذا كان بوسعي ان انام مع من اريد ، من غير ان يؤثر ذلك على احد ، حتى ولا عليك انت ، فهذا يعني اني كلبة جرباء ، واني بغي ؟ حسناً يا عزيزي ، ولكن البغايا يركضن وراء الماجين المستترين ، ولا حاجة بهن الى ان يعانقهن اجراس من نوعك .

فلم يجب بيار : كان قد اغمض عينيه ، فدفعت كرسيها بقدمها وخرجت وهي تصفق الباب .

كان ينسرب ، متحاملا على مرفقه ، بين مقاصير وعيادات ونزل : كان كل شيء فارغاً . وكانت المئة والاثنتان والعشرون دفنة في فندق « بران » مفتوحة ؛ وفي ممر مقصورة « مـن ديزير » وفي حديقة مقصورة « اوازيس » ، كان ثمة مرضى ينتظرون ، وهم مستلقون في توابيتهم ، رافعي الرؤوس ؛ وكانوا ينظرون في صمت صف المحامل؛ جمهور برمته من المحامل كان يجري نحو المحطة . ولم يكن ثمة من يتكلم ، ولم يكن يسمع الا انين المحاور واصوات العجلات الصماء وهي تهبط من الرصيف الى الطريق . كانت جاكلين تسير بسرعة ؛ وتجاوزت المحامل عربة قديمة ضخمة يدفعها عجوز قصير كان يبكي ، وتجاوزت زوزو الذي كنت امه تقوده الى المحطة ، وعرجاء مقصورة المحتاجين. وصاح شارل :

— هي ، هو !

فانتفض زوزو ، وتحامل قليلا فنظر الى شارل بعينيه الفاتحتين الفارغتين وقال وهو يتنهد :

— لسنا محظوظين !

وتداعى شارل للسقوط على ظهره ؛ وكان يحس الى يمينه والى يساره هؤلاء الحاضرين الافقيين ، عشرة آلاف عملية دفن صغيرة . وفتح عينيه ثانية فرأى قطعة من السماء ، ثم مئات من الناس ، مطلين من نوافذ « الفراندو » وهم يلوحون بمناديلهم . قذرون ! القذرون !

ليس هذا عيد ١٤ تموز ! ودوّم رف من زمّج الماء فوق رأسه وهو يتصايح ، وتمخّطت جاكلين خلفه . كانت تبكي تحت غلالتها الحريرية وكانت الممرضة تحدق في الاكليل الوحيد الذي كان يرتجّ خلف مركبة الموتى ، ولكنها كانت تسمعها تبكي ، ولا بد انها لم تكن متحسرة عليه كثيراً ، فقد انقضى عشرة اعوام دون ان تراه ، ولكنها كانت تحفظ دائماً ، في ناحية ما من اعماقها ، بحزن خجول غير مرتو ينتظر بتواضع دفن شخص ما ، او مناولةً ، او زواجاً ، لتحصل اخيراً على الدموع التي لم تجرؤ قط على المطالبة بها ؛ وفكرت الممرضة بامها الكسيحة ، وبالحرب ، وبابن اختها الذي سيرحل ، وبوضع الممرضة القاسي ، فأخذت تبكي ايضاً ، كانت مسرورة . وكانت المرأة القصيرة تبكي ، وخلفها كانت البوابة قد بدأت تبكي ، يا للعجوز المسكين ، قليلون جداً هم الذين يصحبونه ، فليظهروا على الاقل بمظهر الحزن ؛ كانت جاكلين تبكي وهي تدفع المحمل ، وكان فيليب يمشي ، سوف يغمى علي ، وكان غرولويس يمشي ، الحرب ، المرض ، الموت ، الرحيل ، البؤس ؛ كان اليوم يوم احد ، وكان موريس يغني امام نافذة حافلته ، ودخلت مارسيل الى حانوت الحلويات لتشتري حلوى بالزبدة ؛

قالت جاكلين : — انك لا تتكلم قط . كنت اظن انك ستجد بعض المشقة في تركي .

وكانا قد سلكا طريق المحطة ، فسألها شارل :

— الا تجدين اني لست متضايقاً بما فيه الكفاية في وضعي هذا ؟ انهم يرزمونني ويحملونني لا ادري الى اين من غير ان يسألوني رأيي ، وتريدين فوق هذا ان انحسر عليك ؟

— انت لا قلب لك .

فقال في جفاء : — كفى . اود لو كنت مكاني ، اذن لرأينا ما الذي تفعلينه بقلبك .

فلم تجب ، ورأى سقفاً مظلماً فوق رأسه، فقالت جاكلين :
ـ لقد وصلنا .
بمن استنجد ؟ من الذي ابتهل اليه حتى لا يأخذني ؟ انني افعل كل ما يريدون شريطة ان يتركوني هنا ، فتعتني بي وتنزهني ، وفي المساء تعمل لي مداعبتي الصغيرة ... وقال لها :
ـ آه ! أحس اني سأموت في اثناء هذه الرحلة .
فقالت جاكلين وقد استطار لبّها :
ـ ولكنك مجنون . انت مجنون تماماً ، فكيف تستطيع ان تنطق بمثل هذه الاشياء ؟
وطافت حول المحمل ثم مالت عليه ، وكان يحس نفَسها الحارّ . وقال وهو يضحك لها :
ـ هيا ! هيا ! بلا مظاهرات . فلست أنت التي ستصابين بالمضايقات، اذا مت . وانما هي السمراء الجميلة ، تعرفينها ، ممرضة الدكتور روبرتال.
فاستقامت جاكلين فجأة ، وقالت :
ـ انها جمَل . وانت لا تستطيع ان تتصور جميع القصص التي صنعتها مع لوسيان . (واضافت متمتمة بين اسنانها المنقبضة) آه ! سترى حالك معها ، ولا حاجة بك الى ان تدبل لها عينيك ، فهي اقل بلاهة مني .
واستقام شارل ونظر حوله في قلق . كان ثمة اكثر من مئتي محمل مصفوفة في الباحة . وكان الحمالون يدفعونها الى المحطة ، واحداً بعد الآخر . وتمتم بين أسنانه :
ـ لا اريد ان اذهب .
ونظرت اليه جاكلين نظرة شاردة ، وقالت له فجأة :
ـ وداعاً . وداعاً يا لعبتي ، يا لعبتي العزيزة .
واراد ان يجيب ، ولكن المحمل كان قد اندفع . وانتابته رعشة

من قدميه الى رقبته ، فارتد برأسه الى خلف ، فرأى وجهاً محمراً منحنياً فوق رأسه ، وصاحت جاكلين :

– اكتب لي ، اكتب لي .

وكان قد اصبح على المحطـــة ، في خليط من صرخات الوداع وطلقات الصفارة .

وسأل في ضيق :

– اليس ... اليس هذا القطار ؟

فقال الموظف في سخرية :

– كلا ؟ وما الذي تحتاجه اذن ؟ قطار الشرق السريع ؟

– ولكن هذه حافلات لنقل البضائع ؟

فبصق الموظف بين قدميه ، وقال موضحاً :

– انكم لن تتماسكوا جيداً في قطار للمسافرين . فيجب نزع المقاعد، انت تفهم الوضع ؟

كان الحمالون يأخذون المحامل من اطرافها ، فيفصلونها عن عرباتها ويحملونها الى الحافلات . وفي الحافلات ، كان موظفون ذوو قبعات يلتقطون المحامل كما يطيقون ويحملونها في الظلام . ومرّ صموئيل الجميل، دون جوان « بيرك » ، الذي كان يملك ثماني عشرة بذلة ، مرّ بالقرب من شارل ، بين ذراعي حمّالـــين ، واختفى في العجلة ، وساقاه في الهواء .

قال شارل في غيظ :

– هناك ، على كل حال ، قطارات صحيّة .

– آه ! اني أصدّقك ! كأنهم ، ونحن في عشية الحرب، سيرسلون قطارات صحية الى « بيرك » لتلمّ المشلولين .

واراد شارل ان يجيب، ولكن محمله تأرجح فجأة، وحُمل في الهواء، ورأسه في الأسفل وصاح :

ـ احملوني كما يجب ! احملوني كما يجب !

فأخذ الحمالون يضحكون ، واقترب الثقب الفارغ ، وكبُر ، ومدوا في الحبل ، فسقط التابوت على الارض الرطبة بضجة مائعة . وانحنت الممرضة والبوابة فوق حافة الحفرة ، واخذتا تبكيان بلا تحفظ .

قال بوريس : ـ انت ترين ، انت ترين : انهم يقصون بعضهم بعضاً .

كانا جالسين في باحة الفندق ، بالقرب من رجل يحمل الاوسمة ويقرأ في الجريدة . وانزل الحمال حقيبتين من جلد الخنزير ووضعهما قرب المدخل ، بالقرب من الحقائب الاخرى . وقال بصوت محايد :

ـ خمسة رحلوا هذا الصباح .

قال بوريس : ـ انظري الى هذه الحقائب ، انها من جلد الخنزير . (واضاف بقسوة) وهؤلاء الناس لا يستحقونها .

ـ ولماذا يا جميلي ؟

ـ كان يجب ان تكون مغطاة بالبطاقات .

قالت لولا : ـ واذن ؟ اننا لن نرى بعد جلد الخنزير .

ـ تماماً . يجب على المترف الحقيقي ان يخفي نفسه ، ثم انهم سيعملونها كمفارش . ولو كان لدي انا احداها ، لما كنت هنا .

ـ اين كنت تكون؟

ـ في اي مكان.في المكسيك او الصين (وأضاف : معك)

واجتازت الباحة امرأة طويلة ترتدي قبعة سوداء ، وكانت تصرخ باحتداد :

ـ ماربيت ! ماربيت !

قالت لولا : ـ انها السيدة دولاريف . وهي راحلة بعد ظهر اليوم.

قال بوريس : ـ سنبقى وحدنا في الفندق ، وسيكون هذا طريفاً: فسنغير غرفتنا كل مساء .

قالت لولا : — امس في الكازينو ، كانوا عشرة فقط يستمعون الي ؛ ثم انني لم اعد أنفلق . وقد طلبت ان يجمعوهم معاً ، على طاولات الوسط ، وانا اهمس لهم أغانيّ في آذانهم .

ونهض بوريس لينظر الى الحقائب عن كثب . وجسّها بالخفية ثم عاد بالقرب من لولا وسألها فيما هو يجلس :

— لماذا هم ذاهبون ؟ انهم هنا سيكونون في وضع آمن كذلك ؛ وقد يحدث ان تقصف منازلهم في اليوم التالي من عودتهم .

قلت لولا:

— هذا صحيح ، ولكن ذلك منزلهم ؛ الا تفهم ذلك ؟

— لا .

قلت : — هكذا . ان الناس اذا بلغوا سناً معينة ، أخذوا ينتظرون المضايقات في بيوتهم .

فأخذ بوريس يضحك ، واستقامت لولا في قلق ؛ وكانت قد احتفظت بذلك منذ القديم : كان اذا ضحك ظنت دائماً انه يهزأ بها .

— لماذا تضحك ؟

— لأني اجدك شجاعة . انت تشرحين لي ما يشعر به الناس اذا بلغوا سناً معينة . ولكنك لا تفهمين من ذلك شيئاً يا عزيزتي لولا : فانت لم تسكني منزلا قط .

قالت لولا بحزن : — هذا صحيح .

فتناول بوريس يدها وقبّل باطن كفها ، فاحمرت لولا .

— كم انت لطيف معي ! اؤكد لك انك لست بعد بوريس الذي اعرفه .

— إشتكي اذن !

فشدت لولا يده في قوة .

ـ انا لا اشتكي ، ولكني اود ان اعرف لمـاذا انت لطيف الى هذا الحد .

قال ـ ذلك اني انقدم في السن .

وكانت قد تركت يده ، وكانت تبتسم وهي مستلقية في الاريكة . وكان مسروراً ان يجدها سعيدة ، فقد كان يريد ان يترك لها ذكرى طيبة . ولامس يدهـا وفكر . عام ؛ وليس امامي بعد الا عام واحد أقضيه معها ؛ واستشعر الحنان . لقد بدأت قصتها تحمل سحر الماضي . كان من قبل يعاملها بقسوة ، ولكن ذلك كان يُعزى الى انهما كانا على تعاقد غير محدود . وكان ذلك يزعجه ، فهو يحب كثيراً التعهدات ذات المدة المحدودة . عام . وسيمنحها كل السعادة التي كانت تستحقها ، وسيصلح كل اخطائه ، ثم يتركها ، ولكن لا بصورة غادرة ، وليس من اجل امرأة اخرى ، او لأنه شبع منها . ان ذلك سيتدبر من تلقاء نفسه ، بقوة الاشياء ، لأنه سيكون بالغاً ،وسيرسلونه الى الجبهة . ونظر اليها من زاوية عينيه . كانت تبدو شابة ، وكان صدرها الجميل يرتفع من النشوة ؛ وفكر في كآبة . «وهكذا سأكون رجل امرأة واحدة» . مجند في عام ٤٠ ، مقتول عام ٤١ ، لا ، بل ٤٢ ، لأنه كان ينبغي ان يتاح له الوقت لينهي دراسته ، وهكذا سيعرف امرأة واحدة في اثنين وعشرين عاماً . منذ ثلاثة اشهر ، كان ما يزال يحلم بان يضاجع نساء من الطبقة الراقيــة ، ذلك اني كنت طفلا ، بهذا فكر من غير ما تسامح . سوف يموت من غير ان يكون قد عرف الدوقات ، ولكنه لن يتحسر على شيء . فسوف يمكنه ، على نحو ما ، في الاشهر القادمة ، ان يجمع ثروات طيبة ، ولكنه لم يكن حريصاً على ذلك اكثر مما ينبغي : فانني سأتوزع بهذا الشكل . ان من ليس امامه الا عامان يعيشهما ، خير له ان يتركز برصانة . لقد سبق لجــول رونار ان قال لابنه : « لا تدرس الا امرأة واحدة ، ولكن ادرسها جيداً ، تعرف المرأة » . كان

ينبغي ان يدرس لولا بعناية ، في المطعم ، وفي الشارع ، وفي السرير؛ وأمرّ إصبعه على معصم لولا وفكر : انني لا اعرفها بعد كما ينبغي ؛ كان في جسمها زوايا يجهلها ولم يكن يعرف ما كان يمر في رأسها ؛ ولكن كان امامــه عام ، وسوف يبدأ في التعرف عليها حالا . وادار رأسه نحوها وتأملها بانتباه ، فسألته لولا :

ــ لماذا تنظر الي ؟

قال بوريس : ــ انني ادرسك .

ــ لا احب ان تنظر الي اكثر مما ينبغي ، فانا اخشى دائماً ان تجدني عجوزاً .

فبسم لها بوريس : ــ انها تظل حذرة ، وهي لم تكن تألف سعادتها، وقال لها .

ــ لا تخشي شيئاً .

وحيتها ارملة بحنان وتداعت للسقوط على اريكة بالقرب من حامل الاوسمة .

وقال لها الرجل :

ــ اسمعي يا سيدتي العزيزة . ان هتلر سيلقي خطاباً .

فسألت الارملة : ــ اوه ، متى ؟

ــ سيخطب غداً مساء ، في ساحة الرياضة .

قالت وهي ترتعش :

ــ بررررر. اذن سآوي الى فراشي باكراً ، وسأضع رأسي تحت الغطاء ، فانا لا اريد إن اسمعــه . اتصور انه ليس لديه شيء لطيف يقوله لنا .

قال الرجل : ــ هذا ما اخشاه جداً .

وساد صمت، ثم استطرد :

ــ اسمعي : لقد ارتكبنا غلطتنا الكبيرة عام ٣٦ ، في فترة تنظيم

المنطقة الرينانية تنظيماً عسكرياً. كان ينبغي ان نرسل عشر فرق الى هناك. فلو كشفنا عن نواجذنا ، لنفذ الضباط الالمان امر التراجع الذي كان في جيوبهم . ولكن « سارو » كان ينتظر رضى « الجبهة الشعبية » ، وكانت « الجبهة الشعبية » تفضل ان تعطي سلاحنا للشيوعيين الاسبان .

فقالت الارملة ملاحظة :

ـ ولكن انكلترا ما كانت لتحذو حذونا .

فردد الرجل ، فاقد الصبر :

ـ ما كانت لتحذو حذونا ! ما كانت لتحذو حذونا ! حسناً ، اني اريد ان اطرح عليك سؤالا يا سيدتي : أتعلمين ما كان سيفعله هتلر ، لو لجأ « سارو » الى التعبئة ؟

قالت الارملة ـ لا ادري .

ـ كان سينـ ـ ـ ـ حر ، يا سيـــدتي . اني اعرف ذلك من مصدر موثوق . فانا اعرف ضابطاً من المكتب الثاني ، منذ عشرين عاماً .

وهزت الارملة رأسها بحزن وقالت :

ـ كم من فرص ضائعة !

ـ ومن هو المسؤول ، يا سيدتي ؟

قالت : ـ آه !

قال الرجل : ـ أجل ! أجل ! هذه هي نتيجة التصويت الاحمر . ان الفرنسي غير قابل للإصلاح . ان الحرب على ابوابه ، وهو يطالب بعطل مدفوعة الأجرة .

ورفعت الارملة انفها : كان يبدو عليها مظهر قلق حقيقي .

ـ انت تعتقد اذن ان الحرب واقعة ؟

وقال الرجل مشدوهاً:

ـ الحرب ! آه ، لا نتعجــل الامور . لا ، ان دلادييه ليس

طفلا . فهو سيقوم حتماً بالتنازلات الضرورية . ولكننا سنجابه اصعب المصاعب .

قالت لولا بين اسنانها : — قذرون !

فابتسم لها بوريس في ود . كانت قضية تشيكوسلوفاكيا في نظرها بسيطة جداً . بلدٌ صغير قد هوجم ، فعلى فرنسا ان تدافع عنه. كانت تخبط بعض الشيء ، في السياسة ، ولكنها كانت كريمة . وقالت:

— تعال لنتغدى. انهما يثيران اعصابي .

ونهضت ، فنظر الى خاصرتيها الجميلتين القويتين ، وفكر في «المرأة». كانت « المرأة » ، « المرأة كلها » هي التي سيمتلكها الليلة . وأحس بأن شهوة طاغية تحرُّ اذنيه .

خلف ظهره ، المحطة — وغوميز ، في القطار ، قدماه على المقعد الطويل . كان قد فاجأ الآلهة . « انني لا احب العناق والقبــل على المحطة » . وكانت تهبط الدرج العظيم ، وكان القطار لا يزال في المحطة ، وكان غوميز يقرأ وهو يدخن ، وقدماه على المقعد الطويل ، وكان ينتعل حذاء جميلا جديداً من جلد البقر . وقد رأت الحذاء على قماش المقعد الرمادي ؛ كان في الدرجة الاولى ؛ فالحرب تُثري ، وفكرت . اني اكرهــه . كانت جافة وفارغة . ورأت فترة اخرى البحر المشرق والمرفأ والبواخر ، ثم لا شيء بعد . فنادق مظلمة ، سقوف وقطارات .

— لا تنزل بهذه السرعة يا بابلو ، فسوف تسقط !

فظل الصغير على الدرجة . وقدمه في الهواء . سيرى ماتيو . كان بامكانه ان يبقى يوماً آخر معي ، ولكنه فضل علي ماتيو . كانت يداها محرقتين ؛ ما دام هنا ، فانه العذاب. اما وقد ذهب الان ، فلست ادري اين ذهب بعد . وسأل :

— هل ذهب بابا ؟

كان ثمة ساعة ، قبالتها ، تشير الى الواحدة والخامسة والثلاثين ؛ كان القطار قد سار منذ سبع دقائق . قالت ساره :

ـ نعم ، لقد ذهب .

قال بابلو ، وعيناه ملتمعان :

ـ هل سيقاتل ؟

فقالت ساره : ـ لا ، وانما ذهب يرى صديقاً له :

ـ نعم ، وبعد ذلك ، هل يقاتل ؟

قالت ساره : ـ بعد ذلك ، سيذهب لقتال الآخرين .

وكان بابلو قد وقف على الدرجة قبل الاخيرة ، فثنى ركبتيه وقفز مضموم القدين الى الرصيف ،ثم التفت ينظر الى امه وهو يبسم لها في زهو . وفكرت : « مهرّج » ، والتفتت من غير ان تبسم له واجالت نظرها في الدرج العظيم . كانت القطارات تجري وتقف ثم تنطلق من فوق رأسها . وكان قطار غوميز يتجه نحو الشرق ، بين كشبان طبشرية ، او ربما بين بيوت . وكانت المحطة مقفرة ، فوق رأسها ، فقاعة رمادية كبيرة ، ملأى بالشمس والدخان ، رائحة خمر وسناج ، وكانت الخطوط الحديدية تلتمع . وخفضت رأسها ، ولم يكن يروق لها ان تنكر بهذه المحطة المهجورة فوق ، في حرارة الاصيل البيضاء .. ففي نيسان ٣٣ ، كان قد سافر ، في هذا القطار نفسه ، وكان يرتدي بدلة من التوند الرمادي ، وكانت الآنسة سمبسون تنتظره في « كان » ، وكان قد امضى خمسة عشر يوماً في « سان روميو » . وفكرت : اني ما زلت افضل ذلك العهد . ولامست يدها قبضة صغيرة ملتمسة ، ففتحت يدها وجست فيها معصم بابلو . وخفضت عينيها ونظرت اليه : كان يرتدي قميصاً ذا ياقة بحرية وقبعة من القماش . وسألها بابلو :

ـ لماذا تنظرين إلي هكذا ؟

وادارت ساره رأسها ونظرت الى الطريق : كانت مذعورة بأن تحس

نفسها قاسية الى هذا الحد . وفكرت : ليس هو الا صبياً . أجل ، ليس هو الا صبياً . ونظرت اليه من جديد وهي تحاول ان تبتسم له ولكنها لم تنجح في ذلك ، كان فكّاها منقبضين ، وكان فمها من خشب . واخذت شفتا الصغير ترتجفان ، فادركت انه يوشك ان يبكي، فجذبته فجأة واخذت تمشي بخطى كبيرة ، ونسي الصغير دموعه ، في دهشة ، فكان يكردح الى قربها .

– اين نذهب يا ماما ؟

قالت ساره : – لا ادري .

وسلكت الشارع الاول الى يمينها ، وكان شارعاً مقفراً ، وكانت جميع الحوانيت مقفلة ، وحثت خطاها وانعطفت في شارع الى اليسار، بين بيوت مرتفعة ، مظلمة وقذرة . وظلت الشوارع مقفرة . وقال بابلو :

– انك تجعلينني اركض .

وشدّت ساره يده من غير ان تجيب وجرّته ، فسلكا شارعاً طويلا مستقيما ، شارعاً يمشي فيه الترام . ولم يكن يُرى فيه سيارات ولا ترام، لا شيء الا ستائر حديدية مسدلة ، ثم الخطوط الحديدية الـتي كانت تنسرب نحو المرفأ . وفكرت بان اليوم كان يوم احد ، فانقبض قلبها . وضغطت بعنف على معصم بابلو . وانّ بابلو :

– ماما ! اوه ، يا ماما !

وكان قد اخذ يعدو للحاق بها ، ولم يكن يبكي ، ولكـن كان ابيض ممتقعاً ، وتحت عينيه هالات كابية ، وكان يرفع نحوهـا وجهاً مندهشاً متحدياً . وتوقفت ساره في الطريق ، وقد بللت الدموع وجنتيها فقالت :

– يا للطفل المسكين ! يا للصغير المسكين البريء !

وأقعت بالقرب منه . ماذا يهمها ما عساه يكون فيما بعد ؟ لقد كان

الآن هنا ، بشعاً غير مؤذ مع ظل صغير عند قدميـــه ، وكان يبدو وحيداً في العالم ، وكان في عينيه هذا الاندهاش كله ، ومهما يكن من أمر ، فليس هو الذي طلب ان يولد .

وسأل بابلو : — لماذا تبكين ؟ ألأن البابا قد ذهب ؟

فانقطعت دموع ساره على التو واخذتها الرغبة في الضحك . ولكن بابلو كان ينظر اليها مهموماً . ونهضت فقالت وهي تدير رأسها :

— نعم ، نعم ، لأن البابا قد ذهب .

وسأل : — هل نعود بعد قليل الى البيت ؟

فقالت : — هل تعبت ؟ اننا ما نزال بعيدين عن البيت ، تعال ، تعال ، سنمشي على مهل .

ومشيا بضع خطوات ثم توقف بابلو ، ومد اصبعه ، وقـــال في نشوة تكاد تكون مؤلمة :

— اوه ! انظري !

كان ذلك اعلاناً ملصقاً على باب دار للسينما زرقاء ، فـــاقتربا . وكانت رائحة فرمول تنبعث من القاعة المظلمة الرطبة . وكان عـــلى الإعلان بعض رعاة البقر يلاحقون فارساً مقنعاً وهم يطلقون رصاص مسدساتهم . طلقات نارية ايضاً ، ومسدسات ايضاً ! كان ينظر لاهثاً ، سيضع عما قليل قبعته ، وسيأخذ بندقيته ويعدو في الغرفة ،وهو يمثـــل دور اللص المقنع . ولم تؤاتها الجرأة في ان تسحبـــه ، واكتفت بأن ادارت رأسها . وكانت قاطعة التذاكر تتروح في غرفتها الزجاجية ، وكانت امرأة سمينة سمراء ، ذات لون ممتقع ، وعينين من نار . وكان على الطاولة ، خلف الزجاج ، زهور في آنية ، وكانت قد تثبتت على الجدار ، بمسامير صغيرة ، صورة لروبرت تايلر . وخرج من القاعة رجل بين الشباب والكهولة ، فاقترب من الصندوق وسأل عبر النافذة :

— كم ؟

قال : ــ الدخول ثلاثة وخمسون .

ــ هذا ما حسبته وامس سبعة وستون . فيلم جميل كهذا ، مع مطاردات !

قالت قاطعة التذاكر وهي تهز كتفيها :

ــ الناس يبقون في بيوتهم .

وكان رجل آخر قد وقف بالقرب من بابلو ، وكان ينظر الى الاعلان وهو يلهث ، ولكن لم يكن يبدو عليه انه يراه . وكان شخصاً طويلا شاحباً ذا ثياب ممزقة ، وحول رأسه ضماد ملطخ بالدم ووحل جاف على خده ويديه . ولا بد انه كان قادماً من بعيد . واخذت ساره بابلو من يده وقالت :

ــ تعال .

وجهدت في ان تسير ببطء شديد ، بسبب الصغير ، ولكن كانت لديها رغبة للركض ، اذ كان يخيّل اليها ان احداً ينظر اليها من خلف . وامامها كانت الخطوط الحديدية تلتمع ، وكان القطران يذوب تحت الشمس على مهل ، وكان الهواء يرتعش قليلا ، حول فانوس ، ليس هو بعد الاحد نفسه . « الناس يبقون في بيوتهم » . كانت ما تزال منذ لحظة تتخيل خلف صفوف البيوت جادات فرحة غاصّة بالناس الذين تنبعث منهم رائحة مسحوق الرز والتبغ الاشقر ، كانت تمشي في شارع هادىء من شوارع الضاحية ، يرافقها جمع كبير ، قريب وغير مرئي . وكانت كلمة واحدة كافيــة لتقفر الطرق . انهم الآن يجرون نحو المرفأ ، بيضاً مقفرين ، وكان الهواء يرتعش بين الجدران العمياء . قال بابلو :

ــ ماما : ان الرجل يتبعنا .

قالت ساره ــ لا . انه يتنزه مثلنا .

وانعطفت الى اليسار ، فاذا هو الطريق نفسه الذي لا ينتهي ، ولم يكن

ثمة بعد الا طريق يتيه عبر مارسيليا . وكانت ساره في هذا الطريق ، خارجاً مع صبيي ، وكان جميع المارسيليين في الداخل . ثلاثة وخمسون مدخلاً . كانت تفكر في غوميز ، في ضحكة غوميز ، بالطبع ، جميع الفرنسيين جبناء . ولماذا ؟ انهم يبقون في بيوتهم، هذا طبيعي . انهم يخافون الحرب ، وهم على حق في ذلك . لكنها كانت مع ذلك مستاءة . ولاحظت انها قد حثت خطاها ، فارادت ان تبطىء سيرها ، بسبب بابلو . ولكن الصغير جذبها الى الامام ، وقال بصوت مختنق :

— اسرعي ، اسرعي ، اوه ! يا اماه .

قالت بجفاء : — ماذا هناك ؟

— انه ما يزال خلفنا ..

وادارت ساره رأسها قليلاً فرأت المتشرد ، كان يتبعهما ، بدون ويب ، واخذ قلبها يخفق في صدرها ، وقال بابلو :

— لنركض !

وفكرت بالضماد الدامي فاستدارت فجأة على عقبها . وتوقف الشخص تماماً ورآهما قادمين بعينيه المضببتين . كانت ساره خائفة، وكان الصغير قد تشبث بها بكلتا يديه وهو يجرها الى خلف بكل قواه . « الناس يبقون في بيوتهم » فمهما حاولت ان تنادي او تصرخ طلباً للنجدة ، فلن يأتي احد ، ونظرت الى المتشرد في عينيه وسألته :

— هل انت بحاجة الى شيء ؟

فبسم بسمة تثير الشفقة ، وتلاشى خوف ساره . فسأل :

— هل تعرفين القراءة ؟

ومد لها دفتراً قديماً ممزقاً ، فأخذته ، وكان دفترا عسكرياً . وكان بابلو يحيط ساقيها بذراعيه ، وكانت تحس جسمه الصغير الحار . وقالت :

— ماذا تريد ان تعرف ؟

قال الرجل وهو يشير باصبعه الى ورقة :
— اريد ان اعرف ما هو مكتوب هنا .
كان يبدو عليه الطيبة ، بالرغم من عينه البنفسجية المنغلقة نصف انغلاق . ونظرت اليه ساره لحظة ، ثم نظرت الى الورقـة . وتمتم الرجل بتأثر :
— كم هي مصيبة ، كم هي مصيبة الا يحسن الانسان القراءة .
قالت ساره : — ان معك ورقة بيضاء ، فيجب ان تذهب الى مونبلييه .
ومدت له الدفتر ، ولكنه لم يأخذه على التو ، بل سأل :
— صحيح ان الحرب ستقع ؟
قالت ساره : — لا ادري .
وفكرت ، سوف يذهب . ثم فكرت في غوميز . وسألت :
— من الذي عمل لك الضماد ؟
فقال الرجل : — انا نفسي .
وفتشت ساره في حقيبتها ، وكان معها دبابيس ومنديلان نظيفان . وقالت له بلهجة تسلط :
— اجلس على الرصيف .
فجلس الرجل بمشقة ، وقال في ضحكة واعتذار :
— ان ساقي مخدرتان .
ومزقت ساره المنديلين . وكان غوميز يقرأ « الاومانيتـه » في الدرجة الاولى ، وقدماه على المقعد الطويل . سوف يرى مـاتيو ثم يذهب الى تولوز ليستقل الطائرة الى برشلونه . وحلّت الضمـاد الدامي ونزعته بشدات قصيرة . وانّ الرجل قليلا . وكان ثمـة قشرة سوداء لزجة تمتد وسط رأسه . وبسطت ساره منديلا لبابلو :
— اذهب فبلّله من ماء النبع .

فركض الصغير وهو سعيد بالابتعاد . ورفع الرجل عينيه الى ساره وقال لها :
ـ انني غير راغب في القتال .
فوضعت ساره يدها بلطف على كتفه . وكان بودها لو تطلب منه الصفح . وقال .
ـ انا راعٍ .
ـ وماذا تفعل في مرسيليا ؟
فهز رأسه ، وردّد :
ـ لست راغباً في القتال .
وكان بابلو قد عاد ، فغسلت ساره الجرح كما اطاقت ثم لفت الضماد بخفة ، وقالت :
ـ انهض .
فنهض ، وكان ينظر اليها بعينيه المبهمتين .
ـ يجب اذن ان اذهب الى مونبليه ؟
فبحثت في محفظتها وأخرجت منها ورقتين من ذوات المئة فرنك ، وقالت :
ـ هذا من اجل رحلتك .
ولم يأخذها الرجل على التو : كان ينظر اليها في اجتهاد . وقالت ساره بصوت منخفض سريع :
ـ خذ ، خذ ، ولا تقاتل ان كان بوسعك ان تتجنب ذلك .
فأخذ الورقتين ، وشدت ساره بقوة على يده ، ورددت :
ـ لا تقاتل ، افعل ما بدا لك ، عد الى بيتك ، إختبيء ، فكل شيء خير من القتال .
وكان ينظر اليها من غير ان يفهم ؛ وتناولت يد بابلو ، واستدارت ثم استعادا سيرهما . وبعـــد لحظة ، التفتت : كان ينظر الى الضماد

والمنديل المبلل الذي كانت ساره قد ألقتهما على الطريق . وانتهى بان انحنى ، فلمّهما متلمّساً ، ثم دسّهما في جيبه .

كانت قطرات العرق تتدحرج على جبينه حتى صدغيه ، وتسيل على خديه من منخريه حتى اذنيه . وكان قد حسب اولا انها هوام ، فصفع وجهه ، فاذا يده تسحق دموعاً دافئة . وقال رفيقه الجالس الى يساره:

– اوف ! ما أشد هذا الحر ،

وعرف صوته ، انه بلانشار ، الوحش السمين . قال شارل :

– انهم يفعلون ذلك عمداً . فهم يتركون الحافـلات في الشمس طوال ساعات .

وساد صمت ثم سأل بلانشار :

– أهذا انت ، يا شارل ؟

قال شارل : – هذا انا .

وكان يأسف لأنه تكلم . كان شارل يحب المزاح كثيراً ، وكان يرش الناس بمسدس مائي ، او كان يتدحرج عليهم او يعلق رتيلاء من الورق المقوى على اغطيتهم . وقال بلانشار :

– ما اكثر ما نلتقي !

– نعم .

– العالم صغير .

وتلقى شارل دفعة مـاء في وجهه ، فمسح جبينه وبصق ؛ وكان بلانشار يقهقه .

وقال شارل :

– اي فرج انت !

وسحب منديله ومسح عنقه وهو يجهد في ان يضحك :

– انه مسدسك المائي !

قال بلانشار وهو يضحك :

– عظيم ! لقد أصبتك ، اليس كذلك ؟ في وسط وجهك ! لا تغضب . إن جيوبي ملأى بالحبل الصغيرة : وسوف نضحك كثيراً في اثناء هذه الرحلة .

قال شارل في ضحكة سعيدة :

– ايّ فرج ! اي فرج ! اي أزعر انت !

كان بلانشار يخيفه : ان المحامل تتلامس ، فاذا اراد ان يقرصني او يلقي شعراً يشوّك تحت غطائي ، فليس له الا ان يمد يده . وفكر: لا حظّ لي . يجب ان ابقى على حذر طوال الرحـــلة . وتنهد ولاحظ انه كان ينظر الى السقف ، كان جداراً كبيراً مظلماً ، مقنفذا بالمسامير المثناة . وكان قد ادار مرآته نحو الخلف ، فكانت المرآة سوداء كصفيحة من الزجاج المدخن . وتحامل شارل قليلاً ، والقى حوله نظرة . كانوا قد تركوا باب الممرات مفتوحاً على مصراعيه ، وكان نور ابيض يزبد في القــاطرة ؛ راكضاً عــلى الاجسام المتمددة ، مجعداً الأغطية، مصفّراً الوجوه . ولكن المنطقة المضاءة كانت محددة تماماً باطار الباب ؛ اما الى اليمين واليسار ، فكان الظلام شبه تام . يا للأردياء ! لا بد انهم رشوا الحمالين ، وسوف يستمتعون بالهواء كله ، وبالضياء كله ؛ واذا تحاملوا على مرافقهم بين الفينة والفينة ، رأوا شجرة تمرّ . واسترخى، مجهداً ، وكان قميصه مبلّلاً . ليت بالامكان ان نذهب على الاقل ؛ ولكن القطار كان باقياً هناك ،مهجوراً ، تكتنفه الشمس من كل جانب ؛ وكانت رائحة غريبة – قش عفن وعطر هوبيغان – تأسن على الأرض، وقد اطال عنقه ليتجنبها ، لأنها كانت تعطيه الرغبه في التقيؤ ، ولكن العرق أغرقه ، فاستسلم للأمر ، وعاد مستنقع الرائحة يتشكل فوق انفه، وفي الخارج ، كان ثمة خطوط حديدية ، والشمس ، وحافلات فارغة على طرق للمراتب ودوّامات من الغبار بيضاء : الصحراء . ثم ابعــد من ذلك : كان الأحد : أحدٌ في « بيرك » : أطفال يلعبون على الشاطيء،

وعائلات تتناول القهوة بالحليب في المقاهي . وفكر : هذا طريف ، هذا طريف . وارتفع صوت من طرف الحافلة الآخر :

— دنيس ! هو ، دنيس !

فلم يجب احد .

— موريس ، هل انت هنا ؟

وساد صمت ، ثم ختم الصوت قائلاً .

— القذرون !

قطع الصمت . وأنّ أحدهم بالقرب من شارل :

— ما اشد الحر !

فأجاب صوت ممتقع مخنّ ، صوت مريض كبير :

— سيتحسّن الوضع عما قليل ، حين ينطلق القطار .

وكانوا يتحادثون على غير بصيرة ، من غير ان يعرف بعضهم بعضاً . وقال احدهم بضحكة صغيرة :

— على هذا النحو ، يسافر الجنود .

ثم سقط الصمت من جديد . الحر ، الصمت ، الضيق . ورأى شارل فجأة ساقين جميلتين في جوربين من الخيط الابيض ، وصعد نظره الى قميص ابيض : كانت هي الممرضة الجميلة . لقد صعدت لتوّها الى الحافلة ، وكانت تمسك حقيبة في يد، وكرسياً يُطوى في الاخرى، وكانت تجيل حولها نظرة مغيظة ، وقالت :

— ان هذا جنون ، هذا جنون محض !

فقال صوت خشن كان يصدر عن الخارج : ماذا ؟ ماذا ؟

— لو كنتم قد فكرتم دقيقة واحدة ، فربما أدركتم انه ينبغي الا يوضع الرجال مع النساء .

— لقد وضعناهم كما حملوهم الينا .

— وكيف تريدون ان اعتني بهم ، وبعضهم امام البعض ؟

— كان ينبغي ان تكوني هنا ساعة صعدوا بهم .

ـ لا استطيع ان اكون في كل مكان في آن واحد . كنت منهمكة بتسجيل الامتعة .

قال الرجل : ـ اية فوضى !

ـ بوسعك ان تقول ذلك .

وساد صمت ثم استطردت :

ـ ارجو ان تتفضل بدعوة رفاقك ، فسوف ننقل الرجال الى حافلات الذنب .

ـ تستطيعين ان تضربي نفسك ! هل انت التي ستدفعين اجرة العمل الاضافي .

قالت الممرضة بجفاف : ـ أرفع شكوى .

قال : ـ حسناً . ارفعي شكوى يا جميلتي . انني انا أبعصك ، أتفهمين ؟

فهزت الممرضة رأسها واستدارت ؛ سارت بحذر بين الاجسام ثم اقبلت تجلس على كرسيها ، غير بعيدة عن شارل ، على حافة المستطيل المضيء . وقال بلانشار :

ـ هو ، شارل !

فقال شارل مرتعشاً : ـ ماذا ؟

ـ توجد هنا اناث .

فلم يجب شارل . وقال بلانشار بصوت مرتفع :

ـ كيف تراني افعل اذا اردت ان أخرأ ؟

فاحمر شارل غضباً وخجلاً ، ولكنه فكر في الشعر الذي يشوك ، واطلق ضحكة صغيرة مشاركة .

وندت حركة على الارض ، انهم بلا شك اشخاص يلوون رؤوسهم ليروا اذا كانت لهم جارات . ولكن كان لون من الانزعاج يثقل إجمالا على الحافلة . وتمددت الهمسات وانطفأت ... «ماذا تراني أفعل اذا اردت

ان أخرأ ؟ » كان شارل يحس نفسه قذراً ، في داخله ، رزمة من الامعاء اللزقة المبتلة : اي عار اذا كان ينبغي ان نطلب المبولة امام الفتيات . وأغلق على نفسه ، وفكر : « سأقاوم حتى النهاية » وكان بلانشار يتنفس بقوة ، وكان صوته يحدث موسيقى صغيرة بريئة ، يا إلهي ، ليته يستطيع ان ينام . وأخذت شارل لحظة أمل ، فأخرج سيكارة من جيبه واشعل عوداً ، وسألت الممرضة :

— ما هذا ؟

وكانت قد وضعت نسيجاً على ركبتيها ، وكان شارل يرى وجهها الغاضب ، عالياً جداً وبعيداً جداً فوقه ، في ظل ازرق . وقال :

— انني اشعل سيكارة .

وبدا له صوته غريباً ومبتذلاً ، فقالت :

— اوه لا ، لا : ان التدخين هنا ممنوع .

ونفخ شارل على العود وتلمّس فيما حوله بأطراف أصابعه : فالتقى بين غطائين بلوحة رطبة وخشنة حكها بظفره قبل ان يضع عليها العود الخشبي الذي احترق نصفه ؛ وفجأة اذعره هذا التماس ، فردّ يديه الى صدره وفكر : انني على سطح الارض ، على سطح الارض تحت الطاولات والكراسي . تحت اكعاب الممرضات والحمالين ، مسحوقاً ، مختلطاً نصف إختلاط بالوحل والقش ، تستطيع جميع الهوام التي تركض في شقوق الارض الخشبية ان تتسلق بطنه . وحرك ساقيه ، وسحب كعبيه على المحمل . بهدوء ، حتى لا يوقظ بلانشار . كان العرق يسيل على صدره ؛ وأعاد ركبتيه تحت الغطاء . ان هذه التنملات القلقة في الفخذين والساقين ، وهذه التمردات العنيفة المبهمة لجسمه كله كانت قد عذبته بلا انقطاع ، في اول عهده ببيرك : ثم هدأت : كان قد نسي ساقيه ، ووجد من الطبيعي ان يُدفع ويدحرج ويحمل ، كان قد اصبح شيئاً . وفكر في ضيق : « ان ذلك لم يعود . يا إلهي ، اترى ذلك سيعود ؟ »

ومد ساقيه واغمض عينيه . كان ينبغي ان يفكر : لست الا حجراً ، لست قط الا حجراً . وانفرجت يداه المتشنجتان ، واحس جسمه يتحجر رويداً رويداً تحت الغطاء . حجر بين الاحجار .

وانتصب منتفضاً ، وعيناه مفتوحان ، وعنقه متصلب : لقد حدثت رجة وضجة وتدحرج رتبب ، مهدّيء كالمطر ، : لقد تحرك القطار ، وكان يمر محاذياً شيئاً ما ؛ وكان في الخارج اشياء صلبة مثقلة بالشمس تنسرب ازاء الحافلات : كانت ظلال غير متميزة ، بطيئة اولاً ثم متسارعة شيئاً فشيئاً ، تركض على الجدار المضيء في مواجهة الباب المفتوح ، فكأنها شاشة سينما ، واصفر الضوء على الجدار قليلا ثم ارمد وحدث بعد ذلك انفجار : « خرج القطار من المحطة » . وكان شارل يحس بألم في رقبته ، ولكنه كان يستشعر بعض الهدوء ؛ فعاد الى الاضطجاع ، ورفع ذراعيه وادار مرآته تسعين درجة . وكان يرى اذ ذاك ، في زاوية المرآة اليسرى ، قطعة من المستطيل المضيء . وكان ذلك يكفيه : كانت تلك المساحة الملتمعة تعيش ، وكانت منظراً برمته؛ كان الضوء يرتجف تارة ويصفر ، كما لو انه سيتلاشى ، وكان تارة اخرى يقسو فيستمر ويتخذ هيئة طلاء طيني احمر ، ثم انه كان يرتعش برمته بين وقت وآخر اذ تلم به تموجات مائلة كأنما الريح تجعدها . وقد نظر اليه شارل طويلاً : فأحس بعد فترة انه قد تحرر ، كما لو انه جلس على درجة الحافلة ، فدلى ساقيه وراح ينظر الى الاشجار والحقول والبحر تترى . وتمتم :

— بلانشار .

لا جواب . وانتظر لحظة وهمس :

— هل تنام ؟

فلم يجب بلانشار . وارسل شارل تنهُّدة رضى صغيرة ثم تبسّط وتمدد تماماً ، من غير ان ينتزع بصره عن المرآة . انه ينام ، انه ينام،

وحين دخل ، لم يكن يتماسك في وقوفه ، وقد تداعى للسقوط على المقعد الخشبي ، ولكن عينيه كانتا قاسيتين ، وكانتـا تقولان : لن تتغلبوا علينا . وقد طلب قهوته بلهجة سيئة جداً ، ان هناك من يأخذ الخدم هكذا كالاعداء ، شبان صغار : يظنون ان الحياة صراع ، لقد قرأوا ذلك في الكتب ، فهم لذلك يصارعون في المقـاهي ، فيطلبون كأساً من شراب الرمان وهم يحدجونك بنظرة جديرة بان ترعشك .

قال فليكس : ــ مقلوب واحد ، واثنان صيني للسطيحة .

فضغطت على الزر وادارت المحرك . وغمزها فليكس واومأ الى الشاب القصير الذي كان نائما . ليس هو صراعاً ، وانما هو مستنقع ، فما ان يفعل المرء حركة ، حتى يغرق ، ولكنهم لا يعرفونه على الفور . فهم يضطربون كثيراً في السنوات الاولى ، وهذا هو السبب في انهم يهبطون هبوطاً اسرع ، وقد حدث لي ذلك ، حدث لي ذلك ، اما واني الآن عجوز فاني ابقى هادئة ، وذراعاي ملتصقتان بجسمي ، فانا لا اتحرك ، ان من يبلغ عمري لا يغرق بعد ابداً . كان نائماً ، فاغر الفم ، وكان فكه يتدلى على صدره ، ولم يكن بعد جميلاً على الاطلاق ، وكانت جفونه المتورمة الحمراء وانفه الاحمر تجعله شبيهاً بخروف . اما انا ، فقد حزرت فوراً حين رأيته داخـلا الى القاعة الفارغة ، كأنه اعمى ، والشمس في الخارج ، وجميع هؤلاء الزبائن على السطيحة ، فقلت في نفسي : ان عنده رسالة يريد ان يكتبها ، او انه ينتظر امرأة ، او ان هناك شيئاً ما محطماً . ورفع يده الطويلة الصفراء ، فطرد الذباب من غير ان يفتح عينيه . لم يكن ثمة ذباب . انه مهموم حتى في نومه ، ان الهموم تلاحقك في كل مكان ، كنت جالسة على المقعد ، وكنت انظر الى الخطوط الحديدية والى النفق ، وكان عصفور يغني ، وكنت انا ملأى ، حبلى ، مطرودة ، ولم تكن لدي بعد عيون حتى ابكي ، ولا مال في حقيبتي ، تذكرتي فحسب ، وقد

نمت ، وحلمت بأنهم يقتلونني ، وانهم كانوا يشدون لي شعري ويصفونني بالفاجرة ، ثم جاء القطار فصعدت اليه . اقول تارة انه سيحصل على منحته ، فهو عامل مسن عاجز ، ولا يمكن ان تمنع عنه هذه المنحة ، واقول تارة اخرى انهم سيتدبرون أمرهم كي لا يعطوه إياها ، فهم قساة ؛ انني هنا ، وانا عجوز ، لا اتحرك بعد ، ولكني افكر : انه يلبس ثياباً تشبه ثياب الشباب ، ولا شك في ان له أماً تعنى بشؤونه ، ولكن حذاءه ابيض من الغبار ، فماذا تراه قد فعل ؟ وماذا جرّ ؟ ان الدم يشتغل لدى الشبان ، ولو انه قد قال لي اضربي ، لقتلت ابي وامي ، فكم يمكن للمرء ان يكون عنيداً ، واذا قتل عجوزاً ، امرأة في سني ، فسوف يعتقلونه ، انه غير قوي ، وربما جاؤوا يحشرونه هنا ، وسوف تنشر « الماتان » صورته ، فيرى النـاس وجهاً صغيراً قذراً لأليف مواخير لا يشبهه ابداً ، وسيكون ثمـة من يقول ان له وجهاً جديرا بان يفعل هذا : حسناً ، اما انا فأقول لكي ندينهم ، فيجب الا نكون قد نظرنا اليهم عن كثب ، لأننـا حين ننظر اليهم يغرقون كل يوم اكثر فاكثر ، نفكر بأنه ليس ثمة من يستطيع شيئاً ، وانه سيان بعد ذلك ان يأخذ الانسان قهوة بالحليب على سطيحة مقهى او ان يقتصد ليشتري بيتاً او ليقتل امه . وكان التلفون يدق ، فانتفضت وقالت :

— آلو ؟

— اريد ان اتحدث الى السيدة كوزان :

قالت : — انا هي . ماذا ؟

قال جولو : — لقد رفضوا اعطائي المنحة :

قالت — ماذا ؟ ماذا ؟

— لقد رفضوا اعطائي المنحة .

— ولكن هذا غير ممكن .

— لقد رفضوها .
— ولكن رجل عاجز ، عامل قديم ، ماذا قالوا لك ؟
— قالوا ان ليس لي حق بها .
قالت : — اوه ! اوه !
قال جولو : — الى هذا المساء .
واعادت السّماعة . لقد رفضوا منحه اياها : رجل عاجز ، عامل مسن ، وقالوا له انه لا حق له فيها ، وفكرت : اراني الآن سأغضب . كان الشاب يشخر ، وكانت هيئته هيئة بلهاء متكلفةّ وخـرج فليكس حاملا القدحين الصينيين والشراب الاسود ، ودفع الباب فدخلت الشمس وشعت المرآة فوق النائم ، ثم انغلق الباب ، وانطفأت المرآة ، وبقيـا وحدهما معاً . ماذا فعل ؟ اين تراه قد ذهب ؟ ماذا يحمل في حقيبته ؟ سوف يدفع الآن : طوال عشرين سنة ، طوال ثلاثين سنة ، الا ان يقتل في الحرب ، يا للشاب المسكين ، لقد بلغ سن الذهـاب . انه ينام ويشخر ، وانه لمهموم ، وعلى السطيحة يتحدث الناس عن الحرب ولن يعطى زوجي منحته . وقال : آه ! الشفقة والرحمة ، الرحمة لنـا نحن الناس المساكين !
وصاح الشاب : — بيتو !
كان قد استيقظ منتفضاً ، ونظر اليه لحظة ، وعيناه ورديتـان ، وفمه فاغر ، ثم صفق فكيه ، وقرص شفتيه ، وكان يبـدو عليه الذكاء والرداءة .
— غارسون !
ولم يكن فيليب يسمع ، كانت تراه ، على السطيحة ، وكان يروح ويغدو ، ويأخذ الطلبات . وفقد الشاب اطمئنانه ، فضرب الطاولة وهو يدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار كأنه مطـارَد . واشفقت عليه ، فقالت له :

ـ عشرون فلساً ، من فوق الصندوق .

ورماها بنظرة حقد ، وألقى قطعة من خمسة فرنكات على الطاولة ، وتناول حقيبته ومضى وهو يعرج . والتمعت المرآة ، فدخلت القـاعة موجة من الصراخ والحرّ : دخلت الوحـــدة . ونظرت الى الطارلات والمرايا والباب . جميع هذه الاشياء المفرطة الالفة التي لم تكن تستطيع بعد ان تمسك أفكارها . وقالت في نفسها : « سيبدأ الامر ، وسوف يثور غضبي » .

لُطِّخ بالنور . كان ثمة من يصوب عليه ، من جانب ، مصباح جيب ، فأدار رأسه وهمهم . وكان المصباح يطفو على سطح الأرض ، فأخذ يطرف بعينيه . كان وراء هذه الشمس عين هادئة حـاقدة تنظر اليه ، وكان هذا غير مقبول . فقال :

ـ ما هذا !

قال صوت مغنٍ : ـ انه هو :

امرأة . ان الرزمة المتطاولة ، الى يميني ، هي امرأة . وشعرت لحظة بالرضى ، ثم فكر في غضب بأنها قد أضاءته كأنه شيء ، لقد أمرّت ضوءها عليّ كما لو كنت جداراً . وقال بجفاء :

ـ انني لا اعرفك .

قالت : ـ لقد التقينا مراراً .

وانطفأ المصباح . وظل مبهوراً ، ودوائر بنفسجية تدور في عينيه.

ـ لا استطيع ان اراك .

قالت ـ اما أنا ، فأراك : حتى بلا المصباح ، أراك .

كان الصوت فتياً وجميلا ، ولكنه كان هو على حذر . وردّد

ـ انني لا اراك ، فقد بهرتني .

قالت بزهو ـ انني ارى في الليل :

ـ هل انت مُغربة ؟

فأخذت تضحك :
- مغربة ؟ ان عيني ليستا حمراوين ولا شعري ابيض ، ان كان هذا ما تقصده .
وكانت لها لهجة واضحة تضفي على جميع عباراتها جرساً استفهامياً :
- من انت ؟
قالت : - آه ، إحزر : ليس الأمر صعباً جداً : لقد التقيت بي أمس الاول فقط ، فرميتني بنظرة حقد .
- حقد ؟ انني لا أحقد على أحد .
قالت : - اوه ، بلى ! بل انا اظن انك تحقد على جميع الناس .
- انتظري ! الم يكن على كتفيك فرو ؟
وكانت ما تزال تضحك ، فقالت :
- مُدّ يدك : إلمس .
ومدّ ذراعه ، فلمس كتلة ضخمة لا شكل لها : وكان ذلك فرواً ، وكان تحت الفرو بالتأكيد أغطية ورزم من الثياب ، ثم الجسم الابيض الرخو ، بزّاقة في صدفتها . لا بد انها كانت تشعر بالحر الشديد !
ولامس الفرو قليلاً ، فانبعث منه عطر فاتر ثقيل : هذا اذن هو الذي كان يُشَم منذ لحظة : وكان يلامس الفرو على عكس الزغب ، وكان مسروراً . وقال بلهجة المنتصر :
- انت شقراء . انك تلبسين أقراطاً من ذهب .
فضحكت واضاءت المصباح من جديد . ولكنها كانت قد ادارته هذه المرة الى وجهها بالذات ، وكان ارتجاج القطار يهز المصباح في يدها ، وكان الضوء يصعد من الصدر حتى الجبين ، ويلامس شفتين مصبوغتين ويذهّب زغباً خفيفاً اشقر ، عند زاوية الشفتين ، ويكسب المنخرين بعض الاحمرار ، وكانت الجفون الملوية المسوّدة تنتصب كأرجل صغيرة فوق الاجفان المقبّبة ، فكأنها حشرتان مقلوبتان على ظهرهما ، كانت شقراء ، وكان شعرها يزبد في سحابةٍ خفيفةٍ حول رأسها ، وأحس

بضربة في قلبه . وفكر : انها جميلة ؛ وسحب يده فجأة .
ـ لقد عرفتك . كان ثمة دائماً رجل مسنّ يدفعك ، وكنت تمرّين من غير ان تنظري الى احد .
ـ كنت انظر اليك جيداً ، من خلال جفوني .
ورفعت رأسها قليلا ، فعرفها تماماً ، وقال :
ـ لم اكن لأظن قطّ أنه كان بوسعك ان تنظري اليّ . كان يبدو عليك الغنى الشديد ، وكنت تبدين فوقنا بدرجات ، وكنت احسبك نازلة في نزل « بوكير » .
قالت : ـ كلا ، بل كنت في « مونشاليه »
ـ لم اكن اتوقع ان اجدك في قاطرة للدواب .
وانطفأ الضوء وقالت :
ـ انني فقيرة جداً .
ومد يده وضغط بلطف على الفرو :
ـ وهذا ؟
فضحكت :
ـ هذا كل ما يبقى لي .
وكانت قد دخلت في الظلام من جديد . رزمة ضخمة ، مظلمة وبلا شكل . ولكنه كان ما يزال يحتفظ بصورتها في عينيه . وردّ يديه كنتيهما الى بطنه وأخذ ينظر الى السقف. كان بلانشار يشخر بهدوء وكان المرضى قد اخذوا يتحدثون فيما بينهم ، كل اثنين ، او كل ثلاثة ، وكان القطار يجري وهو يئن . كانت فقيرة ومريضة ، وكانت ممددة في حاملة للدواب ، وكانوا يلبسونها ثيابها وينزعون ثيابها كاللعبة ، كانت جميلة ، جميلة كنجمة سينمائية . بالقرب منه كل هذا الجمال المهان ، هذا الجسم النقي الملطّخ . كانت جميلة . كانت تغني على المسارح ، وكانت قد نظرت اليه من بين جفونها ، ورغبت في التعرّف

اليه . كان الامر كما لو انهم اوقفوه من جديد ، على قدميه الاثنتين. وسألها فجأة :

ـ هل كنت مغنيّة ؟

ـ مغنيّة ؟ كلا . بل أحسن العزف على البيانو .

ـ كنت احسبك مغنية .

قالت : ـ انني نمساوية . وكل مالي هناك ، بين ايدي الالمان . لقد تركت النمسا بعد الانشلوس .

ـ وهل كنت مريضة آنذاك ؟

ـ كنت فوق لوحة . وقد صحبني اهلي في القطار . في يوم شبيه بهذا اليوم ، ولكن الجو كان مشرقاً . وكنت ممددة على مقعد في الدرجة الاولى . وكان فوقنا طائرات المانية ، وكنا نظن دائما انها ستلقي قنابل . كانت امي تبكي ، وكنت انا مرفوعة الرأس وكنت اشعر بالسماء تثقل عليّ عبر السقف . انه آخر قطار تركوه يمرّ .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ جئت الى هنا . امي موجودة في انكلترا ، فيجب ان تكسب لنا القوت .

ـ وذلك السيد المسنّ الذي كان يدفعك ؟

فقالت بقسوة : ـ انه ابله عجوز .

ـ انت اذن وحدك ؟

ـ وحدي .

وردّد :

ـ وحدك في العالم .

وشعر بأنه قويّ وقاس كشجرة سنديان .

ـ ومتى عرفت انني أنا ؟

ـ حين حككت عود ثقابك .

ولم يكن يريد ان يستسلم لفرحه . لقد كانت هـناك في الحفظ ، موازنة وغير مميّزة ، شبه متروكة ، كانت هي التي تضفي على صوته هذا الاهتزاز الحامز ، ولكنه كان يحفظها لليل ، وكان يريد ان يستمتع بها وحده .

— هل رأيت النور على الجدار ؟

قالت : — نعم ، لقد نظرت اليه طوال ساعة .

— انظري ، انظري ، هذه شجرة تمرّ .

— او عمود تلغراف .

— القطار لا يسير بسرعة .

قالت : — نعم . هل انت مستعجل ؟

— لا ، فلسنا ندري اين نحن ذاهبون .

قالت بجذل : — طبعاً لا .

وكان صوتها يرتجف ايضاً . وقال :

— في الحقيقة ، لسنا هنا في وضع سيء جداً .

قالت : — هناك نسيم . ثم ان هذه الظلال التي تمرّ تُسلّي .

— هل تذكرين اسطورة الغار ؟

— لا ، ما هي اسطورة الغار ؟

— انهم عبيد موثقون في جوف غار ، وهم يرون ظلالاً على جدار.

— ولماذا اوثقوهم هناك ؟

— لا أدرى . ان افلاطون هو الذي كتب ذلك .

قالت بلهجة مبهمة : — آه ! نعم ! افلاطون .

وفكر في سُكر : « سأعلّمها من هو افلاطـون » وكان يُحس ببعض الألم في بطنه ، ولكنه كان يتمنى الا تنتهي الرحلة .

هز جورج مقبض الباب . وكان يرى عبر الزجاج رجلاً طويلاً ذا شارب ، وامرأة شابة ذات غلالة معقودة حول رأسهـا كانت تغسل

الصحون والاقداح خلف مشرب خشبي . وكان ثمة جندي يأخذه النعاس امام طاولة ، وشد جورج بعنف على المقبض فاهتز الزجاج . ولكن الباب لم ينفتح . ولم يكن يبدو على المرأة والرجل انهما يسمعان .

ـ لن يفتحوا .

والتفت : كان ثمة رجل سمين ناضج ينظر اليه مبتسماً . وكان يرتدي معطفاً أسود فوق بنطلون عسكري ، وطاقات ، وقبعة طرية وياقة مكسورة . فأراه جورج اللوحة : « المحل يفتح الساعة الخامسة» وقال :

ـ انها الساعة الخامسة وعشر دقائق .

فهز الآخر كتفه . وكان مزمار ضخم ذو قربة يثقل على جنبه الايسر ، وقناع « واق » على جنبه الايمن ، وكان يباعد ما بين ذراعيه ويرفع مرفقيه في الهواء .

ـ يفتحون حين يشاءون .

كانت ساحة الثكنة غاصة بالرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الشباب والكهولة والذين كانوا يبدون ضجرين . وكان ثمة كثيرون منهم يتنزهون وحدهم ، وهم ينظرون الى الارض . وكان بعضهم يرتدون معطفاً عسكرياً ، وبعضهم بنطلوناً كاكياً ، بينما كان البعض الآخر في ثياب مدنية واحذية جديدة تصفق ارض الساحة المعبدة . وكان ثمة رجل طويل كان من حظه انه حصل على بذلة كاملة ، يسير بتفكر ، ويداه في جيوب معطفه العسكري، وقبعته على اذنه . وشق ملازم هذه الجموع ، واتجه بسرعة نحو الحانوت . وسأل السمين القصير وهو يشد على سيور مزماره ليدفعه خلف ظهره :

ـ الم تذهب لتحصل على ثياب ؟

ـ انهم لا يملكون بعد شيئاً .

وبصق الرجل بين قدميه :

– اما انا فقد أعطوني هذا . واني لأختنق في داخله ، والانسان يكاد يموت في هذه الشمس . اية فوضى !

وأشار جورج الى الضابط :

– هل نسلم عليه ؟

– بمَ نسلم عليه ؟ انني لا استطيع على اي حال ان ارفع له قبعتي .

وألمّ بها الضابط من غير ان ينظر اليها . فتابع جورج بعينيه ظهره الهزيل ، فأحس نفسه منهكاً . كان الحر شديداً ، وكان زجاج الابنية العسكرية مطلياً بالازرق ، وكان خلف الجدران البيضاء طرق بيضاء ، وساحات للطيران ، خضراء على مدى النظر تحت الشمس ، وكانت جدران الثكنة ترسم في وسط الحقول ساحة صغيرة جرداء مغبرة يدور فيها رجال متعبون كما لو انهم يدورون في شوارع مدينة . كانت تلك هي الساعة التي تشق فيها امرأته النوافذ ، فتدخل الشمس الى قاعة الطعام ؛ كانت الشمس في كل مكان ، في البيوت والثكنات والارياف ، وقال في نفسه : « الامور دئما متشابهة . » ولكنه لم يكن يعرف على الضبط ما هو متشابه . وفكر في الحرب فلاحظ انه لم يكن يخشى ان يموت . وصفر قطار في البعيد ، فأحس كما لو ان هناك من كان يبسم له ، وقال :

– اسمع .

– ما هذا ؟

– القطار .

فنظر اليه السمين القصير من غير ان يفهم ، ثم سحب منديلاً من جيبه وبدأ يمسح جبينه . وصفر القطار ثانية . كان يجري مليئاً بالمدنيين وبالنساء الجميلات وبالاولاد ، وكانت الأرياف تنسرب وديعة ، عبر الزجاج . وصفر القطار وأبطأ ، فقال شارل :

ـ سوف يقف .

وصرّت المحاور فتوقف القطار ، وسالت الحركة من شارل ، فظلّ جافاً وفارغاً كما لو انه فقد دمه ، فكان ذلك موتاً صغيراً . وقال :

ـ لا احب ان تقف القطارات .

وكان جورج يفكر في قطارات المسافرين التي تتجه الى الجنوب ، نحو البحر ، وفي البحر ، وفي مقصورات بيضاء على شاطيء البحر ، وكان شارل يجس العشب الاخضر الذي كان ينمو تحت الخشب ، بين الخطوط الحديدية ، كان يشعر من خلال الصفائح الحديدية ، وكان يرى فوق المستطيل المضيء الذي يرتسم على الحاجز حقولاً خضراء على مدى النظر ، وكان المرج قد اخذ القطار ، كما تأخذ كتاة الجليد باخرة ، وكان الريف يخترق القطار الجامد من طرفيه . وكان القطار الذي سقط في الشرك يصفر ، يصفر بنواح ، وكان الصفير البعيد يمتد بشاعرية ، وكان القطار يجري على مهل ، وكان رأس جار موريس يهتز في ياقته الباجية ، وهو رجل سمين تنبعث منه رائحة الثوم ؛ وكان قد غنّى « الانترناسيونال » منذ بدء الرحلة وشرب لترين من الخمر . وانتهى به الأمر الى الاستسلام على كف موريس وهو يهدل . وكان موريس يشعر بالحر الشديد . ولكنه لم يكن يجرؤ على التحرّك ، فقد كان قلبه على شفتيه بسبب هذا الحر والخمر الابيض والشمس البيضاء التي كانت تعميه عبر الزجاج المغبر ، وكان يفكر : « اود لو اكون قد وصلت » . ودغدغه عيناه ، واصبحتا كبيرتين قاسيتين ، فأغمض جفونه ، وكان يسمع دمه يضجّ في اذنيه ، وكانت الشمس تخرق جفنيه ؛ وكان يشعر بقدوم نوم ابيض برشح عرقاً ويعمي النظر ، وكان شعر الرفيق يدغدغ عنقه وذقنه ، كان ذلك بعد ظهر احد لا امل فيه. واخرج الرجل السمين صورة من محفظه وقاله.

ـ هذه امرأتي :

وكانت امرأة بلا سنّ ، كهاتيك اللواتي نراهن في الصور ، ولم يكن ثمة ما يُقال عنها .

فقال جورج :

— ان صحتها جيدة .

قال الرجل : — انها تأكل كأربعة .

وكانا جالسين احدهما مقابل الآخر ، مترددين . ولم يكن جورج يشعر بالودّ لهذا الرجل الضخم المحمر الذي كان يلهث وهو يتكلم ، ولكن كانت لديه رغبة بان يريه صورة ابنته .

— متزوج ؟

— نعم .

— اولاد ؟

فنظر اليه جورج من غير ان يجيب ، وهو يقهقه قليلاً . ثم وضع يده فجأة في جيبه ، وأخرج محفظته فتناول منها صورة مدّها له وهو يخفض عينيه :

— هذه ابنتي .

قال الرجل وهو يأخذ الصورة :

— ان لديك حذاء عالياً جميلا . وسوف يخدمك طويلا .

قال جورج في مذلّة :

— ان قدميّ مصابتان بالكنَب . اتعتقد انهم سيتركون لي الحذاء ؟

— سيكونون مسرورين اكثر مما ينبغي ، فربما لم يكن لديهم احذية للجميع .

ونظر لحظة اخرى الى حذاء جورج ، ثم انصرف عنه على مضض ، ورمى بصره على الصورة . وشعر جورج انه كان يحمرّ . وقال الرجل :

— ما اجمل هذه الطفلة ! كم وزنها ؟

قال جورج — لا ادري .

وكان يتأمل في ذهول هذا الرجل الضخم الذي كان يمسك بالصورة بين اصابعه ويُسقط عليها نظره الذي يُحيل الألوان . وقال :
ـ حين اعود ، فلن تعرفني .
قال الرجل : ـ هذا ممكن . الا اذا ...
قال جورج : ـ نعم ، الا اذا ...
سأل سارو : ـ واذن ؟ هل اذهب ؟
كان يقلّب الورقة بين اصابعه . وكان دلادييه قد برى عود ثقاب بسكينــه ودسه بين سنّين . وكان متراكماً فوق كرسيه ، مثنياً ، لا يجيب . وردد سارو :
ـ هل اذهب ؟
قال بونيه على مهل : ـ انها الحرب . والحرب الخاسرة .
فارتعش دلادييه وألقى على بونيــه نظراً ثقيلا ، فاحتمله بونيه في براءة بعينيه الفاتحتين اللتين لا اعماق لهما . وكان شامبوتيه دوريبس ورينو واقفين في الخلف ، صامتين وغير موافقين . واسترخى دلادييه تماماً ، وتمتم بحركة مائعة :
ـ اذهب .
فنهض سارو وخرج من القاعة ، وهبط السلّم وهو يفكر انه كان مصاباً بالصداع . كانوا جميعاً هناك ، فصمتوا لرؤيته وانتحلوا هيئتهم المهنية . وفكر سارو : « اية عصابة من البُلهاء ! » . وقال:
ـ سأقرأ عليكم البلاغ .
فحدثت ضجة ، وانتهزها ليمسح نظارتيه ، ثم قرأ :
« ـ استمع مجلس الوزراء الى تقارير السيد رئيس الوزارة ، والسيد جورج بونيه عن المذكرة التي سلّمها مستشار الريخ الى السيد تشمبرلن ، وقد وافق بالاجماع على التصريحات التي ينوي السيدان ادوار دلادييه وجورج بونيه حملها الى الحكومة الانكليزية في لندن » .

فكر شارل : « اريد ان أغوّط » وحدث ذلك فجأة : لقد امتلأ بطنه حتى ليفيض .

قال : — نعم ، نعم . اني من رأيك . نعم .

كان الصوتان يرتفعان متوازيين ، هادئين . وقد ود لو يلتجيء برمته الى صوته ، فلا يكون الا صوتاً ثقيلا بالقرب من الصمت الجميل ، المغنّي ، الاشقر . ولكنه كان اولا ذلك الحر ، وذلك القلق الخافق ، وتلك الرزمة من المواد المبلّلة التي كانت تقرقر في امعائه . وساد صمت ؛ كانت تحلم بالقرب منه ، ناضرة ثلجية ؛ ورفع يده في حيطة وأمرّها على جبينه اللزج ، وأنّ فجأة « هان ! »

— ماذا هناك ؟

فقال : — لا شيء . انه جاري الذي يشخر .

وكان شيء قد أخذه من بطنه كضحكة مجنونة ، هذه الرغبة المبهمة العنيفة في ان ينفتح ، وان يمطر من تحت ؛ وكانت فراشة مهووسة تخفق جناحيها بين أليتيه . وشد أليتيه فسال العرق على جبينه ، وجرى نحو اذنيه وهو يدغدغ خديه . وفكر مذعوراً : « سأفلت كل شيء »

وقال الصوت الاشقر : — اراك لا تقول شيئاً بعد .

فقال : — اني .. كنت اتساءل .. لماذا انت راغبة في التعرف اليّ ؟

قالت : — ان لك عينين جميلتين متعجرفتين . ثم اني كنت اريد ان اعرف لماذا كنت تكرهني ؟

وحرك جنبيه قليلا ليخدع حاجته ، وقال :

— كنت اكره جميع الناس لأني كنت فقيراً . ان لي مسلكاً لئيماً.

وكان الامر قد افلت منه تحت تأثير رغبته ؛ لقد انفتح من فوق ؛ من فوق او من تحت ، كان لا بد له من ان ينفتح . وردد وهو يلهث:

— مسلك لئيم . فانا حسود .

ولم يكن قد قال مثل ذلك قط ، لأي انسان . ولامست يده بطرف

اصابعها :

– لا تكرهني : فانا ايضاً فقيرة :

فجالت دغدغةٌ في قضيبه . ولم يكن ذلك بسبب الاصابع الهزيلة الحارة على ظاهر يده ، وانما كان ذلك صادراً من مكان أبعد ، من الغرفة الكبيرة العاربة ، على شاطيء البحر . كان يدق الجرس ، فتصل جانين ، وتُبعد الغطاء ، وتدس الطست تحت جنبيه وتنظر اليه يتميّع ، وتأخذ احياناً مستر جك بين السبابة والإبهام، وكان يحب ذلك كثيراً . وها هو الآن قد رُوِّض لحمه جيداً ، فاكتُسبت العادة . كانت جميع رغباته في التغويط مسمـَمة باسترخاء حامز ، برغبةٍ جذلة بان ينفتح تحت نظر . بان ينفغر تحت عيونٍ ممتهنة . وفكر : « هذا انا » وانتـابه الخوف . كان يشمئز من نفسه ، ونفض رأسه فأحرق العرق عينيه . « تُرى ، ألن يسير القطار » . لو عادت الحافلة الى السير ، لخيِّل اليه انه كان يُنتزع من نفسه ، ولكان يخِّف في مكانه رغبته المشتبهة الأليمة ، ولكن يتماسك فترة اخرى . وخنق أنّة جديدة : كان يتألم، وكن يوشك ان يتمزّق كقطعة من قماش ؛ وأغلق في صمت يده على اليد الرقيقة الهزيلة . « يدان من معجون اللوز تأخذان مستر جك في براعة ، فيبتهج مستر جاك مسترخياً ، ورأسه مائلٌ قليلاً ، فتاة تعمل في حانوت لبيع اللحوم تأخذ بين أصابعها مصراناً موضوعاً على سرير مرّقه المجمّد. عارياً ، مشقوقاً ، مرئياً . قشرة منفجرة . إنه الربيع ». فظاعة ؟ كان يكره جانين .

وقال الصوت : – ما أشدّ الحرارة في يديك .

– انني محموم :

وأنَّ احدهم بلطف تحت الشمس ، مريضٌ من المرضى ممدّدٌ باقرب من الباب . ونهضت الممرضة فاتجهت نحوه وهي تتجاوز الأجسام.ورفع شارل ذراعه اليسرى وحرّك مرآته بسرعة ، فالتقطت المرآة الممرضةَ

فجأة ، وهي منحنية على مراهق ضخم ذي خدين احمرين واذنين متباعدتين. وكان يبدو آمراً مستعجلا . ونهضت ثانية وعادت الى مكانها ، فرآها شارل تبحث في حقيبتها ، وواجهتهم وهي تمسك مبولة بين أصابعها . وسألت بصوت مرتفع :

— أليس هناك من راغب ؟ اذا كان هناك من يرغب ، فالأفضل ان يقول في اثناء التوقف لأن ذلك أنسب . والمهم الا تتماسكوا ، ولا يخجل بعضكم امام البعض الآخر . فليس هنا رجال ولا نساء ، ليس هنا الا مرضى .

وأجالت فيهم نظرها القاسي ، ولكن لم يجب احد . وتناول الفتى الضخم المبولة في شراهة واخفاها تحت غطائه . وكان شارل يشد بقوة على يد صديقته . وكان حسبه ان يرفع صوته ، ان يقول : « انا ، انا ، راغب » . وانحنت الممرضة ، فتناولت المبولة ورفعتها . وكانت تلمع في الشمس ، وهي ملأى بماء جميل أصفر ومزبد . واقتربت الممرضة من الباب ، واطلّت الى الخارج ؛ ورأى شارل ظلّها على الحاجز ، وقد رفعت ذراعها ، فبرز على المستطيل المضيء . وكانت تميل المبولة ، فيفلت منها ظلٌّ مائع ذو شرر . وقال صوت ضعيف :

— يا سيدتي .

قالت : — آه ، لقد قررتم ؟ هأنذا قد جئت .

سيستسلمون الواحد بعد الآخر ؛ سوف تتماسك النساء اطول مما يتماسك الرجال . انهم سينتنون جاراتهم ؛ فهل يجرؤون بعد ذلك على محادثتهن ؟ وفكر : « القذرون ! » وحدثت حركة على الارض ، نداءات مهموسة ، خجلة ، كانت ترتفع من جميع الزوايا . وعرف شارل بعض اصوات النساء . وقالت الممرضة :

— انتظروا . لكل دوره .

« ليس هنا الا مرضى » . انهم يحسبون كل شيء مسموحاً به لأنهم

مرضى : لا رجال ولا نساء : وانما مرضى : كان يتألم ، ولكنه كان فخوراً بان يتألم : لن استسلم ؛ انني انا ، رجل . وكانت الممرضة تتنقل بينهم ، وكان يُسمع صوت حذائها يطق على الخشب ، وبين لحظة واخرى ، دعك ورق . وكانت رائحة تفهةٌ حارة تملأ القاطرة، وفكر وهو يتلوّى من العذاب : « لن استسلم » .

قال الصوت الاشقر – يا سيدتي .

وحسب انه لم يسمع جيداً ، ولكن الصوت ردد النـــداء ، وهو خجولٌ يغنّي :

– ياسيدتي ! يا سيدتي ! هنا .

قالت الممرضة – هأنذا .

والتوت اليد الدقيقة الحارة في يد شارل ثم افلتت منه . وسمع طقّة حذاء . كانت الممرضة فوقها ، هائلة قاسية ، ملاكاً . وقال الصوت المبتهل :

– أدرْ وجهك .

ثم همست مرة اخرى . « ادر وجهك » . فادار رأسه ، وود لو يسد اذنيه وأنفه . وغطست الممرضة ، في رفيف هائل لطيورٍ سوداء، فاظلمت منها مرآته . ولم ير بعد شيئاً . وفكر . « هذه مريضة » : ولا بد انها كانت قد ألقت عنها فروها . فقد غطت لحظة عطرٍ كل شيء ، ثم نفذت شيئاً فشيئاً رائحة زنخة قوية افعمت منخريه . هـــذه مريضة ، هذه مريضة ؛ كانت البشرة الجميلة للنساء مشدودة على اعصاب مائعة ، على امعاء متقيّحة . وتردد ، متوزعاً بين الاشمئزاز وبين رغبة قذرة . ثم اقفل على نفسه ، دفعةً واحدة ، فانغلقت احشاؤه كالقبضة ، ولم يشعر بعد بجسمه . هذه مريضة . كانت جميع الرغبات والشهوات قد امحت ، وكان يحسُ نفسه نظيفاً جافاً ، فكأنما قد استعاد صحته كلها . مريضة ، وفكر في حب : « لقد قاومت ما وسعها » ، واندعكت

الورقة ، ونهضت الممرضة ، وكانت بضعة اصوات تناديها من الجهة الاخرى من الحافلة . اما هو ، فلن يناديها ابداً ؛ كان يطفو على بعد بضعة بوصات من الارض ، فوقهم . انه لم يكن شيئاً من الاشياء ، لم يكن طفلاً رضيعاً. وفكر في دقة شديدة جداً حتى ان الدموع ترقرقت في عينيه : « لم تستطع ان تقاوم » وكانت قد كفّت عن الكلام ، ولم تكن تجرؤ بعد على ان توجّه اليه الحديث ؛ انها خجلة . وفكر في حب : « سأحميها » . وقوفاً ، وقوفاً ، منحنياً فوقها ، متأملاً وجهها الشارد العذب . وكنت تلهث قليلا ، في الظل . ومد يده وأمرّها في تلمس على الفرو . وتشنّج الجسم الفتيّ ، ولكن شارل القى يداً فأمسك بها . وقاومت اليد ، فجذبها الى قربه ، وكان يضغط عليها بكل قواه. مريضة . وكان هو هناك ، جافاً وقاسياً ، متحرراً ، سوف يحميها . وسألها :

— ما هو اسمك ؟

قال شمبرلن نافد الصبر : — ولكن ، اقرأ .

فأخذ لورد هاليفاكس رسالة مازاريك وأنشأ يقرأ ؛ وفكر شمبرلن: « لا حاجة به الى قراءتها بلهجتها » وقرأ هاليفاكس :

« لقد درست حكومتي الآن الوثيقة والخارطة . انه انذار « علي » كالانذار الذي يوجــه عادة الى دولة مهزومة ، وليس هو عرضاً على دولة ذات سيادة اظهرت كل الاستعدادات الممكنة للقيام بتضحيات من اجل تهدئة اوروبا . ولكن السيد هتلر لم يُظهر بعد ادنى اثر لمثل هذا الاستعــداد للتضحية . وان حكومتي تعجب من محتوى المذكرة . فالاقتراحات تتجاوز ما اقررناه فيما سمي بالمشروع الانكلو فرنسي . وهي تحرمنا من جميع ضمانات المحافظة على وجودنا القومي . فعلينا ان نتنازل عن قواعد واسعة من تحصيناتنا المعدة بدقة ، وان نترك للجيوش الالمانية ان تدخل الى اماكن عميقة من ارضنا ، قبل ان نكون قد تمكنا من

تنظيمها على اساس جديد. او استطعنا ان نقوم بأقل التجهيزات الدفاعية.
وان استقلالنا الوطني والاقتصادي سيزول آلياً مع تبني مشروع السيد
هتلر . وخطة نقل السكان ستتحول الى ازمة قوية بالنسبة لجميع الذين
لن يقبلوا النظام النازي الالماني . فعليهم ان يتركوا منازلهم حتى من غير
ان يكون لهم الحق بنقل ممتلكاتهم الخاصة ، حتى ولا ابقارهم ، اذا
كانوا من الفلاحين .

« وان حكومتي تتمنى ان اعلن بكل صراحة ان مطالب السيد هتلر
بشكلها الحالي لا يمكن قط ان تكون مقبولة ، وتحس حكومتي
بانها تجاه هذه المطالب الجديدة الطاغية ستلتزم مقاومة عظمى ، وسوف
نفعل ذلك بمعونة من الله . ان امة القديس وانسسلاس وجان هوس
وتوماس مازارياك لن تكون امة عبيد. ونحن نعول على الدولتين الديموقراطيتين
الغربيتين الكبيرتين اللتين تبعتا مشيئتهما ضد اجتهادنا الخاص لتكونا الى
جانبنا في ساعة محنتنا » .

وسأل شمبرلن : — هذا كل شيء ؟

— هذا كل شيء .

قال : — ها نحن ذا اذن امام مصاعب جديدة .

ولم يكن اللورد هاليفاكس يجيب ، وكان واقفاً باستقامة كأنه تمثال ،
متحفظاً محترماً . وقال شمبرلن بجفاء :

— ان الوزراء الفرنسيين قادمون بعد ساعة . وانا اجد هذه الوثيقة
على اقل تقدير ... في غير أوانها .

فسأل هاليفاكس في لهجة تهكم :

— اتعتقد ان من شأنها ان تؤثر على مقرراتهم ؟

فلم يجب الشيخ ، واخذ الورقة بيديه وجعل يقرأ وهو يهمهم. وصرخ
فجأة مغتاظاً :

— الابقار ! ما شأن الابقار هنا ؟ ان هذا اخرق الى حد بعيد ،

قال اللورد هاليفاكس : — لا اجد ذلك اخرق الى هذا الحد . بل لقد تأثرت شخصياً .

قال الشيخ في ضحكة قصيرة .

— تأثرت ؟ اننا يا عزيزي نعالج قضية . والذين سيتأثرون سيخسرون اللعبة .

أقمشة حمراء ووردية وبنفسجية ، أثواب بنفسجية ، اثواب بيضاء ، صدور عارية ، نهود جميلة تحت المنـــاديل ، بقع من الشمس على الطاولات ، أيد ، سوائل لزجة ومذهبة ، أيد اخرى ، افخاذ نابعة من السراويل القصيرة ، اصوات مرحة ، اثواب حمراء ووردية بيضاء ، اصوات مرحة تدور في الهواء ، افخاذ ، فالس « الارملة الطروب » ، رائحة الصنوبر ، رمل حار ، رائحة البحر المعطرة ، جميع جزر العالم غير المرئية والحاضرة في الشمس ، الجزيرة تحت الريح ، جزيرة الفصح ، جزائر ساندويش ، حوانيت فارهة على طول الشاطيء ، مشمع السيدة ذو الثلاثة آلاف فرنك ، الدبابيس ، الزهور الحمراء والوردية البيضاء ، الايدي ، الافخاذ : « الموسيقى صادرة من هنا » ، الاصوات المرحة التي تدور في الهواء ، سوزان ونظامك ؟ آه ، طز ، ولو لمرة . الاشرعة فوق البحر والمتزلجون الذين يقفزون واذرعتهم ممدودة ، من موجة الى موجة ، رائحة الصنوبر في نفحات ، السلام : السلام في جوان ليبان . كان باقياً هناك ، مسترخياً ، منسياً ، يحمز طعمه . وكان الناس يتداعون فيه للاسترخاء ، وكانت اشواك من الالوان وغابات من الموسيقى تخفي عنهم قلقهم الصغير المرتبك ؛ وكان ماتيو يمشي بهينة على ارصفة المقاهي ، وارصفة الحوانيت ، والبحر الى شماله . ولم يكن قطار غوميز ليصل الا في الثامنة عشرة وسبع عشرة دقيقة ؛ وكان ينظر الى النساء ، على مألوف عادته ، والى افخاذهن المسالمة ، والى نهودهن المسالمة . ولكنه كان على خطأ : انه منذ الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة على خطأ :

ففي الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة انطلق قطار الى مارسيليا . اني لست هنا بعد ، فانا في مرسيليا ، في مقهى من مقـاهي جادة « لاغار » انتظر قطار باريس ، انني في قطار باريس . انني في باريس ذات صباح مشمس ، انا في ثكنة ، ادور وادور في باحة الثكنة ، في « ايسي ليناسي » . وفي ايسي ليناسي كف جورج عن الكلام ، لانه كان مضطراً الى رفع صوته جداً ، ورفعوا رؤوسهم ، وكانت الطائرة تلامس السطوح في هدير راعد ، وتابع جورج الطائرة ، فوق الجدران ، فوق السطوح ، فوق نانسي ، في « نيورت » ، كان في نيـورت ، في غرفته مع الصورة ، وفي فمه ذلك المذاق من الغبار . ما عساه يقول لي ؟ سينبثق من القطار ، نشيطاً اسمر كمصطافي جوان ليبان ، انني الآن في مثل سمرته ، ولكن ليس لدي ما اقوله له . كنت في طليطلة ، وفي غواد الاجارا ، وماذا كنت تفعل ؟ كنت اعيش .. كنت في مالاغا ، وقد تركت المدينة مع آخر من تركها ، وماذا فعلت ؟ لقد عشت . وفكر في انزعاج ، آه ، انه صديق ، هذا الذي انتظره ، وليس هو قاضياً على اي حال . كان شارل يضحك ، ولم تكن تقـول شيئاً ، كانت ما تزال خجلة بعض الشيء ، وكان يمسك بيدها ويضحك ، وقل لها في رقة . « ان كاترين اسم جميل » . هو محظوظ ، في آخر المطاف ، فلقد خاض الحرب في اسبانيا ، استطاع ان يشارك فيها ، بلا اسلحة ، بل هناك قنابل وديناميت ضد الدبابات ، اعشاش نسور «سيارا» ، الحب في فنادق مدريد المقفرة ، الدخان الشخصي اليسير في السهل المعـارك الفردية ، ان اسبانيا لم تخسر رائحتها ؛ اما انا ، فتنتظرني حرب حزينة ، حرب احتفالية ضجرة ؛ فضد الدبابات المدافعة ، تقوم حرب جماعية وتكنيكية ، وباء . وكانت اسبانيا هنا ، خطأ يعدو بعيداً على صفحة الماء الزرقاء . وكانت مود مرتفقة المترسة تنظر الى اسبانيا . انهم يقاتلون هناك . وكانت البـاخرة تنزلق في محاذاة الشاطيء ؛

انهم هناك يسمعون المدفع ؛ وكان هدير الموج يُسمع ، وتقفزت سمكة طائرة خارج الماء . كان ماتيو يسير باتجاه اسبانيا ، البحر الى يساره ، وفرنسا الى يمينه . وكانت مود تنزلق في محاذاة الشاطيء ، الجزائر الى يسارها ، وهي محمولة نحو اليمين ، نحو فرنسا . وكانت اسبانيا ذلك النَفَس الملتوي وذلك الضباب . كانت مود وماتيو يفكران في الحرب الاسبانية ، وهذا ما كان يريحها من الحرب الاخرى ، الحرب الجنزارية التي تُعَدّ الى يمينها . كان ينبغي الانزلاق نحو جدار الخرائب ، والطواف به ثم العــودة ، واذ ذاك تُنجز المهمة . كان المراكشي يزحف بين الاحجار المسودة ، وكانت الارض حارة ، وكان ثمة رملٌ تحت أظافر يديه وقدميه ، وكان خائفاً يفكر في طنجه ، ففي اعلى طنجه كان ثمة بيت اصفر بطابق واحد يُرى منه التماع البحر السرمدي . وكان يسكنه زنجي ذو لحية بيضاء ، كان يضع في فمه حيات ليسلي الانكليز . كان ينبغي التفكير بهذا البيت الاصفر . كان ماتيو يفكر باسبانيا ، وكانت مود تفكر باسبانيا ، وكان المراكشي يزحف على ارض اسبانيا المشققة ، كان يفكر بطنجه ويحس نفسه وحيداً . وانعطف ماتيو في طريق مغمية ، وتهاوت اسبانيا واشتعلت ، فلم تكن بعد الا بخار نار غير متميز ، الى يساره : نيس الى اليمين ، وفيما وراء نيس ، ثقب ، هو ايطاليا . المحطة قبالته ؛ قبالته فرنسا والحرب ، الحرب الحقيقية ، نانسي . كان في نانسي ؛ كان ، فيما وراء المحطة ، يسير نحو نانسي . ولم يكن به عطش ، ولم يكن يشعر بالحر ، ولم يكن تعباً . كان جسمه تحته ، غفلاً وقطنياً ؛ الالوان والاصوات ، اشراقات الشمس ، كانت الروائح تأتي لتدفن نفسها في جسمه ؛ وهذا كله لم يكن يعنيه بعد . وفكر : هكذا يحس المرء حين يداهمه المرض . ونقل فيليب صندوقه الصغير الى يده اليسرى ، كان مرهقاً ، ولكن كان عليه ان يقاوم حتى المساء : سأنام في القطار . وكانت سطيحة « تور دارجان » تطنّ كالخلية ،

اثواب حمراء ووردية وبنفسجية ، جوارب من الحرير الصناعي، خدود محمرة ، سوائل مسكّرة ، حشدٌ مائعٌ لزج ، وكان قلبه ينبض بالشفقة : سوف يُنتزعون من المقاهي ومن غرفهم ، ومعهم ستقوم الحرب . كان مشفقاً عليهم ، وكان مشفقاً على نفسه ؛ كانوا يتألمون في النور وهم لزجون مكتظّون، يائسون. واخذ فيليب فجأةً دوار من التعب والكبرياء: انني ضميرهم .

مقهى آخر . كان ماتيو ينظر الى هؤلاء الرجال السمر الممتلئين الانيقين، فكان يشعر بأنه منفصل. كان الكازينو الى يمينهم ، والى يسارهم البريد، وخلفهم البحر ؛ هذا كل شيء . ففرنسا واسبانيا وايطاليا مصابيح لا تضيء لهم ابداً . انهم هنا مركومون جميعاً ، والحرب شبح؛ وفكر: انني شبح، سوف يكونون ملازمين ورؤساء، وسينامون في السرر ، وسيحلقون ذقونهم كل يوم ، ثم ان كثيرين منهم سيعرفون كيف يبتعدون عن خط النار . ولم يكن ليأخذ عليهم ذلك . فما الذي كان يمكن ان يمنعهم من ذلك ؟ أهو التضامن مع الذين يذهبون الى الحرب ؟ ولكني انا ذاهب الى الحرب . ولا اطلب اي تضامن . وفكر فجأة . ولكن لماذا اذهب اليها ؟ صاح فيليب وقد دفعه احدهم « انتبه ! » ، وانحنى ليلم صندوقه ، ولم يتنازل الشخص الطويل ذو الحذاء البالي الى الالتفات ، فتمتم فيليب : « وحش ! » وواجه المقهى ، ونظر الى الناس بعينين مريعتين . ولكن لم يكن ثمة من لاحظ الحادث . وكان ثمة طفل يبكي، وكانت امه تمسح له عينيه بمنديل ، وعلى الطاولة المجاورة ، كان ثلاثة رجال جالسين امام اقداح من عصير الليمون ، والارهاق بادٍ عليهم . وفكر وهو يجيل نظره النافذ في الحشد . انهم ليسوا ابرياء الى هذا الحد . لماذا يذهبون ؟ ليس عليهم الا ان يقولوا لا . وكانت السيارة تجري . وكان دلادييه غارقاً في الوسائد يمصّ سيجارة مطفأة وهو ينظر الى المارّة .

وكان يغيظه ان يذهب الى لندن ، سوف يأكل كالخنزير، وكانت امرأة متطايرة الشعر تضحك فاغرة الفم ، وفكر : «انهم لا يدركون» وهز رأسه ، وفكر فيليب : « يأخذونهم الى المسلخ ولا يدركون . انهم يتقبلون الحرب كما يتقبّلون المرض . الحرب ليست مرضاً . إنها شرّ لا يحتمل لانه يصدر عن الناس ويتجه الى الناس . » ودفع ماتيو الباب الصغير ، وقال للموظف : « انني في انتظار صديق » . وكانت المحطة ضاحكة وصامتة كالمقبرة . لماذا تراني اذهب اليها ؟ وجلس على مقعد أخضر . هناك من يرفض الذهاب . ولكن ليس هذا من شأني . يرفضون او يشبكون أذرعتهم او يهربون الى سويسرا . لماذا ؟ انني لا افهم ذلك وهذا ليس من شأني . وحرب اسبانيا نفسها لم تكن من شأني ولا الحزب الشيوعي . وتساءل في نوع من القلق : فما هو من شأني إذن ؟ كانت الخطوط الحديدية تلتمع ، سوف يأتي القطار من الشمال . والى الشمال ، في البعيد ، تلك البحيرة اللامعة ، حيث تلتقي الخطوط، كانت تولون ومارسيليا وبوربو واسبانيا . حرب لا معقولة ، وغير مبررة ، ويقول جاك انها خاسرة سلفاً . وفكر : الحرب مرض . وشأني ان احتملها كالمرض . من أجل لا شيء . بدافع من النظافة . سأكون مريضاً شجاعاً ، هذا كل ما في الامر . لماذا احوضها ؟ انني لا اقرها . ولماذا لا اخوضها ؟ ان جلدي لا يستحق حتى ان يُنقذ. وفكر : هكذا ، هكذا : انني مسوق ! موظف . والذي كانوا يتركونه له ، انما هو صمود الموظفين الحزين ، اولئك الذين يحتملون كل شيء ، الفقر والمرض والحرب ، احتراماً منهم لأنفسهم . وابتسم، وقال في نفسه : « حتى هذا لا : انني لا احترم نفسي ، » وفكر فيليب : « شهيد ، انهم بحاجة الى شهيد . » كان عائماً ، وكان يسبح في التعب، ولم يكن ذلك غير لذيذ، ولكن كان ينبغي الاستغراق فيه ، كل ما هنالك انه لم يكن يرى بعد بتبصّر ، فقد كان الى يمينه

والى يساره مصراعان يسدان عليه الطريق . كان الجمع يحاصره ، وكان الناس يخرجون من كل مكان ، وكان أولاد يعدون بين ساقيه ، وكانت سحن تطرف عيونها من الشمس تنزلق فوق رأسه ، تحت رأسه، السحنة نفسها دائماً ، مهتزة ، متهادية من امام الى وراء ، نعم – نعم – نعم نعم ، سوف نقبل هذه الرواتب المجوعة ، نعم ، سنذهب الى الحرب نعم ، سندع ازواجنا يذهبون ، نعم سنقف في الصف امام المخابز واولادنا بين اذرعتنا . الجمع ، كان الجمع ، هذا القبول الهائل الصامت . وفكر فيليب ، وخده ملتهب : واذا شرحت لهم حطّموا رأسك ، وركلوك باقدامهم في غضب ، وهم يصرخون : نعم . كان ينظر الى هذه الوجوه الميتة ، ويقيس عجزه : لا يمكن ان نقول لهم شيئاً ، فانماهم بحاجة الى شهيد . الى من ينتصب دفعة واحدة على أطراف أصابعه ويصرخ : « لا » فيرتمون عليه ويمزقونه . ولكن هذا الدم المراق من اجلهم ، وعلى ايديهم ، سيمنحهم قوة جديدة ، فتعمر نفوسهم روح الشهيد ، وسيرفعون رؤوسهم ، من غير ان تطرف عيونهم ، ويتدحرج هدير رفض من طرف الجمع الى طرفه الآخر ، كالرعد . وفكر : وانا هو هذا الشهيد . وغمرته فرحةُ معذَّب ، فرحة أشد من ان تُحتمل ، فانحنى رأسه ، وترك الصندوق ، وسقط على ركبتيه ، وقد ابتلعته الموافقة العامة .

وصاح ماتيو : – مرحبا .

وكان غوميز يركض اليه ، عاري الرأس ، ما يزال على جماله ؛ وكانت على عينيه غمامة تجعله يخفض جفونه، اين انا ؟ وكانت أصوات تقول فوقه : « ما به ؟ انه مصاب بدوار ، ما هو عنوانك ؟ » وكان رأس ينحني فوقه ، رأس امرأة عجوز ، أتراها ستعضني ؟ عنوانك! كان ماتيو وغوميز يتبادلان النظر وهما يضحكان من فرط الجذل ، عنوانك ، عنوانك ، وبذل جهداً عنيفاً ونهض . كان يبتسم ، وقال :

ــ ولكن ليس ثمة شيء يا سيدتي ، وانما هو الحر . اني اسكن قريباً جداً ، وسأعود الى البيت .

وقال احدهم خلفه ..

ــ يجب ان يرافق ، فهو لا يستطيع ان يعود وحده (وضاع الصوت في هسيس اوراق) : نعم ، نعم ، نعم ، يجب ان يرافق ، يجب ان يرافق .

وصاح : ــ دعوني ، دعوني لا تمسوني . كلا ! كلا ! كلا ! كلا ! (ونظر اليهم مواجهة ، نظر الى عيونهم المتعبة ، المندهشة ، موصاح :) « كلا » كلا للحرب ، كلا للجنرال ، كلا للأمهات المذنبات ، كلا لزيزيت وموريس ، كلا ، دعوني وشأني . وابتعدوا، فأخذ يركض بحذاء من رصاص . كان يركض ويركض ، فوضع احدهم يده على كتفه ، فحسب انه سينفجر باكياً . كان شاباً نضراً ذا شارب صغير ، مد له صندوقه الصغير ، وقال وهو يضحك :

ــ لقد نسيت صندوقك .

وتوقف المراكشي : كانت حية ظنها غصناً ميتاً . حية صغيرة ؛ تحتاج الى حجر لسحق رأسها . ولكن الحية التوت فجأة ، وثلمت الارض بومضة سمراء ثم اختفت في الحفرة . وكان ذلك بشيراً،لم يكن ثمة شيء يتحرك خلف الجدار . وفكر : ستهدأ نفسي .

وأمسك ماتيو بكفي غوميز قائلا :

ــ مرحباً ، مرحبا كولونيل !

فبسم غوميز بسمة متكبرة غامضة ، وقال :

ــ بل جنرال .

فترك ماتيو يديه تسقطان :

ــ جنرال ؟ هكذا اذن ، انكم تتقدمون هناك بسرعة .

فقال غوميز من غير ان يكف عن الابتسام :

ـ ان الملاكات ناقصة . ما أشد سمرتك يا ماتيو !

فقال ماتيو منزعجاً :

ـ انها سمرة الرفاهية،يكسبها الانسان على الشواطيء ، حين لا يفعل شيئاً .

وكان يبحث على يدي غوميز ووجهه آثار تجاربه ومحنه ؛ وكان مستعداً لجميع الوان الندم . ولكن غوميز لم يكن يسلم نفسه بهذه السرعة وهو في حيويته ودقته وبذلته الفلانيل وجسمه الصغير المركوم : فقد كان يشبه في تلك اللحظة مصطافاً .

وسأل : ـ اين نذهب ؟

قال ماتيو : ـ سنبحث عن مطعم صغير هاديء . انني اسكن في منزل أخي وزوجته ، ولكني لا ادعوك الى تنـاول العشاء عندهما : فليسا هما طريفين .

قال غوميز :

ـ اريد مكاناً فيه موسيقى ونساء (ونظر الى ماتيو في غير احتراس وأضاف) لقد قضيت ثمانية ايام مع الاسرة .

قال ماتيو : ـ آه ، حسنا . سنذهب اذن الى « البروفنسال » .

وكان الخادم ينظر اليهما قادمين من غير قسوة ، في هيئة مهنيّة : وكان واقفاً بجمود ، مقوس الظهر قليلا، بين موزعيّ القسائم الآليتين، وكانت الشمس تحمر بندقيته وقبعته . فناداهما لدى مرورهما .

ـ الى اين ؟

قال موريس :

ـ « ايسى ليناسي »

ـ تخرج فتأخذ الترام الى يسارك وتهبط الى آخر الخط .

وخرجا . وكانت ساحة كئيبة كالتي ترى امـام المحطات ، وفيها مقاه وفنادق ، وكان في السماء دخان . وقال دورنيه وهو يتنهد :

– من الضروري تحريك السافين .

ورفع موريس رأسه وابتسم وهو يطرف بعينيه . قال بيير :

– ليس هناك من الترامات اكثر مما هناك من الزبدة في الاست !

ونظرت اليهما امرأة في ودّ :

– انه لم يصل بعد ! الى اين انتما ذاهبان ؟

قال موريس : – الى ايسى لينانسي .

– لا بد ان تنتظر ربع ساعة طويلة . فهو يمر كل عشرين دقيقة .

قال دورنيه لموريس : – امامنا وقت لشرب قدح .

كان الجو رطبا ، وكان القطار يجري ، وكان الهواء أحمر ، وأخذته رعشة سعادة فشدّ غطاءه . وقال « كاترين ! » فلم تجب . ولكن شيئاً ما لامس صدره ، عصفوراً ، وصعد على مهل الى عنقه ، ثم طار العصفور وحط فجأة على جبينه . كانت يدها ، يدهـا الرقيقة المعطرة ، وقد انسربت على انف شارل ، ولامست الاصابـع الخفيفة الشفتين . وكان ذلك يدغدغه . وتناول اليد وشدها الى فمه . كانت دافئـة ، وامسك المعصم بأصابعه فاحس خفق النبض . وكان مغمضاً عينيه ، يقبل هذه اليد الدقيقة والنبض يخفق تحت أصابعه كقلب عصفور، وضحكت « كما لو اننا كنا من العميان : التعرف يحدث بالأصابع . » ومـد ذراعه بدوره ، وكان يخشى ان يؤذيها ، ولمس قضيب المرآة الحديدي ثم لمس شعراً متدلياً على الغطاء ، أشقر في اطراف اصابعه ، ثم صدغاً ووجنة ، رقيقة ريا كجسم امرأة برمته ، ثم نشق أصابعه فم حار ، وعضتها اسنان ، بينما كان ألف عقرب تنمله من خاصرتيه حتى رقبته ، وقال : « كاترين ! » وفكر : « اننا نتضاجع » وتركت يده وتنهدت ، ونفخ موريس على قدحه فاطار الزبد الى الارض وشرب وقالت : « ما هي تلك القوارب التي ينام فيها الناس جنباً الى جنب ؟ » وشرق موريس شفته العليا فلحسها وقال : « انها منعشة ! » قال شارل :

« لا ادري ، لعلها قوارب الغندول ؟ » «لا ، ليس الغندول ، على كل حال ، لا بأس ، سنكون في احد هذه القوارب . » فأخذ يدها ، ودلفا جنباً الى جنب ، فوق المـــاء ، وكانت عشيقته ، النجمة ذات الشعر الذهبي الاصفر ، وكان رجلاً آخر ، وكان يحميها . وقال لها: « أود لو ان القطار لا يصل ابداً » . كان دانيـــال يعض ريشته ، وطرق الباب ، فأمسك نفسه ، وكان ينظر الى الورقة البيضاء عـــلى القرطاس من غير ان يراها . وقال صوت مارسيل : « دانيال ! هل انت هنا ؟ » فلم يجب ، وابتعدت خطى مارسيل الثقيلة ، كانت تهبط السلم ، وكانت الدرجات تطق واحدة واحدة ، وابتسم ، وغط ريشته في الحبر وكتب : « عزيزي ماتيو » يد مشدودة في الظل ، هسيس ريشة ، وجه فيليب يخرج من الظل ويأتي للقـــائه ، أصفر في ظلمات المرآة ، حركة اهتزاز صغيرة ، البيرة المثلجة تقرقر في حنجرته وتقطع صفرته . السيارة القاطرة تجتاز ثلاثة وثلاثين متراً بين باريس وروان ، لحظة انسان ، وثلاثة على الالف من لحظة الساعة العشرين من الرابـــع والعشرين من ايلول ١٩٣٨ ، لحظة ضائعة ، متدحرجة خلف شارل وكاترين في الريف الحار ، بين الخطوط ، خلفها موريس في نشارة القهوة المظلمة الرطبة ، سابحة في الثلم الذي تركه قارب شركة « باكيه» مأخوذة في بحيرات الحبر الرطب ، لامعة ومتجففة بين ساقي حرف M في اسم ماتيو . فيما تحك الريشة الورق وتمزقه ، بينما يمص دالاديه ، وهو غارق في الوسائد ، سيكارة مطفأة وهو ينظر الى المـــارة . كان يزعجه ان يكون في لندن ، وكان يدير بعناد عينيه نحو الباب حتى لا يرى وجه بونيه القذر ، والوجه المغلق لهذا الانكليزي الحمار ؛ كان يفكر « انهم لا يدركون ! » ورأى امرأة مبعثرة الشعر تضحك فاغرة الفم ، وكانوا جميعاً ينظرون الى السيارة بهيئة لا معبرة ، وكان بينهم اثنان او ثلاثة يصيحون « هوراه ! » ولكنهم لم يكونوا بالتـــأكيد

يدركون ان السيارة السوداء التي كانت تجري في طريق لنــدن وهي تزمّر ، انما كانت تحمل الحرب والسلم الى داوننغ ستريت، الحرب أو السلم ، وجه الفلس او قفاه . كان دانيال يكتب . وكان الربــان قد وقف امام باب صالة الدرجة الاولى ليقرأ « هــذا المساء في الساعة التاسعة ، تقدم جوقة بابيس النسائية حفلة سمفونية في الدرجة الاولى . جميع المسافرين، بلا تمييز في الدرجة ، مدعوون الى حضورها بترحاب.» ونشق نفساً من غليونه وفكر : « انها أهزل مما ينبغي » وفي تلك اللحظة بالذات شم عطراً دافئاً ، وسمع خفق أجنحة صغيراً ، وكانت هي مود، فالتفت ، وفي مدريد كانت الشمس الغــاربة تذهّب الواجهة الخربة « للمدينة الجامعية » ، وكانت مود تنظر اليه ، فخطا خطوة ، وكان المراكشي يدلف الى الخرائب ، وصوب اليه البلجيكي ، وكانت مود والربان يتبادلان النظر . ورفع المراكشي رأسه فرأى البلجيكي ، فتبادلا النظر ، ثم فجأة بسمت مود بسمة جــافه وأدارت رأسها ، وضغط البلجيكي على الزناد ، فمات المراكشي ، وخطا الربان خطوة نحو مود ثم فكر : « انها اهزل مما ينبغي » وتوقف . قال البلجيكي « ايهــا القذر الملعون ! » وكان ينظر الى المراكشي الميت ويقول « ايها القذر الملعون ! »

قال غوميز : — اذن ، ومارسيل ؟ لقد قالت لي ساره ان الأمر قد انتهى ؟

قال ماتيـو : — نعم ، لقد انتهى ، وتزوجت دانيال ؟

قال غوميز : — دانيال سيرينو ؟ انها فكرة عجيبة . على كل حال ، لقد تحرّرت .

قال ماتيـو : — تحرّرت ، تحررتُ ممّ ؟

قال غوميز : — لم تكن مارسيل تناسبك .

قال ماتيـو : — ربما ! يعني !

وكانت الطاولات المغطاة بالخوانات البيضاء تحيط في شكل نصف دائرة حلبة رملية مزروعة بالصنوبر . وكان مقهى « البروفنسال » مقفراً، وكان ثمة رجلٌ واحد يأكل جناح دجاجة وهو يشرب ماء فيشي .
وصعد الموسيقيون باسترخاء الى المنصة ، وجلسوا في صخب للكراسي كبير ، وأخذوا يهمسون فيما بينهم ، بينما هم يوترون آلاتهم ، وكان البحر ما يزال يُرى اسود عبر شجر الصنوبر . ومد ماتيو ساقيه تحت الطاولة وشرب جرعة بورتو . للمرة الأولى منــذ ثمانية ايام ، كان يشعر أنه في بيته ، وكان قد تجمع دفعة واحدة ، فأقام برمته في هذا المكان الغريب الذي كان نصفه صالة خاصة والنصف الآخر من الخشب المقدس . وكان شجر الصنوبر يبدو مقتطعاً في ورق مقوى ، وكانت المصابيح الوردية الصغيرة ، في وسط الليل الطبيعي الرقيق ، تسيل على الخوان ضوء بهو نسائي أنيق ، وأضـــاء بين الاشجار مطلقٌ للأشعة، فبيّض الحلبة فجأة فبدت من الاسمنت . ولكن كانت فوق رؤوسهم تلك الغيبة ، وفي السماء النجوم التي تشبه حيوانات صغيرة مجهــدة ، وكانت ثمة تلك الرائحة الصمغية ، ثم ريح البحر تلك متحركة قلقة ، كأنها روح مرهقة ، تتطاير لها الخوانات وترسل دفعــة واحدة خطمها البارد في عنقك .

قال ماتيو : — لنتحدث عنك.

فبدا غوميز مندهشاً ، وسأل :

— الم يحدث لك شيء آخر ؟

قال ماتيو : — لا

— منذ عامين ؟

— لا . ستجدني كما تركتني .

فضحك غوميز وقال : — ياللفرنسي الملعون ! انكم جميعاً خالدون.

وكان عازف الساكسفون يضحك : كان عازف الكمان يهمس في اذنه ، وانحنت روبي نحو مود التي كانت توتر كمانها ؛ وقالت :

– انظري الى العجوز ؛ في الصف الثاني .

فانفجرت مود ضاحكة : كان العجوز اصلع كالبيضة ، وجال بصرها في المستمعين ، فكانوا يزيدون عن الخمسمئة . ورأت بيار واقفاً بالقرب من الباب فكفت عن الضحك . ونظر غوميز الى عازف الكمان بهيئة غامضة ثم القى نظرة على الكراسي الفارغة ، وقال بصوت مستسلم :

– اظن اننا لن نجد زاوية صغيرة هادئة افضل من هذه .

قال ماتيو : – وهناك موسيقى .

قال غوميز : – ارى ذلك . اراه جيداً .

وكان ينظر الى الموسيقيين نظرة توبيخ . وكانت مود تقرأ التوبيخ في جميع هذه العيون ، وكانت وجنتاها ملتهبتين ، كشأنها كل مرة ، وكانت تفكر : « اوه ! يا إلهي ! ما جدوى ذلك ؟ ما جدوى ذلك ؟ » اما فرانس فكانت واقفة مزبدة ملونة ، تعطي جميع علامات السعادة ؛ وكانت تبتسم وتعطي اشارة القيادة سلفاً وكانت تمسك قوسها مرفوعة الخنصر ، كما لو كان شوكة . قال غوميز :

– لقد وعدتني بالنساء .

فقال ماتيو آسفاً : – اي نعم . لا ادري ماذا هناك : في الاسبوع الماضي ، في مثل هذه الساعة ، كانت جميع الطاولات مأخوذة . وأما النساء ، فاقسم لك انهن كن كثيرات .

قال غوميز بصوته الرقيق : – انها الاحداث .

– بلا شك .

الاحداث ، ان ذلك صحيح : فبالنسبة اليهم ايضاً ، هناك ، كانت « الاحداث » موجودة : انهم يقاتلون ، مستندين الى جبال البيرينيه ، وعيونهم ملتفتة الى فالانس ، والى مدريد ، والى تاراغون ، لكنهم يقرأون الصحف ويفكرون بهذه الحركة الضاجة للرجال والسلاح ،

خلف ظهورهم ، وان لهم آراءهم عن فرنسا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا ؟ وتململ قليلاً فوق كرسيه : كانت سمكة قد اقتربت من زجاج حوض الاسماك . واخذت تنظر اليه بعينيها المستديرتين . ومنح غوميز ضحكة صغيرة مشاركة وقال بصوت غير مطمئن :

– ذلك ان الناس بدأوا يفهمون .

قال غوميز : – بل هم لا يفهمون شيئاً على الاصلاق . يمكن للأسباني ان يفهم وللتشيكي أيضاً ، وربما للألماني ، لأنهم مشتركون في العملية . اما الفرنسيون فليسوا في العملية ، انهم لا يفهمون شيئاً : ولذلك فهم خائفون .

وأحس ماتيو بأنه مجروح ، فقال بحيوية :

– لا نستطيع ان نلومهم على ذلك . أنا مثلاً ليس لي ما أخسره، ولا يزعجني كثيراً ان اذهب ، ان ذلك لا يغيرني . ولكن اذا كان المرء يحرص بشدة على شيء ، فاعتقد انه ليس من اليسير ان ينتقل من السلم الى الحرب .

قال غوميز : – فعلت ذلك في ساعة واحدة . أتظن أنني لم أكن حريصا على رسمي ؟

قال ماتيو : – الامر عندك مختلف .

فهز غوميز كتفيه وقال :

– انك تتكلم كساره .

وصمتا . ولم يكن ماتيو يحترم غوميز الى حد بعيد ، كان يحترمه أقل مما يحترم برونيه ودانيال . ولكنه كان يشعر بأنه مذنب أمامه ، لانه كان اسبانياً . وارتعش. سمكة عند زجاج الحوض : وقد كان فرنسياً تحت هذا النظر ، فرنسياً حتى العظم. مذنب . مذنب وفرنسي ، وكانت به رغبة لان يقول له : « ولكني كنت من دعاة التدخل ! » غير ان هذه لم تكن هي القضية . إن ما كان يتمناه شخصياً لا اهمية له ،

لقد كان فرنسياً ، وما كان يجديه شيئاً ان ينفصل عن سائر الفرنسيين لقد قررت عدم التدخل في اسبانيا ، ولم ارسل اسلحة ، واغلقت الحدود دون المتطوعين . كان ينبغي ان ادافع عن نفسي مع الجميع ، او ادين نفسي مع الجميع ، مع خادم المقهى ، والسيد المتخوم الذي كان يشرب ماء فيشي ، وقال :

— اني احمق ، فقد تصورت انك ستأتي بالثوب العسكري .

فابتسم غوميز :

— بالثوب العسكري ؟ اتريد ان تراني بالثوب العسكري ؟

وأخرج رزمة الصور من محفظته فمدها لماتيو واحدة بعد الاخرى :

— هوذا الرجل .

— كان ضابطاً قاسي الملامح ، واقفاً على درجات كنيسة :

— ان هيئتك غير لطيفة .

قال غوميز : — يجب ذلك .

ونظر اليه ماتيو وأخذ يضحك ، وقال غوميز :

— نعم ، انها نكتة .

قال ماتيو : — لم اكن اظن ذلك ، وانما كنت أتساءل عمـا اذا كانت هيئتي ستكون متوحشة كهيئتك لو لبست الثوب العسكري .

وسأل غوميز في اهتمام :

— هل انت ضابط ؟

— بل عسكري عادي .

فندت عن غوميز حركة انزعاج :

— ان جميع الفرنسيين عساكر عاديون .

فقال ماتيو بحيوية :

— وجميع الاسبان جنرالية .

فضحك غوميز من كل قلبه ، وقال وهو يمد له صورة :

– انظر الى هذه .

كانت فتاة صغيرة سمراء ، جميلة جداً . وكان غوميز ممسكاً بقامتها وهو يبتسم تلك الابتسامة الراضية التي يطلقها دائماً في الصور . وقال :

– مارس وفينوس .

قال ماتيو : – انني هنا اجدك على حقيقتك . ولكن قـل لي : انك تأخذهن صغيرات .

– في الخامسة عشرة ، ولكن الحرب تنضجهن . وهاهذا في القتال.

ورأى ماتيو رجلا صغيراً قابعاً تحت شق جدار متهدم .

– اين هذا ؟

– في مدريد . المدينة الجامعية . ما زال القتال دائراً فيها .

لقد قاتل . لقد استلقى حقاً خلف هذا الجدار ، وكانوا يطلقون عليه النار . وكان آنذاك في رتبة نقيب ، وربما كان يفتقر الى طلقات فيفكر : « يا للفرنسيين القذرين ! » وكان غوميز قد انقلب عـلى كرسيه ، ينهي شرب قدحه ، وتناول علبة الثقاب بحركة هادئة فأشعل سيجارته ، وانبثقت ملامحه المزهوة الهزلية من الظل ثم انطفأت . لقد قاتل ؛ ولم يبق من ذلك شيء في عينيه . كان الليل يهبط فيلفه بالعذوبة، وكان يزرق فـوق المصباح الوردي ، وكانت الجوقة تعزف « نوتي كيارو ماس » ، وكان الهواء يحرك الخوان بهدوء ، ودخلت امرأة ، غنية ووحيدة ، فجلست بالقرب منها ، وطفا عطرهـا حتى أنفيهما ، وشمه غوميز بنهم وهو يمدد منخريه ، وقسا وجهه ، وأدار رأسه بهيئة بحث ، فقال ماتيو :

– الى اليمين .

وحدد فيها غوميز نظرة ذئبية ، وكان قد اصبح جاداً ، فقال :

– فتاة جميلة .

قال ماتيو : – انها ممثلة . ولديها اثنا عشر تياناً للبحر ، وهناك

صناعي من ليون ينفق عليها .

قال غوميز : — هِمْ !

وبادلته نظرته ثم ادارت عينيها وهي تبتسم نصف بسمة . وقال ماتيو :

— انك لن تضيع أمسيتك .

فلم يجب . وكان قد وضع مرفقه على الخوان ، وكان ماتيو ينظر الى يده المشعرة ذات الخاتم التي كانت تورّد ضوء المصباح . انه هنا ، ازرق كل الزرقة ، بيديه الورديتين ، وهو يتنشق رائحة الشقراء هذه ، ويناديها بالنظر . لقد قاتل . وان خلفه مدناً محمرة ، ودوامات من الغبار الاحمر ، وقشرات مبشورة ، وانفجارات صواريخ لا تلمع حتى في اذنيه . لقد قاتل ؛ وسيعود الى القتال ، وها هو هنا يرى هذه الخوانات البيضاء التي اراها . وحاول ان ينظر الى شجر الصنوبر والحلبة والمرأة بعيني غوميز ، هاتين العينين اللتين أحرقها لهيب الحرب ؛ ونجح في ذلك لحظة ، ثم تلاشت الخشونة القلقة الزاهية التي كانت قد اخترقته ، لقد قاتل ، وهو ... كم هو حالم ! وفكر ماتيو : اما انا ، فلست حالماً . قالت اوديت : « كلا ، صحنان فقط . ان السيد ماتيو لن يعود لتناول العشاء . » واقتربت من النافذة المفتوحة ، وكانت تسمع موسيقى « البروفنسال » وكان موسيقى تانغو . كانوا يستمعون الى الموسيقى : وكان ماتيو يفكر « انه يمر مروراً عابراً . » وقدم لهما الخادم الحساء ، فقال غوميز « لا ، لا حساء . » كن يعزفن « تانغو القطة » ؛ وكان كمان فرانس يقفز في النور ويغطس فجأة في الظل كسمكة طائرة . كانت فرانس تبتسم ، وهي مغمضة الجفنين نصف إغماض ، وكانت تغطس خلف كمانها وكان القوس يحتك ، والكمان يموء ، وكانت مود تستمع الى الكمان يموء عند اذنها ، وتستمع الى السيد الاصلع يسعل ، وكان بيار ينظر اليها ، وأخذ غوميز يضحك ، ولم تكن هيئته راضية ، فقال :

— تانغو ، تانغو ! لو كان فرنسيون يفكرون بان يعزفوا تانغو

كهذا ، في مقهى بمدريد ...

فسأله ماتيو :

— لرموهم بتفاح مطبوخ ؟

فقال غوميز : — بل بالحجارة !

وسأله ماتيو : — الا يحبوننا كثيراً هناك ؟

فقال غوميز : — بلى !

دفع الباب : كان « البار الباسكي » خالياً . وقد دخله بوريس يوماً بسبب اسمه: « البار الباسكي » ، وكان ذلك يذكّر بكلمة « بارباك » وهي كلمة لا يستطيع ان يلفظها من غير ان يضحك . ثم حدث ان البار كان عظيماً تماماً، فأضحى بوريس يتردد اليه كل مساء، بينما تكون لولا في عملها . ومن النوافذ المفتوحة ، كانت تُسمع موسيقى الكازينو البعيدة ؛ بل لقد حسب مرة انه يسمع صوت لولا ، ولكن ذلك لم يحدث مرة اخرى . وقال صاحب الحانة :

— مرحباً ، يا سيد بوريس .

قال بوريس: — مرحباً يا معلم . اعطني من فضلك قدح روم ابيض.

وكان يحس نفسه تقياً ، وكان يفكر بان يشرب قدحين من الروم الابيض وهو يدخن غليونه ، وحوالي الساعة الحادية عشرة، يمنح نفسه سندويشاً بالمقانق . وقرابة منتصف الليل ، سيذهب ليصحب لولا .

وانحنى المعلم عليه وملأ قدحه ، فسأله بوريس :

— أليس المارسيلي هنا ؟

قال المعلم : — لا . لديه وليمة مهنية .

— اوه ! عفواً !

كان المارسيلي وكيلاً للبيع ، وكان هناك ايضاً شخص يدعى شارليه، وهو عامل مطبعة . وكان بوريس يلعب معهما احياناً بالورق ، واحياناً اخرى يتحدثون بالسياسة والرياضة او يبقون جالسين من غير ان يقولوا

شيئاً ، بعضهم عند المشرب ، والبعض الآخر على الطاولات الداخلية ، وبين الفينة والفينة كان شارليه يقطع الصمت ليقول : « نعم ، نعم ، نعم ، الأمر هكذا » وهو يهز رأسه ، وكان الوقت يمر بمرح ، وقال بوريس :

ـ الزبائن قليلون اليوم .

فهز المعلم كتفيه ، وقال وهو يعود الى المشرب :

ـ انهم جميعاً يفرنقعون . وانا عادة أبقى فاتحاً حتى عيد جميع القديسين . ولكن اذا استمر الحال هكذا، اغلقت الحانة في تشرين الاول وعدت الى ارضي .

فانقطع بوريس عن الشرب وظل مأخوذاً ، فان عقد اولا ينتهي اجله في اول تشرين ، وسيكونان آنذاك قد ذهبا . ولكنه لم يكن يحب ان يفكر بان « البار الباسكي » سيغلق ابوابه خلف ظهرهما . والكازينو ايضاً سيغلق، وجميع الفنادق ، وتظل بياريتز مقفرة . وكان ذلك يشبه التفكير بالموت : فلو انك واثق بان رجالاً آخرين سيشربون بعدك اقداح روم ، وسيأخذون حمامات شمس ، وسيسمعون ألحان جاز ، اذن لأحسست بالعزاء ؛ ولكن اذا وجب ان تفكر بان الجميع سيموتون في الوقت نفسه ، وان الانسانية بعدك ستغلق ابوابها ، فلن يكون في ذلك اي شيء مفرح . وسأل ليطمئن :

ـ ومتى تعود الى الفتح ؟

قال المعلم : ـ اذا وقعت الحرب ، فلن اعود الى الفتح ابداً .

وعدّ بوريس على أصابعه: ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، سأعود الى هنا خمس مرات اخرى ، ثم ينتهي كل شيء ، فلا ارى بعد البار الباسكي ابداً . كان ذلك مضحكاً . خمس مرات . سيشرب الروم الابيض خمس مرات اخرى على هذه الطاولة ، ثم تقع الحرب ، ويغلق البار الباسكي ، وفي تشرين الاول ٣٩ ، سيكون بوريس مجنّداً. وكانت

مصابيح بشكل الشمع مزروعة على تعليقات من خشب السنديان تلقي على الطاولات ضوءاً جميلاً احمر . وفكر بوريس : لن ارى بعد ابداً هذا الضوء ، هذا الضوء بالذات : أحمر على أسود . سيرى طبعاً اضواء كثيرة اخرى ، فالصواريخ الليلية فوق ساحات القتال ليست شيئاً رديئاً . ولكن هذا الضوء بالذات سينطفيء اول تشرين ، ولن يراه بوريس بعد ابداً . وتأمل في هيبة بقعة ضياء كانت تمتد على الطاولة ، وفكر بأنه كان مذنباً . كان يعامل الاشياء دائماً على طريقة الملاعق والشوكات ، كما لو انها كانت دائماً قابلة للتجديد : وكان ذلك خطأ فاضحاً . ان هناك عدداً محدوداً من الحانات ودور السينما والبيوت والمدن والقرى ، ولم يكن فرد معيّن يستطيع ان يذهب الى ايّ منها الا عدداً محدوداً من المرات .

وسأل المعلم : — هل تريد ان ادير الراديو ؟ ان ذلك يذهب هنا الملل .

قال بوريس . — لا ، شكراً . هكذا لا بأس .

في لحظة موته ، عام ٤٢ ، سيكون قد تغذّى ٣٦٥ × ٢٢ مرة تساوي ٨٠٣٠، اذا حسب وقعاته ايضاً كرضيع. واذا أقررنا بأنه قد أكل عجّة بالبيض مرةّ على كل عشر مرات ؛ يكون قد أكل ٨٠٣ عجّات. وقال في نفسه مندهشاً : ٨٠٣ عجّات فقط ؟ آه كلا ! هنك ايضاً العشاء ، ممـا يجعل الوقعات ١٦٠٦٠ و١٦٠٦ عجّات . مهما يكن من امر ، فليس ذلك بالشيء العظيم ، بالنسبة لهاو . وتابع : والمقاهي ؟ بوسعي ان اعـدّ المرات التي اقصد فيها المقاهي بعد . فلنفرض اني اقصدها مرتين كل يوم ، واني سأجنّد بعد عام ، فتكون ٧٣٠ مرة . ٧٣٠ مرة ! كم هو قليل ! ولقد احسّ من ذلك بصدمة ، ولكنه لم يكن مندهشاً بصورة استثنائية . لقد كان يعرف دائماً بأنه سيموت شاباً. وقد حدّث نفسه غالباً بأنه سينتهي مسلولاً او مقتولا بيد لولا . ولكنه

لم يكن يشك في اعماق نفسه لحظة بأنه لن يموت في الحرب. كان يعمل ويُعدّ شهادة البكالوريا او الليسانس ، ولكن ذلك كان غالباً بدافع تمضية الوقت ، كالفتيات اللواتي يحضرن دروساً في السوربون بانتظار ان يتزوجن. وقال في نفسه : هذا طريف. لقد جاءت عهود كان الشبان يُعدّون فيها شهادة الحقوق او الاغريغاسيون بالفلسفة وهم يفكرون بأنهم سيكون لهم مكتب كاتب عدل في الاربعين، او تقاعد استاذ في الستين . وان المرء ليتساءل عما عساه يمكن ان يدور في رؤوسهم. اشخاص ستكون امامهم ١٠٫٠٠٠ او ١٥٫٠٠٠ أمسية في المقهى ، و٤٠٠٠ عجة ، و٢٠٠٠ ليلة غرام ! واذا كانوا يتركون مكاناً يروق لهم ، فان بوسعهم ان يقولوا لانفسهم بالتأكيد : سنعود اليه في السنة القادمة ، او بعد عشر سنوات. اننا لا نستطيع ان نقود حياتنا على بعد اربعين عاماً. وقال مقرراً في قسوة: لا بد انهم يرتكبون حماقات ! اما هو ، فقد كان اكثر تواضعاً. كانت لديه مشاريع لعامين ، وبعد ذلك ، سينتهي كل شيء. يجب ان يكون الانسان متواضعاً. ومرّت سفينة شراعية فوق « النهر الازرق » فحزن بوريس فجأة . انه لن يذهب ابداً الى الهند او الصين او المكسيك ، حتى ولا الى برلين ، وان حياته لأشدّ تواضعاً مما يتمنّى. بضعة اشهر في انكلترا ، في لاون ، في بياريتز ، في باريس — وهناك من طافوا حول العالم : امرأة واحدة . لقد كانت حياة صغيرة جداً ؛ وهي تبدو الآن وكأنها قد انتهت بالفعل، لأننا نعرف سلفاً كل ما لن تحتوي عليه، يجب ان يكون المرء متواضعاً . ونهض ، فشرب جرعة روم وفكر : هذا افضل ، ان المرء لا يتعرّض للتبذير .

— قدح روم آخر ؛ يا معلم .

رفع رأسه ، وتأمل المصابيح الكهربائية في تدقيق . ودقت الساعة تجاهه ، فوق المرآة ؛ وكان يرى وجهه في المرآة. وفكر : انها التاسعة والخامسة والاربعون . وفكر : « عند الساعة العاشرة » ونادى الخادمة:

ـ واحد آخر .

فذهبت الخادمة وعادت بزجاجة الخمر مع صحن . وسكبت الخمر في قدح فيليب ، ووضعت الصحن على الاقداح الثلاثة الاخرى . وكانت على شفتيها بسمة ساخرة ، ولكن فيليب نظر اليها محدّداً في عينيها بتبصّر، وتناول القدح بحزم ورفعه من غير ان ينثر منه قطرة ؛ وشرب جرعة ثم وضع القدح من غير ان يغادر بعينيه عيني الخادمة :

ـ كم ؟

فسألته : ـ اتريد ان تدفع ؟

ـ اريد ان ادفع فوراً .

ـ اذن ، اثنا عشر فرنكاً .

واعطاها خمسة عشر فرنكاً وطردها بيـده . وفكر : لست مديناً لأحد بشيء بعد . وضحك قليلا ، خلف يده . وفكر . لست مديناً لأحد ابداً ! ورأى نفسه يضحك عبر المرآة ، فأضحكه ذلك . حين تنتهي آخر دقة من الدقات العشر ، سينهض ، وينتزع من المرآة صورته، ويبدأ الاستشهاد . اما الآن ، فهو يشعر أنه يميل الى المرح ، وكان يتأمل الموقف كهاو . كان المقهى حفيّاً ، وكان المدينة « كابو » ، وكان المقعد طرياً كفراش من ريش ، وكان غارقاً فيه ، وموسيقى ناعمـة تأتيه من خلف المشرب ، وكذلك ضجة صحون تذكّره باجراس البقر في ساليسبورغ : كان يرى نفسه في المرآة ، وقد كان بوسعه ان يظل جالساً ينظر الى نفسه ويستمع الى هذه الموسيقى الى الأبد : عند الساعة العاشرة سينهض ويأخذ صورته بين يديه ، فينتزعها من المرآة كجلد ميت ، كقذى في عين . « مرايا الشلال ... »

شلالات النهار .

في مرايا الشلال .

او :

غار النهار شلالاً في مرآة الشلال .

او :

نياغارا النهار شلالاً في مرآة الشلال .

وسقطت الكلمات رماداً ، وتشبّث بالمرمر البارد . إن الريح تحملني ، وكان في حلقه ذلك الطعم الخمري اللزج . الشهيد . ونظر الى نفسه في المرآة ، وفكر بأنه كان ينظر الى الشهيد ؛ وبسم لنفسه وحيّا نفسه. الساعة العاشرة إلا عشر دقائق . وفكر في رضى : ها ! اني اجد الوقت طويلاً . خمس دقائق قد مضت ، وكأنها أبد . يبقى بعد أبدان، بلا حركة ، ولا تفكير ، وهو يتأمل وجه الشهيد الجميل الضامر ، ثم يغور الزمن هادراً في سيارة ، في القطار ، حتى جنيف .

طمأنينة الروح .

نياغارا الزمن .

نياغارا النهار .

في مرايا الشلال .

انا ذاهب في سيارة .

الى كوبورج ، الى بيراكت .

ومنها أكت ، ومنها أكت .

ومنها كاتاراكت [1]

وضحك ، وكفّ عن الضحك ، ونظر فيما حوله ، وكان المقهى يبعث رائحة المحطة ، والقطار والمستشفى ؛ وكانت به رغبة الى طلب النجدة . سبع دقائق . وفكر : ما الذي سيكون اكثر ثوروية؟ الذهاب ام عدم الذهاب ؟ اذا ذهبت ، قمت بالثورة ضد الآخرين ، واذا لم

---

(١) الكلمة الأخيرة تعني « الشلال » ، وواضح ان هنا تلاعبا على الالفاظ بالأصل الفرنسي بقصد السجع . (المترجم)

اذهب قمت بها ضد نفسي ، وهذا اقوى . أكون قد أعددت كل شيء ، سرقت ، وحملت على تزوير الاوراق ، وقطعت جميع الصلات ، ثم في آخر لحظة : مساء الخير ، انني غير ذاهب ! الحرية في درجتها الثانية ، الحرية التي تنكر الحرية . وعند الساعة الثالثة إلا عشر دقائق ، قرّر أن يُخضع ذهابه للعبة وجه الفلس او قفاه . وكان يرى بوضوح ساعة محطة « دورساي » وهي مقفرة تسيل نوراً ، والسلّم الذي يغور تحت الأرض ، في دخان المحركات ، وكان في فمه مذاق دخان ؛ وتناول قطعة الاربعين فلساً . القفا أذهب ؛ وقذفها في الهواء ، قفا ، أذهب ! قفا ، أذهب ! فسقطت قفا . وقال لصورته : انني اذن أذهب ! لا لأني أكره الحرب ، ولا لأني أكره أسرتي ، ولا لأنني قررت ان اذهب : وإنما بدافع الصدفة المحض ؛ لأن قطعة نقود سقطت على وجهٍ دون الوجه الآخر . وفكر : رائع ؛ إنني في ذورة الحرية القصوى . الشهيد المجاني ؛ حبذا لو رأتني أرمي الفلس في الهواء ! دقيقة بعدُ . ضربة زهر ، دنغ ، أبداً ؛ دنغ ، دنغ ، ضربة ، دنغ ، زهر ، دنغ ، لا تهـ ، دنغ ، دنغ ، ـدم ، دنغ ، دنغ ، الصدفة . دنغ ! ونهض ، وكان يمشي باستقامة ، وكان يضع قدميه إحدهما وراء الأخرى ، وعلى حزّ من الارض الخشبية ، وكان يشعر بنظر الخادمة على ظهره ، ولكنه لن يسمح لها بالضحك . ونادته:

– يا سيد !

فاستدار مرتجفاً .

– صندوقك .

خراء ! واجتاز القاعة وهو يعدو ، فتناول صندوقه ، وأخذ يترنّح. وبلغ الباب على مشقّة وسط الضحك ، وخرج فنادى سيارة تاكسي . وكان يمسك صندوقه بيده اليسرى ، وكان يشدّ بيده اليمنى على قطعة الاربعين فلساً . وتوقفت السيارة أمامه .

ـ الى أين ؟

وكان للسائق شارب ، وعلى خده ثؤلول . وقال فيليب :

ـ شارع بيغال . الى « الكابان كوبين » .

قال غوميز : ـ لقد خسرنا الحرب .

كان ماتيو يعرف ذلك ، ولـكن كان يفكر بأن غوميز لم يكن يعرفه بعد . وكانت الجوقة تعزف « انني ابحث عن سالي » وكانت الصحون تلمع تحت المصباح وضوء المكبرات يسقط على الحلبة كضوء قمر ممسوخ ، ضوء قمر ـ اعلاني من اجل هونولولو . وكان غوميز جالساً هنا ، وكان ضوء القمر يرقد الى يمينه ، والى يساره امرأة تبسم له نصف بسمة ؛ كان موشكاً على العودة الى اسبانيا ، وكان يعلم أن الجمهوريين خسروا الحرب . وقال ماتيو :

ـ انكم لا تستطيعون أن تكونوا واثقين من ذلك . لا يستطيع أحد أن يكون واثقاً .

قال غوميز : ـ بلى ، اننا نحن واثقون من ذلك .

ولم يكن يبدو حزيناً : كل ما في الأمر أنه كان يُبدي ملاحظة ، وكان ينظر الى ماتيو نظرة هادئة متحرزة وقال :

ـ ان جميع جنودي واثقون من أننا خسرنا الحرب .

فسأله ماتيو : ـ وهم مع ذلك يقاتلون ؟

ـ وماذا تريدهم ان يفعلوا ؟

وهزّ ماتيو كتفيه :

ـ طبعاً .

إنني آخذ قدحي ، وأشرب جرعتين من « شاتو مارغو » ويُقال لي : انهم يقاتلون حتى آخرهم ، فليس لهم بعد شيء آخر يفعلونه ، وأشرب جرعة من شاتو مارغو ، وأهزّ كتفيّ ، وأقول : طبعاً . قذر .

وسأل غوميز : ـ ما هذا ؟

قال الخادم : — انهما شريحتا روسبني .
قال غوميز : — آه ، نعم، هاتهما .
وتناول منه الصحن ووضعه على الطاولة وقال :
— لا بأس ، لا بأس .
الشريحتان على الطاولة ، واحدة له والأخرى لي . وله الحق في ان يتذوّق قطعته ؛ وله الحق في ان يمزقها بأسنانه البيضاء الجميلة ، وله الحق بأن ينظر الى الفتاة الجميلة الى يساره وان يفكر : الشيطانة الجميلة ! أما أنا ، فلا . فاذا أكلت قفز الى حلقي مئة اسباني . انني لم ادفع .
قال غوميز : — اشرب . اشرب .
وتناول الزجاجة فملأ قدح ماتيو . وقال ماتيو وهو يطلق ضحكة صغيرة :
— أنت الذي تدعوني الى ذلك راجياً .
وأخذ القدح فأفرغه . فاذا بالشريحة فجأة في صحنه . واخذ شوكة وسكيناً ، وتمتم :
— فلو كانت اسبانيا هي التي تدعوني ...
فلم يبد على غوميز انه يسمعه . وكان قد سكب لنفسه قدحاً من « شاتو مارغو » فشرب وابتسم ، وقال :
— اليوم شريحة ، وغداً حمّص . انها الأمسية الأخيرة التي اقضيها في فرنسا . وهذا هو العشاء الوحيد اللذيذ الذي تناولته فيها .
قال ماتيو : — كيف ، وفي مرسيليا ؟
قال غوميز : — ان ساره نباتية .
وكان ينظر باستقامة امامه ، وكان مظهره يُشعر بالودّ . وقال :
— حين ذهبت في مأذونيتي ، كان قد مضى على برشلونة ثلاثة اسابيع وهي بلا تبغ . فما رأيك بمدينة برمّتها لا تدخن ؟
وأدار عينيه الى ماتيو ، وبدا فجأة وكأنه يراه . واستعاد نظره

ملاءمة مزعجة ، وقال :
— ستعرف هذا كله .
قال ماتيو : — ليس ذلك أكيداً . لا يزال من الممكن تجنب الحرب .
قال غوميز : — اوه ! طبعاً . من الممكن دائماً تجنب الحرب .
وضحك ضحكة قصيرة وأضاف :
— يكفي ان تتخلوا عن التشيكيين .
وفكر ماتيو : « كلا ياعزيزي ، كلا ياعزيزي ! ان بوسع الاسبان ان يعطوني درساً بالنسبة لاسبانيا ، فهذا فرعهم . أما بالنسبة للدروس التشيكوسلوفاكية ، فاني اطلب تشيكياً . »
وسأل : — بصراحة ، يا غوميز ، هل يجب ان نساعدهم ؟ انه لم يمض وقت طويل على مطالبة الشيوعيين بمنح ألمان السوديت استقلالهم .
فسأل غوميز مقلّداً ماتيو :
— هل يجب ان نساعدهم ؟ هل كان يجب ان تساعدونا ؟ هل كان يجب ان تساعدوا النمسويين ؟ وأنتم ، من الذي سيساعدكم حين يأتي دوركم ؟
قال ماتيو : — نحن غير واردين .
فقال غوميز : — بل انتم واردون . من هم الواردون ؟
وقال ماتيو : — كل شريحتك يا غوميز . اني افهم جيداً لماذا تحتقروننا . ولكن هذه آخر أمسية من مأذونيتك ، واللحم يبرد في صحنك ، هناك امرأة تبتسم لك ، ثم اني بعد كل حساب كنت من دعاة التدخّل .
قال غوميز مبتسما : — أعرف ، أعرف جيداً .
وقال ماتيو : — ثم اسمع : كان الوضع في اسبانيا واضحاً . ولكن حين تحدثني عن تشيكوسلوفاكيا فاني لا أتابعك ، لأن الوضع هنا أشدّ غموضاً . هناك مسألة حقوقية لا اتوصل الى البت فيها : فماذا يكون

الأمر إذا لم يرد ألمان السوديت ان يكونوا تشيكيين ؟

قال غوميز وهو يهزّ كتفيه :

ـ دع المسائل الحقوقية . هل تبحثون عن سبب لخوضكم القتال ؟ ليس هناك الا سبب واحد : اذا لم تقاتلوا كنتم هالكين . ان ما يريده هتلر ليس هو براغ ولا فينا ولا دانتزيغ : وانما يريد اوروبا .

نظر دالادييه الى شمبرلن ، ونظر الى هاليفاكس ، ثم صرف عينيه لينظر الى ساعة مذهبة موضوعة على منضدة بهو ، وكان العقربان يشيران الى العاشرة وخمس وثلاثين ؛ وتوقفت السيارة امام الكابان كوبين ، وانقلب جورج على ظهره وأنّ قليلاً ، وكان شخير جاره يمنعه من النوم .

قال دالادييه : ـ لا يسعني الا ان اكرر ما سبق ان صرحت به : لقد أخذت الحكومة الفرنسية التزامات تجاه تشيكوسلوفاكيا . فاذا ظلت حكومة براغ على رفضها للعروض الألمانية ، واذا اصبحت ، بنتيجة هذا الرفض ، ضحية هجوم ، فان الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة الى القيام بالتزاماتها .

وسعل ، ونظر الى شمبرلن ، وانتظر .

قال شمبرلن : ـ نعم . نعم . طبعاً .

وبدا مستعداً لاضافة بضع كلمات ، ولكن الكلمات لم تأت ، وكان دالادييه ينتظر وهو يخط بطرف قدمه دوائر على السجادة . وانتهى به الامر الى ان يرفع رأسه ويسأل بصوت متعب :

ـ ما عساه يكون موقف الحكومة البريطانية في هذه الحالة ؟

نهضت فرانس ومود ودوسيت ودوبي ، والقين التحية . وحدث في الصفوف الأولى تصفيق مائع ، ثم انسرب الجمع وسط ضجة كبيرة للكراسي . وبحثت مود بنظرها عن بيار ، ولكنه كان قد اختفى ؛ والتفتت فرانس نحوها ، وكان خدّاها ملتهبين ، فيما كانت تبتسم .

وقالت : ــ كانت أمسية ناجحة . أمسية ناجحة حقاً .

كانت الحرب هنا ، على الحلبة البيضاء ، كانت الاشراقُ الميت لضوء القمر الاصطناعي ، والحموضة المزيفة للبوق المسدود ، وهــذا البرد على الخوان ، في رائحة الخمر الاحمر ، وهذه الشيخوخة الخفية في ملامح غوميز . الحرب ، الموت ، الهزيمــة . كان دالاديبه ينظر الى شمبرلن ، وكان يقرأ الحرب في عينيــه ، وكان هاليفاكس ينظر الى بونيه ، وكان بونيه ينظر الى دالاديبه ، كانوا صامتين ، وكان ماتيو ينظر الى الحرب في صحنه ، وفي مرقة الشريحة السوداء المعظّمة .

ــ واذا خسرنا نحن ايضاً الحرب ؟

قال غوميز في خفة : ــ ستصبح اوروبا فاشية اذن . وليس هذا اعداداً رديئاً للشيوعية .

ــ وما يكون مصيرك يا غوميز ؟

ــ أعتقد ان انصارهم سيقتلونني في كوخ ، أو أنــني اهرب الى اميركا . فماذا في ذلك ؟ أكون قد عشت .

ونظر ماتيو الى غوميز في فضول ، وسأله :

ــ ولن تتحسر على شيء ؟

ــ اطلاقاً .

ــ حتى ولا على الرسم ؟

ــ حتى ولا على الرسم .

وهز ماتيو رأسه في حزن . كان يحب لوحات غوميز ، وقال :

ــ كنت ترسم لوحات جميلة .

ــ لن أستطيع أبداً ان ارسم .

ــ لماذا ؟

ــ لا أدري . القضية جسيمة . لقــد فقدت الصبر ، وسيبدو لي ذلك مضجراً .

ــ ولكن الحرب تقتضي الصبر ايضاً .
ــ ليس هو الصبر نفسه ،
وصمتا . وأتى الخادم باقراص المعجنات على آنية من قصدير، فرشّها بالروم والخمر ثم أدنى من الآنية عوداً مشتعلاً . وتأرجح طيف من لهب ذات لحظة في الهواء .
وقال ماتيو فجــأة : ــ غوميز ! انك ، انت ، قويّ ، وانت تعرف لماذا تقاتل .
ــ أتعني انك لن تعرف ذلك انت ؟
ــ بلى . اعتقد اني سأعرفه . ولكني لم اكن اقصــد نفسي . ان هناك اشخاصاً لا يملكون إلا حياتهم يا غوميز . وليس ثمّــة من يفعل شيئاً من اجلهم . ليس هناك اي شخص ، ولا اية حكومة ، ولا أي نظام . فاذا حلّت الفاشية هنا محلّ الجمهورية فلن يلاحظوا ذلك . خذ راعياً من منطقة « سيفين » . اتعتقد انه سيعرف لماذا هو يقاتل ؟
قال غوميز : ــ ان الرعاة عندنا أشدّ المقاتلين حماسة .
ــ لماذا يقاتلون ؟
ــ هذا يتوقف . لقد عرفت منهم من يقاتل لتعلّم القراءة .
قال ماتيو : ــ أما في فرنسا ، فالجميــع يعرفون القراءة . فاذا التقيت في فرقتي راعياً من « سيفين » ورأيته يموت الى جانبي ليحافظ على جمهوريتي وعلى حرياتي ، فاقسم لك بأني لن أكون فخوراً . اوه يا غوميز ، ألا تشعر احياناً بالخجل : جميع هؤلاء الذين ماتوا في سبيلك؟
قال غوميز : ــ ان هذا لا يزعجني . فأنا أعرّض حياتي مثلهم .
ــ ان الجنرالية يموتون في سررهم .
ــ لم اكن دائماً جنرالاً .
قال ماتيــو : ــ مهما يكن من أمر ، فليست القضية متشابهة .
وقال غوميز : ــ انني لا أرثي لهم . ولا تأخذني عليهم الشفقة .

ومدّ يده فوق الخوان وقبض علـى معصم ماتيو ، وقال بصوت منخفض بطيء :

– إن الحرب شيء جميل يا ماتيو .

وكان وجهه يشتعل . وحاول ماتيو ان يتخلّص ، ولكن غوميز شدّ ذراعه بقوة وأضاف :

– احب الحرب .

ولم يكن ثمة بعد ما يُقال . وضحك ماتيو ضحكة قصيرة منزعجة فترك غوميز يده . وقال ماتيو :

– لقد تركت تأثيراً قوياً على جارتنا .

والقى غوميز نظره الى يساره ، من بين جفونه الجميلة . وقال :

– أجل . يجب ضرب الحديد حامياً . أتكون هذه الحلبة للرقص ؟

– طبعاً .

ونهض غوميز وهو يزرر سترته . وتوجه الى الممثلة ، فرآه ماتيو ينحني فوقها . وارتدّت برأسها الى الخلف ، ونظرت في ضحـكة مدروسة ، ثم ابتعدا واخذا يرقصان . كانا يرقصان ؛ ولم تكن تشبه الزنجيات قط ، ولا بد انها كانت من المارتينيك . كان فيليب يفكر : « مارتينيكية » وكانت كلمة « مالاباريّة » هي التي طفرتْ على شفتيه وتمتم :

– يا مالاباريّتي الجميلة .

فأجابت :

– انك ترقص جيداً .

وكان في صوتهـا موسيقى ناي صغـيرة ، ولم يكن يخلو ذلك من عذوبة . وقال :

– انت تتكلمين الفرنسية جيداً .

فنظرت اليه في غضب :

ـ لقد وُلدت في فرنسا .
قال : ـ لا بأس . انت مع ذلك تتكلمين الفرنسية جيداً .
وفكر : « انني سكران » ثم ضحك . وقالت له ، بلا غضب :
ـ انك سكران تماماً .
قال ـ نعم .
ولم يكن يشعر بعد بتعبه ، كان مستعداً للرقص حتى الصباح،ولكنه كان قد قرر ان ينام مع الزنجية ، وكان ذلك أرصن . ان ما هو ممتع حقاً في السكر ، هو هذه القدرة التي كان يمنحها على الاشياء ، فأنت لست بحاجة الى لمسها ، نظرة واحدة ، فاذا انت تمتلكها ، كان يملك ذلك الجبين ، وذلك الشعر الاسود ، وكان يداعب عينيه على هذا الوجه الاملس . اما أبعد من ذلك ، فقد كانت الرؤية مائعة ، كان ثمة ذلك السيد الضخم الذي كان يشرب الشمبانيا ، واشخاص آخرون يميل بعضهم على بعض فلا يميزهم جيداً . وكان الرقص قد انتهى ، فعادا الى الجلوس . وقالت :
ـ ما أبرعك في الرقص ! ولا بد انك ، وانت على هذا الجمال ، قد عرفت نساء كثيرات !
قال فيليب : ـ بل انا بكر .
ـ كذاب !
ورفع يده :
ـ اقسم لك اني بكر . اقسم برأس امي !
قالت خائبة : ـ آه ؟ هذا يعني ان النساء لا يثرن اهتمامك .
قال : ـ لا ادري . يجب ان نجرّب .
ونظر اليها ، فامتلكها بعينيه ، وكزّ وجهه وقال :
ـ انني اعتمد عليك .
فنفثت دخان سيجارتها في وجهه :

ـ سترين ما اعرف أن اعمله .
وامسكها من شعرها فجذبها اليه ، وكانت تنبعث منها عـن قرب بعض رائحة الشحم .
وقبّلها قبلة خفيفة في شفتيها . وقالت :
ـ بكر ! سأربح الجائزة الكبرى .
قال : ـ تربحين ؟ ان الانسان يخسر دائماً .
ولم يكن يشتهيها على الاطلاق . ولكنه كان مسروراً لأنها كانت جميلة ولم تكن تخيفه .
واستشعر الرضى التام وفكر : « انني احسن محادثة النساء» وتركها، فانتصبت واقفة ، وسقط صندوق فيليب على الأرض ، فقال :
ـ حذار ! انت سكرانة !
فلمّت الصندوق :
ـ ماذا في داخله ؟
ـ هس ! لا تلمسيه : انها حقيبة دبلوماسية .
قالت وهي تقلّد الاولاد : ـ اريد ان اعرف ما في داخله . يـا حبيبي ، قل لي ما في داخله .
واراد ان ينتزع منها الصندوق ، ولكنها كانت قد فتحته . ورأت المنامة وفرشاة الاسنان ، وحين اكتشفت الـ « رامبو » قالت :
ـ كتاب ؟ ما هذا ؟
قال : ـ هذا ؟ انه شخص قد ذهب .
ـ الى اين ؟
قال : ـ ماذا يهمك من ذلك ؟ لقد ذهب .
واستعاد الكتاب من يديها وأرجعه الى الصندوق ، وقال في سخرية:
ـ انه شاعر . اتراك فهمت الآن فهماً افضل ؟
قالت : ـ طبعاً . كان ينبغي ان تقول ذلك من البدء .

وأغلق الصندوق ، وفكر : « لم أذهب » وسقط سُكره . « لماذا؟ لماذا لم اذهب ؟ » وكان قد أصبح الآن يميّز جيداً السيد الضخم ، قبالته : لم يكن ضخماً الى الحدّ الذي تخيّله ، وكانت له عينان مخيفتان . وانفرطت العناقيد البشرية من تلقاء نفسها : كان ثمة نساء ، سوداوات وبيضاوات ، ورجال ايضاً . وخيل اليه انهم كانوا ينظرون اليه ملياً ، « لماذا انا هنا ؟ كيف تراني قد دخلت ؟ ولماذا لم اذهب؟ كان في ذكرياته ثقب : كان قدَ رمى الفلس في الهواء ، ونادى سيارة تاكسي وها هوذا الآن : إنه جالس الى هذه الطاولة ، امام قدح شمبانيا، مع هذه الزنجية التي تنبعث منها رائحة صمغ السمك . كان ينظر الى هذا الفيليب الذي كان يقذف الفلس في الهواء ، وكان يحاول ان يسبر غوره ، ويفكر : « انا واحد آخر » ، كان يفكر : « انني لا اعرفني » وأدار رأسه نحو الزنجية .

وسألته : — لماذا تنظر الي ؟

— هكذا .

— هل تجدني جميلة ؟

— بين بين .

فبلعت ريقها واشتعلت عيناها : ورفعت مؤخرتها بضعة بوصات فوق المقعد فيما ضغطت بيديها الخوان :

— ان كنت تجدني قبيحة ، فيمكنني ان اذهب : فلسنا متزوجين .

وبحث في جيوبه فأخرج ثلاث اوراق مدعوكة من فئة الالف فرنك وقـال :

— خذي . خذيها وابقي .

فأخذت الاوراق وفتحتها وملّستها ثم جلست وهي تضحك . وقالت:

— انك صبيّ وسخ . صبي صغير وسخ .

وكانت قد انفغرت امامه هوّة من الخجل : وما كان عليه الا ان

يتداعى للسقوط فيها . انه مصفوع ، مضروب ، مطرود، ولم يذهب. وكان ينحني فوق الثقب فيأخذه الدوار . كان العار ينتظره في القعر، وما كان عليه الا ان يختار ان يشعر بالعار. التعب ، العار ، الموت ، اختيار الشعور بالعار . لماذا لم اذهب ؟ لماذا اخترت الا اذهب ؟وخيل اليه انه كان يحمل العالم على كتفيه . وقالت له :

– لست اراك ثرثاراً .

فوضع اصبعه تحت ذقنها :

– ما اسمك ؟

– فلوسّي .

– ليس هو اسماً مالاباريا .

قالت في غيظ : – قلت لك اني ولدت في فرنسا .

– اسمعي يا فلوسّي : لقد اعطيتك ثلاث اوراق ، افلا تريدين ان اتحدث اليك فوق ذلك ؟ فهزت كتفيها وأدارت رأسها . وكان الثقب الأسود ما يزال هناك ، وفي قعره العار . وكان ينظر اليـه وينحني فوقه ، ثم اذا به فجأة يفهم ، فيلوي القلق قلبه : ان هـذا شرك ، فاذا وقعت فيه ، كففت عن احتمال نفسي . الى الابد . ونهض ، وفكر في قوة : « انما عدلت عن الذهاب لأني كنت ثملاً . » ثم انغلقت الهاوية : لقد اختار : « انما عدلت عن الذهاب لأني كنت ثملاً . » لقد لامس العار عن كثب ، ولقد شعر بخوف مفرط : اما الآن فقد اختار الا يحسّ بالعار . الى الابد .

– تصوّري انه كان علي ان استقل القطار . ولكني كنت ثملا جداً.

فقالت بلهجة طفولية : – ستستقلّه غداً .

فانتفض :

– لماذا تقولين لي ذلك ؟

فقالت مندهشة :

– ان من يفوت قطاراً ، يأخذ التالي .
قال وهو يقطب حاجبيه :
– انني لن أذهب . فقد غيّرت رأيي . أتعرفين ما هي العلامة ؟
فردّدت : – العلامة ؟
– ان العالم مليء بالعلامات . فكل شيء علامة . وينبغي ان نعرف فكّ ألغازها . يكون عليك ان تذهبي ، فتثملين ولا تذهبين بعد : لماذا لم تذهبي ؟ ذلك انه وجب عليك الا تذهبي . تلك علامة : إن عندك هنا عملا أفضل تقومين به .
وهزت رأسها وقالت :
– هذا صحيح . صحيح جداً ما تقوله .
عمل أفضل . جمع الباستيل ، ينبغي القيام بالدليل أمامه . في مكانه ينبغي ان أمزّق نفسي حيث انا . اورفيه . « لتسقط الحرب ! » من ذا الذي يستطيع ان يقول اني جبان ؟ سأريق دمي من اجلهم جميعاً ، من اجل موريس وزيزيت ، من اجل بيتو ، ومن اجل الجنرال ، ومن أجل جميع الناس الذين ستمزقني أظفارهم . والتفت الى الزنجية فنظر اليها بحنان : ليلة ، ليلة واحدة . ليلتي الغرامية الاولى . ليلتي الاخيرة .
– انك جميلة يا فاوستي .
فبسمت له :
– تستطيع ان تكون لطيفاً حين تشاء .
قال لها : – تعالي لنرقص . سأكون لطيفاً حتى صياح الديك .
كانا يرقصان . كان ماتيو ينظر الى غوميز ، وكان يفكر : « ليلته الاخيرة » ثم يبتسم ، كانت الزنجية تحب الرقص ، وكانت تغمض عينيها نصف اغماضة ؛ وكان فيليب يرقص ، ويفكر : « ليلتي الاخيرة ، ليلتي الغرامية الاولى . » ولم يكن يشعر بعد بالعار ؛ كان تعبا ، وكان الحر شديداً ، غداً سأريق دمي من اجل السلام . ولكن الفجر كان ملء

يزال بعيداً . كان يرقص ، وكان يستشعر الرضى والتبرير ، ووجد نفسه خيالياً . انزلقت الاضواء على طول الجدار ، وكان القطار يتمهّل، صرير ، هزات ، وتوقف ، ولطّخ النور الحافلة ، فطرف شارل بعينيه وترك يد كاترين ، وصاحت الممرضة :

— لاروش ميجين . لقد وصلنا .

قال شارل : — لاروش ميجين ؟ ولكننا لم نمر بباريس ؟

قالت كاترين : — لقد ضللونا .

وصاحت الممرضة : — اجمعوا حوائجكم . سوف ينزلونكم .

وكان بلانشار قد استيقظ منتفضاً ، فقال :

— ماذا ، ماذا ؟ اين نحن ؟

فلم يجب أحد ، وأوضحت الممرضة :

— سنستقل القطار مرة اخرى غداً . سنقضي الليل هنا .

قالت كاترين وهي تضحك :

— ان عينيّ تؤلمانني . بسبب هذا النور .

فأدار رأسه نحوها ، وكانت تضحك وهي تحمي عينيها بيدها ، وكانت الممرضة تصرخ :

— اجمعوا حوائجكم ، اجمعوا حوائجكم .

وانحنت على رجل أصلع كانت جمجمته تلمع :

— هل انتهيت ؟

قال الرجل : — دقيقة ! يا للشيطان !

قالت : — عجِّل . سوف يصل الحمالون .

قال : — هيا ، هيا ، تستطيعين ان تأخذيها ، لقد قطعت لي القابلية !

فنهضت ، وكانت تحمل الطست على مدى ذراعيها ، وتخطّت اجساماً فاتجهت نحو الباب .

قال شارل : — اننا هنا هادئون . ربما كانوا دزينة من الرجال ، وهنا عشرون حافلة ينبغي إفراغها . فحتى يصلوا الينا ...
— الا اذا بدأوا بالذَنَب .
ووضع شارل معصمه امام عينيه :
— اين تراهم سيضعوننا ؟ في قاعات الانتظار ؟
— اتصور ذلك .
— يزعجني قليلا ان اترك هذه الحافلة . لقد اقمت فيها ركني .وانت ؟
فقال لها : — يكفيني انا ان اكون معك ...
وصاح بلانشار : — ها هم اولاء .
ودخل رجال الى الحافلة . وبدوا سوداً لانهم كانوا يولون النور ظهرهم ، وقد ارتسمت ظلالهم على الجدار ، فكأنما كانوا يدخلون من الجهتين في وقت واحد . وساد الصمت ، فقالت كاترين بصوت منخفض:
— قلت لك انهم سيبدأون بنا .
فلم يجب شارل . ورأى رجلين ينحنيان فوق مريض،فانقبض قلبه : كان جاك نائماً ، وكان أنفه يغني . ولم تكن تستطيع النوم ؛ انها لن تنام قبل ان يعود،ورأى شارل امام قدميه تماماً ظلاً ضخماً ينحني ، انهم ينقلون الرفيق الأمامي ، وبعد ذلك يأتي دوري ، والليل ، والدخان ، والبرد ، والاهتزاز ، والمحطات المقفرة ، كان خائفــاً . وكان تحت الباب شعاع من نور ، وسمعت ضجة في الطابق الارضي . ها هوذا ؛ وعرفت مشيته في السلم ، فهبط السلام في اعماقها : انه هنــا ، تحت سقفنا ، اني املكه . ليلة اخرى . الاخيرة . وفتح ماتيو الباب ، ثم اغلقه ، وفتح النافذة فأغلق المصاريع ، وسمعت الماء يجري . سوف ينام في الطرف المقابل لهذا الجدار ، تحت سقفنا .
قال شارل : — هذا دوري . قولي لهم ان ينقلوك فوراً بعدي ؛ وشد بقوة على يدها ، بينما كان الرجلان ينحنيان عليه فيتنقى في

ووجهه نفساً خمرياً .
قال الرجل : — هان ! خلفه .
وأخذه الخوف فجأة فحرك مرآته بينما كانا يحملانه ، وكان يريد ان يرى اذا كانت تتبعه . ولكنه لم يلحظ الا كتفي الحمّال ورأسه الشبيه برأس طير الليل .
وصرخ : — كاترين .
فلم يتلق اي جواب . وكان يتأرجح فوق العتبة ، وكان الرجل يصدر الاوامر خلفه، وانخفض ساقاه فحسب انه يسقط ، وقال :
— على مهل ، على مهل .
ولكنه كان قد بدأ يرى النجوم في السماء السوداء ، وكان الطقس بارداً .
وسأل : — هل هي تتبعني ؟
فسأله الرجل ذو الرأس العصفوري :
— من هي ؟
— جارتي . انها صديقة .
قال الرجل : — سنهتمّ بالنساء فيما بعد . ولن نضعكم في مكان واحد.
فأخذ شارل يرتجف ، وقال :
— ولكني كنت أظن ...
— ولكنكم لا تريدون على اي حال ان يَبُلْنَ امامكم ؟
قال شارل : — كنت اظن . . كنت أظن ...
وأمرّ يده على جبينه وجعل فجأة يهدر :
— كاترين ! كاترين ! كاترين !
وكان يتأرجح على اذرعتها ، وكان يرى النجوم ، وكان مصباح ينبثق في عينيه ، ثم النجوم ، ثم مصباح ، وكان يصيح :
— كاترين ! كاترين !

قال الحمّال الخلفي : — ان هذا مجنون ! هل تراك ستخرس ؟
فقال شارل بصوت تخنقه الدموع :
— ولكني لا اعرف حتى اسمها . سوف أفقدها الى الابد .
ووضعاه على الارض ، ثم فتحا باباً ، وحملاه من جديد ، فرأى سقفاً أصفر كئيباً ، وسمع الباب ينغلق ، ووقع في الشرك . وقال بينما كانوا يضعونه ارضاً :
— قذرون ! قذرون !
فقال الرجل صاحب الرأس العصفوري :
— ولكن ، اسمع انت !
قال الآخر : — دعه . فانت ترى انه يشتغل من قبعته .
وسمع خطاهما تتلاشى ، وانفتح الباب ثم انغلق . وقال صوت بلانشار :
— عجباً ، كيف نلتقي من جديد .
وفي اللحظة نفسها ، تلقى شارل دفقةً من ماء في وجهه ، ولكنه صمت ، وظلّ جامداً ، كالميت ، ينظر الى السقف ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما ، بينما كان الماء يسيل في اذنيه وعلى عنقه . لم تكن تريد ان تنام ، وظلت جامدة على ظهرها ، في الغرفة المظلمة ؛ انه ينام ، ولن يلبث طويلاً حتى يستغرق في النوم ، فأحرسه أنا . انه قوي ، انه نقيّ ، وقد علم هذا الصباح انه ذاهب الى الحرب ، فلم يرتعش حتى جفناه . اما الآن ، فهو منزوع السلاح ؛ سوف ينام ، وهذه هي الليلة الاخيرة . وفكرت : آه ، كم هو خيالي .
كانت غرفة معطرة دافئة ، ذات اضواء أطلسية وازهار في كل مكان . قالت :
— ادخل .
فدخل غوميز ، ونظر فيما حوله ، فرأى دميةً على ديوان وفكر في

« توريول » . لقد سبق له ان نام في غرفة شبيهة كل الشبه ، ذات مصابيح ودمى وازهار ، ولكن بلا عطر ولا سقف . وكان في وسط الارض الخشبية ثقب .

ـ لماذا تبتسم ؟

فقال : ـ هذا مكان لطيف .

واقتربت منه :

ـ اذا كانت الغرفة تعجبك ، فبامكانك ان تعود اليها متى شئت .

قال غوميز : ـ اني ذاهب غداً .

قالت : ـ غداً ؟ واين انت ذاهب ؟

وكانت تنظر اليه بعينيها الجميلتين اللتين لا تعبير فيهما .

ـ الى اسبانيا ..

ـ الى اسبانيا ؟ انك اذن ...

قال : ـ نعم ، انا جندي في مأذونية .

وسألته : ـ ومع ايّ جانب انت ؟

ـ مع اي جانب تريدين ان اكون ؟

ـ مع جانب فرانكو ؟

ـ طبعاً !

فأحاطت عنقه بذراعيها :

ـ يا جنديـيّ الجميل !

وكان لها نَفَسٌ لذيذ ، فقبّلها . وقالت :

ـ ليلة واحدة . ليس هذا بالكثير . التقيت اخيراً برجل يروق لي !

قال : ـ سوف اعود ، حين يكون فرانكو قد ربح الحرب ...

وقبّلته مرة اخرى ثم تخلّصت بلطف :

ـ انتظرني . ان على الطاولة زجاجتيّ « جن » وويسكي .

وفتحت باب غرفة التواليت واختفت . وذهب غوميز الى الطاولة

فملأ قدحاً من الجن . كانت الشاحنات تجري ، وكان الزجاج يهتزّ ، وافاقت ساره منتفضة ، فجلست على السرير ، وهي تتساءل : « ولكن كم يبلغ عددهـــا ، انها لا تكاد تنتهي » . شاحنات ثقيلة ، سبق ان طليت للتضليل ، وعلى ظهرها أغطية رمادية وخطوط خضراء وسمراء، ولا بدّ انهـــا ملأى بالجنود والاسلحة . وفكرت : « انها الحرب » وأخذت تبكي . « كاترين ! كاترين ! » لقد بقيت عامين ، وهي جافّة العينين ، وحين صعد غوميز الى القطار ، لم تجد دمعة واحدة ؛ اما الآن ، فان الدمع يسيل . « كاترين ! » كانت الغصّات تهزّها، فارتمت على الوسادة ، وكانت تبكي وهي تعضّها حتى لا توقظ الصغير. وشرب غوميز جرعة جن فوجده لذيذاً. وخطا بضع خطوات في الغرفة ثم جلس على الديوان . وكان يمسك قدحه بيد ، وباليد الاخرى قبض على الدمية من رقبتها وأجلسها على ركبتيه . وكان يسمع ماء صنبور يجري في غرفة التواليت ، فكانت عذوبة معهودة تصعد في خاصرتيه ، كيدين ملساوين . كان سعيداً ، وشرب ، وفكر : « انني قوي » ؛ وكانت الشاحنات تجري ، والزجاج يهتزّ ، وماء الصنبور يجري، وغوميز يفكر : « انني قوي ، وانا احب الحياة ، واخاطر بحياتي ، وانتظر الموت غداً ، وفي هذه الساعة، ولا أخشاه ، احب الترف، وسوف اجد البؤس والجوع . اعرف ما اريد ، اعرف لماذا اقاتل ، آمر فأطاع ، زهدت في كل شيء ، في الرسم والمجد ، وانني لسعيد » . وفكر في ماتيو وقال في نفسه : « انني لا اودّ ان اكون في جلده » . وفتحت الباب ، وكانت عارية في ثوبها الوردي وقالت :

ـ هاأنذي .

قالت : ـ هكذا إذن ! آه ! خراء إذن !

وكانت قد قضت نصف ساعة في غرفة التواليت وهي تغتسل وتتعطّر، لأن البيض لم يكونوا يحبون رائحتها دائماً ، واقتربت منه مبتسمة مفتوحة

الذراعين ، وكان ينام عارياً في السرير ، ورأسه غارق في الوسادة . فأخذته من كتفه وهزّته بغضب ، وقلت بصوت مصفّر :

— أتريد ان تستيقظ ، ايها الوسخ الصغير ، اتريد ان تستيقظ ؟

وفتح اجفانه ونظر اليها بعينيه المبهمتين . وضع القدح على الرفّ ، والدمية على الديوان. فنهض على غير عجل وأخذها بين ذراعيه . وكان سعيداً .

سأل غرولويس : — هل تستطيع ان تقرأ هذا ؟

فدفعه العامل : — هذه هي المرة الثالثة التي تطرح عليّ فيها السؤال. قلت لك انك ذاهب الى مونبلييه .

— وأين هو قطار مونبلييه ؟

— انه يتحرك في الساعة الرابعة صباحاً ، وهو لم يصل .

فنظر اليه غرولويس في قلق :

— ما الذي ينبغي ان أعمله إذن ؟

— التصق بقاعة الانتظار ، وخذ لك غفوة حتى الساعة الرابعة . هل معك تذكرتك ؟

قال غرولويس : — لا .

— إذهب اذن فاقطعها : لا ، ليس من هنا ! آه ! ايّ حمار صغير : بل عند النافذة يا مجنون .

فاتجه غرولويس الى النافذة : وكان ثمة موظف ذو نظارات يغفو خلف الزجاج . قال غرولويس :

— هيه !

فانتفض الموظف : وقال غرولويس :

— اني ذاهب الى مونبلييه .

وكان يبدو الاندهاش على الموظف ، ولا ريب في انه لم يكن قد أفاق تماماً . ومع ذلك ، فقد انتاب روح غرولويس شك جديد :

ـ هل هي مونبلييه المكتوبة هنا ؟
وأراه دفتره العسكري . فقال الموظف :
ـ مونبلييه . ربع محلّ . خمسة عشر فرنكاً .
مدّ غرولويس المئة فرنك التي أعطته إياها المرأة ، وقال :
ـ والآن ، ما الذي ينبغي ان أعمله ؟
ـ اذهب الى قاعة الانتظار .
ـ في اية ساعة يسير القطار ؟
ـ في الساعة الرابعة . الا تعرف القراءة ؟
قال غرولويس : ـ لا .
وتردّد في الذهاب وسأل :
ـ أصحيح ان الحرب ستقع ؟
فهزّ الموظف كتفيه :
ـ ما الذي يدريني ؟ ان هذا غير مكتوب في الدليل ، أليس كذلك؟
ونهض واتجه نحو داخل الغرفة ، وكان يتظاهر بأنه يراجع اوراقاً، ولكنه لم يلبث بعد لحظة ان جلس ، ووضع رأسه بين يديه وعاد الى غفوته . ونظر غرولويس فيما حوله ، وكان يودّ لو يجد شخصاً يدلي له بالمعلومات عن قصص الحرب هذه ، ولكن الساحة كانت مقفرة ، فقال : « إذن سأذهب الى قاعة الانتظار » وعبر الساحة وهو يجرّ قدميه : كان ناعساً ، وكانت أُليتاه تؤلمانه .

وأنّ فيليب : ـ دعيني انام .

قالت فلوسي : ـ فيما بعد . بكر ! يجب ان تنتهي منها ، وسوف يُسعدني ذلك .

ودفع الباب فدخل القاعة : وكانت ملأى بالناس الذين ينامون على المقاعد وبالحقائب والرزم ملقاة على الارض . وكان النور حزيناً ، وكان الباب الزجاجيّ ينفتح في الداخل على ظلام . واقترب من مقعد فجلس

بين امرأتين . وكانت احداهما تعرق وتنام فاغرة الفم ، وكان العرق يسيل على وجنتيها ، فيخلّف آثاراً وردية . اما الاخرى فقد فتحت عينيها ونظرت اليه، فقال غرولويس شارحاً :

– لقد دُعيت الى الجندية ، ويجب ان اذهب الى مونبلييه .

فابتعدت المرأة بحيوية ، ورمته بنظرة مليئة بالتوبيخ . وفكر غرولويس بأنها لم تكن تحب الجنود ، ولكنه سألها مع ذلك :

– ترى هل ستقع الحرب ؟

فلم تجب : وكانت قد قلبت رأسها الى الوراء ، وعادت الى النوم ، وكان غرولويس يخشى ان ينام . وقال : « اذا نمت ، فلن استيقظ ابداً » . ومدّ ساقيه ، وكان يودّ لو يأكل شيئاً ما صغيراً ، خبزاً او مقانق مثلاً ؛ كان ما يزال معه مال ، ولكن الوقت كان ليلاً ، وجميع الحوانيت كانت مغلقة . وقال : « ولكن نحن في حرب مع من ؟ » لا ريب في ان ذلك كان مع الألمان . وربما كان هذا بسبب الألزاس واللورين . وكان ثمة جريدة ملقاة على الارض ، عند قدميه ؛ فلمّها ثم فكر بالمرأة الطيبة التي ضمدت له رأسه وقال : كان ينبغي الاّ أذهب . وقال : حسناً ، ولكن اين كنت سأكون ، فليس معي مال بعد . وقال : اما في الثكنة فانهم يطعمونني . ولكنه لم يكن يحب الثكنات . ولا قاعات الانتظار . واحسّ دفعة واحدة انه كان حزيناً ومُفرغاً . لقد اسكروه وضربوه ، وها هم الآن يرسلونه الى مونبلييه، وقال : يا ربي ! اني لا افهم شيئاً من ذلك . وقال : ذلك لأني لا اعرف القـــراءة : وجميع هؤلاء الذين ينامون كانوا يعرفونها خيراً منه ؛ كانوا قد قرأوا الجريدة ، وكانوا يعرفون لماذا ستقع الحرب ؛ اما هو ، فقد كان وحيداً في الليل ، وحيداً وصغيراً ، لم يكن يعرف شيئاً ، ولم يكن يفهم شيئاً ، فكأنه كان قادماً على الموت . ثم انه أحسّ بالجريدة تحت أصابعه : كان ذلك مكتوباً هنا . لقد كتبوا كل

شيء : الحرب ، الطقس غداً ، أسعار الحاجيات ، ساعات القطارات، وفتح الجريدة ونظر ، فرأى الوفاً من اللطخات السوداء ، وكانت تشبه ملفّات الاراغن البربرية ، مع هذه الثقوب في الورق التي تحدث اصواتاً حين يُدار المحرّك . ان من ينظر اليها طويلاً يصاب بالدوار . وكان ثمّة صورة ايضاً . رجل نظيف مسرّح الشعر يضحك . وترك الجريدة تسقط ، وأخذ يبكي .

الاثنين ٢٦ ايلول

الساعة ١٦٫٣٠ . الجميع ينظرون الى السماء ، وانا انظر الى السماء. وقال دومور : « انهم لم يتأخروا » . وقد اخرج آلته التصويرية ، وهو ينظر الى السماء ، فيكزّ وجهه ، بسبب الشمس . وكانت الطائرة تارة سوداء ، وتارة ملتمعة ، وقد تضخّمت ولكن هديرها ظلّ هو نفسه ، هدير جميل مليء يروق سماعه . وقالت : « لا تدفعوني » ، وكانوا جميعاً هنا ، يتدافعون خلفي . والتفتّ : انهم يقلبون رؤوسهم الى الوراء ، فتكزّ وجوههم ، ويبدون خضراً تحت الشمس ، وتتحرك اجسامهم حركات مبهمة كحركات الضفادع المقطّعة الاوصال . وقال دومور : « سيأتي يومٌ نكون فيه هكذا مرفوعي الأنف في الهواء ، ونحن في معسكر ؛ غير اننا سنكون مرتدين الثوب الكاكي ، وستكون الطائرة من طراز مسرشميت » . فقلت : « لن يكون هذا غداً ، اذا تذكّرنا جميع هذه البيضات الرخوة » ورسمت الطائرة دوائر في السماء ، وهبطت واصطدمت بالارض ، وصعدت واصطدمت مرة اخرى ، ودرجت على العشب وهي تقفز ، وتوقفت . وركضنا نحو الطائرة ، ونحن خمسون ، وركض سارو امامنا منطوياً الى اثنين ؛ وهناك زهاء عشرة من السادة بطاقياتهم يعدون على العشب وهم يلوون أقدامهم ، ويتجمّد الجميع ، وتفقد الطائرة الروح ، فننظر اليها صامتين ، وباب

المقاعد ما يزال مقفلاً ، فكأنهم جميعهم قد ماتوا في الداخل . وحمل شخص في ثوب أزرق سلّماً فأسنده الى الطائرة ، وانفتح الباب ، فنزل شخص على السلّم ثم آخر ثم دلادييه . ويخفق قلبي في رأسي ، ويرفع دلادييه الكتفين ويخفض الرأس ؛ ويقترب منه سارو ، فأسمعه يقول :

— ماذا جرى ؟

فأخرج دلادييه يداً من جيبه وقام بحركة غامضة ، ويدلف وهو خافض الرأس فيرتمي عليه القطيع ويغطّيه ؛ ولا أتحرك ، فانا اعرف انه لن يقول شيئاً . ويقفز الجنرال غاملان من الطائرة . انه نشيط ، وهو ينتعل حذاء جميلاً ويحمل رأساً شبيهاً برأس كلب الحراسة . وينظر امامه نظرة فتيّة قارصة .

وسأل سارو : — واذن ، ماذا يا جنرالي ؟ هل هي الحرب ؟

قال الجنرال : — إيه ، يا إلهي .

وجفّ فيّ ؛ سأموت في ذلك ! وصرخت الى دومور : « انني أفرنقع . خذ صورك وحدك » . وعدوت الى باب الخروج ، وعدوت في الشارع وناديت سيارة تاكسي وقلت : « الى الاومانيته » فابتسم السائق ، وابتسمت له ، فقال :

— واذن ، ايها الرفيق ؟

فاجبته :

— انتهى الأمر ، انهـا في استهم هذه المرة ؛ ولم يستطيعوا ان يتراجعوا .

وجرى التاكسي بأقصى سرعته ، وجعلت انظر الى البيوت والناس ؛ ان الناس لا يعرفـون شيئاً ، وهم لا يتنبهون للتاكسي ، والتاكسي يجري بينهم بأقصى سرعة حاملاً شخصاً يعرف . وأضع رأسي على الباب ، وتأخذني الرغبة في ان أصيح بهم ان الأمر قد انتهى . واقفز

خارج التاكسي ، فأدفع وأرقى الدرج بسرعة شديدة . انهم كلهم هنا : دوبريه ، شارفيل ، رونار وشابو . وهم بالقمصان ذات الأكمام القصيرة ، رونار يدخّن ، وشارفيل يكتب ، ودوبريه ينظر من النافذة . وينظرون اليّ في دهشة . فأقول لهم :

ـ تعالوا ايها الرفاق ، انزلوا ، انها نوبتي .

ولا يكفّون عن النظر اليّ ، ويرفع شارفيل رأسه فينظر اليّ ، وأقول :

ـ انتهى الأمر ، انتهى الأمر ، انها الحرب ، إنزلوا ، انها نوبتي ، فانا ادفع ثمن الشراب .

قالت صاحبة الفندق : ـ ان لديك قبعة جميلة .

فقالت فلوسي : ـ أليس كذلك .

ونظرت في مرآة المدخل وقالت برضى :

ـ ان لها ريشاً .

قالت صاحبة الفندق : ـ اوه ، نعم (واضافت) ان لديك شخصاً ، ولم تستطع مادلين ان تنظف الغرفة .

قالت فلوسي : ـ اعرف ذلك ، ولا بأس : سأنظّفها انا نفسي.

ورقيت السلّم فدفعت باب غرفتها . كانت المصاريع مغلقة ، وكانت الغرفة تبعث رائحة الليل . وشدّت فلوسي الباب على مهل وذهبت تدق على الرقم ١٥ .

وقال صوت « زو » الأبحّ : ـ من هناك ؟

ـ انا فلوسي .

وانت زو تفتح وهي في سروالها القصير :

ـ ادخلي بسرعة .

فدخلت فلوسي . ورمت زو شعرها الى الوراء ، وانزوت في وسط الغرفة ، وشرعت تراكم نهديها الضخمين في رافعة . وفكرت فلوسي بأن

عليها ان تحلق إبطيها . وسألت :
ـ الآن فقط تنهضين ؟
قالت زو : ـ لقد نمت في الساعة السادسة . فماذا هناك !
قالت فلومي : ـ تعالي لتري صاحبي العظيم .
ـ ماذا تحكين ايتها الزنجية ؟
ـ تعالي لتري صاحبي العظيم .
فارتدت زو معطفاً وتبعتها في الممر . وأدخلتها فلومي الى الغرفة وهي تضع إصبعاً على شفتيها . وقالت زو :
ـ انني لا ارى شيئاً .
فدفعتها فلومي نحو السرير وهمست :
ـ انظري .
وانحنتا كلتاهما ، وأخذت زو تضحك بصمت ، وقالت :
ـ طز ! طز ! انه طفل .
ـ اسمه فيليب .
ـ كم هو جميل !
وكان فيليب نائماً على ظهره ، وكان يبدو كأنه ملاك . وكانت فلومي تنظر اليه في مزيج من الافتتان والحقد . وقالت زو :
ـ انه اشدّ شقرة مني .
قالت فلومي : ـ هو بكر .
فنظرت اليها زو وهي تضحك بدقّة :
ـ كان .
ـ ماذا ؟
ـ تقولين : هو بكر . فأقول لك : كان بكراً .
ـ آه ! آه ! نعم ، ولكن ، اظنّ انه بقي كذلك .
ـ بلا مزاح !

قالت فلوسي بجفاء : ــ انه ينام هكذا منذ الساعة الثانية صباحاً .
وفتح فيليب عينيه ، فنظر الى المرأتين اللتين كانتا منحنيتين فوقه ، وقال : « هو ! » ثم انقلب على بطنه . وقالت فلوسي .
ــ انظري .
ونزعت الغطاء ، فبدا الجسم ابيض عارياً . وأدارت زو عينيها في محجريها وقالت :
ــ ميام ! ميام ! غطيّه ، والا ارتكبتُ الحماقات الجنونية .
وأمرّت فلوسي يداً خفيفة على خاصرتي الصغير الضيقتين ، وعلى إليتيه الفتيّتين الدقيقتين ، ثم ردّت الغطاء وهي تتنهّد .
قال السيد بيرنانشاتز : ــ اعطني واحد « نوايي ــ كاسي »
وتداعى للسقوط على المقعد وهو يمسح جبهته . وكان يستطيع ان يراقب عبر مرايا الباب مدخل مكتبه . وسأل « نو » :
ــ ماذا تأخذ ؟
فقال « نو » : ــ الشيء نفسه .
وكان الخادم يبتعد ، فناداه « نو » :
ــ إجلب لي « الانفورماسيون » .
وتبادلا النظر في صمت ، ثم رفع نو ذراعه فجأة في الهواء وقال :
ــ اي ! اي ! اي ! اي ! يا عزيزي بيرنانشاتز !
قال السيد بيرنانشاتز : ــ نعم .
وملأ الخادم قدحيهما ومدّ الجريدة الى نو . ونظر الى بيان أسعار اليوم ، فكزّ وجهه ووضع الجريدة على الطاولة قائلا :
ــ سيء .
ــ طبعاً . ماذا تريدهم ان يصنعوا ؟ انهم ينتظرون خطاب هتلر .
واجال السيد بيرنانشاتز نظرة شرسة على الجدران والمرايا . وكان في العادة يحب هذا المقهى الصغير الناعم ؛ اما اليوم ، فقد كان يغيظه

الا يكون فيه على رضى . واستطرد قائلا :
– ليس ثمة بعد الا الانتظار . لقد فعل دلادييه ما في استطاعته وفعل شمبرلن ما في استطاعتـــه ، وليس ثمة بعد الا الانتظار الآن . سوف نتعشى بلا قابلية ، ومنذ الساعة الثامنة والنصف ، سنديو مفتاح الراديو لنسمع هـــذا الخطاب (واضاف فجأة وهو يضرب الطاولة) ننتظر ماذا ؟ أهواء رجل واحد . رجل واحد . ان الاعمال في كساد ، والبورصة هابطة ، ووكلائي مقاوبو الرؤوس ، وقد جُنِّد « مي » المسكين : كل ذلك بسبب رجل واحد ، فالحرب والسلم هما بين يديه. ان ذلك يجعلني أخجل من أجل الانسانية .
نهض برونيه ، فنظرت اليه السيدة سامبوليه ، وكان يروقها قليلا : فلا بدّ انه يضاجع جيداً ؛ بهدوء وصمم ، وبطء قروي ، وسألته :
– ألا تبقى ؟ سوف تتعشى معي .
واشارت الى جهاز الراديو وأضافت :
– سأقدّم لك كمهضّم خطابَ هتلر .
قال برونيه : – ان لديّ موعداً في الساعة السابعة . ثم بكل صراحة : طز بخطاب هتلر .
فنظرت اليه السيدة سامبوليه من غير ان تفهم . قال برونيه :
– اذا ارادت المانيا الرأسمالية ان تعيش ، فهي بحاجة الى جميع الاسواق الاوروبية. فيجب اذن ان تزيل بالقوة جميع منافسيها الصناعيين. (واضاف بحزم) إن على المانيا ان تخوض الحرب ، وعليها ان تخسرها. فلو قتل هتلر عام ١٩١٤ لكنّا تماماً حيث نحن الآن .
قالت السيدة سامبوليه وحلقها منقبض :
– هذه القضية التشيكية ليست اذن خدعة ؟
قال برونيه : – ربما كانت خدعة في رأس هتلر . ولكن ما في رأس هتلر لا اهمية له على الإطلاق .

وأكّد بيرنانشاتز : — انه ما يزال يستطيع ان يمنعها . اذا اراد، استطاع منعها . فجميع الوسائل في يده : ان انكلترا لا تريد الحرب، واميركا أبعد مما ينبغي ، وبولونيا تمشي معهـــا ؛ فلو أراد ، أصبح غداً سيد العالم ومن غير ان يطلق طلقة مدفع واحدة.لقد قبل التشيكيون المشروع الفرنسي — الانكليزي ، فليس له الا ان يقبله هو ايضاً،فاذا أعطى دليل الاعتدال هذا ...

قال برونيه : — انه لا يستطيع بعد ان يتراجع . والمانيا كلها من ورائه تدفعه .

قالت السيدة سامبوليه : — ولكننا نستطيع نحن ان نتراجع .

فنظر اليها برونيه وأخذ يضحك ، ثم قال :

— آه ، صحيح ، نسيت انك مسالمة .

وقلب نو العلبة فسقطت قطع الدومينو على الطاولة ، وقال :

— اي ! اي ! اني اخاف اعتدال هتلر . هل تتصور النفوذ الذي سيكسبه إيّاه ذلك ؟

وكان قد انحنى على السيد بيرنانشاتز واخذ يهمس في اذنه . فابتعد السيد بيرنانشاتز في انزعاج : ان نو لم يكن يستطيع ان يقول ثلاث كلمات من غير ان يهمس بهيئة متآمر ، بينما تكون يداه تطيران في الجو :

— اذا قبل المشروع الفرنسي — الانكليزي ، فان دوريو سيتسلّم الحكم بعد ثلاثة أشهر .

قال السيد بيرنانشاتز وهو يهزّ كتفيه : — دوريو ...

— دوريو او سواه .

— وبعد ذلك ؟

قال نو وهو يخفض صوته : — ونحن ؟

فنظر السيد بيرنانشاتز الى فمه الأليم الضخم وأحس بان الغضب كان يحرّ اذنيه ، فقال بجفاء :

– كل شيء خيرٌ من الحرب .

– اعطني الرسالة ، فان الصغيرة ستضعها في البريد .

فوضع الظرف على الطاولة بين آنية ووعاء من القصدير : الآنسة ايفيش سرغين ، ١٢ شارع الميجيسيري ، لاون . وألقت اوديت نظرة على العنوان ، ولكنها لم تعلّق اي تعليق ، وكانت تنتهي من عقد خيط حول رزمة كبيرة .

قالت : – نا ! نا ! نا ! سأنتهي ، فلا تفقد صبرك .

كان المطبخ ابيض نظيفاً ، دار تمريض . وكانت تنبعث منه رائحة الصمغ والبحر .

قالت اوديت : – لقد وضعت جناحي دجاجة ، وبعض الجيليه ، لأنك تحبّه ، ثم بعض قطع من الخبز وسندويش الخنزير النيء . وفي زجاجة الترموس خمر . وليس عليك الا ان تحتفظ بها ، فهي سوف تنفعك هناك .

وبحث عن نظرها،ولكنها أخفضت عينيها على الرزمة وبدت منهمكة. وركضت الى الخزانة ، فقطعت طرفاً طويلا من خيط وعادت الى رزمتها وهي تعدو .

قال ماتيو : – انها مربوطة جيداً .

وأخذت الخادمة الصغيرة تضحك ، ولكن اوديت لم تجب . ووضعت الخيط في فمها ، فأمسكته وهي تقرض شفتيها ، وقلبت الرزمة بخفة على ظهرها . وملأت رائحة الصمغ فجأة منخري ماتيو ، وخيّل اليه للمرة الاولى منذ امس الاول ان شيئاً ما كان حوله وسوف يسعه ان يتحسّر عليه . كان سلام هذا الأصيل في المطبخ ، وهذه الاعمال المنزلية الهادئة، وهذه الشمس التي تصفّح الستارة والتي تسقط فتاتاً على البلاط ، وراء هذا كله ربما كانت طفولته ، ولوناً من الحياة الهادئة الناشطة رفضه مرة والى الأبد .

قالت اوديت : — ضع اصبعك هنا .

فاقترب وانحنى فوق رقبتها ، وضغط اصبعه على الخيط . وود ان يقول لها بعض كلمات رقيقة ، ولكن صوت اوديت لم يكن يدعو الى الرقة . ورفعت عينيها عليه :

— هل تريد بيضاً مسلوقاً ؟ بوسعك ان تضعه في جيبك .

وكانت تشبه فتاة صبية . انه لن يتحسّر عليها . ربما لأنها كانت زوجة جاك . وفكر في انه سينسى سريعاً هذا الوجه المتواضع الى ذلك الحد . ولكنه كان يود لو ان ذهابه يحدث لديها بعض الأسف . وقال:

— لا ، اشكرك . لا اريد بيضاً مسلوقاً .

فوضعت له الرزمة تحت ذراعه وقالت:

— هكذا . رزمة جميلة .

وقال لها :

— إصحبيني الى المحطة .

فهزّت رأسها نفياً :

— كلا . ان جاك هو الذي يصحبك . واعتقد انه يفضل ان يبقى وحده معك ، للدقائق الاخيرة .

قال : — اذن وداعاً . هل ستكتبين لي ؟

— ان ذلك سيخجلني . فانا اكتب رسائل فتاة صغيرة ، ملأى بالاخطاء الإملائية . كلا ، بل سأبعث لك برزم .

قال : — اود لو تكتبين لي .

— اذن ، بين الفترة والفترة ، ستجد كلمة صغيره بين علبة السردين ورزمة الصابون .

ومد لها يده فصافحته بسرعة . وكانت لها يد ملتهبة جافة . وكان يفكر بغموض : « ان هذا مؤسف » لقد سالت الأصابع الطويلة بين أصابعه كرمل حار . وابتسم وخرج من المطبخ . وكان جاك راكعاً

في الصالون امام آلة الراديو يحرّك ازرارها ؛ واذ كان يقترب من غرفته ، سمع خلفه ضجة خفيفة فالتفت : فاذا هي اوديت . كانت واقفة على آخر درجة ، وكانت تنظر اليه وهي ممتقعة ، وقال :

ـ اوديت .

فلم تجب ، وظلت تنظر اليه نظرة قاسية . وأحس بالضيق ، فنقل الرزمة الى ذراعه اليسرى ليتمالك نفسه وردّد :

ـ اوديت .

فاقتربت منه ، فرأى لها وجهاً نبوياً واضحاً لم يكن يعرفه . وقالت:

ـ وداعاً .

وكانت قريبة منه كل القرب . وأغمضت عينيها ، ثم وضعت شفتيها فجأة على شفتيه . وتحرك ليأخذها بين ذراعيه ولكنها افلتت منه ، وسرعان ما استعادت هيئتها المتواضعة ، فهبطت السلم من غير ان تلوي عليه .

ودخل غرفته فوضع الرزمة في حقيبته . وكانت ملأى حتى انه اضطر الى الركوع على قفلها ليغلقها .

قال فيليب : ـ ما هذا ؟

كان قد استقام منتفضاً ، وهو ينظر الى فلوسي في رعب ، فقال :

ـ هذه انا ، يا طفلي الصغير .

فتداعى للسقوط الى خلف وهو يرفع يده الى جبينه . وأنّ قائلا :

ـ ان بي صداعاً .

ففتحت درج طاولة الليل وأخرجت انبوب اسبرين ؛ وفتح درج الطاولة ، فأخرج منها قدحاً وزجاجة « برنو » ووضعها على المكتب الرئيسي واسترخى في أريكته . وكان محرك الطائرة ما زال يدور في رأسه ؛ وكان لديه ربع ساعة ، ربع ساعة بالضبط ، ليسترد هدوءه. وسكب برنو في القدح وتناول ابريق ماء على الطاولة فقلبه فوق القدح.

وكان السائل يتحرك ويتخذ لوناً فضياً في موجات متلاحقة : ونزع عقب سيجارته عن شفته السفلى ورماها في سلة الاوراق . لقد فعلت كل ما في استطاعتي . وكان يستشعر الفراغ . وفكر : « فرنسا ... فرنسا ... » وشرب جرعة من البرنو . لقد فعلت كل ما في استطاعتي ، والكلمة الآن لهتلر . وشرب جرعة من البرنو وطقطق لسانه ، وفكر : « ان وضع فرنسا محـدّد بوضوح » . وفكر : « وليس لي الآن الا ان انتظر » . وكان مجهداً ، ومدّ ساقيه تحت المكتب وفكر في نوع من الرضى : « ليس امامي الا ان انتظر » كجميع النـاس . لقد لعبت اللعبة . وكان قد قال : « اذا انتُهكت الحدود التشيكية ، فان فرنسا ستقوم بالتزاماتها » . وكان شمبرلن قد اجاب : « اذا كان من نتيجة هذه الالتزامات ان تجد القوات الفرنسية نفسها منخرطة تماماً في العمليات الحربية ضد المانيا ، فسوف نشعر بواجب مساعدتها » .

وتقدم السير نيفل هندرسون ، وكان السير هوراس ويلسون واقفاً خلفه باستقامة ، ومدّ السير نيفل هندرسون الرسالة الى مستشار الريخ ، فتناول مستشار الريخ الرسالة من يديه وأخذ يقرأهـا . وحين انتهى مستشار الريخ سأل السير نيفل هندرسون :

ـ أهذه هي رسالة السيد تشمبرلن ؟

وشرب دلادييه جرعة برنو ، وتنهّد ، واجاب السير نيفل هندرسون بحزم :

ـ نعم ، هذه هي رسالة السيد تشمبرلن .

ونهض دلادييه وذهب يضع زجاجة البرنو في درج الطاولة ، وقال مستشار الريخ بصوته الأبحّ :

ـ تستطيع ان تعتبر خطابي هذا المساء جواباً على رسالة السيد شمبرلن .

وكان دلادييه يفكر : « اي فرْج ! اي فرْج ! ما الذي سيقوله ؟ »

وكان سكر خفيف يصعد الى صدغيه وهو يفكر : ان الاحداث تفلت مني . وكان ذلك كراحة كبرى . وفكر : لقد فعلت كل شيء من اجل تجنّب الحرب ، وليست الحرب والسلم الآن بين يدي ؛ لم يكن ثمة شيء بعد يُقرّر ، لم يكن ثمة الا الانتظار . كجميع الناس. كذلك الفحام في الزاوية . وابتسم ، لقد كان فحّامَ الزاوية ، وكانوا قد جرّدوه من مسؤولياته ؛ ان موقف فرنسا محدّد بوضوح ... كان ذلك راحة كبرى . وكان يحدّق في زهور السجادة المعتمة ، ويشعر بالدوار يصعد فيه . السلم ، الحرب ، لقد بذلت كل شيء للحفاظ على السلم ، ولكنه كان يتساءل الآن عما اذا كان لم يكن راغباً في ان يحمله هذا الشلال الدافق كذرة من القش ، كان يتساءل عما اذا لم يكن راغباً فجأة بهذه العطلة الهائلة : الحرب .

نظر حوله في ذهول وصاح :

ـ انني لم اذهب .

وكانت قد ذهبت تفتح المصاريع ، وعادت بالقرب من السرير فانحنت فوقه . وكانت تشكو الحر ، وقد شمّ رائحتها السمكية .

ـ ما الذي ترويه ايها الداعر الصغير ، ما الذي ترويه ؟

وكانت قد وضعت احدى يديها القويتين السوداوين على صدره . وكانت الشمس قد خلفت لطخة زيت على خدها الأيسر . ونظر اليها فيليب فأحس انه ذليل أعمق المذلة : كان لها تجعدات حول عينيها وعند زاويتي فمها . وفكر : « انها جميلة جداً في وضح النهار » وكانت تنفخ في وجهه وتدع لسانها الوردي يسيل في شفتيه . وفكر : انني لم اذهب . وقال لها :

ـ انك لست صبية بعد .

فكزت وجهها وأغلقت فمها . وقالت له :

ـ لست اصبى منك يا داعر .

واراد ان يخرج من سريره ، ولكنها كانت تمسكه بصلابة ؛ كان هارباً فاقد السلاح ؛ وكان يحس ّ نفسه بائساً . وقالت :

ــ ايها الداعر الصغير ، ايها الداعر الصغير .

وهبطت اليدان السوداوان متمهلتين على خاصرتيه . وفكر : مهما يكن من أمر ، فانه لم يُعط للجميع ان يفقدوا بكارتهم مع زنجية . تداعى للسقوط الى خلف ، فرأى تنانير سوداء ورمادية تدور على بضع بوصات من وجهه . وكان الشخص يزعق خلفه بصوت اضعف ، وكان ذلك أقرب الى الحشرجة ، نوعاً من القرقرة . وارتفع حذاء فوق رأسه ، فرأى نعلاً مدبباً ، وكانت قطعة من الوحل عالقة ّ بالكعب ؛ وحط ّ النعل وهو يطنّ ّ بالقرب من محمله ؛ كان حذاء ضخماً أسود ذا ازرار . ورفع عينيه فرأى جبّة ، وفوقها في العالي ؛ منخرين مُشعرين فوق صدره . وهمس بلانشار في اذنه :

ــ لا بد ان يكون الرفيق في حالة سيئة جداً لكي يأتوه بالكاهن .

فسأل شارل : ــ ما به ؟

ــ لا ادري ، ولكن بيارو يقول انه سينتهي .

وفكر شارل : لماذا لا أكون انا ؟ كان يرى حياته وكان يفكر : لماذا لا اكون انا ؟ ومر ّ عاملان بالقرب منه ، فعرف قماش سرواليهما ؛ وكان يسمع خلفه صوت الكاهن العذب الهادىء ؛ وكان المريض قد كف ّ عن الأنين ، ففكر : « ربما مات » . ومرت الممرضة وكانت تحمل طستاً بين يديها ، فقال بخجل :

ــ يا سيدتي ! الا تستطيعين ان تذهبي اليها الآن ؟

فخفضت نظرها عليه وهي تحمر ّ من الغضب :

ــ أهذا أنت ايضاً ؟ ماذا تريد ؟

ــ الا تستطيعين ان ترسلي احداً الى النساء ؟ انها تُدعى كاترين .

فأجابت : ــ آه ! حُل ّ عن ظهري ! انها المرة الرابعة التي تطلب

فيها مني ذلك :
— كل ما اطلبه ان اعرف منها اسم عائلتها واعطيها اسم عائلتي ، ولن يزعجك هذا كثيراً .

فقالت بجفاء : — ان هنا شخصاً يحتضر . فانت ترى كيف أملك الوقت لأهتمّ بسخافتك .

ومضت فعاد الشخص الى انينه ، وكان ذلك شاقّ الاحتمال. وحرّك شارل مرآته ، فرأى جمعاً من الاجسام المتمددة جنباً الى جنب ، وفي الداخل ، ردف الكاهن الضخم راكعاً بالقرب من المريض . وكانت فوقهم مدخنة ذات مرآة مؤطّرة . ونهض الكاهن ، فانحنى الحمالون على الجسم وحملوه . وسأل بلانشار :

— هل مات ؟

ولم يكن لمحمل بلانشار مرآة دوّارة . وقال شارل :

— لا ادري .

ومر الموكب امامهم وهو يثير موجة من الغبار . فأخذ شارل يسعل ، ثم رأى ظهر الحمالين المنحني وهم متجهون نحو الباب . واستدار ثوب بالقرب منه ثم تجمّد فجأة . وسُمع صوت الممرضة :

— اننا هنا منقطعون عن كل شيء ، فنحن لا نعرف بعد الاخبار . كيف الحال يا سيدي الكاهن ؟

قال الكاهن : — ان الحال رديئة تماماً . رديئة تماماً . سيتكلم هتلر هذا المساء ، ولست ادري ما سوف يقوله ، ولكني اعتقد انها الحرب.

وكان الصوت يسقط موجات على وجه شارل. وأخذ شارل يضحك. فسأله بلانشار :

— ما الذي يضحكك ؟

— اضحك لأن الكاهن يقول بان الحرب ستقع .

قال بلانشار : — اني لا اجد ذلك مضحكاً .

قال شارل : — اما انا فأراه مضحكاً .

« ستكون لهم ، حربهم ؛ ستكون لهم في أستهم » . كان ما يزال يضحك : فعلى ارتفاع متر وسبعين كانت الحرب فوق رأسه ، كانت الحرب ، والشرف المهان ، والواجب الوطني ، اما على سطح الارض ، فلم يكن ثمة حرب ولا سلم ، لا شيء الا بؤس الرجال الدون وعارهم ، الفاسدين ، المتمددين . لم يكن بونيه يريدها ، وكان شامبوتيه دوريبس يريدها ؛ وكان دلادييه ينظر الى السجادة ، وكان ذلك كابوساً ، ولم يكن يستطيع ان يتحرر من هذا الدوار الذي امسكه خلف اذنيه : لتنفجر ! لتنفجر ! ليعلنها ، هذا المساء ، ذئب برلين الشرير الكبير ! وضرب حذاءه بقوة على الارض الخشبية ، وعلى الارض الخشبية ، كان شارل يحس الدوار يصعد من بطنه الى رأسه : العار ، العار العذب ، العذب ، المريح ، انه لم يكن باقياً له غير هذا . وكانت المرضة قد وصلت قرب الباب ، فتخطت جسماً وابتعد الكاهن ليدعها تمر . وصاح شارل :

— يا سيدتي ! يا سيدتي !

فالتفتت ، كبيرة قوية ، بوجه جميل ذي شارب وعينين غاضبتين . وقال شارل بصوت واضح أصدى في القاعة كلها :

— يا سيدتي ! يا سيدتي ! بسرعة ، بسرعة ! اعطيني الطست ، فاني مستعجل .

هوذا ! هوذا ! كانوا يدفعونهم من الخلف ، ودفعوا الشرطي الذي تراجع خطوة وهو يبسط ذراعيه ، وصاحوا : « هوراه ، هوذا ! » وكان يمشي بخطى صلبة هادئة ، وكان يتأبط ذراع زوجته ، وكان فريد متأثراً ، امي وابي ، يوم الأحد ، في غرينووش ، وصاح : « هوراه » كم هو رائع ان نراهما هنا ، هادئين مطمئنين ، فمنذا يجرؤ على ان يخاف ، حين يراهما يقومان بنزهتهما الصغيرة بعد الظهر ، كزوجين

قديمين متحدين كل الاتحاد ؟ وشد بقوة على صندوقه ، ورفعه فوق رأسه وصاح : « ليعش السلام ، هوراه ! » فالتفت كلاهما اليه ، وابتسم السيد شمبرلن له شخصياً ، واحس فريد ان الهدوء والسلام كانا يهبطان حتى اعماق فؤاده ، لقد كان محمياً ، مقوداً ، منتعشاً ، وكان شمبرلن العجوز ما يزال يجد الوسيلة ليتنزه بهدوء عبر الطرقات ، كأي انسان ، وليوجه له بسمة شخصية . وكان الجميع يصرخون « هوراه » حوله ، وكان فريد ينظر الى ظهر السيد شمبرلن الهزيل وهو يبتعد بخطوته الكهنوتية ، وفكر : انها انكلترا ، وصعدت الدموع الى عينيه ، انحنت مادي الصغيرة وأخذت صورة من تحت ذراع الشرطي .

– في الصف ، يا سيدتي ، في الصف كجميع الناس .

– هل يجب ان اقف في الصف لأحصل على نسخة من « باري سوار » ؟

– طبعاً ! وحتى في هذا الوضع ، سيدهشني ان تستطيعي الحصول على نسخة .

ولم تكن تصدق اذنيها .

– إذن ، طز ! انني لن اقف في الصف من اجل « باري سوار » ، فانه لم يحدث لي قط ان وقفت في الصف من اجل جريدة !

واولتهم ظهرها ، وكان راكب الدراجة قادماً ومعه رزمة الاوراق : فوضعها على الطاولة ، بالقرب من الكشك ، واخذوا يعدونها .

– ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وحدث اضطراب في الحشد . وقالت البائعة :

– وبعد ! هل ستتركونني اعدها ؟

قالت السيدة الانيقة : – لا تدفعوني ! اقول لكم لا تدفعوني !

فقال القصير السمين : – انني لا ادفع ، بل هم يدفعونني ، وليس الامران سواء .

وقال الهزيل : — وانا ارجوك ان تكون مؤدباً مع زوجتي .
فالتفتت السيدة المرتدية الثوب الأسود نحو اميلي :
— إنه التنازع الثالث الذي اشهده منذ هذا الصباح .
قالت اميلي : — آه ! ذلك ان الناس في هذه الفترة ثائرو الأعصاب.
وكانت الطائرة تقترب من الجبال ، ونظر اليها غوميز ، ثم نظر ، فيما تحته ، الى الانهار والحقول ، وكان الى يساره مدينة مستديرة برمتها ، وكان كل شيء صغيراً يدعو الى الضحك . انها فرنسا ، خضراء وصفراء ، بسجادها العشبي وانهارها الهادئة . « وداعاً ! وداعاً ! » سيدلف بين الجبال ، فوداعاً يا شرائح روسيني ، ويا نساء جميلات ، سوف يهبط وهو يحلق نحو الارض العارية الحمراء ، نحو الدم . وداعاً ! وداعاً : لقد كان جميع الفرنسيين هنا ، تحته ، في المدينة المستديرة ، في الحقول ، على شاطيء الماء : الساعة ١٨٫٣٥ ، انهم يضطربون كالنمل ، انهم ينتظرون خطاب هتلر . على الف متر تحتي ، ينتظرون خطاب هتلر . اما انا ، فلا انتظر شيئاً . بعد ربع ساعة ، يكفّ عن رؤية هذه البراري العـذبة ، وستفصله كتلٌ حجريةٌ ضخمة عن ارض الخوف والبخل هذه . بعد ربع ساعة ، سيهبط نحو الرجال الهزيلين ذوي الحركات الحيّة ، والعيون القاسية ، نحو « رجاله » هو . كان سعيداً ، وفي حلقه كتلة من القلق . وكانت الجبال تتقارب وقد أضحت الآن سمراء. وفكر : كيف تراني سألقى برشلونة ؟
قالت زيزيت : — ادخلي .
وكانت سيدة جميلة جداً وممتلئة بعض الشيء ، تضع على رأسها قبعة من القش وترتدي « تايوراً » من قماش « برانس دوغال » . ونظرت فيما حولها وهي تمدّد منخريها ، وما لبثت ان ابتسمت بلطف :
— السيدة سوزان تايور ؟
قالت زيزيت بفضول : — انا هي .

وكانت قد نهضت . وفكرت بان عينيها كانتا محمّرتين واستندت الى النافذة . ونظرت اليها السيدة وهي تطرف بعينيها . إن من يمعن النظر فيها تبدو له اكبر سناً . وكانت تظهر وكأنها مرهقة .

– انني لا أزعجك ، على الاقل .

قالت زيزيت : – طبعاً لا . إجلسي .

وانحنت السيدة فوق الكرسي فنظرت اليها ، ثم جلست . وكانت تجلس مستقيمة من غير ان يمس ظهرها المسند .

– لقد صعدت هذا الصباح زهاء اربعين طابقاً . وقلّما يفكر الناس في ان يقدموا لك كرسياً .

ولاحظت زيزيت انها ما تزل تحتفظ بكشتبانها في إصبعها . فنزعته وألقته في علبة الخياطة . وفي تلك اللحظة بدأ البيفتاك يطقطق في الموقد فاحمرّت وركضت الى الفرن وأطفأت الغاز . ولكن الرائحة لم تتلاش .

– يجب الا امنعك من الأكل .

قالت زيزيت : – اوه ، ان امامي متسعاً من الوقت .

وكانت تنظر الى السيدة وتحس نفسها موزّعة بين الضيق والرغبة في الضحك .

– هل زوجك مجنّد ؟

– لقد ذهب صباح امس .

قالت السيدة : – انهم جميعاً يذهبون . هذا مريع . لا بد ان تكوني في وضع مادي ... سيّء ...

قالت زيزيت : – اعتقد اني سأعود الى مهنتي القديمة . كنت بائعة زهور .

فهزت السيدة رأسها : – هذا مريع ! هذا مريع !

وكانت حزينة جداً حتى ان زيزيت احسّت لها بالودّ .

– وهل ذهب زوجك ايضاً ؟

ـ لست متزوجة . (ونظرت الى زيزيت واضافت بحيوية) ولكن لي أخوين يمكن ان يذهبا .

وسألت زيزيت بصوت جاف : ـ ماذا تريدين ؟

قالت الآنسة : ـ نعم ، هـذا (وابتسمت لها) انني لا اعرف افكارك ، وما سوف اطلبه منك خارج عن كل سياسة . هل تدخّنين ؟ هل تريدين سيكارة ؟

وترددت زيزيت ثم قالت :

ـ لا باس.

وكانت واقفة بازاء فرن الغاز ، ويداها تضغطان على طرف الطاولة، خلف ظهرها . وكانت رائحة البيفتاك وعطر الزائرة قد اختلطا . ومدت لها الآنسة علبتها ، فخطت زيزيت خطوة الى الامام . وكانت أصابع الآنسة دقيقةً بيضاء ذات أظافر مصبوغة . واخذت زيزيت سيكارة بين اصابعهـا الحمراء ، وكانت تنظر الى اصابعها والى اصابع الآنسة ، وهي تتمنى ان تذهب بأسرع وقت ممكن . واشعلتا سيكارتيهما وسألت الآنسة :

ـ الا تظنّين ان من الضروري منع هذه الحرب بأيّ ثمن ؟

فتراجعت زيزيت حتى الفرن ونظرت اليها في حذر . وكانت قلقة. ولاحظت على الطاولة زوجاً من المطّاط وسروالاً . وقالت الآنسة:

ـ الا تعتقدين اننا اذا نحن وحدّنا قوانا ...

وعبرت زيزيت الغرفة بهيئة مهملة : وحين وصلت الى الطـاولة سألت :

ـ من تقصدين بـ « نحن » ؟

قالت الآنسة في قوة : ـ نحن النساء .

فرددت زيزيت : نحن النساء .

ثم فتحت الدرج بسرعة وألقت فيه زوج المطاط والسروال ، ثم

عادث الى الآنسة ، هادئة :

ـ نحن النساء ؟ ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟

كانت الآنسة تدخّن كأنها رجل ، وهي تنفث الدخان من أنفها ؛ وكانت زيزيت تنظر الى تايورها والى عقدها اليشمي ، فتجد غريباً ان تقول لها : « نحن » وقالت الآنسة في طيبة :

ـ اذا كنت وحدك،لم تستطيعي شيئاً . ولكنك لست وحدك : ففي هذه اللحظة خمسة ملايين امرأة يخشين على حياة كائن عزيز لديهنّ . في الطابق التحتيّ ، تقيم السيدة بانييه التي ذهب اخوها وزوجها والتي لها ستة اولاد . وعلى الرصيف المقابل حانوت الخبّازة ، وفي « باسي » توجد الدوقة دو شوليه .

فتمتمت زيزيت : ـ اوه ! الدوقة دو شوليه ...

ـ ما بها ؟

ـ ليس متشابهاً .

ـ ما هو الذي متشابهاً ؟ أتقصدين أنّ هناك من يركب السيارة ، بينما تقوم الآخريات بأعمال المنزل بأنفسهن ؟ آه ! يا سيدتي ، اني في طليعة من يطالبون بتنظيم اجتماعي أفضل . ولكن اتظنين ان الحرب هي التي ستعطينا هذا التنظيم ؟ ان قضية الطبقات لا اهمية لها بازاء الخطر الذي يتهدّدنا . اننا اولاً نساء يا سيدتي ، نساء يصيبونهنّ بأعزّ ما يملكن . افرضي اننا تكاتفنا جميعاً وصحنا جميعاً معاً: « لا نريد هذا ! » إسمعي : الا تحبين ان تريه عائداً !

فهزّت زيزيت رأسها : كانت تبدو لها نكتة ان تدعوها هذه الآنسة سيدتي . وقالت :

ـ لا يمكن منع الحرب .

فاحمرّت الآنسة بعض الاحمرار ، وسألت :

ـ ولماذا ؟

فهزت زيزيت كتفيها . كانت هذه تريد منع الحرب. وكان آخرون، كموريس ، يريدون القضاء على البؤس ؛ وينتهي الامر بألا يستطيع احد ان يمنع شيئاً . وقالت :

ـ هكذا . لا يمكن منعها .

فقالت الزائرة في عتاب :

ـ ولكن ينبغي الا نفكر على هذا النحو . ان من يفكر هكذا هم الذين يتعجلون مجيء الحرب ، ثم ينبغي التفكير قليلا بالآخرين . فمهما فعلتم ، تظلون متضامنين معنا ؟

فلم تجب زيزيت ، كانت تشد في قبضتها سيجارتها المطفأة . وكان لديها شعور بأنها في المدرسة الادارية . وقالت الآنسة :

ـ انك لا تستطيعين ان ترفضي توقيع اسمك . أليس كذلك يا سيدتي : انك لا تستطيعين ان ترفضي توقيعاً ؟

وكانت قد سحبت من محفظتها ورقة ، فوضعتها تحت أنف زيزيت ، فسألتها زيزيت :

ـ ما هذه ؟

قالت الآنسة : ـ عريضة ضد الحرب . ونحن نتلقى التواقيع بالالوف ؛ وقرأت زيزيت بصوت منخفض :

« ان نساء فرنسا الموقعات على هذه العريضة يصرحن بأنهن يضعن ثقتهن بحكومة الجمهورية للمحافظة على السلام بجميع الوسائل . ويؤكدن اعتقادهن المطلق بان الحرب ، ايا كانت الظروف التي ستنشب فيها ، هي دائماً جريمة . المفاوضات وتبادل وجهات النظر امر مطلوب دائماً . اما اللجوء الى العنف ، فأمر منكر . وهذا اليوم ، ٢٢ ايلول ١٩٣٨ هو من أجل السلام العالمي ، ضد الحرب بمختلف اشكالها : جامعة الامهات والزوجات الفرنسيات » .

وقلبت الصفحة ، فكان قفاها مغطى بالتواقيع الملصق بعضها ببعض،

افقياً او عمودياً او صعوداً او هبوطاً . بالحبر الاسود او البنفسجي او الازرق . وكان بعض التواقيع يمتدّ عريضاً ، بحروف كبيرة ذات زوايا ، بينما كان البعض الآخر دقيقـاً مدبّباً ينزوي بخجل في زاوية صغيرة.وكان الى قرب كل توقيع عنوان : السيدة جان بليمو ، ٦ شارع دوبينياك ؛ السيدة سولانج بريس ، ١٤٢ جادة سانت اوان . واستعرضت زيزيت بنظرها اسماء جميع هاتيك السيدات. لقد انحنين جميعاً على هذه الورقة . كان فيهنّ من كان قطيع الاولاد عندهـا يصرخ في الغرفة المجاورة ، وقد وقعت اخريات في البهو الانيق ، بقلم حبر ذهبي . اما الآن ، فان اسماءهن كانت جنباً الى جنب ، وهي جميعها متشابهة : السيدة سوزان تايور : ما كان عليها الا ان تطلب قلماً من الآنسة ، فتصبح ، هي ايضاً ، سيدة ، وينبسط اسمها هاماً وقاسياً تحت الاسماء الاخرى . وسألت :

ـ ماذا ستفعلين بهذا كله ؟

ـ حين نحصل على عـدد كافٍ من التواقيع ، سنرسل وفداً من النساء يحملها الى رئاسة الوزارة .

السيدة سوزان تايور . كانت السيدة سوزان تايور . كان موريس يردّد لها دائماً ان المرء متضامن مع طبقته . وها هي الآن ذات واجبات مشتركة مع الدوقة دو شوليه . وفكرت : « توقيع . لا استطيع ان ارفض تقديم توقيع لهن » .

ارتفقت فلوسي الوسادة ونظرت الى فيليب :

ـ نعم ، ايها الداعر ، ما رأيك في ذلك ؟

قال فيليب : ـ لا بأس . لا بدّ ان يتحسّن الوضع حين يكفّ الصداع .

قالت فلوسي : ـ يجب ان انهض . سوف آكل ، ثم اذهب الى المرقص . هل تأتي معي ؟

قال فيليب : — انني متعب اكثر مما ينبغي . اذهبي من دوني .

— ستنتظرني هنا ، أليس كذلك ؟ انقسم لي بأنك ستنتظرني ؟

قال فيليب وهو يقطب حاجبيه : — طبعاً . اذهبي بسرعة ، اذهبي بسرعة . سأنتظرك ؟

قالت الآنسة : — هل توقعين اذن ؟

قالت زيزيت : — ليس لدي قلم .

فمدت الآنسة لها قلم حبر ، فتناولته زيزيت ووقعت في اسفل الصفحة. وخطّت اسمها وعنوانها الى جانب التوقيع ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى الآنسة : كان يخيّل اليها ان شيئاً ما سيحدث .

ولم يحدث شيء قط . ونهضت الآنسة ، فأخذت الورقة ونظرت اليها بدقة ، وقالت :

— هذا ممتاز . حسناً ، لقد انتهى نهاري .

وفتحت زيزيت فمها : كان يخيّل اليها ان لديها طائفة من الاسئلة ينبغي طرحها . ولكن الاسئلة لم تأت . واكتفت بالقول :

— واذن ، فستحملن هذا الى دلادييه ؟

قالت الآنسة : — طبعاً ، طبعاً .

وحركت الورقة لحظة ، ثم طوتها واخفتها في محفظتها . واحسّت زيزيت بانقباض في قلبها حين انغلقت تلك المحفظة . ورفعت الآنسة رأسها ونظرت في عينيها وقالت :

— شكراً . شكراً من اجله . شكراً من اجلنا جميعاً . انك امرأة طيبة ، يا سيدة تايور .

ومدت لها يدها قائلة :

— هيا ، يجب ان اذهب .

فشدت زيزيت يدها بعد ان مسحت يدها بمريولها . وكانت تستشعر خيبة مريرة ، فسألت :

ــ أهذا ... كل شيء ؟

فأخذت الآنسة تضحك . وكانت لهـا اسنانٌ كاللؤلؤ . وردّدت زيزيت لنفسها : « اننا متضامنون » ولكن الكلمات كانت قد فقدت معناها .

ــ نعم ، هذا كل شيء ، الآن .

واتجهت الى الباب بخطوة نشيطة ، وفتحته ، وادارت للمرة الاخيرة وجهاً مبتسماً لزيزيت ثم اختفت . وكان عطرهـا ما يزال يخفق في الغرفة . وسمعت زيزيت خطاها تتلاشى ، فشرقت بأنفها مرتين او ثلاثاً . كان يخيّل اليها ان شيئاً ما قد سُرق منها . وقصدت النافذة ففتحتها وأطلّت الى الخارج . كان ثمة سيارة ازاء الرصيف . وخرجت الآنسة من الفندق ، ففتحت الباب وصعدت الى السيارة التي أقلعت . وفكرت زيزيت : « لقد ارتكبتُ حماقة » وانعطفت السيارة في جادة سانت اوان واختفت ، حاملةً الى الابد توقيعها والمرأة الجميلة المعطّرة. وتنهدت زيزيت ، فأغلقت النافذة وأضاءت الغاز . وأخذ الشحم يطقطق، وطغت رائحة اللحم الحار على العطر ، وفكرت زيزيت : « اذا عرف موريس ذلك يوماً ، فلا ادري ماذا يحدث » .

ــ ماما ، اني جائع .

وسألت الأم ماتيو : ــ كم هي الساعة ؟

انها مارسيلية جميلة ممتلئة وعلى شفتها ظلّ شارب . وألقى ماتيو نظرة الى ساعة يده :

ــ انها الثامنة وعشرون دقيقة .

فأخذت المرأة من بين ساقيها سلّة مغلقة بقضيب حديدي :

ــ افرحي ايتها المزعجة الصغيرة ، سوف تأكلين .

وادارت رأسها نحو ماتيو :

ــ انها جديرة بان تعذّب قدّيساً .

فوجّه اليها ماتيو بسمة غامضة خفية . وفكر « الساعة الثامنة والدقيقة العشرون . بعد عشر دقائق يتكلم هتلر . انهما في الصالون ، وقد مضى اكثر من ربع ساعة وجاك يحرّك مفاتيح الراديو » .

كانت المرأة قد وضعت السلّة على المقعد ، وفتحتها ، وصرخ جاك :

— لقد التقطتها ! التقطتها ! هذه شتوتغارت .

وكانت اوديت واقفة بالقرب منه ، وكانت قد وضعت يدها على كتفه . وسمعت ضجيجاً ، فخيّل اليها أنّ نفحة قاعة طويلة مقبّبة كانت تصفعها على وجهها . وأزاح ماتيو نفسه قليــلاً ليُفسح للسلة : لم يكن قد غادر جوان ليبان . كان بالقرب من اوديت ، ملتصقاً باوديت ، ولكنه أعمى أصمّ ، فقد كان القطار يحمل اذنيه وعينيه نحو مرسيليا . لم يكن يكنُّ لها حباً ، وانما شيئاً آخر : لقد نظرت اليه كما لو انه لم يمت تماماً . وشاء ان يعطي وجهاً لهذا الحنان الناقص الصورة الذي كان يثقل عليه ، وبحث عن وجه اوديت ، ولكنه كان يفرّ ، وقد ظهر وجه جاك مرتين بدلاً منه ، وانتهى الامر بماتيــو الى لمح شكل جامد في اريكة ، مع طرفٍ من رقبةٍ منحنية وهيئة تنبهٍ على وجهٍ لا فم له ولا أنف . قال جاك وهو يلتفت اليها :

— لقد آن الاوان . انه لم يبدأ الكلام .

« عيناي هنا » . كان يرى السلة : وكانت منشفة جميلة بيضاء ذات خطوط حمراء وسوداء تغطي محتواها . وتأمل ماتيو لحظة اخرى الرقبة السمراء ثم تركها : كان ذلك قليلا جداً بالنسبة لهذا الحنان الثقيل. وغرقت في الظلّ ، وأخذت المشفة تتطلب تطلباً شديداً ، فأقامت في عينيه ، طاردةً الصور والافكار اشتاتاً . « عيناي هنا » وانتفض لسماع جرس مخنوق .

قالت المارسيلية : — كوكوت ، أسرعي ، أسرعي .

واستدارت نحو ماتيو بضحكة اعتذار :

ــ انه المنبه . فانا اربطه دائماً على الساعة الثامنة والنصف .

وفتحت الصغيرة بسرعة صندوقاً صغيراً فأدخلت فيه يديها ، وسرعان ما توقف جرس المنبه . الساعة الثامنة والنصف . سيدخل قصر الرياضة. انا في جوان ليبان ، انا في برلين ، ولكن « عيني » هنا » . وفي مكان ما توقفت سيارة طويلة سوداء امام باب ، فنزل منهـا رجال يرتدون القمصان السمراء . وفي مكان ما من الشمال الشرقي ، الى يمينه وخلفه: ولكن كان هنا هذا الخوان الذي يسد عليه النظر . وسحبتها من الزوايا اصابع ريا ذات خواتم ، فاختفت ، ورأى ماتيو زجاجة ترموس ملقاة على جانبها وركاماً من معجنات الحلوى : فأخذه الجوع . اني في جوان ليبان ، اني في برلين ، اني في باريس ، ليست لي من حياة بعد ، ولا من مصير . غير اني هنا جائع ، هنا بالقرب من هـذه السمراء الضخمة وهذه الفتاة الصغيرة . ونهض ، فمد يده الى حقيبته في الشبكة ففتحها وتلمس فيها رزمة اوديت . وجلس فأخذ سكينه وقطع الخيط؛ وكان يتعجل الأكل ، كما لو انه كان لا بد ان ينتهي على عجل ليسمع خطاب هتلر . دخل ؛ هدير عظيم جعل الزجاج يرتجف ، وهدأ الهدير، ومد يده .

وفي مكان ما ، كان ثمة عشرة آلاف رجل مسلحين ، استقامت رؤوسهم وارتفعت اذرعتهم . في مكان ما ، في ظهره ، كانت اوديت منحنية على جهاز راديو . وتكلم ، فقال : « يا مواطني » ، وكان صوته قد كف عن ان يكون له ، واصبح عاليـاً . كان يُسمع في برست ــ ليتوسك ، في براغ ، في اوسلو ، في طنجه ، في كان ، في مورلي ، على الباخرة الكبيرة البيضاء التابعة لشركة « باكيه » التي تسير بين كازابلانكا ومرسيليا .

سألت اوديت : ــ هل انت متأكد من انك التقطت شتوتغارت ؟ اننا لا نسمع شيئاً .

قال جاك : — هس ، هس ، نعم انا متأكد من ذلك .
توقفت لولا امام مدخل الكازينو ، فقالت له :
— اذن الى اللقاء بعد حين .
قال بوريس : — غنّي جيداً .
— نعم ، اين انت ذاهب يا حبيبي ؟
قال بوريس : — انا ذاهب الى « البار الباسكي » . هناك رفاق لا يعرفون الالمانية طلبوا مني ان اترجم لهم خطاب هتلر .
قالت لولا وهي ترتعش : — برررر ، انك اذن لن تتسلى .
قال بوريس : — احب كثيراً ان اترجم .
انه يخطب ! وبذل ماتيو جهداً عنيفاً ليسمعه ، ثم احس بأنه اجوف فترك كل شيء وكان يأكل ؛ وقبالته ، كانت الفتاة الصغيرة تعض فطيرة مربى ؛ ولم يكن يسمع الا لهاث الشموع الهادىء ، وكانت امسية من عسل ، كل شيء مغلق . وادار ماتيو عينه فنظر الى البحر عبر الزجاج . كان المساء الوردي المستدير ينغلق فوقها . ومع ذلك فقد كان صوتٌ يخرق هذه البيضة من السكر . انه في كل مكان ، القطار يقتحمه ، وهو في القطار ، تحت اقدام الطفلة ، في شعر سيدة ، في جيبي ، ولو كان معي جهاز راديو لفتحته في الشبكة او تحت المقعد ؛ انه هنا ، ضخم ، يغطي ضجة القطار ، ويجعل الزجاج يرتج — ولا اسمعه . كان متعباً ، ولمح في البعيد شراعاً فوق الماء ، ولم يفكر بعد الا به . قال جاك منتصراً :
— اسمعي ، اسمعي .
وخرج هدير عظيم من الجهاز فجأة . فتراجعت اوديت خطوة ، كان ذلك شيئاً لا يُطاق . وفكرت : « ما اكثر عددهم ، وكم هم معجبون به ! » هناك ، على بعد آلاف الكيلومترات ، عشرات الألوف من المعذبين . وكانت اصواتهم تملأ صالون العائلة الهادىء — وكان

مصيرها نفسه هو الذي يتقرر هناك . قال جاك :

ــ ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وكانت العاصفة تهدأ رويداً رويداً ، وكانت تُسمع اصوات انفية وقاسية ، ثم ساد الصمت ، فأدركت اوديت انه سيتكلم . ودفع بوريس باب الحـــانة ، فأشار له المعلم ان يعجل ، وقال :

ــ استعدوا ، سوف يبدأ .

وكانوا ثلاثة قد ارتفقوا المشرب : كان هناك المارسيلي ، وشارلييه، وعامل المطبعة الرواني ، ثم شخص كبير ضخم ذو بنية فظيعة كان يبيع آلات خياطة ويُدعى شومي .

قال بوريس بصوت منخفض : ــ مرحباً .

فحيوه بسرعة ، واقترب من الجهاز : وكان يقدرهم لانهم لم يكونوا يخافون ان يقصّروا عشاءهم ليأتوا فيتبادلوا فيما بينهم كلاماً غير مستحب، كانوا اشخاصاً قساة يواجهون الاشياء على حقيقتها .

كان قد استند على الطاولة بيديه الاثنتين ، وكان ينظر الى البحر الهائل ، ويسمع هدير البحر . ورفع يده فهدأ البحر . وقال :

ــ مواطنيّ الاعزاء .

« ان هناك حداً لا يمكن الاستسلام بعده ، لان ذلك يصبح ضعفاً مضراً . كان يوجد عشرة آلاف الماني خارج الريخ فوق ارضين كبيرتين، وهم الالمان الذين يريدون العودة الى الريخ . ولن يكون لي الحق بان أظهر امام تاريخ المانيا اذا شئت ان اتركهم بلا اكتراث ، ولن يكون لي كذلك الحق معنوياً بان اكون فوهرر هذا الشعب . ولقد قبلت حتى الآن تضحيات كافية ، وتنازلات . وهنا يقوم الحد الذي لم اكن استطيع ان اتجاوزه . وقد اثبت الاستفتاء في النمسا مشروعية هــذا الاحساس . لقد قُدّمت آنذاك شهادة حية لم يكن يأملها سائر العالم . ولكن سبق لنا ان رأينا ان الاستفتاء في نظر الديموقراطيات يصبح لا

جدوى منه بل يصبح مشؤوماً بمجرد انه لا ينتج النتيجة التي يأملونها .
ومع ذلك ، فان هــذه المسألة قد حُلَّت لسعادة الشعب الالماني الكبير كله .

« وامامنا الآن المسألة الاخيرة التي ينبغي ان تُحل ، وسوف تُحل »

وانفرط البحر تحت قدميه ، وبقي لحظة من غير ان يتكلم وهو ينظر الى هذه الامواج الهائلة . وضغطت اوديت يدها على صدرها ، كان ذلك الهدير يجعل قلبها يقفز كل مرة . وانحنت فوق اذن جاك الذي ظل حاجباه مقطبين ، وهو مستغرق في هيئة تنبه متطرفة ، بالرغم من ان هتلر قد انقطع عن الكلام منذ لحظات . وسألته ، من غير امل كبير :

ـ ماذا يقول ؟

وكان جاك يزعم انه يفهم الالمانية لانه قد سبق له ان قضى ثلاثة شهر في هانوفر ، وهو لا يكف منذ عشرة اعوام عن الاستماع بانتظام الى جميع خطبــاء برلين في الراديو ، بل هو قد اشترك في جريدة « فرانكفورتر زايتونغ » بسبب مقالاتها المالية . ولكن المعلومات التي كان يعطيها عما قرأ او سمع كانت تظل مبهمة دائماً . ورفع كتفيه :

ـ الشيء نفسه دائماً . تكلم عن تضحيات الشعب الالماني وسعادته .

فسألت اوديت بحيوية : ـ هل يوافق على بذل التضحيات ؟ أهذا يعني انه سيقوم بتنازلات ؟

ـ نعم ، لا ... ان ذلك قد بقي في الهواء .

مد يده ، فكف كارل عن الصراخ : كان ذلك امراً . والتفت يميناً وشمالا وهو يتمتم : « اسمعوا ! اسمعوا ! » وكان يخيل اليه ان امر هتلر الابكم يخترقه من الجانبين ويتجسد في فمه . وقال : « اسمعوا ! اسمعوا ! » لم يكن بعــد الا اداة طيعة ، ناقل صدى : وقد جعلته النشوة يرتعش من رأسه الى قدميه . وصمت الجميع ، وغرقت القاعة كلها في السكوت والليل ، وكان هس وغورنغ وغوبلز قد اختفوا ،

ولم يبق ثمة احد في الدنيا الا كارل وفوهرره . كان الفوهرر يتحدث امام العلم الكبير الاحمر ذي الصليب المعكوف ، كان يتكلم من اجل كارل ، من اجله وحده : صوت، صوت واحد في العالم . انه يتحدث من اجلي ، ويفكر من اجلي ، ويقرر من اجلي . يا فوهرري .

« ان هذا هو المطلب الاخير المتعلق بالارض الذي اطالب به في اوروبا ، ولكنه مطلب لن اتزحزح عنه وسوف احققه بمشيئة الله » .

وتوقف لحظة . ففهم كارل انه قد أعطي الإذن بالصراخ ، فصرخ بكل قواه . واخذ الجميع يصرخون ، وتضخم صوت كارل ، وصعد حتى الاقواس فارتج منه الزجاج . كان يحترق فرحاً ، وكان له عشرة آلاف فم ، وكان يحس انه تاريخي .

وصاح ميميل في الجهاز : « اخرس ! اخرس ! » والتفت الى روبير فقال له : « أترى ايه عصابة من الفروج ! ان هؤلاء الاشخاص لا يكونون مسرورين الا حين يستطيعون ان يصيحوا معاً . فيبدو ان تسلياتهم هي هي نفسها . ان لهم قاعات كبيرة في برلين تستطيع ان تستوعب عشرين الف شخص . فيجتمعون هناك يوم الاحد ، ويأخذون في الغناء المشترك وهم يشربون البيرة » .

وكان الجهاز ما يزال يهدر . قال روبير :

ـ اوه ! ما قولك في ان « نفركشه » ؟

وادار المفتاح ، فانطفأت الاصوات ، وخيل اليهما فجأة ان الغرفة كانت تخرج من الظل ، وكانت هناك ، حولها ، صغيرة هادئة ، وكان الخمر في متناول ايديهما ، لم يكن عليهما الا ان يديرا مفتاحاً فاذا بجميع صرخات هؤلاء المعذبين تعود الى علبتها ، واذا بمساء جميل متزن يدخل من النافذة ، مساء فرنسي ، واذا هما بين الفرنسيين .

« هذه الدولة التشيكية بدأت بكذبة كبيرة . وكان مؤلف هـذه الكذبة يُدعى بنيش » .

صواعق في الجهاز :

« لقد مثل السيد بنيش هذا في فرساي واكد اولا انه كان ثمة امة تشيكوسلوفاكية »

قهقهات في الجهاز . واضاف الصوت ، بشراسة :

« لقد كان مضطراً الى اختراع هذه الكذبة ليضفي على العدد الهزيل من جنوده المواطنين اهمية اكبر قليلا وبالتالي اكثر تبريراً.ورجال الدولة الانكلوساكسون الذين لم يألفوا بما فيه الكفاية القضايا البشرية والجغرافية، لم يجدوا ضرورياً آنذاك ان يحققوا في تأكيدات السيد بنيش .

« ولما لم تبد هذه الدولة قابلة للحياة ، فقد اخذوا بكل بساطة ثلاثة ملايين ونصف المليون من الالمـــان ، منتهكين حقهم بتقرير مصيرهم بانفسهم تقريراً حراً » .

وصاح الجهاز : « في ! في ! في ! » وصاح السيد بيرنانشانز : « كذاب ! لقد جلبوا هؤلاء الالمان من المانيا ! » وكانت إيلا تنظر الى ابيها محمراً من شدة الغضب ، وهو يدخن سيجاراً في اريكته ، وكانت تنظر الى امها والى اختها ايفي فتشعر لهم بما يشبه الكراهية : « كيف يستطيعون ان يسمعوا ذلك ؟ »

« ولما لم يكن ذلك كافياً ، وجب اضافة مليون من « الماغيار » ثم من الروس الكارباتيين ، واخـــيراً بضعة مئات من الالوف من البولونيين .

« هذه هي الدولة التي سمت نفسها فيما بعد تشيكوسلوفاكيا،منتهكة حق الشعوب في تقرير مصيرها بحرية ، ورغبة الامم المغتَصَبة وارادتها التي عبّرت عنها بوضوح . واني اذا اتحدث اليكم ، فاني أعطف طبعاً على مصير جميع هؤلاء المضطهدين : اعطف على مصير السلوفاكيين والبولونيين والهنغاريين والاوكرانيين ، ولكني لا اتكلم طبعاً الا عن مصير الالمان التابعين لي » .

وملأ القاعة هتاف عظيم ، كيف يستطيعون ان يسمعوا ذلك ؟ ثم ان هذه الـ « يعيش ! يعيش ! » تلوي لها قلبها . وفكرت في غيظ : مهما يكن من أمر ، فنحن يهود ، وليس لنا ان نسمع جلادنا . قد احتمله هو ، فلقد سمعته دائماً يقول ان اليهود غير موجودين ؛ ونظرت الى امها وفكرت : أما هي ، فهي تعلم انها يهودية ، انها تشعر بذلك ، وتبقى مع هذا هنا . وكانت السيدة بيرنانشاتز ، التي تحب التنبؤات ، قد قال مساء الليلة البـــارحة فقط : « انها الحرب يا اولادي ، واذا كانت الحرب خاسرة ، فليس على الشعب اليهودي بعد الا ان يأخذ ُخرجه » . اما الآن فهي تغفو وسط الهتافات ، وتغمض بين الفينـــة والفينة عينيها المطليّتين ، وينوس رأسها الضخم المعمّم ذو الشعر الملوّن. واستأنف الصوت كلامه وهو يضبط العاصفة :

« والآن تبدأ الوقاحة . ان هذه الدولة التي لا تحكمها الا أقلية ، تجبر وطنييهـــا على سلوك سياسة ستضطرهم يوماً الى اطلاق النار على إخوتهم » .

ونهضت ايلا . هذه الكلمات الخشنة التي كانت ُتنتزع بمشقّة من حنجرة مستعدة دائماً للسعال ، انما كانت طعنات سكين . لقد عذّب يهوداً : وفيما هو يتكلم ، ثمة الوف ينازعون في معسكرات الاعتقال ، ومع ذلك يتركون صوته يلعلع عندنا ، في هذا الصالون الذي استقبلنا فيه امس فقط قريبنا داشوير باجفانه المحترقة .

« ان بنيش يطلب هذا من الالمان : اذا قمتُ بالحرب ضد المانيا ، فيجب ان تطلقوا ناركم على الالمان ، واذا رفضتم كنتم خونة ، وسوف أعدمكم بالرصاص » . ويطلب الشيء نفسه من الهنغاريين والبولونيين » .

كان الصوت هنا ، فظيعاً ، صوت الحقد ؛ لقد كان الرجل بازاء ايلا . وكان سهل المانيـــا الكبير وجبال فرنسا قد انهارت ، فاذا هو بازائها تماماً ، من غير مسافة ، وكان يتحرّك في علبته ، ينظر اليّ ؛

يراني . والتفتت ايلا نحو امها ، نحو ايفي : ولكنها كانتا قد قفزتا الى خلف ، وكان بوسع ايلا ان تراهما بعد ، ولكن لا ان تلمسها . وكانت باريس ايضاً قد تراجعت حتى اصبحت لا تُدرك ، وكان النور الذي يدخل من النوافذ يسقط ميتاً على السجادة . لقد حدث تفتُتٌ لا يُلحظ بين الناس والاشياء ، وكانت هي وحيدة في العالم مع هـذا الصوت .

« في ٢٠ شباط من هـذا العام ، صرخت في الريخستاغ ان من الضروري ان يحدث تغيير في حياة الملايين العشرة من الالمان الذين يعيشون خارج حدودنا . وقد تصرف السيد بنيش غير هذا التصرف ، فقد أقام عهداً من الاضطهاداً تاماً » .

كان يحدثها وحدها ، عيناه في عينيها ، بغيظ ينمو وينمو مع رغبة في ان يخيفها وان يؤذيها . وقد ظلت مسحورة ، ولم تكن عيناهـا تغادران الصفيحة اللامعة . ولم تكن تسمع ما يقول ، ولكن صوته كان يسلخها .

« وارهاباً اكبر ، وفترة من الفساد .. »

وانفتلت فجأة فغادرت الغرفة . ولحقها الصوت الى الممر ، مسحوقاً ، غير متميز ، ما يزال ينضح بالسم . ودلفت الى غرفتها وأغلقت بابها بالمفتاح . وهنـاك ، في الصالون ، كان ما يزال يتوعد . ولكنها لم تسمع بعد الا تمتمة مختلطة . وتداعت للسقوط على كرسي : أليس ثمة احد ، ليس من ام ليهودي معذّب . ولا من زوجة لشيوعي مغتال ، يتناول مسدساً ويذهب لقتله ؟ كانت تحرّق الأرّم ، وتفكر في انها لو كانت المانية لاوتيت الشجاعة لقتله .

نهض ماتيو ، واخـذ من مشمعه سيجاراً مما اعطاه جاك ودفع باب الحافلة .

قالت المارسيلية : ــ اذا كنت خارجاً اكراماً لي ، فلا تُزعج

نفسك ، ان زوجي يدخن الغليون : فانا معتادة .
قال ماتيو : — اني اشكرك ، ولكني راغب في تحريك ساقيّ لازيل خدرهما .
وكان راغباً خصوصاً في الا يراها بعد ، ولا يرى الصغيرة ، ولا السلة . وخطا بضع خطوات في الممر وتوقف واشعل سيجارة . وكان البحر ازرق هادئاً ، وكان يتسلل بمحاذاة البحر ، ويفكر : « ماذا يحدث لي ؟ » « وهكذا كان جواب هذا الرجل اكثر من اي يوم : « لنُعدِم ، ولنعتقل ، ولنسجن » وكان هذا الجواب موجهاً لجميع الذين لا يناسبونه لسبب او لآخر » كان يريد ان يجتهد ويفهم . لم يحدث له شيء قبل الآنّ لم يفهمه . وكانت تلك قوته الوحيدة ، ودفاعه الوحيد ، وكبرياءه الاخيرة . كان ينظر الى البحر ويفكر : « انني لا افهم — وعند ذلك جاء مطلبي في نورمبرغ ، وكان هـذا المطلب واضحاً تماماً : من اجل الإذ — وقال في نفسه : الذي يحدث لي هو اني ذاهب الى الحرب . ولم يكن ذلك يبدو خبيثاً ، ومع ذلك فهو لم يكن واضحاً على الإطلاق . اما ما يخصه شخصياً ، فقد كان كل شيء بسيطاً وواضحاً : لقد لعب وخسر ، وكانت حياته خلفه ، قد فسدت، انني لا اترك شيئاً ، ولست آسفاً على شيء ، حتى ولا على اوديت ، ولا على ايفيش ، انني لست احـداً . يبقى الحادث نفسه — أصرّح الآن بان حق تقرير المصير ينبغي اخيراً ، بعد عشرين سنة من تصريحات الرئيس ويلسون ، ان يدخل في حيز التطبيق بالنسبة لهذه الملايين الثلاثة والنصف — وكل ما كان اصابه حتى الآن كان على سويته كرجل ، الإزعاجات الصغيرة والكوارث ، لقد رآها مقبلة ، فنظر اليها مواجهة ، حين ذهب يأخذ المال من غرفة لولا ، رأى الاوراق المالية ولمسها ، وشم العطر الذي كان يطفو في الغرفة ، وحين تخلى عن مارسيل ، كان ينظر اليها في عينيها فيما كان يتحدث اليها ، ولم تكن مصاعبه قط الا

مع نفسه ، كان بوسعه ان يقول لنفسه : لقد اصبت، ولقد اخطأت، كان يستطيع ان يحكم على نفسه ، اما الآن فقد اصبح الامر مستحيلا ـ ومن جديد اعطى السيد بنيش جوابه : موتى جدد ، وشهداء جدد ـ وفكر : اني ذاهب الى الحرب ، ولم يكن ذلك يعني شيئاً. لقد حدث له شيء ما كان يتجاوزه . كانت الحرب تتجاوزه . ليست القضية حقاً هي في انها تتجاوزه ، وانما هيَ في انها لم تكن موجودة هنا . فأين هي ؟ في كل مكان : انها تولد من كل مكان ، القطار يَلِجُ الحرب، وغوميز يهبط الى الحرب ، وهؤلاء المصطافون بثيابهم البيضاء يتنزهون في الحرب ، فليس ثمة خفقة قلب لا تغذيها ، وليس ثمة وعيٌ لم تخترقه . ومع ذلك ، فهي كصوت هتلر الذي يملأ هذا القطار والذي لا استطيع ان اسمعه : ـ لقد صارحت السيد شمبرلن بما نعتبره الآن الامكانية الوحيدة للحل ؛ ـ يخيل الينا بين الفينة والفينة اننا سنلمسها ، على اي شيء ، في مَرَق شريحة ، فنمد يدنا ، فاذا هي تختفي : ولا يبقى الا قطعة لحم في مرق . وفكر : آه ! ينبغي ان يكون المرء في كل مكان معاً .

يا فوهرري ، انك تخطب فأتحوّل الى حجر ، وأكف عن التفكير، ولا اريد بعد شيئاً ، فلست الا صوتك ، سأنتظره لدى الخروج ، وسأصوّب اليه في قلبه ، ولكني في الدرجة الاولى لسان حال الالمان ، ومن اجل هؤلاء الالمان خطبت، مؤكداً اني لست مستعداً بعد ان ابقى متفرجاً صامتاً هادئاً بينما يحسب معتوه براغ هذا انه قادر ، سأكون هذا الشهيد ، انني لم اذهب الى سويسرا ، ولا استطيع الآن ان اعمل شيئاً الا ان اعاني هذا الاستشهاد ، واقسم بان اكون هذا الشهيد ، اقسم ، اقسم ، اقسم ، هس ، قال غوميز ، اننا نستمع الى خطاب البهلوان .

« هنا راديو باريس ، لا تتركوا السمع : سننقل اليكم بعد لحظة

الترجمة الفرنسية للقسم الاول من خطاب المستشار هتلر » :
قال جرمين شابو : – آه ! أترى ! لم يكن الامر يستحق ان نهبط ونركض ساعتين بحثاً عن جريدة « الانترانسيجان » . لقد قلت لك : انهم يفعلون ذلك دائماً .
ووضعت السيدة شابو نسيجها في السلة وقربت اريكتها ، وقالت :
– سنعرف ما الذي قاله . انني لا احب هـذا . فهو يُحدث لي مثل الحفرة في معدتي . الا يُحدث لك ذلك انت ؟
قال جرمين شابو : – بلى .
وكان الجهاز يشخر ، ثم ندت عنه ثلاث كركرات او اربع ، فأمسك شابو بذراع زوجته وقال لها :
– اسمعي .
فانحنيا قليلا ، مرهفين اذنيهما ، واخذ احدهما يغنّي « الكوكوراشا » فسألت السيدة شابو :
– هل انت متأكد انك تأخذ راديو باريس ؟
– متأكد .
– ان هذا اذن ليطلبوا منا الصبر :
وغنّى الصوت ثلاثة مقاطع ، ثم توقفت الاسطوانة ، فقال شابو :
– ها نحن ذا .
وحدثت خربشة خفيفـة ، ثم اخذت جوقة هوايانية تعزف « هوني مون »
يجب ان يكون المرء في كل مكان . وتأمّل في حزن طرف سيجارة. في كل مكان ، والا كان مخدوعاً ، انني مخدوع . انا جندي ذاهب الى الحرب ، وما ينبغي ان اراه : الحرب والجندي، طرف سيجار ، مقاصير بيضاء على شاطيء الماء ، انسراب الحافلات الرتيب على الخطوط الحديدية ، وهذا الرحالة المألوف جداً ، فاس ، مراكش ، مدريد،

بيروز ، سيان ، روما ، براغ ، لندن ، الذي يدخن للمرة الألف في ممر حافة من الدرجة الثالثة . لا حرب ؛ ولا جندي : يجب ان يكون المرء في كل مكان ، يجب ان ارى نفسي من كل مكان ، من برلين كواحد على ثلاثة ملايين من الجيش الفرنسي ، وفي عيني غوميز كواحد من هؤلاء الفرنسيين الكلاب الذين يُركلون ركلا نحـــو المعركة ، في عيني اوديت . يجب ان ارى نفسي بعيون الحرب . ولكن اين هي عيون الحرب ؟ انني هنا ، تنسرب امام عيني مساحات كبيرة مشرقة ، انني متبصّر ، ارى — ومع ذلك فاني اتجه بالتلمّس ، وبتحسّس الأعمى ، وكل حركة من حركاتي تشعل مصباحاً او تُطلق جرساً في عالم لا أراه . كانت زيزيت قد اغلقت المصاريع ، ولكن النهار المنتهي كان ما يزل يتسرب من الشقوق ، وكانت تحسُّ نفسها متعبةً وميتة ، وقذفت قميصها الداخلي على كرسي ثم اندست عارية في السرير ، انني انام دائماً براحة حين احس الأسى ؛ ولكنها حين استقرت تحت الغطاء ، كان مومو في هذا السرير قد داعبها ليلة امس الاول ، وكانت ما تكاد تستسلم حتى يقتحمهـــا فيسحقها ، فاذا ما فتحت عينيها من جديد ، لم يكن هناك بعد ، كان ينام بعيداً في ثكنته ، ثم انه كان ثمة هذا الراديو اللعين الذي يزعق باللغة الاجنبية ، وكان هو جهاز اسرة هاينمن ، اللاجئين الالمان في الطابق الاول ، صوت خشن إفعوي يدق اعصابك دقاً ، اتراه لن ينتهي ! اتراه لن ينتهي ؟ وحسد ماتيو غوميز ثم قال في نفسه : ان غوميز لا يرى من ذلك اكثر مما ارى ، انه يتخبّط ضد اشياء غير مرئية — وكفّ عن حسده اياه. ماذا يرى : جدراناً ، جهاز تلفون على مكتبه ، وجه ضابطه الآمر . انه يخوض الحرب ، ولكنه لا يراها . فاذا كانت القضية قضية خوض حرب ، فاننا نخوضها جميعاً ، انني ارفع يدي ، وأسحب نفساً من هذا السيجار ، فأخوض الحرب ، ان ساره تلعن جنون الرجال ، وتضم بابلو بين ذراعيها ، فتخوض

الحرب . واوديت تخوض الحرب حين تلف بالورق سندويشات من لحم الخنزير . ان الحرب تأخذ كل شيء ، تلمّ كل شيء ، ولا تترك شيئاً يضيع ، حتى ولا فكرة ، ولا حركة ، ولا يستطيع احد ان يراها ، حتى ولا هتلر . لا أحد . وردد : لا أحد – ثم فجأة ، لمحها : كانت جسماً غريباً ، لا يمكن تصوّره .

« هنا راديو باريس ، لا تتركوا السمع : سننقل اليكم بعد لحظة الترجمة الفرنسية للقسم الاول من خطاب المستشار هتلر » .

ولم يتحركا . وان احدهما يحدج الآخر بطرف عينه ، وحين اخذت رينا كيتي تغنّي : « سأنتظر » تبادلا بسمة . ولكن في نهاية المقطع الاول ، انفجرت السيدة شابو ضاحكة ، وقالت :

– سأنتظر ! هذا مناسب تماماً ... انهم يهزأون بنا .

جسم ضخم ، كوكب ، في فضاء ذي مئة مليون بُعد ، حتى ان الكائنات ذات الثلاثة الأبعاد لم تكن تستطيع ان تتصوره . ومع ذلك ، فان كل بُعد كان وعياً مستقلاً . فاذا كان المرء يحاول ان ينظر الى الكوكب مواجهة ، انهار متفتتاً ، ولم يبق بعد الا الوعي . مئة مليون وعي حرّ كان كلٌّ منها يرى جدراناً ، وطرف سيجار محمّراً ، ووجوهاً مألوفة . ويبني مصيره تحت مسؤوليته الخاصة . ومع ذلك فاذا كان المرء وعياً منها ادرك بتلمسات غير محسوسة ، وبتغيرات طفيفة ، انه كان متضامناً مع حظيرة ضخمة غير مرئية للحيوانات الشبيهة بالنبات . الحرب : ان كل انسان حر ، ومع ذلك فان الالعاب قد لُعبت . انها هنا ، هي في كل مكان ، وهي مجموعة افكاري كلّها ، وكلمات هتلر كلّها ، وافعال غوميز كلها : ولكن ليس ثمة احد ليُجري الجمع . انها غير موجودة الا بالنسبة لله ، ولكن الله غير موجود . ومع ذلك فان الحرب موجودة .

– ولم ادع اي شك حول فكرة ان للصبر الالماني بعد الآن حداً .

لم ادع اي شك حول فكرة أنّ من خصائص العقلية الالمانية دون ريب التمسك بالصبر الطويل ، ولكن حين يحين الاوان ، فيجب ان ينتهي هذا الصبر .

سأل شومي : — ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟

فشرح بوريش : — يقول ان للصبر الالماني حدوداً .

قال شارليه : — وكذلك لصبرنا .

واخذ الجميع يزعقون في الجهاز ، ودخل « هيريرا » الى القاعة، فقال حين رأى غوميز :

— آه ! مرحباً ! قل لي ، هل قضيت مأذونية طيبة ؟

قال غوميز : — بين بين .

— الا يزال الفرنسيون حكماء ؟

— ها ! انك لا تتصور حالتهم . اعتقد انها ستصيبهم في استهم ! (واشار الى جهاز الراديو) ان بهلوان برلين ثائر !

— بلا مزاح ؟ (واشتعلت عينا هيريرا) ولكن قل لي : ان هذا سيغير اشياء كثيرة !

قال غوميز : — اعتقد ذلك .

ونظر احدهما الى الآخر لحظة وهما يبتسمان ، وعاد اليهما تيلكان الذي كان على النافذة :

— اخفضوا صوت الجهاز ، فاني اسمع شيئاً .

فأدار غوميز المفتاح ، فضعفت الضجة .

— تسمع ؟ ماذا تسمع ؟

وأرهف غوميز أذنه ، فسمع هديراً أصمّ . وقال هيريرا :

— هكذا ! انها صفارة الانذار . الرابعة منذ هذا الصباح .

قال غوميز : — الرابعة .

قال هيريرا : — نعم . آه ! سوف تجدون تغيراً .

وكان هتلر قد استأنف كلامه ، فانحنوا على الجهاز . وكان غوميز يستمع الى الخطاب بأذن ، ويتابع بالاخرى هدير الطائرات . وحدث انفجار أصمّ في البعيد .

ـ ماذا يصنع ؟ انه لم يتنازل عن الارض ، وها هو الآن يطرد الالمان ! ان السيد بنيش ما كاد يتكلم حتى عادت تدابير الاضطهاد العسكرية متفاقمة . ونحن نلاحظ هذه الارقام المرعبة : ففي يوم واحد عشرة آلاف شخص يهربون ، وفي اليوم التالي عشرون الفاً .

وخف الهدير ثم ازداد فجأة ، وحصل انفجاران طويلان . وهمس تيلكان :

ـ انه المرفأ يشتعل ...

ـ .. وفي اليوم التالي سبعة وثلاثون الفاً ، وبعد يومين واحد واربعون ، ثم اثنان وستون ، ثم ثمانية وسبعون الفاً ، والآن تسعون الفاً ، مئة وسبعة آلاف ، مئة وسبعة وثلاثون الفاً . واليوم مئتان واربعة عشر الفاً . ان مناطق برمّتها قد خلت من سكانها ، واحياء قد أحرقت ، وهم يحاولون طرد الالمان بالقنابل والغاز . اما السيد بنيش فهو يقيم في براغ ، وهو يقول لنفسه : « لا يمكن ان يحدث شيء ، فان ورائي نهائياً انكلترا وفرنسا » .

وقرص هيريرا ذراع غوميز وقال :

ـ انتبه ! انتبه ! سوف يهاجمها !

وكان وجهه قد تلوّن ، وكان ينظر الى الجهاز في ودّ . وانبثق الصوت صاعقاً ، قاسياً :

ـ والآن ، يا مواطنيّ ، لقد آن الوقت كما اعتقد لقول الاشياء بصورة صريحة .

وغطّت سبحة من الانفجارات المتوالية ضجة التصفيق . ولكن غوميز لم يكد ينتبه اليها : فقد كان محدداً نظره في الجهاز ، يستمع الى هذا

الصوت المتوعد ، فيحس بانبعاث شعورٍ كان مكتناً لديه منذ وقت طويل ، شعور كان يشبه الأمل .

« انت الذي تمر من غير ان تراني

« بل من غير ان تقول لي مساء الخير

« إعطني بعض الأمل

« فهمومي هذا المساء كثيرة » .

قال جرمين شابو : — لقد فهمت . لقد فهمت هذه المرة .

فقالت زوجته : — ماذا ؟

— اسمعي ، هذا اتفاق مع صحف المساء ، فهم لا يريدون اذاعة الترجمة قبل ان تنشرها الصحف .

ونهض فتناول قبعته وقال :

— أنا هابط . وسوف اجد نسخة من « الانتران » على جادة باريس .

آن الاوان . واخرج ساقيه من السرير ، وفكر : « آن الاوان » سوف تجد العصفور قد طار وستجد ورقة من ألف فرنك مشكوكة بالغطاء ، واذا اتسع لي الوقت أضفت اليها قصيدة وداع . وكان رأسه ثقيلاً ، ولكن لم يكن به صداع . وأمرَّ يديه على وجهه ثم أخفضهما باشمئزاز : كانت تنبعث منهما رائحة الزنجية . وعلى الطاولة الزجاجية ، فوق المغسلة ، كان ثمة صابونة وردية ، الى جانب رشّاشة واسفنجة من المطاط . وأخذ الاسفنجة ولكن غثياناً صعد مرة اخرى الى فمه ، فذهب يأخذ من الصندوق الصغير قفازه وصابونته . واغتسل من الرأس الى القدمين ، وكان الماء يجري على الارض ، ولكن لم تكن لذلك اية اهميــة . وتسرّح واخرج من الصندوق قميصاً نظيفاً فارتداه . قميص الشهيد . وكان حزيناً وحازماً ، وكان على الحاجز فرشاة ، فنظف سترته بعناية . وتساءل : « ولكن اين عساني قد دسست بنطالي ؟ » ونظر

تحت السرير وحتى بين الاغطية : ليس هناك من بنطال . وقال لنفسه: « أتراني ثملاً ؟ » وفتح الخزانة ذات المرآة ، فبدأ ينتابه القلق : ان البنطال لم يكن فيها . ومكث لحظة في وسط الغرفة ، وهو في قميصه، يحك رأسه فيما ينظر حوله ، ثم اخذه الغضب لانه كان وضعاً مضحكاً تماماً بالنسبة لشهيد قادم ان يبقى هكذا مزروعاً بجواربه في غرفة نوم مومس وأطراف قميصه تخنق ركبتيه . وفي تلك اللحظة لمح الى يمينه خزانة محفورة في الحائط ، فهرع اليها ولكن المفتاح لم يكن في القفل ، وحاول ان يفتحه بأظافره ثم بمقص وجده على الطاولة ، ولكنه لم ينجح في ذلك . فقـذف بالمقص وجعل يضرب بقدمه وهو يتمتم بصوت غاضب : « يا للقحبة اللعينة ! يا للفاجرة ! لقد اقفلت على بنطالي لتمنعني من الخروج » .

— وهنا ، لا يسعني الآن الا ان اقول شيئاً واحداً : رجلان يقفان وجهاً لوجه : فهناك السيد بنيش ، وهنا ، انا !

واخذ الجمع كله يهدر . وكانت انّا تنظر الى ميلان في قلق . وكان قد اقترب من الجهاز يتأمله ويداه في جيبه . وكان وجهه قد اسودّ ، وكان ثمة شيء يتحرك في خده .

قالت انّا : — ميلان !

— ونحن رجلان من نوع مختلف . فحين كان السيد بنيش في غهد صراع الشعوب الكبير يروح ويجيء في العالم ، مبتعداً عن الاخطار ، أنجزت انا واجبي كجندي الماني شريف . وهأنذا واقف اليوم قبالة هذا الرجل كجندي لشعبي .

فصفقوا من جديد . ونهضت انّا فوضعت يدها على ذراع ميلان : كانت عضلته متشنجة وكان جسمه كله من حجر . وفكرت : « سوف يسقط » وقال متأنناً :

— يا للقذر !

فشدت على ذراعه بكل قواها ، ولكنه دفعها . وكان في عينيه دم . وتمتم :

– بنيش وأنا ! بنيش وانا ! لان وراءك خمسة وسبعين مليون نسمة .

وخطا خطوة الى امام ، وفكرت : « ماذا يريد ان يفعل ؟ » واندفع ، ولكنه كان قد بصق مرتين على الجهاز .

وكان الصوت يتابع :

« ليس لدي الا القليل من الامور أصرح به : انني اعترف بالجميل للسيد شمبرلن على جميع جهوده . وقد اكدت له ان الشعب الالماني لا يريد شيئاً آخر غير السلام: ولكني صرحت له ايضاً بأني لا استطيع أن أبعد حدود صبرنا . واكدت له كذلك ، وانا اردد هذا هنا ، بأنه لن يكون لالمانيــا ، حين تحل هذه المسألة ، اية قضية في اوروبا تتعلق بالارض . كما اكدت له انني ،بعد ان تحل تشيكوسلوفاكيا هذه المسائل، اي بعد ان يتفاهم التشيكيون مع باقي الاقليات ، لا بالضغط ، بل بالسلم ، لن اهتم بعد بالتشيكيين على الاطلاق . واني اضمن له ذلك ! ليس لنا لدى التشيكيين اي مطمع . ولكني اريد الآن ان اصرح امام الشعب الالماني بأن صبري ، فيما يتعلق بمسألة السوديت ، اوشك ان ينفد . لقد قدمت للسيد بنيش عرضاً ليس هو شيئاً آخر غير تحقيق ما اكده هو نفسه . وهو الآن يملك التقرير : سلم ام حرب . فاما ان يقبل هــذه الاقتراحات فيعطي الالمان الآن الحرية ، واما ان نذهب لنأخذها بأنفسنا » .

رفع هيريرا رأسه وقال متهللا :

– يا الآهي ! يا الهي ! هل سمعتم هذا ؟ انها الحرب .

قال غوميز : – نعم . ان بنيش رجل صلب ، وهو لن يخضع . وانها الحرب .

قال تيلكان : — يا آلهي ! ليت هذا يحدث ! ليت هذا يحدث !
سأل شمبرلن : — ما هذا ؟
قال وودهاوز : — التتمة .
فأخذ شمبرلن الاوراق وجعل يقرأ . وكان وودهاوز يرقب وجهه في قلق . وبعد لحظة ، رفع رئيس الوزارة رأسه وبسم له بتودّد وقال:
— حسناً ، لا شيء جديداً .
فنظر الى وودهاوز بدهشة ، وقال ملاحظاً :
— ولكن المستشار هتلر عبّر عن آرائه بعنف كثير .
قال شمبرلن : — يعني ، يعني . كان مضطراً لذلك .
— انني اليوم أسير امام شعبي كجنديّه الأوّل ، وليعلم العالم الآن ان شعباً يمشي الآن ورائي ، شعباً يختلف عن شعب ١٩١٨ . ففي هذه الساعة سيتحد الشعب الالماني كله معي . وسيشعر بارادتي كارادته ، وكذلك اعتبر مستقبله ومصيره كمحرك لعملي ! ونحن نريد ان نعزز هذه الارادة المشتركة ، كما كانت في عهد النضال ، يوم ذهبت كجندي بسيط مجهول لأحصل على « ريخ » غير مرتاب قط بالنجاح والنصر النهائي . لقد تكاتف حولي فريق من الرجال الشجعان والنساء الشجاعات، ثم ساروا معي . والآن اطلب منك يا شعبي الالماني هذا : « سر ورائي رجلا بعد رجل ، وامرأة بعد امرأة . فنحن نريد في هذه الساعة ان تكون لنا جميعاً ارادة مشتّركة . وينبغي ان تكون هذه الارادة أقوى من أية محنة ومن اي خطر ، واذا كانت هذه الارادة اقوى من المحنة والخطر ، فسوف تقهر المحنة والخطر ، نحن مصمّمون ، فعلى السيد بنيش الآن ان يختار !
والتفت بوريس الى الآخرين وقال لهم :
— انتهى .
ولم تكن ردود فعلهم سريعة : كانوا يدخنون بهيئة متنبهة . وبعد

لحظة ، سأل صاحب المقهى :
ــ هل تلوي رقبته اذن ؟
ــ تستطيع ان تفعل .
فانحنى صاحب المقهى فوق الزجاج وأدار المفتاح ، واحس بوريس بالانزعاج لحظة : لقد نتج عن ذلك ما يشبه فراغاً كبيراً . وكانت نفحة ريح وليل تدخل من الباب المفتوح .
وسأل المارسيلي : ــ اذن فماذا قال ؟
ــ قال في النهاية : ان شعبي كله ورائي : وانا مستعد للحرب : فعلى السيد بنيش ان يختار .
قال المارسيلي : ــ مأتم ! انها الحرب اذن ؟
فهز بوريس كتفيه . وقال المارسيلي :
ــ لقد انقضت عليّ ستة أشهر لم ار فيها زوجتي ولا ابنتيّ ، فسوف اعود الى مرسيليا ومساء الخير : تحية صغيرة من اليد وأذهب الى ثكنة .
قال شومي : ــ اما انا فربما لم أجد الوقت لرؤية امي (وأوضح) انني من الشمال.
قال المارسيلي وهو يهز رأسه : ــ هكذا !
وسكتوا . وأفرغ شارلييه غليونه عند كعب حذائه . وقال صاحب المقهى :
ــ هل تأخذون شيئاً ؟ ما دامت هي الحرب ، فاني اقدم لكم النوبة .
ــ هات نوبة .
وكان الهواء الخارج رطباً أسود ، وكانت تُسمع موسيقى الكازينو من بعيد : ربما كانت لولا هي التي تغني . وقال الشمالي :
ــ لقد كنت انا في تشيكوسلوفاكيا . وانا مسرورٌ اني كنت فيها : فهكذا يعرف المرء لماذا يقاتل .

فسأله بوريس : — هل مكثت فيها طويلاً ؟

— ستة اشهر . في عملية قطع غابات . كنت اتفاهم جيداً مع التشيكيين . انهم نشيطون .

قال صاحب الحانة : — فيما يخص النشاط ، الالمان ايضاً نشيطون .

— نعم ولكنهم يخرّبون العالم . بينما التشيكيون هادئون .

قال شارلييه : — نخبكم .

— نخبكم .

ودّقوا اقداحهم فيما بينهم ، وقال المارسيلي :

— لقد بدأ الطقس يبرد .

نهض ماتيو منتفضاً ، فسأل وهو يفرك عينيه :

— ما هذا ؟

— انها مارسيليا ، محطة سان — شارل ، الجميع ينزلون .

قال ماتيو : — حسناً ، حسناً .

واخذ مشمّعه وتناول حقيبته من الشبكة . وكان يحس نفسه مبهماً ؛ وفكر في عزاء : لا بد ان هتلر قد انهى خطابه .

وقال الشمالي : — لقد رأيتهم يذهبون ؛ شبان ١٤ . وكنت في العاشرة . كان شيئاً مختلفاً عما هو الآن .

— هل كانوا يريدون الحرب ؟

— ها ! وكم ! كانوا يتوهجون ، كانوا يغنّون ، كانوا يملأون الدنيا حركة !

قال المارسيلي : — يجب القول بأنهم لم يكونوا يدركون .

— طبعاً لا .

قال بوريس : — اما الآن ، فنحن ندرك .

وساد صمت . وكان الشمالي ينظر امامه باستقامة . وقال :

— لقد رأيتهم عن كثب ، الالمان . لقد احتلونا أربعة أعوام . فماذا

استفدنا ! لقد قُسمت القرية ، وكان الناس يختبئون اسابيع برمتها في المقالع . تفهمون اذن رأيي حين أفكر : يجب ان يُؤجل ذلك ... (وأضاف) ان هذا لا يعني اني لن أفعل كالآخرين .

قال صاحب الحانة : — اما انا ، فاني مصابٌ بذعر الموت منذ كنت صغيراً . ولكني كوّنت لي فكرة ، في هذه الايام الاخيرة . قلت لنفسي : ان يموت الانسان ، فهذا قبيح جداً . ولكن ليكن بالحمى الاسبانية او بشظية قنبلة ...

وكان بوريس يضحك مفتوناً : كان يجدهم ظرفاء ، وفكر : « انني افضل الرجال على النساء » .

ولقد كان من مزايا الحرب انها تقوم بين الرجال ، فهو لن يرى طوال ثلاثة اعوام او خمسة الا رجالا « وسوف اتنازل عن مأذونيتي لآباء العائلات » .

قال شومي : — المهم ان نستطيع القول باننا قد عشنا . اني الآن في السادسة والثلاثين ، ولم استمتع دائماً بالحياة . ان هناك قمماً وسفوحاً ، ولكني عشت . فبوسعهم ان يقطعوني إرباً ، فهم لن يمنعوا ذلك . (والتفت الى بوريس) اما بالنسبة لفتى مثلك ، فلا بدّ ان الأمر أشقّ .

قال بوريس بحيوية : — آه ، صحيح ، منذ اللحظة التي بدأوا يرددون لي فيها ان الحرب ستقع .

واحمرّ قليلا وأضاف : « ولكن من يجدها شاقة رديئة ، انما هو المتزوّج » .

قال المارسيلي وهو يتنهد : — نعم . ان زوجتي شجاعة ، ثم ان لها مهنة : فهي حلاقة . والامر يزعجني بالاحرى بسبب الصغيرتين . غير ان من الافضل ان يكون ثمة أب ، اليس كذلك ؟ وليس من الضروري ان يموت الانسان لمجرد ان يذهب الى الحرب .

قال بوريس : — هذا صحيح .

وكانت الموسيقي قد انطفأت . ودخل الى الحانة رجل وامرأة : كانت المرأة حمراء الشعر ترتدي ثوباً أخضر طويلاً وعارياً . وجلسا على طاولة في الداخل . قال شارلييه :

— مهما يكن ، فان الحرب غبية . انني لا أعرف ما هو أغبى منها.

وقال صاحب الحانة : — ولا أنا .

قال شومي : — ولا أنا .

قال المارسيلي : — كم انا مدين لك ؟ ان عليّ تكاليف نوبة .

قال بوريس : — وعليّ ايضاً تكاليف نوبة .

ودفعا . وخرجا شومي والمارسيلي وأحدهما يتأبط ذراع الآخر . وتردّد شارلييه لحظة ، واستدار على عقبيه وذهب يجلس وهو يحمل قدحه . وكان بوريس قد بقي امام المشرب ، وفكر : كم هم ظرفاء، وغمره الفرح ، سيجد مثلهم في الخنادق ، آلافاً وآلافاً ، في مثل ظرفهم . وسوف يعيش بوريس معهم فلا يتركهم ليلاً ولا نهاراً ، سيكون لديه ما يعمله . وفكر : انني محظوظ ، حين كان يقارن نفسه بالاشخاص المساكين الذين سُحقوا او ماتوا بالكوليرا وهم في مثل سنه، كان مضطراً الى الاقرار بأنه كان محظوظاً،وهو لم يعتبر خائناً ، فليست القضية قضية حرب من هذه الحروب التي تقلب،من غير اعداد ، حياة الانسان ، كأنها حدث بسيط : فان هذه الحرب كانت تبشر بنفسها منذ ستة اعوام او سبعة مقدماً ، وقد اتيح للناس ان يروها قادمة . ولم يشكّ بوريس شخصياً انها لا بد ان تنفجر ، لقد انتظرنا كولي عهد يعرف منذ طفولته انه ولد ليحكم . ولقد وضعوه في الدنيا من اجل هذه الحرب ، وربوه من اجلها ، فأرسلوه الى الليسيه والى السوربون ومنحوه ثقافة . كانوا يقولون انهم يفعلون ذلك لكي يصبح استاذاً ، ولكنه كان دائماً يشك في ذلك ، كان يعلم الآن انهم كانوا يريدون ان يجعلوا منه

ضابط احتياط ، وهم لم يوفروا شيئاً لكي يتيحوا له ميتةً جميلة وجديدة وسليمة . وفكر : وأظرف ما في الأمر اني لم اولد في فرنسا ، وانما استوطنتها،غير ان ذلك لم يكن ذا اهمية في نهاية المطاف ، فلو انه بقي في روسيا ، او لو لجأ ذووه الى برلين او بودابست، لما تغير الوضع : فليست القضية قضية جنسية ، وانما هي قضية سن . لقد كان الشبان الالمان والشبان الهنغاريون والشبان الانكليز ، والشبان اليونان مرصودين للحرب نفسها ، للمصير نفسه . وفي روسيا ، قام اولاً جيل «الثورة» ثم جيل مشروع السنوات الخمس ، والآن جيل الصراع العالمي : فلكل جيل نصيبه . والمرء يولد في آخر المطاف إما من اجل الحرب او من أجل السلم ، كما يولد عاملاً او بورجوازياً ، فليس له في الأمر حيلة، ولم يوهب جميع الناس حظ ان يكونوا سويسريين . وفكر : ان الشخص الذي يملك حق الاحتجاج انما هو ماتيو : فهو بلا شك قد ولد للسلام ؛ لقد وثق كل الثقة انه سيموت ميتة الشيخوخة ، فاكتسب عاداته كلها ، ومن كان في عمره لا يغير عاداته . اما انا ، فهذه هي حربي . هي التي صنعتني ، وانا الذي سأخوضها ، فنحن لا نفترق ؛ بل اني لا استطيع ان اتخيل ما عساني أكون اذا لم تنفجر . وفكر في حياته فلم تَبْدُ له بعد أنها كانت أقصر مما ينبغي : إن الحياة ليست قصيرة ولا طويلة ، وانما هي حياة ، هذا كل ما في الأمر . والحرب في نهايتها . واستشعر فجأة انّ جدارة جديدة تتلبّسه ؛ لأنه كان ذا رسالة في المجتمع ، ولأنه كذلك سيهلك في ميتة عنيفة ، وشعر بانزعاج في تواضعه . لا ريب في ان الساعة كانت قد أزفت ليذهب الى اصطحاب لولا . وبسم لصاحب الحانة وخرج مسرعاً .

كانت السماء ملبّدة بالغيوم ، ولكن كانت تُرى هنا وهناك نجوم ، وكانت الريح تعصف من البحر . وذات لحظة ، كان في رأس بوريس سحاب ، ثم فكر : « حربي » واخذته الدهشة لانه لم يألف التفكير

مدة طويلة في الامور نفسها . وقال في نفسه : « كم سيتملكني الخوف ! آه ! لا ، لا ! » واخذ يضحك عجباً ورضى لصورة هذا الرعب الشديد . ولكنه كف عن الضحك بعد بضع خطوات تحت تأثير قلق مفاجيء : ذلك انه لا ينبغي ان يخف المرء خوفاً مفرطاً. صحيح انه لن يشيخ ، ولكن ذلك لم يكن سبباً ليفوّت عليه حياته ويسمح لنفسه بأي شيء . لقد رصدوه منذ ولادته ، ولكنهم تركوا له كل حظّه ، فكانت حربه رسالةً اكثر منها قدراً. كان بوسعه طبعاً ان يتمنّى رسالة اخرى : رسالة فيلسوف كبير مثلاً ، او رسالة دون جوان او رسالة مالي عظيم. ولكن المرء لا يختار رسالته : فاما ان ينجح فيها او يخسر، هذا كل ما في الامر ، وأغبى ما في رسالته ، انه لم يكن مسموحاً ان يُستدرَك فيها شيء . كان ثمة حيواتٌ تشبه البكالوريا : على الطالب ان يقدم عدة مسابقات ، فاذا قصّر في مسابقة الفيزياء ، كان بامكانه ان يستدرك نفسه في مسابقة العلوم الطبيعية ، او الفلسفة . اما حياته هو ، فهي تذكّر بشهادة الفلسفة العامة حيث يحكم عليك من مسابقة واحدة ؛ وقد كان ذلك يثير الخوف الشديد. ولكن مهما كان من أمر ، فقد كان عليه ان ينجح في هذه المسابقة ، لا في سواها – وسيكون عليه ان يعمل . ينبغي ان يتصرف تصرفاً نظيفاً بالطبع ، ولكن ذلك لم يكن كافياً . فينبغي خصوصاً ان يقيم في الحرب ، وان يحفر فيها زاويته ويحاول ان يفيد من كل شيء . وينبغي ان يقول لنفسه : ان كل شيء يستحق شيئاً ، على نحو ما : فهجومٌ في الارغون يستحق نزهة في الغندول ، والعصير الذي يُشرب في الخنادق صباحاً ، يستحق قهوة صباحية في المحطات الاسبانية . وهناك بعد ذلك الرفاق ، والحياة في الهـواء الطلق ، والرزم ولا سيما المشاهد ؛ فالقصف بالقنابل ليس مشهداً قذراً . المهم ان لا يخاف الانسان . فاذا خفت، عرّضت حياتي للسرقة . انني الشرغوف ؛ وقرّر : لن أخاف .

وايقظته انوار الكازينو من حلمه ؛ وكانت لفحات من الموسيقى تتسرّب من النوافذ المفتوحة ، وأقبلت سيارة سوداء تقف بصمت امام الحاجز . وفكر في ضيق : لا يزال هناك عام اجرجره .

كان الوقت قد تجاوز نصف الليل ، وكان قصر الرياضة مظلماً مقفراً ، الكراسي مقلوبة ، وأطراف السيكارات مسحوقة ، وكان السيد شمبرلن يتحدث في الراديو ، وكان ماتيو يتيه على رصيف « فيو — بور » وهو يفكر : « انه مرض ، مرض ليس الا ، وقد سقط عليّ اتفاقاً ، فهو لا يعنيني ، ويجب ان أعالجه بالشدة وبالصبر كالنقرس او وجع الاسنان » . وقال السيد شمبرلن :

« ارجو ان لا يطرح المستشار هذا العرض الذي صيغ بروح الصداقة نفسها التي قوبلت بها في المانيا والذي اذا قبل ارضى الرغبة الالمانية في اتحاد السوديت مع الريخ ، من غير اراقة نقطة دم في اي جزء من اوروبا » .

وأشار بيده اشارة يدل بها على انه انتهى وابتعد عن المكبر . وكانت زيزيت ، التي لم تكن تستطيع النوم ، قد وقفت امام النافذة تنظر الى النجـــوم فوق السطوح ، وكان جيرمان شالو ينزع بنطاله في غرفة التواليت . وكان بوريس ينتظر لولا في ساحة الكازينو ، وكانت زهرة كالحة تحاول ، في كل مكان من الاجواء ، ان تتفتح ، وهي تكاد لا تسمع : « اذا أصبح القمر أخضر » تعزفهـــا فرقة الجاز في فندق استوريا وتنقلها دافانتري .

الثلاثاء ٢٧ ايلول

الساعة ٣٠ر٢٢ . قالت البوابة : « السيد دولارو ! انها لمفاجأة ! فانا لم اكن انتظر وصولك الا بعد ثمانية ايام » .

فابتسم لها ماتيـــو . كان يؤثر لو انه دخل من غير ان تلحظه : ولكن كان لا بد له من طلب المفاتيح .

ــ انك غير مجنَّد ، على الاقل ؟

قال ماتيو : ــ انا ، نعم ، لست مجنداً .

قالت : ــ آه ! هذا أفضل ! أفضل ! فهذا يأتي دائماً قبل الاوان. ولكن ، قل لي ، ما هذه الاحداث ؟ لقد وقعت اشياء واشياء منذ ذهابك : وهل تظن انها الحرب ؟

قال ماتيو : ــ لا ادري ، ايتها السيدة غارينيه . (واضاف بحيوية) هل هناك بريد لي ؟

قالت السيدة غارينيه : ــ الواقع اني ارسلت لك كل شيء . وأمس فقط ، حوّلت لك مطبوعاً الى جوان ليبان : فليتك كنت اخبرتني عن عودتك . ثم وصلك هذا ، هذا الصباح .

ومدت له ظرفاً طويلا رمادياً ، فعرف ماتيو خط دانيال . وأخذ الرسالة فوضعها في جيبه من غير ان يفضها . قالت البوابة :

ــ أتريد المفاتيح ؟ آه ! من المزعج انك لم تستطع ان تخبرني :

فلو فعلت لكان امامي وقت للتنظيف . اما الآن ... فحتى المصاريع لم تفتح .

قال ماتيو وهو يأخذ المفاتيح :

ـ لا بأس على الاطلاق ، على الاطلاق . مساء الخير يا سيدة غارينيه .

وكان البيت مقفــراً . وكان ماتيو قد شاهد من الخارج جميع المصاريع مغلقة . وكانت سجادة الدرج قد نُزعت بسبب الصيف . ومر متمهلا امام شقة الطابق الاول . كان أطفال في الماضي يصرخون فيها ، فيتململ ماتيو في فراشه وقد خُرقت اذناه ببكاء المولود الجديد . اما الآن ، فقد كانت الغرف سوداء خالية خلف المصاريع المغلقة . العطلة. ولكنه كان يفكر في اعماق نفسه : الحرب . لقد كانت هي الحرب ، هذه العطلة المخدرة التي قُصّرت للبعض ، ومُددت للبعض الآخر . وفي الطابق الثاني كانت تسكن امرأة ينفق عليها رجل : كان عطرها غالباً ما يتسرب من تحت الباب وينتشر حتى سطيحة السلّم . لا بد انها في بياريتز ، في فندق كبير ترهقه الحرارة وخمود الاعمال . وبلغ الطابق الثالث وأدار المفتاح في القفل . كان تحته وفوقه حجارة ، والليــل والصمت . ودخل في الظلام ، ووضع في الظلام حقيبته ومشمّعه : وكانت رائحة الغبار تنبعث من المدخل . وبقي جامداً وذراعاه ملتصقتان بجسمه ، مجلبباً بالظلام ، ثم أدار المفتاح الكهربائي فجأة وعبر غرف بيته واحــدة بعد الاخرى ، تاركاً جميع الأبواب مفتوحة ؛ وأضاء النور في المكتب ، وفي المطبخ ، وفي المرحاض ، وفي غرفته . كانت جميع المصابيح تلمع ، وكان تيار من النور المنصل يسري بين الغرف. وتوقف عند حافة سريره .

كان ثمة من نام هناك . فالغطاء كان ملتوياً ، وكان غشاء الوسادة متسخاً ومدعوكاً ، وكان فتات من الخبز منتثراً على الفراش . أحدهم:

أنا . كان يفكر : انا الذي نمت هنا . يوم ١٥ تموز ، للمرة الاخيرة. ولكنه كان ينظر الى السرير في اشمئزاز : كان نومه القديم قد برد في الاغطية ، اما الآن ، فهو نوم شخص آخر . لن انام هنا .

واستدار ودلف الى المكتب : واستمر اشمئزازه . قدح قذر على المدخنة . وعلى الطـاولة ، بالقرب من العقرب البرونزي ، سيكارة مكسورة : وكانت وفرة من السبائب خارجة منها . متى كسرت هذه السيجارة ؟ وضغط على بطنها فأحس تحت أصابعه بهسيس لاوراق ميتة. الكتب . مؤلف لأربوليه ، وآخر لمارتينو ، ولامبال ، ولوسيان لون، وذكريات الأنا . هناك من فكر بكتابة مقال عن ستاندال . كانت الكتب باقية هناك ، اما المقال المحجّر فقد اصبح شيئاً . ايار ٣٨ : لم يكن غير مجد بعد كتابة مقال عن ستاندال . شيء . شيء كأغطيتها الرمادية، كالغبار الذي حط على ظهورها . شيء كثيف ، جامد ، حضور لا لا ينفذ اليه . مشروعي .

مشروعه للشرب ، الذي حطّ صفائح كابية على شفافية القدح ، مشروعه للتدخين ، مشروعه للكتابة ، كان الرجل قد علق مشاريعه في كل مكان . كان ثمة تلك الاريكة الجلدية الخضراء حيث كان الرجل يجلس مساء . كان ذلك في المساء : نظر ماتيو الى الاريكة وجلس على طرف كرسي . « ان ارائكك مفسدة » كأن صوت قد قال ، هنا بالذات : ان أرائكك مفسدة . وعلى الديوان ، كانت فتاة شقراء قد نفضت خصلاتها في غضب . في ذلك الوقت كان الرجل يكاد لا يرى الخصلات ، ولا يسمع الاصوات : كان يرى ويسمع مستقبله من جهة الى جهة . اما الآن ، فان الرجل كان قد رحل ، حاملا مستقبله القديم الكاذب ؛ كانت اشكال الحضور قد بردت ، فظلت هناك ، قشرة من شحم مجمدة على الاثاث ، وكانت الاصوات تطفو على مستوى الأعين: كانت قد صعدت حتى السقف ، ثم سقطت ، وكانت طافية . واحس

ماتيو بأنه مبذول ، فاتجه الى النافذة ورفع المصاريع . وكان ما يزال في المساء بعض النهار ، إشراق غفل : وتنفس .

رسالة دانيال . مد يده ليأخذها ، ثم ترك يده تسقط على عمود الاستناد . كان دانيـــال قد ذهب من هذه الطريق ، ذات مساء من حزيران ، وكان قد مر تحت هذا الفانوس : وكان الرجل قد وقف على النافذة يتابعه بعينيه . لهذا الرجل كتب دانيال . ولم تكن لدى ماتيو رغبة بقراءة رسالته . واستدار فجأة . فأجال نظره في مكتبه ، بفرح جاف . كانوا جميعاً هنا ، محبوسين ، امواتاً ، مارسيل ، ايفيش ، برونيه ، بوريس ، دانيال . كانوا قد جاءوا ، فأخذوا ، فبقوا ، سورات غضب ايفيش ، ومواعظ برونيه ، كان ماتيو يتذكرها كما يتذكر موت لويس السادس عشر ، بالتجرد نفسه . كانت تنتمي الى ماضي العالم ، لا الى ماضيه : فانه لم يكن له ماض بعد .

وعاد يغلق المصاريع ، ثم عبر الغرفة ، وتردد ، وبعد تفكير ، ترك المصباح مضاءً . صباح الغد ، سأعود لآخذ حقائبي . وعاد يغلق الباب الخارجي عليهم جميعاً ، وهبط الدرج ، خفيفاً . فارغاً وخفيفاً. وخلفه ، فوق ، كانت المصابيح الكهربائية تضيء طوال الليل حياته الميتة .

سألت لولا : — بمَ تفكر ؟

فقال بوريس : — بلا شيء .

وكانا جالسين على الشاطيء . ولم تكن لولا لتغني ذلك المساء، بسبب حفلة خاصة تقام في الكازينو . وكان قد مر امامها رجل وامرأة ، ثم جندي . وكان بوريس يفكر في الجندي . وقالت لولا بصوت ملحّ :

— كن لطيفاً وقل لي بمَ تفكر ؟

وهز بوريس كتفيه :

— كنت افكر بالجندي الذي مرّ .

قالت لولا مندهشة : ـ آه ! وبأي موضوع حوله كنت تفكر ؟
ـ بمَ تريدين ان يفكر المرء حول جندي ؟
فهمهمت لولا : ـ بوريس ، ما بك ؟ كنت رقيقاً جداً ولطيفاً ، وها ان كل شيء يعود كالسابق . انك لم تحدثني طوال النهار تقريباً .
فلم يجيب بوريس ، كان يفكر بالجنـــدي . كان يفكر : « انه محظوظ : اما انا ، فان امامي سنة اخرى اجرجرها ، سنة : سيعود الى باريس ، وسيتنزه على جادة مونبارناس ، وعلى جادة سان ميشال التي يعرفها عن ظهر قلب ، ويذهب الى الدوم والى الكوبول ، وينام في بيت لولا كل يوم . ليتني استطيع ان ارى ماتيو ، اذن لسارت الامور سيراً رائعـــاً ، ولكن ماتيو سيكون مجنداً . وفكر فجأة : ودبلومي ! فانه سيكون ثمة ، فوق ذلك كله ، هذه النكتة السمجة : دبلوم الدراسات العليا . سوف يطلب منه ابوه بالتأكيد ان يتقدم الى امتحانه ، وسيكون بوريس مضطراً الى تقديم اطروحة عن « الذاكرة عند رنوفييه » او عن « العادة عند مين دوبيران » . وفكر في غيظ : لماذا تراهم جميعاً يمثلون ؟ كانوا قد ربّوه للحرب ، وكان هذا حقهم ، ولكنهم الآن يريدون ان يقسروه على التقدم لامتحان دبلومه ، كما لو كانت امامه حياة سلام برمتها . سيكون الوضع مرحاً : سيتردد طوال عام الى المكتبات ، وسيتظاهر بأنه يقرأ جميع آثار مين دوبيران في طبعة تيسران ، وسيتظاهر بأنه يسجل ملاحظات ، وسيتظاهر بأنه يعد امتحانه ، ولن ينقطع عن التفكير بالتجربة الحقيقية التي تنتظره ، ولن يكف عن التساؤل عما اذا كان سيخاف ام يصمد . وفكر وهو يلقي نظرة انزعاج على لولا : « لو لم تكن هذه موجودة لتطوعت على الفور ، وتكون هذه حكاية جميلة أعملها معهم » .
وصاحت لولا مذعورة ـ : بوريس ! لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ اتراك لا تحبني ؟

فقال بوريس منقبض الاسنان : — على العكس . لا تستطيعين ان تدركي كم أحبك . بل انت لا تقدرين مدى ذلك .

كانت ايفيش قد اضاءت مصباحها الليلي وتمددت على سريرها ، عارية تماماً . وكانت قد تركت البـــاب مفتوحاً وهي تراقب الممر . وكان في السقف دائرة مضيئة ، وباقي الغرفة كلها أزرق . وكانت سحابة زرقاء تطفو فوق الطاولة ، تنبعث منها رائحة الليمون والشاي والسيجارة .

وسمعت حفيفاً في الممر ، ثم مرت كتلة هائلة امام الباب صامتة . فصاحت :

— هيب !

وأدار ابوها رأسه فنظر اليها نظرة توبيخ :

— ايفيش ! لقد رجوتك قبل الآن : اما ان تغلقي البـــاب او ترتدي ثيابك .

وكان قد احمر قليلا ، وكان صوته اكثر غناء من المألوف .

— بسبب الخادمة .

قالت ايفيش من غير ان تتأثر :

— لقد اوت الخادمة الى فراشها (وأضافت) كنت اترصدك . فانت تحدث ضجة يسيرة جداً حين تمر . وقد كنت اخشى ان تفوتني . ارجع .

فرجع السيد سرغين ، ونهضت فوضعت معطفها . وكان ابوها يقف مستقيماً ، مولياً ظهره ، في فتحة البـــاب . ونظرت الى رقبته ، والى كتفيه العتليتين واخذت تضحك بلا ضجة .

— تستطيع ان تنظر .

وادار وجهه ، ونشق مرتين او ثلاثاً ثم قال :

— انك تفرطين في التدخين .

قالت : — بسبب ثورة اعصابي .

وصمت . وكان المصباح يضيء وجهه الكبير المخدد . ووجدته ايفيش جميلا . جميلا كالجبل ، كشلالات نياغارا . وانتهى الى القول :

ـ سآوي الى النوم .

فقالت ايفيش مبتهلة : ـ كلا ، كلا ، يا بابا : اريد ان استمع الى الراديو .

وصاح السيد سرغين : ـ ماذا ؟ في هذه الساعة ؟

ولم تستسلم ايفيش لهذا الغضب : كانت تعلم انه كان يخرج ثانية من غرفته كل مساء حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب فيستمع الى الاخبار في مكتبه ، بصوت منخفض ، وكان خفياً وخفيفاً كأنه جني ، بالرغم من كيلوغراماته التسعين .

قال : ـ اذهبي فاستمعي وحدك . اما انا ، فاني انهض باكراً غداً.

قالت ايفيش بلهجة تدعو الى الاشفاق :

ـ ولكنك تعرف يا بابا انني لا أعرف إدارة الراديو .

فأخذ السيد سرغين يضحك وقال :

ـ ها ! ها ! ها ! ها !

وسألها وهو يستعيد جده :

ـ هل تريدين سماع الموسيقى ؟ ولكن امك المسكينة تنام ؟

قالت ايفيش غاضبة : ـ كلا يا بابا . لا اريد سماع الموسيقى ، وانما اريد ان اعرف اين صاروا في حربهم .

ـ اذن ، تعالي .

فتبعته الى المكتب ، وقدماها عاريتان ، وانحنى على الجهاز . وكانت يداه الطويلتان القويتان تحركان المفاتيح بلطف شديد ، حتى ان قلب ايفيش قد خفق وتأسف على حميميتها السابقة . حين كانت في الخامسة عشرة ، كانا دائماً معاً ، وكانت السيدة سرغين تغار . وحين كان السيد سرغين يصطحب ايفيش الى المطعم ، كان يجلسها قبالته ، على

المقعد ، وكانت هي تختار وجبتها بنفسها ؛ وكان الخـدم ينادونها « مدام » فتضحك مرحاً ويستشعر هو الفخر ، وكان يبدو في بحبوحة من العيش . وسمعت آخر انغام نشيد عسكري ، ثم أخذ الماني يتكلم بصوت مغتاظ . وقالت في عتاب :

— بابا ، انني لا اعرف الألمانية .

فنظر اليها نظرة ساذجة ، وفكرت : « لقد تقصد ذلك . . »

— انها ، في هذه الساعة ، افضل الاخبار .

وأصغت ايفيش بتنبه لترى اذا كانت ستسمع في هذه الاثناء كلمة « كريغ » التي كانت تعرف معناها . وصمت الالماني ، ثم بدأت الجوقة نشيداً عسكرياً آخر تجرحت منه أذنا ايفيش ، ولكن السيد سرغين استمع حتى النهاية : انه لم يكن يحتقر الموسيقى العسكرية .

وسألت ايفيش ، في ضيق :

— ماذا هناك ؟

فصرح السيد سرغين : — الامور سيئة جداً .

ولكنه لم يكن يبدو متأثراً اكثر مما ينبغي . وقالت، وحلقها جاف :

— آه ! دائماً بسبب هؤلاء التشيكيين ؟

— نعم .

قالت بحماسة : — ما اشدّ ما اكرههم ! (وأضافت بعد لحظة) ولكن اذا كان ثمة بلد يرفض الحرب ، فلن يكون بالامكان إجباره عليها ؟

قال السيد سرغين بقسوة :

— ايفيش ، انك حقاً طفلة .

قالت ايفيش : — آه ؟ آه نعم ، طبعاً .

كانت تتهم أباها بأنه لم يكن يعرف الموضوع خيراً منها .

— اهذه كل الاخبار ؟

فتردد السيد سرغين :

– بابا !

إنه غاضب لاني جئت ، فانا أفسد عليه حفلته الصغيرة ، كان السيد سرغين يحب الأسرار ، وكان لديه ست حقائب مقفلة ، وصندوقـان محكما الاغلاق ، وكان يفتحها احياناً اذ يكون وحده . وتأملته ايفيش في حنان ، كان لطيفاً جداً حتى انها اوشكت ان تطلعه على قلقها ، وقال على مضض :

– بعد لحظة ، سنسمع الفرنسيين .

وخفض نحوها عينيه المتقعتين ، فاحست بأنه لم يكن يستطيع ان يعينها في شيء .

واكتفت بالسؤال :

– كيف تكون الامور ، اذا وقعت الحرب ؟

– سيُهزم الفرنسيون .

– هكذا ! وهل يدخل الألمان الى فرنسا ؟

– طبعاً .

– ويأتون الى لاون ؟

– أفترض ذلك . افترض ان ينزلوا الى باريس :

وفكرت ايفيش : « انه لا يعرف من الامر شيئاً ، انه مهرج . » ولكن قلبها كان يقفز في صدرها .

– سيأخذون باريس ، ولكنهم لن يهدموها ؟

وندمت لإلقائها السؤال : فمنذ ان احرق البولشفيك قصور أبيها ، اكتسب حسّ الكوارث : وهـز رأسه وهو يغمض عينيه نصف إغماض ، وقال :

– هيه ! هيه ! هيه !

الساعة ٢٣،٣٠ . كان شارعاً ميتاً يغرقه الظلام : مصباح من بعيد

لبعيد . شارع من لا مكان تحفّ به أضرحة مغفلة . جميع المصاريع مغلقة ، وليس من شق للضوء . « كان ذلك شارع دولامبر . » وكان ماتيو قد اجتاز شارع « سيل » ، وشارع « فروادفو » وتابع جادة دوبين وحتّى شارع لاغيتيه : كانت كلها متشابهة ، فهي ما تزال دافئة ، يكاد المرء لا يعرفها ، إذ هي قد أصبحت شوارع حرب .

ودلف ماتيو الى الدوم لان الدوم كان قائماً هناك . وأسرع اليه خادم وهو يبتسم بلطف : كان فتى قصيراً ذا نظارات ، ضعيف الصحة ، يفيض بروح الرضى . انه خادم جديد : فقد كان القدامى يتركون زبائنهم ينتظرون طوال ساعة ، ثم يقبلون في غير اكتراث ويأخذون الطلب من غير ان يبتسموا .

— اين هنري ؟

فسأل الخادم : — هنري ؟

— اسمر طويل ذو عينين تجحظان من رأسه .

— آه ! لقد جُنّد .

— وجان ؟

— الاشقر ؟ لقد جُنّد ايضاً . فانا أحلّ محلّه .

قال ماتيو — : اعطني قدح خمر .

فمضى الخادم وهو يعدو : وطرف ماتيو بعينيه ، ثم تأمّل القاعة في دهشة . في تموز ، لم يكن للدوم حدود دقيقة ، كان يسيل في الليل ، عبر واجهاته وبابه ، وكان ينتثر على الطريق ، وكان المارة يسبحون في ذلك الحليب النليل الذي ما يزال يرتجف على ايدي السواقين الواقفين في وسط جادة مونبارناس . وخطوة الى الامام ، فاذا هم يسبحون في الاحمر ، لأن الجانب الايمن من وجوه السواقين أحمر : كان هناك مقهى الروتوند ، اما الآن ، فقد كانت ظلمات الخارج تتدافع على الواجهات فاذا الدوم مقتصر على نفسه : مجموعة من الطاولات والمقاعد والزجاج

الجاف المقبض ، المحروم من هذا الإشراق المنتشر الذي كان ظلالها الليلي . لقد اختفوا ، المهاجرون الالمان ، وعازف البيانو الهنغاري ، والاميركية العجوز المدمنة على الكحول . ذهبوا ، جميع اولئك الازواج اللطفاء الذين كانوا يتماسكون بالايدي تحت الطاولة ، ويتحدثون عن الحب حتى الصباح ، وعيونهم متوردة من النعاس . وكان الى يساره رئيس عسكري يتناول العشاء مع زوجته ؛ وقبالته كانت مومس صغيرة ألمانية تحلم امام فنجان قهوة بالحليب ، وعلى الطاولة المجاورة نقيب يأكل الكرنب المهرّم . والى اليمين ، كان فتى في الثياب العسكرية يضمّ اليه امرأة، وكان ماتيو يعرفه بالوجه ، فقد كان طالباً من طلبة البوزار ، طويلاً، ممتقعاً ، َبرِماً ؛ وكان الثوب العسكري يكسبه هيئة متوحشة؛ ورفع النقيب رأسه فاخترق نظره الجدار ؛ وتابع ماتيو هذا النظر : في البعيد كانت ثمة محطة وأنوار وانعكاسات على خطوط حديدية ، ورجال ذوو وجوه موحلة وقد اتسعت عيونهم من فرط الارق ، وهم جالسون بتصلّب في القاطرات ، وايديهم على ركبهم . في تموز كنا جالسين تحت المصابيح في حلقة ، لا يترك احدنا الاخر بنظره ، ولم يكن نظر احدنا ليضيع . اما الان ، فهم يضيّعون بعضهم بعضاً ، يمضون نحو ويسمبورغ ونحو مونتميدي ، وبين الاشخاص كثير من الفراغ وكثير من السواد . لقد جنّدوا الدوم . وجعلوا منه آنية ذات اهمية اولية : مقصفاً .

وفكّر في فرح : « آه ! انني انكر هذا كله ، ولا أتحسر على شيء ، ولا أخلّف شيئاً ورائي . »

وابتسمت له الفتاة الهندصينية . كانت رقيقة دقيقة ذات يدين صغيرتين جداً ؛ وكان قد مضى على ماتيو عامان وهو َيعِدُ نفسه بأن يقضي ليلة معها . وإنها لفرصة مناسبة . سوف أمرُّ فمي على بشرتها الباردة ، وسوف انتشق رائحتها الخَشَرية الصندوقية ، وسأكون عارياً ومطلق

شخص تحت اصابعها الممتهنة ؛ وإن في بعض التفاهات التي ستموت على يديها . وكان حسبه ان يبادلها بسمتها .

– غارسون .

فهرع الخادم :

– عشرة فرنكات .

ودفع ماتيو وخرج . انني ما زلت اعرفها اكثر مما ينبغي .

وكان الظلام هابطاً . ليلة حرب اولى . كلا ، ليس تماماً ، كان ما يزال هناك كثير من الانوار المعلقة على جنبات البيوت . وبعد شهر، بعد خمسة عشر يوماً ، ستطفئها الغارة الاولى ؛ اما الان ، فليس الأمر إلا تمريناً عاماً غير ان باريس كانت مع ذلك قد فقدت سقفها القطني المورد . وللمرة الاولى ، كان ماتيو يرى بخاراً كثيفاً معتماً معلقاً فوق المدينة : السماء . سماء جوان ليبان ، وتولوز ، وديجون ، واميان ، سماءٌ واحدة للريف والمدينة ، لفرنسا كلها . وتوقف ماتيو فرفع رأسه ونظر اليها . سماء لمطلق مكان ، من غير امتيازات . وانا تحت هذه المعادلة الكبيرة : مطلق شخص، مطلق شخص في مطلق مكان : انها الحرب . كان يحدد عينيه في مستنقع نور ، وكرّر مرة اخرى ، ليرى : « باريس ، جادة راسباي . » ولكنهم كانوا قد جنّدوها ايضاً ، هذه الاسماء المترفة ، كانت تبدو وكأنها تخرج من خارطة اركان حرب او من بلاغ . لم يكن باقياً شيء من جادة راسباي . طرق ، ليس غير طرق ، تمتد من الجنوب الى الشمال ، ومن الغرب الى الشرق ، طرق مرقمة . وبين فينة وفينة ، كانوا يبلّطونها لمسافة كيلومتر او اثنين ، وكانت ارصفة وبيوت تنبع من الارض ، وكان ذلك يسمى طريقاً وشارعاً وجادة . ولكنها لم تكن قط الا طرفاً من درب ؛ كان ماتيو يسير ، ووجهه ملتفت نحو الحدود البلجيكية ، على قطعة من درب متفرع من الطريق الوطنية ١٤ . واستدار في طريق

المركبات المستقيمة التي كانت تطيل الطرق الحديدية لشركة الغرب التي كانت في الماضي شارع « رين ». وجلبيه لهب قذف خارج الظل فانوساً ثم انطفأ : مرت سيارة تاكسي ، جارية نحو محطات الشاطيء الأيمن . وتبعتها سيارة سوداء تغص بالضباط ، ثم سقط كل شيء مرة اخرى في الصمت . وعلى طرف الطريق ، تحت هـذه السماء غير المميزة ؛ كانت البيوت قد تقلصت الى اخشن ما في رسالتها : مساكن الإيجار : مخادع - مطاعم للمرشحين للتجنيـد ، ولأسر المجندين . وان المرء ليستشعر منذ الآن مصيرها الابعد : انها ستصبح « نقطاً استراتيجية » ، وفي النهاية اهدافاً ومرامى . وبعد ذلك ، يمكن بيسر هدم باريس : فهي قد سبق وماتت . وكان عالم جديد بسبيل ان يولد ، عالم الاواني العملي القاسي .

كانت اشعة من ضوء تتسلل بين ستائر مقهى « دوماغو » . وجلس ماتيو على السطيحة . وكان خلفه اشخاص يهمسون في الظلام : الزبائن الأخيرون . وكان الطقس قد بدأ يرطب . قال ماتيو :

- قدح بيرة .

قال الخادم : - سيدق منتصف الليل . فلا خدمة بعد على السطيحة .

- قدح بيرة واحد .

- إذن بسرعة .

وفي ظهره ، اخـذت امرأة تضحك . وكانت تلك هي الضحكة الأولى الذي يسمعها منذ عودته : ولهذا أحس بصدمة منها . غير انه لم يكن يشعر انه حزين ، ولكن لم تكن به رغبة للضحك . وفي السماء تمزقت غيمة وبرزت نجمتان . وفكر ماتيو : « انها الحرب » .

- هل تريد ان تدفع لي فوراً : وبعد ذلك اتركك وشأنك .

ودفع ماتيو ، فعاد الخادم الى الداخل . ونهض زوج من الظلال ، فتسلل بين الطاولات ثم مضى . وكان ماتيو وحيداً الآن على السطيحة.

ورفع رأسه فرأى ، من الجهة الأخرى للساحة ، كنيسة جميلة جديدة كل الجدة ، بيضاء في السماء السوداء . كنيسة قرية . كان يرتفع في مكانها امس بناء باريسي ، كنيسة سان جرمان ديبريه ، بناء تاريخي ، كان ماتيو غالباً ما يواعد ايفيش على اللقاء عند مدخله المسقوف . لعلّه لن يبقي غداً ، تجاه مقهى « دوماغو » ، إلاّ آنيـة محطّمة ستصرّ مئة مدفع على اطلاق نارها عليها . امـا اليوم . . اليوم كانت ايفيش في لاون ، وكانت باريس ميتة ، وكان السلام قد دفن ، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد . لم يكن ثمة إلا شكل كبير ابيض موضوع في ساحة ، هو قشرة الليل البيضاء . كنيسة قرية . كانت جديدة ، وكانت جميلة ؛ ولم تكن تنفع شيئاً . وهبت ريح خفيفة ؛ ومرت سيارة مطفأة النور ، ثم راكب دراجة ، ثم شاحنتان ارتجت لها الأرض . وتعكرت الصورة الحجرية لحظـة . ، ثم سكنت الريح ، وساد الصمت ، وتشكلت من جديد بيضاء غير مجدية ، لا انسانية ، ناصبهً وسط كل شيء ، هذه الآلات العمودية ، على طرف طريق الشرق ، مستقبل الصخرة العاري العادم الاحساس . سرمدية . كان حسبها نقطة صغيرة سوداء ليفجّرها رماداً ، وقد كانت مع ذلك سرمدية . رجل وحيـد ، منسيّ يأكله الظلام تجاه هذه السرمدية القابلة للفناء . وارتعش وفكر : انني ايضاً سرمدي خالد .

ولقد تم ذلك من غير ألم . كان ثمة رجل رقيق معتدل يحب باريس ويتنزّه فيها . وقد مات الرجل . مات مثـل « والدك — روسو » و « تورو دانجان » ؛ وكان قد استغرق في ماضي العالم ، مع السلام ، وكانت حياته قد سُكبت في دقائق « الجمهورية الثالثة » . وسوف تغذي نفقاته اليومية الاحصائيات المتعلقة بمستوى حياة الطبقات الوسطى بعد عام ١٩١٨ ، وستصلُح رسائله وثائق لتاريخ البورجوازية لفترة ما بـين الحربين ، وستكون حيراته وتردّداته ونقائصه وندمه ثمينة جـداً لدراسة

الأخلاق الفرنسية بعد سقوط الامبراطورية الثانية . كان هذا الرجل قد شق لنفسه مستقبلاً على قدّه ، مسوّداً ، مدخّناً ، خاضعاً ، مثقلاً بالعلامات والمواعيد والمشاريع. مستقبل صغير تاريخي وقابل للموت: وكانت الحرب قد سقطت عليه بكل ثقلها فسحقته . ومع ذلك ، وحتى هذه اللحظة ، كان ما يزال ثمة شيء يمكن ان يسمّى ماتيو : شيء كان يتشبث به بكل قواه . ولن يعرف ان يقول ما هو . فربما كان بعض عادة قديمة ، او ربما كان طريقة ما لاختيار افكاره على صورته ، لاختيار نفسه يوماً فيوماً على صورة افكاره ، لاختيار مآكله وملابسه والاشجار والبيوت التي كان يراها . وفتح يديه واستسلم ؛ كان ذلك يتمّ بعيداً جداً في اعماق نفسه ، في منطقة ليس للكلمات فيها من معنى بعد . استسلم ، ولم يبق بعد الا نظراً . نظراً جديداً كل الجدة ، من غير حماسة ، مجرد شفافية . وفكّر في فرح : « لقد فقدت روحي.» وعبرت امرأةٌ هذه الشفافية . وكانت على عجل ، وكان كعباها يطقطقان على الرصيف . وانسلّت في النظر الجامد ، مهمومة ، ميّتة ، زمنية ، يفترسها ألف مشروع صغير ، وامرّت يدها على جبينها ، فيما هي تمشي ، لتلقي خصلة الى الوراء . كنت مثلها ، خليّة مشاريع . ان حياتها حياتي ؛ فتحت هذا النظر ، تحت السماء اللامبالية ، كانت جميع الحيوات تتعادل . واخذها الظلام ، وكان كعباها يطقطقان في شارع بونابرت ؛ وذابت جميع الحيوات البشرية في الظلام ، وانطفأت الطقطقة .

نظري . كان ينظر الى بياض برج الجرس المخنوق . كل شيء ميت . نظري وهذه الاحجار . خالدٌ ومعدنيٌ ، مثلها . كان ثمة ، في مستقبلي القديم ، رجال ونساء ينتظرونني يوم ٢٠ حزيران ١٩٤٠ ، ويوم ١٦ ايلول ١٩٤٢ ، ويوم ٨ شباط ١٩٤٤ ، وكانوا يومئون لي. اما الآن ، فإن نظري وحده هو الذي ينتظر نفسه في المستقبل ، على مدى النظر ، كما تنتظر هذه الأحجار نفسها ، تنتظر نفسها احجاراً ،

غداً ، وبعد غد ، والى الأبد . وفرحةٌ هائلة كالبحر ؛ كان ذلك جيداً . ووضع يديه على ركبتيه ، وكان يودّ ان يكون هادئاً : منذا الذي يثبت لي انني لن أعود غداً ما كنته بالأمس ؟ ولكنه لم يكن خائفاً ، يمكن للكنيسة ان تنهار ، ويمكن لي ان اسقط في حفرة قنبلة، واسقط مرة اخرى في حياتي : فلا شيء يستطيع ان ينتزع مني هذه اللحظة الخالدة . لا شيء : فان هذا الإشراق الجاف الذي يُلهب أحجاراً تحت سماء سوداء ، سيكون قد وُجد الى الأبد ؛ المطلق ، الى الابد ، المطلق ، بلا سبب ، ولا حجة ، ولا هدف ، ولا ماضٍ آخر ، ولا مستقبل آخر غير الديمومة ؛ مجانية ، اتفاقية ، رائعة . وقال لنفسه فجأة : « انني حر . » وسرعان ما تحول فرحه الى قلقٍ ساحق .

كانت ايرين ضجرة . ولم يكن يحدث شيء ، الا ان الجوقة كانت تعزف . وان مارك كان ينظر اليها بعيني فُقمة . والواقع انه لم يكن يحدث شيء ، قط ، واذا اتفق ان شيئاً ما كان يحدث ، فانه لم يكن يُلحظ على التوّ . كانت تتابع بنظرها امرأة اسكندينافية ، شقراء طويلة كانت ترقص منذ اكثر من ساعة ، حتى من غير ان تجلس بين الرقصات ، وفكرت في تجرّد : ان هذه المرأة أنيقة الملبس . وكذلك فان مارك أنيق الملبس ؛ الجميع كانوا انيقي الملبس ، باستثناء ايرين التي كانت تُحسّ نفسها قذرة في ثوبها العتيق ، وكانت لا تكترث بذلك . فأنا اعرف جيداً أنه لم يكن لي ميلٌ للاهتمام بزينتي ، ثم من ابن عساي آخذ المال لاجدد ملابسي ، فمجرد التردد على الاغنياء يقتضي إيجاد الوسيلة حتى لا يلاحظ الناس ذلك ، وكان ثمة نصف دزينة قد اصبحوا ينظرون اليها : ثوب رخيص ملتمع بعض الشيء ، كان يثير قابليتهم ، فيشعرون انهم أقل خوفاً وتهيباً. كان مارك مرتاحاً راضياً ، لانه كان غنياً ، وكان يحب ان يصحبها الى بيوت الاغنياء ، لان ذلك كان يضعها في موضع التدنّي ، فتخفّ

مقاومتها كما كان يظن ؟

وسأل : ــ لماذا لا تريدين ؟

فانتفضت ايرين :

ــ ما الذي لا أريده ؟ آه ، نعم ...

وابتسمت من غير ان تجيب .

ــ بمَ كنت تفكرين ؟

ــ كنت أفكر بأن قدحي كان فارغاً . فاطلب لي قدحاً آخر من « الشيري غوبلر » .

فطلب مارك قدح شيري غوبلر آخر . وكان طريفاً بعض الطرافة ان تحمله على الدفع ، لأنه كان يسجل نفقاته كل يوم بيومه على دفتر . سوف يكتب هذا المساء : خروج مع ايرين ، قدح جن فز ، قدحا شيري غوبلر : مئة وخمسة وسبعون فرنكاً . ولاحظت انه كان يلامس ذراعها بطرف سبابته ، ولا بد انه كان يتسلّى بذلك منذ حين .

ــ قولي ، ايرين ، قولي ، لماذا ؟

قالت وهي تتثاءب : ــ هكذا . لا أدري .

ــ اذن ، من اجل هذا بالذات : اذا كنت حقاً لا تدرين ...

ــ آه ، كلا ! انما هو العكس : فحين أنام مع احد ، اريد ان اعرف لماذا . يكون ذلك من اجل عينيه ، او من اجل عبارةٍ قالها ، او لأنه جميل .

قال مارك بصوت منخفض : ــ انا جميل .

فأخذت ايرين تضحك ، واحمرّ وجهه . ثم قال بحيوية :

ــ مهما يكن ، فأنت تفهمين ما أقصده .

قالت : ــ افهمه جيداً ، جيداً جداً .

فامسك بمعصمها :

ــ ايرين ، بربك ، ما الذي ينبغي ان افعله ؟

وانحنى عليها في ذل مكشّر ، وكان الانفعال يعكر نفسه ، وفكّرت « كم انا ضجرة ؟ »

— لا شيء . لا فائدة من شيء ؟

قال : — هكذا !

وتركها وارتدّ برأسه الى الخلف ، وهو يكشف عن اسنانه . وكانت ترى نفسها في المرآة انسانة متسخة ذات عينين جميلتين، وكانت تفكر: « يا إلهي ! كم من مشاكل من أجل هذا ! » كانت خجلة من اجله ومن أجلها ، وكان كل شيء تفهاً مضجراً ؛ انها لم تكن لتفهم بعد لماذا كانت تتمنّع : انني احدث كثيرا من الارتباك ؛ كان افضل ان تقول له : « اتريد ذلك ؟ حسناً ، هيا بنا : نصف ساعة في غرفة فندق ، ماذا ! رذالة صغيرة بين غطائين ، ثم نعود بعد ذلك لننهي امسيتنا ، وتدَعني وشأني . » ولكن كان ينبغي ان تؤمن بأنها كانت ما تزال تعلّق اهمية مفرطة على جسدها المسكين : كانت تشعر جيدا بأنها لن تستسلم .

وقال : — انني اجدك غريبة ؟

وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين جميلتين خبيثتين . انه سيحاول ان يؤذيني ، وهذا مألوف ، ثم يستميحني العذر . وقال في سخرية :

— ما أشدّ ما تدافعين عن نفسك ! لو لم اكن اعرفك منذ اربعة اعوام ، لكان باستطاعتي ان اظن انك تمثلين الفضيلة !

ونظرت اليه باهتمام مفاجىء واخذت تفكر . حين كانت تفكر ، يخفّ ضجرها . وقالت :

— انت على حق ، هذا غريب جدا : انني سهلة ، وهذا واقع ، ومع ذلك افضل ان أقطّع على ان انام معك . فهل تستطيع ان تشرح لي ذلك ؟ ! (وتفحصته بتجرد وأضافت) بل اني لا استطيع حتى ان اقول اني اشمئز منك حقاً .

قال : ـ بصوت منخفض . تكلمي بلهجة أخفت . (واضاف بحقد) ان لك صوتاً صغيراً ثاقباً يُسمع بعيدا .

وصمتا . وكان الناس يرقصون ، والجوقة تعزف « كارافان » : وكان مارك يُدير قدحه على الخوان ، فتتصادم في داخله قطع الثلج الصغيرة . وسقطت ايرين مرة اخرى في ضجرها .

وقال فجأة : ـ الواقع اني اظهرت لك اكثر مما ينبغي اني اشتهيك.

وكان قد وضع يديه على الطاولة يملّسها بهدوء ؛ كان يحاول ان يسترد عزته البشرية، ولم تكن لذلك اهمية ، فانه سيفقدها مرة اخرى بعد بعد خمس دقائق . وقد بسمت له مع ذلك ، لأنه كان يتيح لها الفرصة لكي تتساءل عن نفسها . وقالت :

ـ صحيح ، في هذا شيء من الحق . لا بد ان في ذلك شيئاً من الصحة .

كان مارك يبدو لها عبر سحابة . سحابة دهشة صغيرة هادئة صعدت من قلبها الى عينيها . وكانت تحب كثيرا ان تُحسّ نفسها مندهشة على هذا النحو ، مع جميع الأسئلة التي يطرحها الانسان على نفسه والتي ليس لها من جواب . وشرحت له :

ـ إني اعجب كثيرا حين اجد أحدا راغباً في رغبة مفرطة . اسمع يا مارك انني اجدني مضحكة : ربما يكون هتلر قد هاجمنا غدا ، بينما انت هنا تتململ لاني لا اريد ان انام معك . لا بد ان تكون حقاً شخصاً مسكيناً حتى تضع نفسك في حالات مثل هذه بصدد امرأة مثلي أنا.

فقال بصوت غاضب : ـ إن هذا يعنيني .

ـ وهذا يعنيني انا ايضاً : فأنا أكره ان يقدرني الناس اكثر مما أستحق .

وساد صمت . اننا حيوانات . نضع الكلمات على غريزة . ونظرت اليه من زاوية عينها : حسناً سوف تزول نفخته . كانت ملامحه تنبسط ،

وكانت اشقّ لحظة على وشك ان تجيء ؛ لقد حدث مرة في مقهى « الميلوديز » ان بكى . وفتح فمه ، فقالت له بحيوية :

— اسكت يامارك . ارجوك : فانك ستقول حماقة او قذارة .

فلم يسمعها ؛ كان يحرّك رأسه من اليمين الى الشمال ، وكان يبدو بهيئة شؤم ، وقال بصوت منخفض :

— ايرين ، سوف اذهب .

— تذهب ؟ الى اين ؟

— لا تتبالهي . لقد فهمتني .

— يعني ؟

— أظن ان ذلك يؤثر لديك على كل حال .

فلم تجب : كانت تنظر اليه بإحداد . وبعد لحظة ، استطرد وهو يدير رأسه :

— في سنة ١٤ ، استسلمت نساء كثيرات لرجال كانوا يحبّونهنّ ، لمجرّد انهم كانوا ذاهبين الى الحرب .

وصمتت ، وأخذت يدا مارك تهتزان .

— إن هذا يا ايرين أمرٌ لا اهمية كبيرة له عندك ، اما بالنسبة لي، فان له اهمية كبيرة ، ولا سيما في هذه الفترة ...

قالت ايرين : — لا فائدة .

فالتفت اليها بعنف وقال :

— وأخيرا ، يا الله ! انما من اجلك سأقاتل !

قالت ايرين : — قذر !

وسرعان ما تراخى ، واحمرّت عيناه .

— لا استطيع ان احتمل التفكير بأني سأموت من غير ان اكون قد امتلكتك .

ونهضت ايرين :

— تعال لنرقص .

ونهض بوداعة فرقصا . وكان ملتصقا بها ، وقد استدار بها بخطى واسعة حول القاعة ، وفجأة انقطع نفَسها ، فسألها :

ــ ما بك ؟

ــ لا شيء على الأطلاق .

كانت قد رأت فيليب جالساً بهدوء قرب امرأة جميلة ، ولكنها بدأت تشيخ . « كان هنا ! كان هنا ، بينما كانوا يفتشون عنه في كل مكان !» ووجدته ممتقعاً ، وتحت عينيه دوائر كالحة . ودفعت مارك الى وسط الجمع : يجب خصوصاً الا يراها فيليب . وكفّت الموسيقى، فعادا الى طاولتها . وتداعى مارك للسقوط على المقعد . وكانت ايرين توشك ان تجلس حين رأت رجلا ينحني امام الزنجية .

قال مارك : ــ اجلسي . لا احب انا اراك واقفة .

قالت بنفاد صبر : ــ دقيقة !

ونهضت الزنجية في كسل ، فضمّها الرجل . ونظر فيليب اليها لحظة بهيئة مذعورة ، فأحسّت ايرين بقلبها يقفز في صدرها . وفجأة نهض وتسلّل الى الخارج .

قالت ايرين : ــ اعذرني لحظة .

ــ اين انتِ ذاهبة ؟

ــ الى المرحاض . هل انت مسرور الآن ؟

ــ ستتظاهرين بانك ذاهبة اليه ، ثم تفرنقعين .

فأشارت الى محفظتها على الطاولة .

ــ لقد بقيت محفظتي في مكاني .

وهمهم مارك من غير ان يجيب ؛ واجتازت الحلبة وهي تزيح الراقصين بضربات من كتفيها .

قالت امرأة : ــ ان هذه مجنونة !

وكان مارك قد نهض خلفها ، فسمعته يصيح :

— ايرين !

ولكنها كانت قد اصبحت خارجاً : مهما يكن من امر ، فهو محتاج الى خمس دقائق ليدفع ثمن المشروب . كان الشارع مظلماً ، وفكرت : « شيء مزعج . لقد أضعته . » ولكن حين ألفت عيناها الظلام ، رأته يسرع في أتجاه « الرنيتيه » محاذياً الجدران . وأخذت تعدو : « لتذهب حتميتي ، فاني سأخسر فيها علبة المسحوق ، ومئة فرنك ورسالتي مكسيم : » ولم تكن تحس بعد بالضجر قط . واجتازا على هذا النحو زهاء مئة متر وهما يركضان ، ثم توقف فيليب فجأة حتى ان ايرين حسبت انها تصدمه . وجنحت جنوحاً سريعاً . فتخطته ، واقتربت من باب بناية فقرعت جرسه مرتين . وانفتح الباب اذ كان فيليب قد ادركها . وتلبثت لحظة ثم صفقت المصراع بعنف ، كما لو انها دخلت البيت . وكان فيليب يسير الان ببطء ، فكان اللحاق به لعبة . وبين الفينة والفينة ، كان الظلام يبتلعه ، ثم كان بعد ذلك بقليل ينبثق من الليل تحت مطر فانوس مضيء . وفكرت : « ما اشد ما أنسلى ! » كانت مغرمة بملاحقة الناس ؛ وكانت تستطيع ان تمشي ساعات خلف اشخاص لم تكن حتى لتعرفهم .

وكان ما يزال على الجادات كثير من الناس ، وكان الجو اكثر إشراقاً بسبب المقاهي والواجهات . وتوقف فيليب للمرة الثالثة ، ولكن ايرين لم تدع نفسها تؤخذ على حين غرة ، فظلت متخفية خلفه ، في زاوية مظلمة ، وانتظرت . « لعله على موعد . » والتفت اليها ، وكان ممتقعاً ؛ وأخذ فجأة يتكلم ، فحسبت انه قد عرفها ؛ غير انها كانت واثقة من انه لم يكن يستطيع ان يراها . وتراجع خطوة ، ودمدم بكلمات ، وكان يبدو مذعوراً ، وفكرت : « لقد أصبح مجنوناً . »

ومرت امرأتان . شابة وعجوز ، تضعان قبعتين ريفيتين . فاقترب منهما . وكان له رأس استعراضي ، فقال :

ـ لتسقط الحرب !

فحثّت المرأتان خطاهما : لا بـد انهما لم تفها . وكان ضابطان يتقدمان خلفهما ؛ وصمت فيليب وتركهما يمران . وكانت تتبعهما عن كثب بغي معطرة صدمت رائحتها ايرين في أنفها . وانزرع فيليب امامها بهيئة شرسة ، وكانت قد بدأت تبسم له ، ولكنه قال لها بصوت مخنوق:

ـ لتسقط الحرب ! ليسقط دالادييه ! ليحي السلم !

وقالت المرأة : ـ اي منفوخ مغرور !

ومرّت . وهز فيليب رأسه ، ونظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة غاضبة ، ثم اندسّ فجأة في ظلمات شارع ريشيليو . وكانت ايرين تضحك بشدة حتى انها اوشكت ان تفضح نفسها .

ـ دقيقتان بعد .

كان يُرعش المفتاح ، فينبثق نغم جاز ، واربعة الحان ساكسوفون ، ونجمة ملذّبة .

قالت ايفيش : ـ اوه ، دعه . هذا جميل .

وأدار السيد مرغين المفتاح ، فحلّ محل شكوى الساكسوفون نغمٌ ممتد معقّد ، ثم تأمل ايفيش في قسوة :

ـ كيف تستطيعين ان تحبّي موسيقى المتوحشين هذه ؟

كان يحتقر الزنوج . وكان قد احتفظ من حياته كطالب في ميونيخ بذكريات ساطعة ، وشغف بواغنر . وردّد :

ـ لقد آن الاوان .

وارتجّ الجهـاز بصوت ، صوت فرنسي حقيقي رزين ، ودي ، يجهد في ان يعبر بتثنيات منغّمة عن جميع ذبذبات الخطاب، صوت نافذ مقنع لأخ كبير . انـي احتقر الاصوات المرنسية . وابتسمت لأبيها وقالت بجبن ، لتستعيد قليلا من مشاركتهما القديمة :

ـ اني احتقر الأصوات الفرنسية .

وكان الصوت يقول : « استقبل المستشار هتلر اليوم ، للمرة الثانية مبعوث رئيس الوزارة البريطانية ، فأعلمه انه اذا لم يتلق قبل الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر الغد جواباً مرضياً من براغ بشأن وعد اخلاء منطقة السوديت ، فانه يحتفظ بحق اتخاذ التدابير الضرورية .

« ويُقدر بصورة عامة ان المستشار هتلر قد اراد ان يشير الى التعبئة العامة التي كان الأمر بها منتظراً ليوم الاثنين ، والذي لم يؤخّر بلا شك الا بسبب رسالة رئيس الوزارة البريطانية . »

وصمت الصوت . ورفعت ايفيش ، وقد جفت حنجرتها ، عينيها الى أبيها . وكان قد شرب هذا الكلام في غبطة بليدة كل البلادة . وسألت في تجرد :

— ماذا تعني التعبئة تماماً ؟

— انها تعني الحرب .

— هل تعني ذلك بالضرورة ؟

— يعني ! يعني !

قالت بعنف : — اننا لن نقاتل ، لا نستطيع ان نقاتل بسبب التشيكيين .

فابتسم السيد سرغين في عذوبة وقال :

— تعرفين انه حين يعلنون التعبئة ...

— ولكن ما دمنا لا نريد الحرب .

— لو كنا لا نريد الحرب لما أعلنّا التعبئة .

فنظرت اليه في ذهول :

— هل اعلنّا التعبئة ، نحن ايضاً ؟

قال وهو يحمرّ : — لا ، اعني الألمان .

قالت ايفيش في جفاف :

— آه ؟ انا كنت اتحدث عن الفرنسيين .

وعاد الصوت يقول ، مهدّئاً وديعاً :

« وفي اوساط برلين الاجتماعية ، يرون بصورة عامة ... »
قال السيد سرغين : « هس » . ثم عاد الى الجلوس ، وقد أدار وجهه الى الجهاز . وفكرت ايفيش : « انني يتيمة » . وغادرت الغرفة على رؤوس أصابعها ، فعبرت الممرّ ، وأغلقت على نفسها باب غرفتها وكانت اسنانها تصطكّ : سيمرّون في لاءن ، وسيحرقون باريس ، وشارع السين ، وشارع لاغيتيه ، وشارع لاروزيه ، ومرقص جبل سانت جنفياف : اذا احترقت باريس ، قتلت نفسي . وفكرت وهي تتداعى للسقوط على سريرها : « اوه ! ومتحف غريفين ؟ » انها لم تقصده قط ، وكان ماتيو قد وعدها بان يصحبها اليه في تشرين الاول ، وهم سيحيلونه بقنابلهم الى رماد . واذا حدث ذلك هذه الليلة ؟ كان قلبها يقفز في صدرها ، وكانت تشعر بالبرد في ساعديها وكفّيها ، ما الذي يمنعهم من ذلك ؟ ربما كانت باريس في هذه الساعة بالذات قد تحولت الى رماد ، وانهم يخفون ذلك حتى لا يرعبوا السكان . الا اذا كان هذا ممنوعاً باتفاقات دولية ؟ كيف السبيل الى معرفة ذلك ؟ وفكرت في غضب : « اوه ، انني متأكدة ان هناك من يعرف ، وانا لا افهم من الامر شيئاً ، فلقد تركوني في الجهل ، كانوا يقسرونني على تعلم اللاتينية ، ولم يقل لي أحد شيئاً ، وهذا هو الوضع الآن ! (وفكرت في سرور) ولكن لي الحق بان احيا . لقد ولدت لكي احيا ، ان لي الحق بذلك . » وكانت تحس بانها مجرّحة تجريحاً عميقاً حتى انها ارتمت على وسادتها تهزّها خمس غصات ، أو ستّ . وتمتمت : « ان هذا ظلم لا يحتمل ، فاذا افترضنا احسن الفروض ، فان الحرب ستستغرق ستة اعوام ، عشرة ، وسوف تلبس النساء جميعاً مثل ثياب الممرضات ، حتى اذا انتهت الحرب . اصبحتُ عجوزاً . » ولكن دموعها لم تنحدر ، وكان في قلبها قطعة ثلج صغيرة . وانتصبت فجأة : « من ؟ من الذي يريد الحرب ؟ » إننا لو اخذنا الناس واحداً

واحداً لم نجدهم يحبون الحرب ، انهــم لا يفكرون الا بأن يأكلوا ، وان يربحوا المال . وأن ينجبوا الاطفال . حتى الالمان . ومع ذلك ، فان الحرب كانت هنــا ، وكان هتلر قد اعلن التعبئة . وفكرت : « غير انه مع ذلك لا يستطيع ان يقرر هذا وحده . » ومرت عبارة في رأسها ، اين تراها قد قرأتها ؟ لا بد انها قرأتها في جريدة ، الا ان تكون قد سمعتها عند الغداء ينطق بها زبون لأبيها : من تراه يكون خلفه ؟ ورددت بصوت منخفض وهي تقطب حاجبيها وتنظر الى اطراف حذائها : « من تراه يكون خلفه ؟ » وكانت تأمل قليلا ان يتجلى كل شيء ، واستعرضت اسماء جميع تلك القوى الكبيرة التي تقود العالم ، الماسونية ، اليسوعيين ، المئتي اسرة ، تجــار المدافع ، اسياد الذهب ، جدار الفضة ، شركات الحصر الاميركية ، الانترناسيونال الشيوعي ، الكوكلوكلان ، لا بد ان ثمة بعضاً من هذه كلها ، وربما كان هناك شيء آخر ايضاً ، جمعية سرية تماماً وقوية جداً يجهل الناس حتى اسمها . وتساءلت بينما كانت دمعتان من الغضب تسيلان على خديها : « ولكن ما عساهم يريدون ؟ » وحاولت لحظة ان تحزر حججهم ، ولكنها كانت تشعر بأنها فارغة ، وان دائرة من معدن كانت تدور تحت جمجمتها . « ليتني فقط أعرف اين هي تشيكوسلوفاكيا ! » وكانت قد ثبّتت على الجدار ، بمسامير صغيرة ، لوحة مائية كبيرة زرقاء مذهبة : تلك هي اوروبا ، وكانت قد تسلّت برسمها ، في الشتاء الماضي ، نقلاً عن خارطة ، وهي تصحّح قليلاً زواياها ؛ وكانت قد رسمت أنهاراً في كل مكان ، وقعّرت الشطآن المسطّحة اكثر مما ينبغي ، وحاذرت خصوصاً ان يكتب ايّ اسم على الخــارطة : فذلك كان أوحى بالعلم والادراك ؛ ولم يكن ثمة حدود ايضاً : فقد كانت تكره خطوط النقط. واقتربت : كانت تشيكوساوفاكيــا هنا ، في مكان ما ، في أكثف الاراضي . هنا ، مثلا ، الا أن تكون هذه روسيا . والمانيا ، اين هي ؟

كانت تنظر الى الشكل الكبير الأملس الاصفر ، المؤطّر بالازرق ، وهي تفكر : « هذه الارض كلها ! » ثم تشعر بأنها ضائعة . وانفلتت، وتركت ثوبها يسقط وتراءت عارية في المرآة ، وكان ذلك في العــادة يُعزيها كلما احسّت بالهموم . ولكنها رأت نفسها فجأة صغيره جداً ، تُرَّهة ، ذات بشرة جلطيّة ، لأنّ شعرها كان قد قفّ ، وحلمتي نهديها قد انتصبتا ، وكانت تحتقر جسمها ، جسم مستشفى حقيقياً ، يقال انهم سيغتصبون جميع النساء ، وهم يستطيعــون ان يقطعوا لي ساقاً . لئن دخلوا غرفتها ، ووجدوها عارية تماماً تحت غطائها : امامك خمس دقائق لترتدي ثيابك ، ثم انهم سيديرون ظهورهم ، كما حدث لماري انطوانيت ، ولكنهم سيسمعون كل شيء ، حفيف القدمين الناعم على السرير ، وهسهسة القماش على البشرة . وتناولت بنطالها وجوربيها فارتدتها بسرعــة ، فعليّ ان انتظر المصيبة وانا واقفة لابسة ثيابي ؛ وحين ارتدت تنورتها وقميصها ، أحسّت انها محميّة بعض الشيء ؛ ولكنها سمعت وهي تنتعل حذاءها صوتاً منخفضاً يدمدم بالالمانية ، في الممرّ .

« إيش هات اينان كاميراد » ...

فهرعت ايفيش الى الباب وفتحته ، فاذا هي وجهاً لوجه مع أبيها، وكان يبدو مزهواً مرحاً . وقالت غاضبة :

ـ ماذا تغنّي ؟ ما الذي تسمح لنفسك أن تغنّيه ؟

فنظر اليها ببسمة موافقة وقال :

ـ انتظري ، انتظري قليلاً يا ضفدعتي الصغيرة : فسوف نراها مرة اخرى ، روسيّتنا القدّيسة .

ودخلت غرفتها وهي تصفق الباب : « إنني أهزأ بروسيا القديسة ، وانا لا اريد ان يهدموا باريس ، واذا استباحوا اي شيء ، فسنرى كيف تنطلق الطائرات الفرنسية لإلقاء قنابلها على ميونيخك ! »

وخفّ صوت القدمين في الممر ، وسقط كل شيء مرة اخرى في السكون . وكانت ايفيش واقفة متصلبّة وسط الغرفة ، وهي تتجنب ان تنظر الى نفسها في المرآة . وفجأة انطلقت ثلاث صفارات آمرة ، وكانت صادرة من الشارع ، فارتعشت من رأسها الى قدميهـــا . في الخارج ، في الشارع . كل شيء كان يجري في الشارع : لقد كانت غرفتها سجناً . كانوا يقرّرون حياتها في كل مكان ، في الشمال ، في الشرق ، في الجنوب ، في كل مكان في هذه الليلة المسممة ، المثقوبة بالبرق ، الملآى بالهمس والمشاورة ، في كل مكان إلا هنا حيث كانت مسجونة ، وحيث لم يكن ثمة ما يحدث قط . واخذت يداها وساقاها ترتجف ، فتناولت محفظتها ، وامرّت مشطها على شعرها ، وفتحت الباب بلا ضجة ، وانسلّت الى الخارج .

في الخارج . كل شيء في الخارج : الشجر على رصيف المحطة ، بيتا الجسر اللذان يورّدان الليل ، عدْو حصان هنري الرابع الجامد فوق رأسي : كلّ ما يثقل . في الداخل ، لا شيء ، حتى ولا دخان ، ليس ثمة من داخل ، ليس ثمة شيء . انا : لا شيء . وقال في نفسه وفمه جاف : انني حر .

وفي وسط جسر « بونيف » ، توقف وأخذ يضحك : هذه الحرية ، بحثت عنهـــا بعيداً جداً ، وكانت من القرب بحيث لم اكن استطيع رؤيتها ، ولم استطع لمسها ، وهي لم تكن الا ّي ، انني حريتي . وكان قد أمّل ان يفيض ذات يوم فرحاً ، وان تخترقه الصاعقة من جانب الى جانب . ولكن لم يكن ثمة صاعقة ولا فرح : وانما كان هناك هذا العوز ، هذا الفراغ المأخوذ بالدوار أمام نفسه : هذا الضيق الذي كانت شفافيته بالذات تمنعه من ان يرى نفسه الى الأبد . ومد يديه وأمرّهما متمهلاً على حجر الدرابزون ، وكان خشناً ، متصدعاً ، اسفنجـــة متحجّرة ، حارةً ما تزال من شمس الأصيل . كان هنا ضخماً ،

كثيفاً ، حابساً في نفسه السكون السحيق والظلمات المضغوطة التي هي قلب الاشياء . كان هنا : امتلاء . وقد كان يوّد لو يتعلق بهذا الحجر، ويمتزج به ، ويمتلىء من كثافته ، ومن راحته . ولكن الحجر لم يكن يستطيع ان ينجده بشيء : كان في الخارج الى الأبد . ومع ذلك ، فقد كانت هناك يداه ، على الدرابزون الابيض : إذا ما نظر اليهما ، حسبهما من البرونز . ولكنهما لم تكونا يديه ، لأنه انما كان يستطيع ان يراهما . كانتا يدي رجل آخر ، في الخارج ، كالاشجار ، وكالاشعاعات التي كانت ترتعش في السين ، يدين مقطوعتين . وأغمض عينيه ، فاذا هما من جديد يداه : ولم يبق من الحجر الحار الا مذاق حامض مألوف، مذاق نملة تافه . يداي : المسافة الزهيدة التي تكشف لي الاشياء وتفصلني عنها الى الأبد . انني لست شيئاً ، وليس عنـــدي شيء . انني شديد الالتصاق بالعالم ، كالنور ، ومع ذلك ، منفيٌ عنه كالنور ، منزلق على سطح الحجارة والماء دون ان يربطني او يرملني شيء . في الخارج. في الخارج . خارج العالم ، خارج الماضي ، خارج نفسي : ان الحرية هي المنفى ، وانا محكومٌ عليَّ بان اكون حراً .

وخطا بضع خطوات ، وتوقف من جديد ، فجلس على الدرابزون ونظر الى المـــاء يجري . وماذا تراني سأصنع بكل هذه الحرية ؟ ماذا تراني سأصنع بنفسي ؟ لقد طبعوا مستقبله بطوابـع دقيقة : المحطة ، القطار الى نانسي ، الثكنة ، استعمال السلاح . ولكن هذا المستقبل وتلك الطوابع لم تكن لتخصه بعد . لم يكن ثمة بعد ما يخصه : كانت الحرب تحرث الارض ، ولكنها لم تكن حربَه . كان وحيداً على هذا الجسر، وحيداً في العالم ، ولم يكن ثمة من يستطيـع ان يصدر اليه امراً . وفكر في ضجر : « انني حر من أجل لا شيء » . لا علامة في السماء ولا على الارض ، ان حربهم قد استغرقت أشياء العالم اكثر مما ينبغي ، فكانت تدير رؤوسها المتعـــددة الى الشرق ، وكان ماتيو يركض على

سطح الاشياء ، فلا تحس به : منسي . منسي من الجسر الذي كان يحمله من غير اكترات ، ومن هذه الدروب التي كانت تنساب نحو الحدود ، ومن هذه المدينة التي كانت تتحامل قليلا على نفسها لتنظر في الافق حريقاً لم يكن يعنيها . منسي ، مجهول ، وحيد : متأخر ؛ كان جميع المجندين قد رحلوا منذ أمس الاول ، ولم يكن له هنا ما يفعله بعد . أأستقل القطار ؟ لا أهمية لذلك اطلاقاً . أأرحل ، ام أبقى ، ام أفر ، لم تكن هذه هي الاعمال التي تضع حريته في خطر . ومع ذلك فقد كان ينبغي ان يخاطر بها . وتشبث بالحجر ، بكلتا يديه ، وانحنى فوق الماء . كان حسبه غطسة واحدة ، فيلتهمه الماء ، وتصبح حريته ماء . الراحة . ولِمَ لا ؟ ان هذا الانتحار الغامض سيكون ايضاً مطلقاً : قانوناً برمته ، اختياراً برمته ، أخلاقاً برمتها . عملاً فريداً لا مثيل له يضيء ، لمــدة لحظة ، الجسر والسين . حسبه ان ينحني اكثر قليلا ، فيكون قد اختار نفسه للخلود . وانحنى ، ولكن يديه لم تكونا لتتركا الحجر ، وكانتا تحملان ثقل جسمه كله . لِمَ لا ؟ لم يكن لديه سببٌ خاص ليتداعى الى الغرق ، ولكن لم يكن لديه كذلك سبب ليتمنع عن ذلك . وقد كان العمل هنا ، أمامه ، فوق الماء الأسود ، وكان يرسم له مستقبله . كانت جميع الحبال قد قُطعت ، وما كان لشيء في الدنيا ان يمسكه : وكان ذلك هو الفظيع ، الحرية الفظيعة ؛ كان يشعر بقلبه المستطار يخفق في أعماق نفسه ، حركة واحدة ، يدان تنفتحان ، فأكون ماتيو . وارتفع الدوار ببطء على النهر ؛ وانهارت السماء والجسر : فلم يبق بعد الا هو والماء ؛ وكان الماء يصعد اليه ، ويلمس قدميه المتدليتين . الماء ، مستقبله . هذا صحيح الآن ، سوف أقتل نفسي . وفجأة ، قرر الا يفعل ذلك . وقرر : لن تكون هذه الا تجربة . وألفى نفسه واقفاً ، ماشياً ، منسرباً على قشرة كوكب ميت . سيكون ذلك للمرة القادمة .

كانت تركض في الشارع الكبير ، وسمعت مرة اخرى صفرتين او ثلاثا ، ثم لا شيء ، وها ان الشارع الكبير يصبح هو ايضاً سجناً : لم يكن يحدث فيه شيء ، وكانت واجهات البيوت عمياء مسطحة ، وجميع المصاريع مغلقة ، كانت الحرب في مكان آخر ، واستندت لحظة الى حاجز عين ، وكانت قلقة وخائبة ، ولكنها لم تكن تعرف ما امّلته : ربما كان انواراً ، او مخازن مفتوحة ، او اناساً يعلقون على الاحداث . لم يكن ثمة شيء على الاطلاق :كانت الانوار تضيء السفارات والقصور ، في المدن السياسية الكبيرة ، اما هي ، فكانت محبوسة في ليل يومي . وقالت لنفسها وهي تضرب بقدمها الارض : « كل شيء يحدث دائماً في مكان آخر » . وسمعت حفيفاً : فكأنه كان ثمة من ينسلُ وراءها . وحبست نَفَسها وتسمعت طويلا ، ولكن الضجة لم تحدث مرة أخرى . كانت تحس بالبرد ، وكان الخوف يقبض حلقها : وتساءلت عما اذا كانت لا تحسن صنعاً بالعودة الى البيت.ولكنها لم تكن تستطيع انتعود ، ان غرفتها كانت فظيعة ، فهنا على الاقل ، كانت تمشي تحت سماء جميع الناس ، وكانت على اتصال بباريس وبرلين، عبر السماء . وسمعت خربشة متطاولة خلفها ، فجرؤت هذه المرة على الالتفات : ولم تكن الا قطة : ولقد رأت عينيها تلتمعان ، بينما كانت تجتاز الطريق من اليمين الى اليسار ، وكانت تلك علامة سيئة . واستعادت ركضها ، فانعطفت الى شارع « تيير » وتوقفت ، يكاد نَفَسها ينقطع؛ « الطائرات » : كانت تهدر هديراً أصم ، فلا بد أنها ما تزال بعيدة جداً . وأرهفت أذنها : لم يكن الصوت قادماً من السماء . فكأن... وفكرت جزعة : « نعم ، انه انسان يشخر » وكان هو « ليسكا » ، كاتب العدل ، فقد رأت الاعلام فوق رأسها : كان يشخر ، والنوافذ مفتوحة ، ولم تتمالك نفسها من الضحك ، ثم تسمرت ضحكتها فجأة : انهم ينـامون جميعاً . اني وحيدة في الشارع ، يحيط بي أشخاص

يناموں ، وليس ثمة من يكترث بي .

انهم جميعاً في الارض يناموں او يهيئون حربهم في المكاتب ، وليس اسمي في رأس واحد منهم . وفكرت مندهشة : ولكني هنا ! انا هنا أرى وأحس ، وأوجد كما يوجد هتلر !

واستعادت سيرها بعد لحظة فبلغت الساحة ، وكان السهل ، تحت لاون ، يمتد ، كابياً . وكانوا قد زرعوا فيه أنواراً ، من بعيد لبعيد، ولكنها لم تكن توفر الطمأنينة ؛ كانت ايفيش تعرف جيداً ما كانت تنيره : خطوطاً حديدية وعوارض خشبية وحصىً وقاطرات مهجورة على سكك للمرائب . وكانت باريس قائمة في آخر السهل . وتنفست: لو كانت تحترق ، لرؤي في الافق ضياء . وكانت الريح تصفق ثوبها على ركبتيها ، ولكنها لم تكن تتحرك : « ان باريس هناك ، ما تزال تقطر نوراً ، وربما كانت هذه آخر ليلة لها » . وفي هذه اللحظة نفسها، كان اشخاص يصعدون ويهبطون على جادة سان ميشال ، وآخرون في « الدوم » ربما كانوا يعرفونها وهم يتحدثون فيما بينهم . « آخر ليلة وانا هنا ، في هذا الماء الأسود ، وحين أصبح حرّة ، لن أجد بعد الا ركاماً من الانقاض وخياماً بين الحجارة . وقالت : يا إلهي ، يا إلهي ! دعني أراها للمرة الاخيرة . وكانت المحطة هنا ، تحتها تماماً. انها ذلك الاحمرار في أسفل الدرج ؛ وكان قطار الليل يسير في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة . وفكرت بانتصار : « ان معي مئة فرنك ، مئة فرنك في محفظتي » .

وكانت قد هبطت درج الطريق الوعرة وهي تركض ، وكان فيليب يهبط شارع مونمارتر وهو يركض ، جبان ، جبان قذر . آه ! أأنا جبان ؟ حسناً ، سوف يرون . وأفضى الى ساحة . وكان فمٌ كبيرٌ مظلم طنّان ينفتح من جهة الطريق المقابلة ، وتنبعث منه رائحة الملفوف واللحم النيء . وتوقف امام حـــاجز محطة مترو ، وكان على طرف

رصيف سلال فارغة ، ورأى عند قدميه فتات قش وورق خضار ملوثة بالوحل ، والى اليمين كانت أطياف تروح وتغدو في ضوء مقهى أبيض . اقتربت ايفيش من نافذة التذاكر .

ـ تذكرة درجة ثالثة الى باريس .

فسألها الموظف : ـ ذهاباً واياباً ؟

فأجابت بحزم : ـ ذهابا .

لتنحنح فيليب وصاح بأعلى صوته :

ـ لتسقط الحرب .

ولم يحدث شيء ، واستمر ذهاب الاشباح وايابهم امام المقهى. وكوّر يديه امام فمه :

ـ لتسقط الحرب .

وبدا له صوته رعداً . وتوقفت بعض الاشباح ورأى رجالاً مقبلين عليه . وكان عددهم كبيراً ، وكان معظمهم يرتدي قبّعات : كانوا يقتربون بلامبالاة وينظرون اليه باهتمام . وصاح بهم :

ـ لتسقط الحرب .

وكانوا يحاذونه تماماً ، وكان بينهم امرأتان وشاب أسمر جميل الهيئة. ونظر اليه فيليب في ودّ وأخذ يصرخ ، من غير ان ينزع عنه عينيه :

ـ ليسقط دالادييه ، ليسقط شمبرلن ، ليحيي السلام .

وكانوا قد أصبحوا محيطين به ، فشعر بالرضى ، للمرة الاولى منذ ثمان واربعين ساعة . كانوا ينظرون اليه وهم يرفعون حواجبهم ولا يقولون شيئاً . واراد ان يشرح لهم أنهم كانوا ضحايا الاستعمار الرأسمالي، ولكن صوته لم يكن يستطيع بعد ان يتوقف ، فكان يصيح : « لتسقط الحرب ! » وكان ذلك نشيد نصر . وتلقى ضربة عنيفة على أذنه فظل يصرخ ، ثم ضربة على فمه ، وضربة على عينه اليمنى : فسقط على ركبتيه وكف عن الصراخ . وكانت امرأة قد وقفت امامه ، فكان

يرى ساقيها وحذاءها ذا الكعب المسطح ، وكانت تتخبط وهي تقول :

ــ قذرون ! قذرون ! إنه طفلٌ فلا تمسّوه .

وسمع ماتيو صوتاً ثاقباً يصرخ : « قذرون ! قذرون ! انه طفل فلا تمسوه » وكان ثمة من يتخبط وسط زهاء عشرة أشخاص ذوي قبّعات ؛ انها امرأة قصيرة كانت ذراعاها في الهواء وشعرها يملأ وجهها . وكان شاب اسمر ذو نُدب تحت اذنه يهزها بعنف وهي تصرخ:

ــ انه على حق ، وانتم جميعاً قذرون ؛ كان ينبغي ان تكونوا في ساحة الكونكورد لتتظاهروا ضد الحــرب ، ولكنكم تفضلون ضرب طفل لأن هذا اقل خطراً .

وكانت أمام ماتيو قوادة ضخمة تنظر الى الحادث بعينين ملتمعتين ، فقالت :

ــ اقصفوا عمرها !

والتفت ماتيو في انزعاج : لا بدّ ان حوادث كثيرة كهذه تقــع لدى كل منعطف عشية الحرب ، عشيّة حمل السلاح : إن هذا شيء بارز ، لم يكن ليعنيه . وفجأة ، فكر بان ذلك كان يعنيه ، فأبعد القوادة بدفعة من يده ، ودخل الى الدائرة ، فوضع يده على كتف الشاب الأسمر ، وقال :

ــ شرطة . ماذا هناك ؟

فنظر اليه الشاب في حذر :

ــ ان الصبي سقط على الارض : لقد صاح : « لتسقط الحرب ! »

فقال ماتيو بقسوة : ــ فهجمت عليه تضربه ؟ ألم تكن تستطيع ان تنادي شرطياً ؟

قالت القوادة : ــ ليس هناك من شرطي ، يا سيدي المفتش :

قال ماتيو : ــ انت يا حضرة الكارمن ، تتكلمين حــين أوجّه

لك الكلام .
وكان الضيق يبدو على الاسمر ، فقال وهو يلحس أصابعه المجروحة :
ـ اننا لم نؤذه ، وانما ارسلنا له صفعة لتسجيل الاحتجاج .
فسأله ماتيو : ـ من الذي ارسل له صفعة ؟
فنظر ذو الندب الى يديه وهو يتنهد وقال :
ـ انا .
وكان الاخرون قد تقهقروا خطوة ، فاستدار اليهم ماتيو :
ـ هل تريدون ان تسجّلوا كشهود ؟
فازدادوا تقهقراً دون ان يجيبوا . وكانت القوّادة قد اختفت .
فقال ماتيو :
ـ انفضّوا والا أخذت اسماءكم . اما انت ، فابق ..
قال الشاب :
ـ اذن يُرسل الفرنسيون الى السجن في هذه الساعة اذا ضربوا احد
الدعاة الالمان الذين يقومون بالاثارة والتحدي ؟
ـ لا تهتم بذلك . سوف نحقّق في الامر .
كان الطفيليون قد تفرقوا . وكان اثنان او ثلاثة منهم واقفين على
عتبة مقهى ينظرون . وانحنى ماتيو على الفتى : كانوا قد ضربوه ضرباً
قاسياً . إن الدم يسيل من فمه ، وإن عينه اليسرى مقفلة . وكان
ينظر الى ماتيو بعينه اليمنى في إحداد ، وقال باعتزاز :
ـ لقد صرخت .
قال ماتيو : ـ ليس هذا أفضل ما صنعت . هل تستطيع ان تنهض؟
فنهض الفتى على مشقة ؛ وكان قد سقط في الخضار ، فعلقت ورقة
خسّ في مؤخرته ، وتشبّث بعض القش الموحل بسترته . ونفضت
المرأة الصغيرة ثيابه بظاهر يدها ، فسألها ماتيو :
ـ هل تعرفينه ؟

فترددت : — للا ...
فأخذ الفتى يضحك :
— طبعاً تعرفني . انها ايرين سكرتيرة بيتو :
ونظرت ايرين الى مانيو نظرة غامضة .
— انك لن تقبض عليه من اجل ذلك ؟
— سوف يزعجني ذلك !!
وشدّه ذو الندب من كمّه : ولم يكن يبدو فخوراً ، فقال :
— انني اكسب حياتي ، يا سيدي المفتش ، انا اعمل . فاذا صحبتك الى دائرة الشرطة ، فقدت ليلتي .
— هويتك .
فأخرج الرجل جواز سفر ، وكان يدعى كانارو . فاخذ مانيو يضحك ، وقال :
— مولود في القسطنطينية ! ولكن اسمع : أينبغي ان تحب فرنسا لكي تهدم هكذا اول شخص يهاجمها ؟
فقال الرجل بوقار :
— انها وطني الثاني .
— اظن انك ستتطوع ؟
فلم يجب الرجل ، وسجل مانيو اسمه وعنوانه على دفتر صغير ، وقال له :
— حلّ عن ظهري . سوف تُستدعى . اما انتما ، فتعالا .
ودلفوا ثلاثتهم الى شارع مونمّارتر ومشوا بضع خطى . وكان مانيو يمسك بالفتى الذي كان يترنح على ساقيه . وسألت ايرين :
— قل لي ، هل ستطلق سراحه ؟
فلم يجب مانيو : انهم لم يكونوا بعد قد ابتعدوا عن « الهال » بما

فيه الكفاية . ومشوا بضع خطى اخرى ، وحين وصلوا الى فانوس ، انزرعت ايرين امام ماتيو ونظرت اليه في حقد ، وقالت :

ـ تحرّي قذر !

فأخذ ماتيو يضحك : كانت خصلة من شعرها قد سقطت على وجهها ، وكانت تُحوِل عينيها لتنظر اليه عبر الخصلات التي كانت تتدلى أمام عينيها . وقال :

ـ لستُ تحرياً .

ـ بلا مزاح !

وكانت تنفض رأسها لتتخلص من شعرها ، وانتهى بها الامر الى ان قبضَت على خصلاتها بغضب وردتها الى خلف . وبدا وجهها كامداً مع عينين كبيرتين . كانت جميلة جداً ، ولم يكن يبدو انها مندهشة جداً وقالت ملاحظة :

ـ اذا لم تكن تحرياً ، فقد انتصرت عليهم .

فلم يجب ماتيو . ان هذه الحكاية لم تكن لتسلّيه بعد . وجاءته رغبة مفاجئة في ان يتنزه في شارع مونتورغاي . وقال :

ـ اسمعا : سوف اضعكما في سيارة تاكسي .

وكان ثمة سيارتان او ثلاث واقفة في وسط الشارع ، فاقترب ماتيو من احداهـا وهو يجر الفتى خلفه . وتبعتهما ايرين . وكانت تمسك شعرها بيدها اليمنى ، فوق رأسها .

ـ ادخلا هنا .

فاحمرّت .

ـ يجب ان اقول لك : لقد فقدت محفظتي .

وكان ماتيو يدفع الفتى الى السيارة ، وكان قد ألصق احدى يديه بين راسليه ، بينما كان يفتح الباب بالثانية ، وقال :

ـ فتّشي في جيب سترتي ، الجيب الايمن .

وبعد لحظة اخرجت ايرين يدها من الجيب :
– وجدت مئة فرنك ودراهم .
– احتفظي بالمئة فرنك .
ودفع الفتى دفعة اخيرة فاسترخى على المقعد . وصعدت ايرين وراءه وسألت :
– ما هو عنوانك ؟
قال ماتيو : – ليس لي بعد من عنوان . الى اللقاء .
صاحت ايرين : – هيه ؟
ولكنه كان قد أدار عقبيه : كان يريد ان يرى مرة أخرى شارع مونتورغاي . كان يريد ان يراه على التوّ . ومشى مدة دقيقة ، ثم أقبلت سيارة تقف بحذاء الرصيف ، على مستواه تماماً ، وفُتح الباب ، فأطلت امرأة ، وكانت ايرين، فقالت :
– إصعد ، بسرعة .
فصعد ماتيو الى السيارة.
– اجلس على هذا الكرسي .
فجلس .
– ماذا تريدين ؟
– إن الفتى قد فقد رشده . فهو يقول إنه سيستسلم حتّى يسجن ، وهو يعالج الباب طوال الوقت ويريد ان يرمي نفسه خارجاً . وأنا لست من القوة بحيث أستطيع ان امسكه .
وكان الفتى منزوياً فوق المقعد ، وكانت ركبتاه أعلى من رأسه . وأوضحت ايرين :
– انه مصاب بحسّ الاستشهاد .
– ما هو عمره ؟
– لا ادري : تسع عشرة سنة .

وكان ماتيو يتأمل ساقي الفتى الطويلتين : كان في عمر أقدم تلامذته . وقال :

ـ اذا كان راغباً في سجن نفسه ، فليس لك الحق في ان تمنعيه من ذلك .

قالت ايرين مغتاظة : ـ انك عجيب حقاً . ولا تقدّر ما يعرض نفسه له .

ـ هل ضرب أحداً ؟

ـ كلا .

ـ ماذا فعل إذن ؟

قالت بهيئة كزة : ـ انها حكاية طويلة .

ولاحظ انها كانت قد عقدت جديلتيها فوق رأسها ، وكان ذلك يكسبها هيئة هزلية معاندة ، بالرغم من فمها الجميل المتعب . قال ماتيو :

ـ مهما يكن من أمر ، فهذا يعنيه . إنه حرّ .

قالت : ـ حرّ ! ما دمت اقول لك إنه قد فقد رشده .

ولدى كلمة « حرّ » فتح الفتى عينه الواحدة وتمتم شيئاً لم يفهمه ماتيو ، ثم ، من غير ان ينبّه أحداً ، ارتمى على مقبض الباب وحاول ان يفتحه . وفي اللحظة نفسها كانت سيارة اخرى تكاد تلامس السيارة الواقفة . وأسند ماتيو يده على صدر الفتى وألقاه مرة اخرى على المقعد وأضاف وهو يلتفت الى ايرين :

ـ اذا كانت لديّ الرغبة في دخول السجن ، فاني لا احب ان أمنع من ذلك .

وصاح الفتى : ـ لتسقط الحرب !

قال ماتيو : ـ نعم ، نعم . انت على حق . (وكان ما يزال يشده الى المقعد ، ثم التفت نحو ايرين) أعتقد انه بالفعل قد فقد رشده .

وفتح السائق الزجاج :

— هل نسير ؟

قالت ايرين بلهجة انتصار :

— ١٥ ، جادة بارك مونسوري .

وخمش الفتى يد ماتيو ، ولكنه حين اقلعت السيارة، اعتزم ان يلتزم الهدوء . وظلوا صامتين برهة ؛ وكانت السيارة تجري في شوارع سوداء لم يكن ماتيو يعرفها . وبين الفينة والفينة كان وجه ايرين يخرج من الظل وما يلبث ان يغرق فيه مرة اخرى . وسألها ماتيو :

— هل انت من بريتاني ؟

— انا من متز . لماذا تسألني ذلك ؟

— بسبب جديلتك .

— إنها بشعة ، أليس كذلك ؟ ان صديقة هي التي تريد ان اسرّح شعري على هذا النحو .

وصمتت لحظة ثم سألت :

— انني لا افهم كيف لا يكون لك عنوان .

— انني انتقل من منزلي .

— نعم ، نعم ... فانت مجنّد ، أليس كذلك ؟

— طبعاً ، كجميع الرجال .

— هل يروقك ان تخوض الحرب ؟

— لا ادري شيئاً من ذلك : فانا لم اخضها بعد .

قالت ايرين : — انا ضد الحرب .

— لاحظت ذلك .

وانحنت نحوه في حركة مشاركة :

— قل لي : هل فقدت احداً ؟

قال ماتيو : — ان لك هيئة غريبة . انتبه ! انتبه !

كان الفتى قد مد يده خفية يحاول ان يفتح البـــاب ، فالقاه

ماتيو في مقعده قائلا :

ــ انريدُ ان تظل هادئاً ؟ (والتفت الى ايرين) اية حقنة !

ــ انه ابن الجنرال .

ــ آه ؟ إذن ، لا بد انه غير فخور بأبيه .

وكانت السيارة قد توقفت . فكانت ايرين اول النازلين ، ثم وجب إخراج الفتى . وكان يتشبّث بالمساند ويركل بقدميه . وأخذت ايرين تضحك :

ــ كم هو مشاكس : إنه الآن لا يريد ان يخرج .

وتمكن ماتيو في آخر الأمر من حمله تحت ذراعه ووضعه على الرصيف

ــ اوف !

قالت ايرين : ــ انتظر لحظة . كان المفتاح في محفظتي ، فيجب ان ادخل من النافذة .

واقتربت من بيت صغير ذي طابق واحد كانت احدى نوافــذه مفتوحة . وكان ماتيو يمسك الفتى بيد ، ويفتش باليد الاخرى في جيبه ثم مد المال الى السائق :

ــ احتفظ بالمبلغ كله .

وسأل السائق جذلاً : ــ ما باله ، الاخ ؟

قال ماتيو : ــ لقد نال نصيبه .

واقلعت السيارة . وانفتح خلف ماتيو باب، فبدت ايرين في مستطيل من الضوء وقالت :

ــ ادخل .

فدخل ماتيو وهو يدفع الفتى الذي كفّ عن قول شيء . وأغلقت ايرين الباب خلفه .

قالت : ــ الى اليسار . ان المفتاح الكهربائي على يدك اليمنى .

فبحث ماتيو بالتلمس عن المفتاح ، وانبثق النور . فرأى غرفة مغبرة،

فيها سرير مؤطّر ، ودلو ماء وطست على الطاولة ؛ وكانت دراجة بلا عجلات معلقة في السقف بخيوط .

ــ اهذه غرفتك ؟

قالت ايرين : ــ لا ، بل هي غرفة الأصدقاء .

فنظر اليها وأخذ يضحك :

ــ جواربك ؛

كانت مبيضة من الغبار ، وممزقــة لدى الركبتين . واوضحت في غير اكتراث :

ــ حدث ذلك وأنا أصعد من النافذة .

وكان الفتى قد انزرع في وسط الغرفة ، وهو يترنح بصورة مقلقة وينظر الى كل شيء بعينه الواحدة . وعادت اليه ايرين وهي تحمل طستاً وقطناً ، وقالت :

ــ لا ، لا ! هيا يا فيليب ، كن عاقلا !

وكانت قد انحنت فوقه وأخذت تمر بارتباك قطعة قطن على حاجبيه. وأخذ الفتى يئن ، فقالت بصوت رؤوم :

ــ نعم ، هذا يقرص ، ولكنه يعود بالخير عليك .

وذهبت تضع الطست على الطاولة . ونهض ماتيو قائلاً :

ــ حسناً ، إنني انسحب .

قالت بحبوية : ــ اوه ، كلا (واضافت بصوت منخفض) اذا كان يريد ان يذهب ثانية ، فلست قوية بما فيه الكفاية لأمنعه من ذلك.

ــ انت لا تعتقدين مع ذلك اني سأسهر عليه طوال الليل ؟

قالت في غيظ :

ــ ما أقل ميلك للإحسان !

وأضافت بعد لحظة بلهجة مصالحة :

ــ انتظر على الاقل حتى ينام ، ولن يتأخر ذلك .

وكان الفتى يتململ في السرير وهو يتمتم بكلمات مختلفة . وسألت ايرين :

ــ اين تراه كان يجرجر نفسه حتى وقع في مثل هذه الحالة ؟

كانت ممتلئة وقصيرة بعض الشيء ، ذات بشرة جامدة ، رقيقة اكثر مما ينبغي ، لزجة بعض الشيء ، ولم تكن تبدو نظيفة تماماً ، فكأنها كانت ناهضة من النوم لتوّها . ولكن الوجه كان رائعاً : فم صغير جداً ذو زاويتين متعبتين ، وعينان كبيرتان واذنان صغيرتان ورديتان .

قال ماتيو : ــ حسناً ، لقد نام .

ــ أتظن ذلك ؟

وانتفضا : كان الفتى قد استقام ، وقال بصوت قوي :

ــ فلومي ! بنطلوني !

قال ماتيو : ــ خراء !

فابتسمت ايرين :

ــ انت هنا حتى الصباح .

ولكن ذلك كان هذياناً تمهيدياً للنوم : فان فيليب تداعى للسقوط الى خلف ، وتمتم بضع لحظات ، وما لبث أن بدأ يشخر .

قالت ايرين بصوت منخفض :

ــ تعال .

وتبعها الى غرفة كبيرة مفروشة بنسيج وردي . وكانت قد علّقت على الجدار غيتاراً .

ــ انها غرفتي . سأترك الباب مفتوحاً لأسمع الفتى .

ورأى ماتيو سريراً كبيراً ، غير مرتب ، ذا مظلة ، ومقعداً محشواً ، وغرامافوناً واسطوانات على طاولة من طراز هنري الثاني ، وكانت قد ألقيت على أريكة ذات أرجوحة جوارب مستعملة ومباذل نسائية .

وتابعت ايرين نظره :

ــ لقد أثثت بيتي من « متحف البراغيث »

قال ماتيو : ــ لا بأس به ، لا بأس به على الاطلاق .

ــ إجلس .

فسأل ماتيو : ــ اين ؟

ــ انتظر .

كان على المقعد المحشو سفينة داخل زجاجة ، فأخذتها ووضعتها على الارض ، ثم حررت الاريكة ذات الارجوحة من الاغطية التي عليها والتي حملتها الى المقعد المحشو .

ــ هنا . اما انا ، فسأجلس على السرير .

وجلس ماتيو وأخذ يتأرجح .

ــ كانت آخر مرة جلست فيها على اريكة ذات ارجوحة ، في ليم، في باحة فندق « أرين » . وكنت في الخامسة عشرة .

فلم تجب ايرين . واستعاد ماتيو صورة الباحة الكبرى المعتمة ببابها الزجاجي المشع تحت نور الشمس : كانت تلك الذكرى ما تزال تخصه، وكانت ثمة ذكريات أخرى ، صميمية وغير متميزة ، ترتعش حولها : اني لم أفقد طفولتي . كانت السن الناضجة ، سن الرشد ، قد انهارت، ولكن كانت الطفولة باقية ، حارة كل الحرارة : وهو لم يكن يوماً اقرب اليها مما هو الآن ، وفكر في الطفل الصغير المضطجع على رمل البحر في « اركاشون » والذي كان يطلب ان يكون حراً : وكان ماتيو ، امام هذا الصبي العنيد ، قد كف عن ان يشعر بالعار . ونهض.

قالت ايرين : ــ انت ذاهب ؟

قال : ــ سوف أتنزه .

ــ الا تريد ان تبقى قليلا ؟

فتردد ، ثم قال : ــ بكل صراحة ، كانت لدي بالاحرى رغبة

بان اكون وحدي .

فوضعت يدها على ذراعه :

ـ سوف نرى . سيكون الامر معي كما لو كنت وحدك .

ونظر اليها : كانت لديها طريقة غريبة في الكلام ، رخوة وساذجة في رصانتها بعض الشيء ، كانت لا تكاد تفتح فمها الصغير وتهز قليلا رأسها لتساقط منه الكلمات . وقال :

ـ سأبقى .

فلم تبدِ اي فرح . وكان وجهها في الحق يبدو قليل التعبير. وخطا ماتيو بضع خطوات في الغرفة ، واقترب من الطـــاولة ، فأخذ بعض الاسطوانات . وكانت مستعملة جداً ، وكان بعضها مشعوراً ، وكان معظمها قد فقد غلافه . كان ثمة بعض الحان الجاز ، واغنية مهترئة لموريس شفالييه ، والكونسرتو لليد اليسرى ، ورباعية دوبوسي ، وسيريناد توسيللي ونشيد الانترناسيونال تغنيه جوقة روسية . وسألها :

ـ انت شيوعية ؟

قالت : ـ لا ، ليس لي من رأي . وأظن اني كنت أكون شيوعية لو لم يكن النـــاس اشراراً أردياء (وفكرت قليلا وقالت) انني من دعاة السلام .

قال ماتيو : ـ انك ظريفة ، فاذا كان الناس اشراراً فينبغي ان يستوي لديك ان يموتوا في الحرب او بطريقة اخرى .

فهزت رأسها برصانة عنيدة وقالت :

ـ بل من أجل هذا بالذات . فما داموا أشراراً ، فان خوض الحرب مع ذلك أشد اثارة للاشمئزاز .

وساد صمت. ونظر ماتيو الى نسيج عنكبوت في السقف وأخذ يصفر. قالت ايرين :

ـ لا أستطيع ان اقدم لك شيئاً للشرب ، الا اذا كنت تحب عصير

اللوز . فلا يزال في الزجاجة بقية منه .

قال ماتيو : ـ هم .

ـ أجل ، كنت أتوقع ذلك . آه ، هناك على المدخنة سيجار ، فخذه اذا شئت .

ونهض فأخذ السيجار ، وكان جافاً ومكسوراً .

ـ هل أستطيع ان أحشو به غليوني ؟

ـ افعل به ما يروق لك .

وعاد الى الجلوس وهو يفتت السيجار بين أصابعه ، وكان يحس نظر ايرين عليه . وقالت :

ـ خذ راحتك . فاذا لم تكن راغباً في الكلام ، فلا تتكلم .

قال ماتيو : ـ حسناً .

وبعد برهة ، سألت :

ـ ألا تريد ان تنام ؟

ـ اوه ! كلا .

وكان يخيّل اليه أنه لن يرغب بعد ابداً في النوم .

ـ اين تراك كنت تكون ، في هذه اللحظة ، لو لم تلتق بي ؟

ـ في شارع مونتورغاي .

ـ وما الذي كنت ستفعله فيه ؟

ـ أتنزه .

ـ لا بد ان يبدو لك غريباً ان تكون هنا .

ـ لا .

قالت في عتاب مبهم : ـ صحيح ، فانك قلما تكون هنا .

فلم يجب : كان يفكر بأنها كانت على حق . هذه الجدران الاربعة ، وهذه المرأة على السرير : كان ذلك حادثاً عارضاً لا أهمية له ، وجهاً من وجوه الليــل المائعة . كان ماتيو في كل مكان يمتد فيه الليل من

حذود الشمال الى الكوت دازور ؛ لم يكن والليل الا شيئاً واحداً ، وكان ينظر الى ايرين بعيون الليل كلها : فهي لم تكن الا نوراً ضئيلا ، في الظلام . وندت صرخة نافذة جعلته ينتفض .

ـ اي سم ! سأرى ما به .

وخرجت على أطراف أصابعها ، وأشعل ماتيو غليونه . ولم تكن به رغبة بعد لأن يقصد شارع مونتورغاي : فقد كان شارع مونتورغاي هنا ، وكان يخترق الغرفة ، كانت جميع طرق فرنسا تمر بها ،وكانت جميع الاعشاب تنبت فيها . وكانت قد وضعت اربعة حواجز خشبية حيثما اتفق . وكان ماتيو في حيثما اتفق . وعادت ايرين تجلس : وكانت مطلق شخص . ولم تكن لتشبه امرأة من بريتـــاني . بل كانت اشبه بأناميت ،صغيرة مقهى « الدوم » . كانت تملك منها البشرة الزعفرانية، والوجه اللامعبر والجمال الواهن .

قالت : ـ لا شيء . انه يحس الكوابيس .

وسحب ماتيو بهدوء أنفاس غليونه .

ـ لا بد انه عاني كوابيس شديدة ، هذا الطفل .

فهزت ايرين كتفيها ، وتغيّر وجهها فجأة فقالت :

ـ أشك في ذلك !

قال ماتيو : ـ أراك فجأة تصبحين قاسية .

ـ آه ! ذلك انه يزعجني ان يُرثى لفتى من جنسه ، فهذه كلها حكايات طفل اغنياء .

ـ إن ذلك قد لا يمنع ان يكون شقياً .

ـ انت تجعلني أضحك . لقد طردني ابي حين كنت في السابعة عشرة : اريد ان اقول لك اني لم أكن على وفاق معه . ولكني لن اقول اني كنت شقية .

ولمح ماتيو ، ذات لحظة ، على وجهها المترف ، سحنة قاسية واعية

المرأة قد عانت . وكان صوتها يسيل ، بطيئاً ضخماً ، مع شيء من الرتابة في الغيظ ، وقالت :

— ان الانسان يكون شتمياً ، حين يشكو البرد او المرض او الجوع. وكل ما عدا ذلك أبخرة .

فأخذ يضحك : كانت تقطب أنفها بعناية وتفتح فمها الصغير بقوة لتقيء الكلمات . وكان لا يكاد يصغي اليها : كان يراها . نظر . نظر هائل ، سماء فارغة : كانت تتخبط في هذا النظر كحشرة في ضوء منارة .

وقالت : — لا ، اريد طبعاً ان أؤيه وأعنى به وأمنعه من ارتكاب الحماقات ، ولكني لا اريد ان يُرثى له . لاني انا ، عرفت ما هو البؤس! وحين يزعم البورجوازيون أنهم أشقياء ...

ونظرت اليه بتنبه وهي تسترد نَفَسها :

— صحيح انك انت ، بورجوازي .

قال ماتيو : — نعم ، انا بورجوازي .

انها تراني . وخيل اليه أنه كان يقسو ويصغر بسرعة تامة . كان وراء عينيه سماء بلا نجوم ، وكان كذلك نظر ، انها تراني كما ترى الطاولة والغيتار . وانا في رأيها جزء صغير معلق في نظر ،بورجوازي. صحيح اني بورجوازي . ومع ذلك ، فانه لم يكن ينجح في الإحساس بذلك . وكانت ما تزال تنظر اليه .

— ما الذي تفعله في الحياة ؟ لا ، دعني أحزر . طبيب ؟

— لا .

— محام ؟

— لا .

قالت : — عجباً . ربما كنت نشالا .

قال ماتيو : — انني استاذ .

قالت وهي خائبة بعض الشيء : ــ هذا غريب (ولكنها اضافت بحيوية) لا أهمية لذلك .
انها تنظر الي . ونهض فأخذ ذراعها ، فيما تحت مرفقها بقليل . وكان اللحم الرقيق الدافىء ينغمس قليلاً تحت الأصابع . وسألته :
ــ ماذا دهاك ؟
ــ كانت بي رغبه الى لمسك ، وذلك لسبب واحد : هو انك تنظرين الي .
وتداعت مقتربة منه ، وتغشّى النظر ، وقالت :
ــ انك تروق لي .
ــ وانت تروقين لي ايضاً .
ــ هل لك امرأة ؟
ــ ليس لي أحد .
وجلس بالقرب منها ، على السرير :
ــ وانت ، هل من أحدٍ في حياتك ؟
ــ في حياتي ... آحاد . (وأشارت اشارة أسف وقالت) انني سهلة.
وكان النظر قد اختفى . وكان باقياً لعبةً صينية صغيرة تنبعث منها رائحة البلاذر .
قال ماتيو : ــ سهلة ؟ وبعد ذلك ؟
فلم تجب . وكانت قد وضعت رأسها بين يديها وراحت تنظر الى الفراغ في رصانة . وقال ماتيو في نفسه: « إنها امرأة تميل الى التفكير» .
وقالت بعد لحظة :
ــ حين تكون امرأة لابسةً ثياباً رديئة ، فلا بدّ ان تكون سهلة .
والتفتت الى ماتيو في قلق :
ــ انني لست مخيفة ، اليس كذلك ؟
قال ماتيو أسفاً : ــ كلا . هذا لستطيع ان نؤكده .

ولكنها بدت من شدة الأسى بحيث انه اخذها بين ذراعيه .
كان المقهى مقفراً . وسألت ايفيش الخادم :
– انها الساعة الثانية صباحاً ، أليس كذلك ؟
فمسح عينيه بظاهر يده والقى نظرة على الساعة المعلقة . كانت تشير الى الثامنة والنصف .
وتمتم : – ربما .
وتراكمت ايفيش بوداعة في زاوية وهي ترد تنورتها على ركبتيها .
سأكون يتيمة تلحق بعمتها في ضاحية باريس . وفكرت بأن عينيها كانتا تلتمعان اكثر مما ينبغي ، فأسدلت شعرها على وجهها . ولكن قلبها كان ينبض بهيجان يكاد يكون فرحاً : ساعة انتظار ، وشارع يعبر ، ثم تقفز الى القطار ، وسأكون حوالي الساعة السادسة في «غاردنور» فأقصد اولاً « الدوم » وآكل برتقالتين ، ومن هناك الى بيت ريناتا لأبلصها بخمسمئة فرنك . وكانت بها رغبة لأن تطلب قدح خمر ، ولكن اليتيمة لا تشرب الكحول .
وسألت بصوت دقيق : – أتريد ان تعطيني فنجان زيزفون ؟
فاستدار الخادم على عقبيه ، وكان فظيعاً ، ولكن كان ينبغي اغراؤه .
وحين حمل الزيزفون رفعت اليه نظراً رقيقاً مجفلاً ، وتنهدت قائلة :
– شكراً .
فانزرع أمامها ونشق في تبرم :
– الى أين انت ذاهبة هكذا ؟
قالت : – الى باريس ، لدى عمي .
– ألست ابنة السيد سرغين ، ذاك الذي يملك المنشرة ، فوق البليد !
قالت : – اوه ، كلا ! لقد مات أبي عام ١٩١٨ ، وأنا ربيبة الدولة .

فهز رأسه عدة مرات وابتعد : لقد كان فلاحاً فظاً كالفلاحين الروس؛ أما في باريس فان لخدم المقاهي نظرات مخملية وهم يصدّقون ما يقال لهم . سأرى باريس من جديد. وسوف تعرف ما ان تبلغ «غاردونور» : فقد كانوا ينتظرونها : كانت الطرق تنتظرها ، والواجهات ، واشجار مقبرة مونبارناس و ... الاشخاص . بعض الاشخاص الذين لا يكونون قد رحلوا – مثل ريناتا – او يكونون قد عادوا . سوف اجد نفسي من جديد . هناك فقط كانت ايفيش ، بين جادة « مين » والأرصفة، وسوف يُبرونني تشيكوسلوفاكيا على خارطة . وفكرت في هوس : اوه! ليقصفوا اذا شاءوا بالقنابل ، فسنموت معاً ، ولا يبقى إلاّ بوريس ليتحسّر علينا .

– أطفيء .

فأطاع ، وذابت الغرفة في ليل الحرب الكبير ، وامتزج النظران في الليل ، ولم يكن باقياً إلا خيط من نور ، بين مدخل الباب ومصراعه المشقوق ، عين مستطيلة كانت تبدو وكأنها تراهما . واتجه ماتيو منزعجاً الى الباب ، فقال الصوت في ظهره :

– لا ، دعه مفتوحاً : بسبب الفتى ؛ فاني اريد ان اسمعه .

فعاد أدراجه في صمت ، ونزع حذاءه وبنطاله ، واحدث الحذاء الأيمن صوتاً وهو يرتطم بالأرض الخشبية .

– ضع ثيابك على الأريكة .

فوضع بنطاله وسترته ثم قميصه على الأريكة ذات الأرجوحة، فتأرجحت وهي تصرّ . وظل عارياً كلّه ، ذراعاه متدليتان ، وأصابع رجليه مشنّجة ، في وسط الغرفة . وكان راغباً في ان يضحك .

– تعال .

فتمدّد على السرير لصق جسد حارّ وعارٍ . وكانت قد استلقت على ظهرها ، ولم تأت بحركة ، وكانت ذراعاها ملتصقتين على جنبيها .

ولكنه حين قبّل صدرها ، تحت عنقها بقليل ، أحسّ بخفق قلبها ، خفقات مطرقة كبيرة كانت تزعزعه من رأسه الى قدميه . وظلّ فترة من غير ان يتحرك ، وقد شمله هذا الجمود الخافق : وكان قد نسي وجه ايرين ؛ ومدّ يده ، وأمرّ اصابعه على لحم أعمى. مجرد انسانة . ومرّ اشخاص بالقرب منهما ، وسمع ماتيو احذيتهم تطقطق : كانوا يتكلمون بصوت مرتفع ويتضاحكون فيما بينهم .

قالت امرأة : — قل ، يا مارسيل : لو كنت هتلر ، أتراك تستطيع إن تنام هذه الليلة ؟

وضحكوا ، وابتعدت خطاهم ، وظلّ ماتيو وحيداً .

وقال صوت ناعس :

— اذا كان ينبغي لي ان آخذ احتياطات ، فالأفضل ان تقول ذلك فوراً .

قال ماتيو : — لا حاجة بك الى اتخاذ احتياطات، فأنا لست قذرا .

فلم تجب . وسمع نفَسها القوي المنتظم. مرج ، مرج في الليل ، كانت تتنفّس كالاعشاب ، كالاشجار ؛ وتساءل عما اذا لم تكن قد نامت . ولكن يداً مرتبكة ومنغلقة نصف انغلاق لامست بسرعة خاصرته وأليتيه: كان يمكن اعتبار ذلك على الاكثر مداعبة . وتحامل قليلاً وانزلق عليها.

انسحب بوريس فجأة ، وردّ الغطاء وتداعى للسقوط الى جانب . ولم تكن لولا قد تحركت ، وظلت متمددة على ظهرها ، مغمضة العينين. وتقوقع بوريس ليتجنب ما وسعه ملامسة الغطاء لجسمه العَرِق . وقالت لولا من غير ان تفتح عينيها :

— بدأت اومن بأنك تحبني .

فلم يجب . هذه الليلة ، كان قد احب جميع النساء من خلالها ، الدوقات والاخريات . ويداه اللتان كانت حشمةٌ لا تقهر قد امسكتهما حتى ذلك الحين على كتفي لولا ونهديها ، نزّههما في كل مكان ؛

ونزّه شفتيه في كل مكان ، والتمس في جنون الاغماء النصفي الذي كان يسقط فيه عادة وهو في ابان لذته ، والذي كان يثير اشمئزازه : كانت ثمة افكار يريد ان يهرب منها . وكان يشعر بنفسه الآن لزجاً ملطخاً، وكان قلبه يخفق حتى لينفطر ، لم يكن ذلك غير لذيذ : ففي تلك اللحظة ينبغي التفكير أقل ما يمكن . كانت ايفيش تقول له دائماً : انك تفكر اكثر مما ينبغي — وكانت على حق . ورأى فجأة بعض قطرات تنبثق عند زاويتي عيني لولا المغمضتين ، فتشكل بحيرتين صغيرتين كان مستواهما يصعد رويداً على جانبي الأنف . وتساءل: « ماذا هناك ايضاً؟» كان يعيش منذ اربع وعشرين ساعة مع قلق جاف في جوف معدته ، فلم يكن ذا ميل الى الرقة والتعطّف .

وقالت لولا : — اعطني منديلي ، انه تحت الوسادة .

ومسحت عينيها ثم فتحتهما . وكانت تنظر اليه نظرة حذرة قاسية : « ماذا تراني قد فعلت ايضاً ؟ » ولكن لم يكن الأمر كما يظن ، فقد قالت بصوت مخنوق :

— سوف تذهب .

— الى اين ؟ اه ! نعم ... ولكن ليس على الفور ، وانما بعد عام .

— وما هو العام ؟

كانت تنظر اليه في إلحاح ، وأخرج يداً من تحت الغطاء ورد خصلته على عينيه ، وقال في حكمة :

— ربما تكون الحرب بعد عام قد انتهت .

— انتهت ؟ آه ! اصدقك تماماً : اننا نعرف متى تبدأ الحرب ، ولكننا لا نعرف أبداً متى تنتهي .

وانبثقت ذراعها البيضاء من تحت الغطاء ، فأخذت تجس وجه بوريس، كما لو كانت عمياء : وملّست صدغه ووجنتيه ، وتابعت استدارة اذنيه ، ولامست انفه بطرف اصابعها : وكان يحس نفسه مضحكاً . وقال في

بمرارة :

– ان العام وقت طويل ، فلدينا مجال للتفكير في ذلك :

– واضح جداً أنك طفل . ليتك تدري كم ينقضي العام بسرعة بالنسبة لمن كان في سني .

قال بوريس في عناد : – اما انا ، فأجده طويلاً .

– هل انت راغب اذن في القتال ؟

– ليس الأمر كذلك .

وأصبح أشد احتمالاً للحر ، فانقلب على ظهره ومد ساقيه فالتقتا طرفاً من قماش في جوف السرير ، بنطال منامته . وقال موضحاً ، ونظره في السقف :

– مهما يكن من أمر ، فما دام عليّ ان أخوضها ، هذه الحرب ، فليكن ذلك على التو ، ولنكفّ عن الحديث عنها .

وصاحت لولا : – ها ! وأنا ؟ (وأضافت بصوت لاهث) انك لا تبالي بأن تتركني ، ايها الوحش الصغير ؟

– ولكن ما دمت سأتركك على أي حال ؟

قالت بهوس : – آه ، في ابعد وقت ممكن . سأموت من ذلك . لا سيما وانك ، كما اعرفك الآن ، ستظل ثلاثة ايام من غير ان تكتب لي ، بداعي الكسل ؛ وسوف اظنك انا ميتاً . انك لا تقدر ذلك .

قال بوريس : – وانت ايضاً لا تقدرينه . انتظري ريثما يحدث قبل ان تحطمي رأسك تفكيراً .

وساد صمت ، ثم قالت بصوت خشن متقطع كان يعرفه جيداً :

– مهما يكن من أمر ، فانه لا يبدو صعباً جداً ان يُهجر انسان مثل العجوز تعرف من الناس اكثر مما تعتقد .

وانقلب بحيوية على جنبه ونظر اليها مغضباً .

– لولا ، اذا ما فعلت ذلك ...

ـ ماذا يحدث ؟
ـ فلن اراك في حياتي بعد ابداً .
وكانت قد هدأت ، فقالت له ببسمة غريبة :
ـ كنت احسب ان الحرب تثير نفورك ؟ لقد كررت لي كثيراً انك كنت مناهضاً للعسكرية .
ـ وما زلت .
ـ وإذن ؟
ـ ليس الأمر متشابهاً .
وكانت من جديد قد اغمضت عينيها ، وكانت تلتزم الهدوء، ولكن وجهها كان قد تغير : فلقد بدت على زاويتي شفتيها تجعدتا التعب والضيق القديمتان . وبذل بوريس جهداً ، فقال بلهجة مصالحة :
ـ اني مناهض للعسكرية لأني لا استطيع ان أطيق الضباط . امـا الجنود العاديون فأحبهم كثيراً .
ـ ولكنك ستصبح ضابطاً . سيجبرونك على ذلك .
فلم يجب بوريس : كان الامر أعقد مما ينبغي ، حتى انه كان هو نفسه يضيع فيه . صحيح انه كان يحتقر الضباط ، ولكن لمـا كانت الحرب حربه ، من جهة اخرى ، وكان هو مرصوداً لحيـاة عسكرية قصيرة ، فلا بد ان يصبح معاون ملازم . وفكّر : « آه ! ليتني استطيع ان اكون هناك وأتبع الفرقة ، بقوة الاشياء ، وأنتهي من كل هـذه المزعجات . »
وقال فجأة :
ـ اتساءل عما اذا كنت سأخاف .
ـ تخاف ؟
ـ ان ذلك يرعدني .
وكان يفكر بأنها لن تفهم : كان الافضل ان يتحدث في ذلك الى

ماتيو ، او حتى ايفيش ولكن ما دامت موجودة هنا ...

ـ طوال العام ، سنقرأ في الصحف : الفرنسيون يتقدمون تحت طوفان من الحديد والنار ، او نقرأ شيئاً من هذا القبيل ، فهمت ما اقصد . وسوف اتساءل كل مرة : هل تراني سأصمد ؟ او انني سأسأل مأذونين : أيكون الامر قاسياً ؟ وسوف يجيبونني : قاس جداً فأحسني طريفاً . أن ذلك سيبعث على الفرح .

فأخذت تضحك وقلدته من غير جذل :

ـ انتظر حتى تمر بها قبل ان تحطم رأسك تفكيراً ، حتى ولو كنت خائفا ، ايها الساذج الصغير !

وفكر : « لا حاجة الى ان اشرح لها : فهي لا تفهم شيئاً . »

وتثاءب وسأل :

ـ هل نطفيء ؟ انني ناعس .

قالت لولا : ـ اذا شئت . قبلني .

فقبلها وأطفأ . وكان يكرهها ، وفكر : « انها لا تحبني من أجل نفسي ، والا لفهمت . »

كانوا جميعاً متشابهين ، وكانوا يتظاهرون بأنهم عمي : لقد جعلوا مني ديك قتال ، ثوراً للصراع ، وها هم الآن يسدون أعينهم ، ابي يريد ان أتقدم لدبلومي ، وهذه تريد ان تجعلني أقع في كمين لأنها ضاجعت في الماضي كولونيلا . وبعد لحظة احس جسماً ملتهباً عارياً يسقط على ظهره . وفكر : « دائماً هذا الجسد الملتصق بجسدي طوال عام آخر . انها تستثمرني . » واستشعر القسوة والانغلاق . واندفع بقرب الجدار . فسألته لولا :

ـ الى اين تذهب ؟ الى اين تذهب ؟ ستسقط على الارض .

ـ ان حرارتك تحرقني .

فابتعدت وهي تدمدم . عام . عام ستسألني فيه ان كنت جباناً ،

وطوال عام سأخاف من ان اكون خائفاً . وسمع تنفس اولا المنتظم ، كانت تنام ؛ ثم تدحرج الجسم عليه من جديد ؛ ولم يكن الذنب ذنبها ، فقد كان في وسط الفراش فجوة ؛ ولكن بوريس أحس برعشة غضب ويأس : ستسحقني حتى صباح الغد . وفكر: اوه ! اعيش مع الرجال، ولكل سريره . وفجأة ، أخذه نوع من الدوار ، وكانت عيناه مفتوحتين ثابتتين في الظلام ، وسرت في ظهره العرَق رعدة مثلجة : لقد ادرك انه قرر التطوع في اليوم التالي .

انفتح الباب وبدت السيدة بيرنانشاتز في قميص الليـــل وعلى رأسها وشاح ، فقالت وهي تصيح لتغطي صوت جهاز الراديو :

ــ غوستاف ، ارجوك ، تعال فنم .

قال السيد بيرنانشاتز : ــ نامي ، نامي ، ولا تهتمي بي .

ــ ولكني لا استطيع ان انام اذا لم تأو الى فراشك .

فقال بحركة ضيق : ــ آه ! ترين جيداً اني انتظر شيئاً ما .

قالت : ــ ما هو ؟ لماذا تحرك طوال الوقت هذا الراديو اللعين ؟ سينتهي الأمر بالجيران الى رفع شكوى . فماذا تنتظر ؟

فالتفت السيد بيرنانشاتز اليها وقبض على ذراعيها بقوة قائلاً :

ــ اراهن أن هذه خدعة . اراهنك أن بلاغ تكذيب سيصدر ليلاً .

فسألته مستطارة اللب : ــ ولكن ماذا ؟ عم تتكلم ؟

فأشار اليها ان تصمت . واخذ صوت هادىء رصين يتكلم :

« تكذب الاوساط المأذون لها في برلين جميع الانباء التي ظهرت في الخارج ، فيما يخص انذاراً قيل ان المانيا أرسلته الى تشيكوسلوفاكيا وحددت فيه الساعة الرابعة عشرة بعد ظهر اليوم كآخر موعد ، وفيما يخص تعبئة عامة مزعومة ستعلن بعد انتهاء هذا الاجل . »

وصاح بيرنانشاتز :

ــ اسمعي ، اسمعي .

« وتعتبر هذه الانباء وسيلة لبث الذعر وخلق جو من التشوش الحربي »

« ويكذبون كذلك تصريحاً زعم ان الوزير غوبلز ادلى به الى جريدة اجنبية حول مدة هذا الانذار ، ويؤكدون ان الدكتور غوبلز لم ير ولم يستقبل منذ اسابيع اي صحفي أجنبي . »

واستمع السيد بيرنانشاتز لحظة أخرى ، ولكن الصوت كان قد صمت ، فنهض يرقص مع السيدة بيرنانشاتز رقصة فالس وهو يصرخ :

ـ لقد قلت لك ، لقد قلت لك ، انه التراجع ، إنه التراجع الاصفر ، لن تقع الحرب يا كاترين ، لن تقع الحرب ، وقد بعيص النازيون !

النور . وانتصبت الجدران الاربعة فجأة بين ماتيو والليل . فتحامل على يديه ونظر الى وجه ايرين الهادىء : كان عُري هذا الجسد الانثوي قد تقلص حتى الوجـه ، وكان الجسم قد استردّه كما تستردّ الطبيعة الحدائق المهجورة ؛ ولم يكن ماتيو ليستطيع بعدُ ان يعزله عن الكتفين المستديرتين ، والنهدين الصغيرين المقرّنين ، إنه لم يكن الا زهرة من لحم ، آمنة وغامضة . وسألت :

ـ هل كان الامر باعثاً على الملل ؟

ـ الملل ؟

ـ هناك من يجدني مملة ، لأني لست نشيطة جداً . وقد حدث مرة ان شعر أحدهم معي بانزعاج شديد ، حتى انه ذهب في الصباح ولم يعد بعد ذلك قط .

قال ماتيو : ـ انني لم انزعج ؟

وأمرّت إصبعاً خفيفاً على عنقه :

ـ ولكن يجب الا تظن اني باردة .

قال ماتيو : ـ أعرف . اصمتي .

وأخذ رأسها بين يديه وانحنى على عينيها . كانتا بحيرتين من جليد، شفافتين وبلا اعماق . انها تنظرني ، وكان الجسم والوجه ، خلف هذا النظر ، قد اختفيا . وفي اعماق هاتين العينين ، كان الليل : الليل البكر . لقد ادخلتني في عينيها ، فأنا موجود في هذا الليل : رجلاً عارياً . سأغادرها بعد ساعات ، ومع ذلك ، فسأبقى فيها الى الابد . فيها ، في هذا الليل المغفل . وفكّر : « وهي لا تعرف حتى اسمي . » وفجأة ، أحسّ بأنه متعلّق بها تعلقاً عميقاً حتى شعر بالحاجة الى مصارحتها بذلك ، ولكنه صمت : كانت الكلمات ستكذب ؛ فهو انما كان متعلقاً بهذه الغرفة مثل تعلقه بها ، بالغيتار على الجدار، وبالفتى الذي كان ينام في السرير المقفص، بهذه اللحظة ، بهذا الليل كله .

وابتسمت له :

ــ انك تنظر اليّ ولكنك لا تراني .

ــ بل أراك .

وتثاءبت :

ــ اود ان انام برهة .

قال ماتيو : ــ نامي ، ولكن اربطي منبهك على الساعة السادسة ، فيجب ان اعود الى بيتي قبل ان اقصد المحطة .

ــ انت ذاهب هذا الصباح ؟

ــ هذا الصباح في الساعة الثامنة .

ــ هل استطيع ان اصحبك الى المحطة ؟

ــ اذا شئت .

قالت :

ــ انتظر . يجب ان أخرج من السرير لأربط المنبّه وأطفيء النور .

ولكن لا تنظر ، فانا أخجـــل من مؤخرتي لضخامتها وانخفاضها المفرطين ؟

فصرف وجهه وسمعها تروح وتغدو في الغرفة ، ثم اطفأت . وقالت له وهي تعود الى النوم :

– يتفق لي أحياناً ان أنهض وأنا نائمة ، وان اتنزه في الغرفة ، فما عليك الا ان تصفعني ؟

الاربعاء ٢٨ ايلول

الساعة السادسة صباحاً ...

كانت معتزّة جداً ، فهي لم تغمض عينها طوال الليل ، ومع ذلك فانها لم تكن وسنى . كل ما هناك حرقٌ جاف في جوف المحجرين ، وتأكّل في العين اليسرى ، وذلك الرفيف في الاجفان ، وبين الفينة والفينة ارتعاشات من التعب تسري في ظهرها ، من الصلب حتى الرقبة. كانت قد سافرت في قطار مقفر بصورة فظيعة ، وكان آخر مخلوق حي رأته رئيس المحطة في سواسون وهو يلوّح بقلمه الاحمر . ثم رأت دفعة واحدة الجمهور الحاشد في باحة « غاردوليست » وكان حشداً قبيحاً جداً ، محشواً بالعجائز والجنود ؛ ولكن كانت له عيون كثيرة وأنظار كثيرة ، ثم ان إيفيش كانت تحب هذا التموج السرمدي الصغير وهذه اللكزات من المرافق والظهور والاكتاف ، وتأرجح الرؤوس بعضها وراء البعض بعناد ؛ وكم كان لذيذاً ان لا تشعر بنفسها وحيدةً بعد في تحمّل ثقل الحرب . وتوقفت عند عتبة احد ابواب الخروج الكبرى ، وتأملت بتديّن جادّة ستراسبورغ ؛ كان ينبغي ان تملأ منها عينيها وتلم في ذاكرتها الاشجار ، والحوانيت المغلقة ، والسيارات الكبيرة ، وخطوط الترامواي ، والمقاهي التي كانت قد بدأت تفتح ، وهواء الصباح المدخن . حتى ولو القوا قنابلهم بعد خمس دقائق ، بعد

ثلاثين ثانية ، فانهم لن يستطيعوا ان ينتزعوا مني ذلك . وتأكدت من أنها لم تكن تترك شيئاً يفلت منها ، حتى ولا الاعلان الكبير ديبون — ديبون — ديبونيه ، الى اليسار ، ثم فجأة أخذها سعر صغير . يجب ان تدخل المدينة قبل ان يصلوا . ودفعت امرأتين من بريتاني كانتا تحملان أقفاص عصافير ، واجتازت العتبة ، فوضعت قدمها على رصيف حقيقي لباريس . وخيل اليها أنها كانت داخلة الى أتون ، وكان ذلك يثير النشوة والشؤم : « سيحترق كل شيء : النساء والاطفال والعجز ، وسوف أهلك في اللهب » . ولم تكن خائفة : فعلى أي حال كنت سأستفظع أن أشيخ ، غير ان التعجل كان يجفف حلقها ، فليست ثمة دقيقة للإضاعة : ان هناك اشياء كثيرة ينبغي ان تُرى مرة اخرى ، متحف « البراغيث » ، المقابر ، منيلمونتان وأشياء اخرى لم تكن تعرفها بعد ، كمتحف غريفان ، فاذا تركوني ثمانية ايام ، اذا لم يأتوا قبل يوم الثلاثاء القادم ، سيكون لدي متسع من الوقت لأزور كل شيء : وفكرت في هوس : ثمانية أيام تعاش ؛ اريد ان أتسلى اكثر مما اتسلى في عام برمته ، اريد ان اموت وانا أتسلى . واقتربت من سيارة تاكسي :

— ١٢ شارع هويغنز .

— إصعدي .

— ارجو ان تمر في جادة سان ميشال ، وشارع اوغست كومت ، وشارع فافين ، وشارع دوملير ، ثم شارع « لاغيتيه » وجادة مين :

قال السائق : — هذا يطيل الطريق .

— لا بأس .

ودخلت السيارة وأغلقت الباب : كانت قد خلفت لاون وراءها ، الى الأبد : سنموت هنا . وفكرت : « ما أجمل الطقس ! ما اجمل الطقس ! بعد ظهر هذا اليوم سنذهب الى شارع ديروزييه وجزيرة سان لويس » .

صاحت ايرين : — عجّل ، عجّل ، تعال .
كان ماتيو في قيصه القصير ، يسرح شعره امام المرآة . ووضع المشط على الطاولة وأخذ سترته تحت ذراعه ودخل « غرفة الاصدقاء » .
— ماذا هناك ؟
فأرته ايرين السرير بحركة مؤثرة :
— لقد فركها !
قال ماتيو : — بلا مزاح ، بلا مزاح !
وتأمل السرير المدعوك لحظة ، وهو يحك رأسه ، ثم انفجر ضاحكاً. ونظرت اليه ايرين نظرة رصينة دهشة ، ولكن ما لبث الضحك أن أعداها . وقال ماتيو :
— لقد قهرنا تماماً !
وارتدى سترته . وكانت ايرين ما تزال تضحك .
— الموعد في « الدوم » الساعة السابعة .
قالت : — الساعة السابعة .
وانحنى عليها وقبّلها قبلة خفيفة .
صعدت ايفيش السلّم وهي تركض ، وتوقفت على سطيحة الطابق الثالث وهي تلهث . وكان الباب مشقوقاً . فأخذت ترتجف . « الا ان تكون البوابة هنا ؟ » ودخلت : كانت جميع الابواب مفتوحة ، وجميع المصابيح مضاءة . وفي المدخل ، رأت حقيبة كبيرة : انه هنا.
— ماتيو !
فلم يجب أحـــد . وكان المطبخ خالياً ، ولكن في غرفة النوم كان السرير غير مرتب . « لقد قضى الليل هنا » . ودلفت الى المكتب ، ففتحت النوافذ والمصاريع . وفكرت في رقة : « ليس ذلك قبيحاً الى حد بعيد ، لقد كنت غير عادلة » . ستعيش هنا ، وستكتب له اربع مرات في الاسبوع ، لا ، بل خمساً . ثم يقرأ ذات يوم في الصحف:

« قصف باريس بالقنابل » ولا يتلقى بعد ذلك رسائل على الاطلاق : ودارت حول المكتب ، ولمست المكتب ، وضاغطة الورق التي تشبه العقرب . وكان ثمة سيجارة مكسورة بالقرب من كتاب لمارتينو عن ستاندال ؛ فأخذتها ووضعتها في محفظتها مع البقايا : ثم جلست بهدوء على الديوان : وبعد لحظة سمعت أقداماً على السلم فوثب قلبها .

كان هو . وتأخر لحظة في المدخل ، ثم دخل حاملاً حقيبته ، وفتحت ايفيش يديها فسقطت محفظتها على الارض .

ـ ايفيش !

ولم تكن الدهشة باديةً عليه . ووضع حقيبته ، فلمّ المحفظة وأعادها اليها .

ـ انت هنا منذ وقت طويل ؟

فلم تجب ، كانت عاتبةً قليلا ، لانها تركت محفظتها تسقط : وأقبل يجلس بالقرب منها . ولم تكن تراه . كانت ترى السجادة وطرف حذائها. وقال بفرح :

ـ اني محظوظ . فلو تأخرت ساعـة لما كنت ادركتني : سأستقل قطار نانسي في الساعة الثامنة .

ـ ولكن كيف ؟ هل تذهب على الفور ؟

وصمتت مستاءةً من نفسها، كارهة لصوتها بالذات . ان امامها وقتاً قصيراً جـداً ، وكم ودّت لو تكون بسيطة ، ولكن ذلك كان اقوى منها : حين تكون قد بقيت وقتاً طويلا من غير ان ترى الناس ، فلن يكون باستطاعتها ان تلقاهم ببساطة . وكانت قد تركت لخدر قطنيّ يشبه الجهامة ان يغمرها . وكانت تخفي عنه وجهها بعناية ، ولكنها كانت تظهر له اضطرابها ، وكانت تشعر بأنها أقل حشمة مما لو نظرت اليه في عينيه . وامتدت يدان نحو الحقيبة ففتحتاها وتناولتا منها منبهاً فربطتاه.ونهض ماتيو ليذهب فيضع المنبه على الطاولة،ورفعت ايفيش عينيها

قليلا فرأته أسود كله في الظل . وعاد الى الجلوس . وكان مستمراً في صمته ، ولكن ايفيش استعادت بعض الشجاعة . كان ينظر اليها، وكانت تعلم انه كان ينظر اليها . لم يسبق لأحد منذ ثلاثة اعوام أن نظر اليها على هـذا النحو ، وكانت تحس نفسها ثمينة ورخيصة : تمثالا صغيراً أبكم ، كان ذلك لذيذاً ، ومزعجاً ، وأليما بعض الشيء . وفجأة سمعت تكتكة المنبه ، وفكرت في انه سيذهب. « لا اريد ان اكون رخصة ، لا أريد ان اكون تمثالا » . وبذلت جهداً عنيفاً ، فتمكنت من ان تلتفت اليه . ولم يكن له النظر الذي كانت تتوقعه .

ـ ها أنت ذي يا ايفيشى ، ها أنت ذي .

ولم يكن يبدو أنه يفكر بما كان يقوله . ومع ذلك ، فقد بسمت له ، ولكنها كانت مثلوجة من الرأس حتى القدمين . ولم يبادلها بسمتها، بل قال بهدوء :

ـ هذه انت ...

وكان يتأملها في دهشة ، وأضاف بلهجة اكثر انتعاشاً :

ـ كيف تراك قد أتيت ؟

ـ بالقطار .

وكنت قد طابقت راحتيها فيما بينهما وأخذت تشدهمـا بقوة لتجعل أصابعها تطقطق .

ـ كنت أقصد ان اقول : هل يعرف أهلك ذلك ؟

ـ لا .

ـ وهل هربت ؟

ـ تقريباً .

قال : ـ نعم ، نعم ، حسناً : سوف تسكنين هنا ، (واضف باهتمام) أكنت منزعجة في لاون ؟

فلم تجب : كان الصوت يسقط على رقبتها ، بارداً مطمئناً ، كساطور.

– يا لايفيش المسكينة !
وبدات تشد شعرها خصلا . واستطرد :
– بوريس في بياريتز ؟
– نعم .
كان بوريس قد نهض متحسّساً. فلبس بنطاله وسترته وهو يرتعش، وألقى نظرة على لولا التي كانت نائمة فاغرة الفم ، وفتح الباب بلا ضجة ، وخرج الى الممشى ، وحذاؤه في يده .
وألقت ايفيش نظرة الى المنبه ، فرأت ان الساعة قد أصبحت السادسة وعشرين دقيقة .
فسألت بصوت شاكّ :
– كم الساعة ؟
قال : – السادسة وعشرون دقيقة . انتظري : سأضع بعض الحوائج في قربتي ، وسأفعل ذلك بسرعة ، وبعد ذلك اكون حراً تماماً .
وركع بالقرب من الحقيبة . وكانت تنظر اليه جامدة . ولم تكن تحس بعدُ جسمها ، ولكن تكتكة الساعة كانت تحطم أذنيها . وبعد برهة نهض :
– كل شيء جاهز .
وظل واقفاً بالقرب منها، ورأت بنطاله وقد تهرأ قليلا لدى الركبتين، وقال في لطف :
– إسمعي جيداً يا ايفيش . سوف نتحدث في أمور جدية : إن البيت هو لك ، المفتاح معلق بالمسمار ، قرب الباب ، فاسكني هنا حتى نهاية الحرب . ولقد تدبرت الامر من أجل راتبي : لقد أعطيت وكالة لجدك ، وسوف يقبض الراتب ويرسله لك كل شهر . ستكون هناك بعض الحسابات التي لا بد من تصفيتها بين الفينة والفينة : اجرة البيت مثلا ، ثم الضرائب ، الا اذا أعفي الجنود منها – ثم ترسلين لي احياناً

رزمة صغيرة. وما يتبقى فهو لك . واعتقد انك تستطيعين ان تعيشي .
وكانت تستمع في ذهول الى هذا الصوت المتساوي الرتيب الذي كان يشبه صوت مذيع الراديو . كيف تراه يجرؤ على ان يكون مملاً الى هذا الحد ؟ انها لم تكن تفهم تماماً ما كان يقوله ، ولكنها كانت تتمثل بوضوح الهيئة التي كان يبدو عليها : نصف مبتسم ، وأجفانه ثقيلة ، وسمة غبطة رصينة على وجهه . ونظرت اليه لتتمكن من الحقد عليه حقداً اكبر ، ولكن حقدها تهاوى : انه لم يكن يبدو على الهيئة التي كان يوحي بها صوته . أتراه يتألم ؟ ولكن لا ، انه لا يبدو شقياً . كل ما في الامر ان وجهه كان وجهاً لم تكن تعهده قط . وسأل وهو يبتسم :
ـ هل تسمعينني يا ايفيش ؟
قالت : ـ بالتأكيد. (ونهضت) ماتيو،أريد ان تُريني تشيكوسلوفاكيا على خارطة .
فقال : ـ ولكن ليست لدي خارطات . بلى ، لا بد ان عندي أطلساً قديماً .
وذهب يبحث عن مجموعة مجلدة في مكتبته ، فأتى بها ووضعها على الطاولة وفتحها وقلب اوراقها : « اوروبا الوسطى » . وكانت الالوان مزعجة : ليس الا اللونان البيج والبنفسجي . لا لون ازرق : فلا بحر ولا اوقيانوس . ونظرت ايفيش بتنبه الى الخارطة ، فلم تكتشف تشيكوسلوفاكيا .
قال ماتيو : ـ ان تاريخ هذه الخارطة يعود الى ما قبل ١٤ .
ـ وقبل ١٩١٤ ، لم يكن ثمة من تشيكوسلوفاكيا ؟
ـ كلا .
وتناول قلمه الحبر ورسم في وسط الخارطة خطاً مغلقاً وغير منتظم، وقال :

ـ انها هكذا تقريباً .

ونظرت ايفيش الى هذه المساحة العريضة من الارض الخالية من الماء، ذات الالوان الحزينة ، وهذا الخط من الحبر الاسود ، غير المستقر ، البشع بالقرب من حروف المطبعة ، فقرأت كلمة « بوهيميا » في داخل الخط وقالت :

ـ آه ، هكذا ! هذه هي تشيكوسلوفاكيا ...

وبدا لها كل شيء عبثاً ، فأخذت تنشج .

قال ماتيو : ـ ايفيش !

والفت نفسها فجأة نصف ممددة على الديوان ؛ وكان ماتيو يأخذها بين ذراعيه ؛ وقد تصلّبت اول الامر : انني لست بحاجة الى شفقته ، انني مضحكة ، ولكنها بعد لحظة تداعت للاسترخاء ، فلم يكن ثمة بعد لا حرب ، ولا تشيكوسلوفاكيا ، ولا ماتيو ، وانما هذه الضغطة العذبة الحارّة حول كتفيها . وسأل :

ـ أتراك قد نمت هذه الليلة ؟

فقالت بين غصتّين : ـ كلا .

ـ يا لصغيرتي المسكينة ايفيش ! انتظري .

ونهض فخرج ؛ وكانت تسمعه يروح ويجيء في الغرفة المجاورة ؛ وحين عاد ، كان قد استرد بعض تلك الهيئة الساذجة المغتبطة التي كانت تحبها . وقال وهو يجلس الى قربها :

ـ لقد وضعت أغطية نظيفة ؛ والسرير مرتب ، فبوسعك ان تنامي، بمجرد ذهابي .

فنظرت اليه :

ـ ألا .. ألا اصحبك الى المحطة ؟

ـ كنت احسب انك تكرهين الوداع على المحطات .

قالت بلهجة مصالحة : ـ اوه ، في مثل هذه المناسبة الفخمة ...

ولكنه هز رأسه : ـ انني افضل ان اذهب وحيداً . ثم ان عليك ان تنامي .

قالت : ـ آه ، آه ، حسناً !

وفكرت : ـ « كم كنت بليدة ! » واحست نفسها فجأة باردة مغلقة . وهزت رأسها بقوة ، فسحت عينيها وابتسمت .

ـ انت على حق ، فأنا ثائرة الأعصاب اكثر مما ينبغي . انه التعب . وسأرتاح .

وأخذها من يدها فأنهضها :

ـ يجب ان اطوف بك البيت .

وفي غرفته ، توقف امام خزانة :

ـ ستجدين هنا ستة ازواج من الأغطية ورؤوس وسائد وملاحف ، وهناك لحاف في مكان ما ، ولكني لا أدري اين وضعته ، وسترشدك البوّابة .

وكان قد فتح الخزانة وهو ينظر الى ركام الأقمشة البيضاء . وأخذ يضحك ، ولم تكن هيئته راضية . فسألته ايفيش بأدب :

ـ ما بك ؟

ـ كل هذا كان لي . ان ذلك مضحك .

والتفت اليها :

ـ سأريك ايضاً خزانة الطعام . تعالي .

ودخلا المطبخ ، فأراها خزانة :

ـ هنا . يبقى زيت وملح وفلفل ، ثم هذه معلبات (وكان يرفع العلب الاسطوانية الواحدة بعد الأخرى على مستوى نظره ويُديرها تحت المصباح) هذا سمك سليمان ، وهذا مزيج خضار ، وهذه ثلاث علب من الكرنب . تضعينها في الموقد ...

وتوقف . وعاودته ضحكته السيئة . ولكنه لم يضف شيئاً ، ونظر

الى علبة من البازلاء بعينيه الميتتين ثم أعادها الى الخزانة .
— انتبهي للغاز يا ايفيش . يجب ان تخفضي يد العداد قبل ان تنامي .
وكانا قد عادا الى المكتب . وقال :
— بالمناسبة ، سأبلغ البوّابة وانا هابط اني أترك لك البيت . وسترسل لك غداً للسيدة بالين . وهي منظفة البيت ، وليست رديئة .
قالت ايفيش : — بالين ، أيّ اسم غريب ! [1]
وأخذت تضحك ، فابتسم ماتيو . وقال :
— ان جاك لن يعود قبل مطلع تشرين الأول : فيجب ان اعطيك بعض المال لأتيح لك ان تنتظريه .
وكان في محفظته الف فرنك وورقتان من فئة المئة فرنك ، فأخذ ورقة الالف واعطاها اياها . قالت ايفيش :
— اشكرك جداً .
وتناولت الورقة واحتفظت بها في يدها المنقبضة .
— اذا حدث ايّ شيء ، فنادي جاك . سأكتب لـه اني اعهد اليـه فيك .
فرددت ايفيش : — شكراً ، شكراً ، شكراً .
— هل تعرفين عنوانه ؟
— نعم . نعم . شكراً .
— الى اللقاء (واقترب منها) الى اللقاء يا عزيزتي ايفيش . سأكتب لك بمجرد ان احصل على عنوان .
وأخذها من كتفيها وجذبها اليه .
— يا صغيرتي العزيزة ايفيش .
فمدت له بوداعة جبينها فقبّله . ثم شد على يدها وخرج : وسمعته يصفق باب غرفة الدخول ؛ عند ذلك بسطت ورقة الالف فرنك ونظرت

(١) تعني كلمة « بالين » بالفرنسية : الحوت (المترجم)

الى نقشها الصغير ، ثم مزقتها الى ثماني قطع القتها على السجادة .

كان معمّر عجوز ذو لحية شقراء واضعاً احدى يديه على كتف شاب حديث التجنيد ، يشير له باليد الأخرى الى الشاطىء الافريقي . « عودوا الى التطوع في الفرقة الاجنبية » . وكان المجنّد الحديث ذا هيئة بليدة تماماً . لا بد بالتأكيد من المرور بهذه المرحلة : فطول ستة اشهر سيبدو بوريس في هيئة الأبله . لنقل طول ثلاثة اشهر : فإن اعوام الحرب تعدّ مضاعفة . وفكّر وهو يكز على اسنانه : « سيقصّون لي غرّتي : المتوحشون ! » ولم يسبق له ان شعر بمناهضته للعسكرية بمثل هذا الشعور العنيف . وألمّ بحارسٍ منتصب بجمود في محرسه ، فرماه بوريس بنظرة خفيّة فشعر فجأة بالخوف . وفكر : « خراء ! » ولكنه كان مصمماً ، وكان يحسّ نفسه شريراً من الرأس حتى القدمين : ودخل الثكنة وساقاه رخوتان . وكانت السماء تلمع ، وكانت ريح خفيفة جداً تحمل رائحة البحر حتى هذه الاحياء البعيدة ؛ وفكر بوريس : « واأسفاه . واأسفاه ان يكون الطقس رائعاً هذه الروعة . » وكان شرطي يرود الطريق عند باب المفوضية . وكان فيليب ينظر اليه . ويشعر انه متروك تماماً ، وكان يحس بالبرد ، وكان خده وشفته العليا يؤلمانه . سيكون استشهاداً بلا مجد. بلا مجد ولا فرح : السجن ، ثم ذات صباح ، نهاية المطاف في حُفَر برج « فانسين » ؛ ولن يعرف احد ذلك ، فلقـــد رفضوه جميعاً . وسأل :

– مفوض الشرطة ؟

فنظر اليه الشرطي :

– في الطابق الأول .

سأكون شاهدي بالذات ، ولست مديناً بعد بحسابٍ لسواي .

– مكتب التطوع ؟

وتبادل الجنديان نظرة ، فأحس بوريس خدّيه يلتهبان وفـكّر :

« إن صحتي جيدة . »
ـ البناء في داخل الباحة ، الباب الاول الى اليسار .
فسلّم بوريس سلاماً سريعاً باصبعيه واجتاز الباحة بقدم ثابتة ؛ ولكنه كان يفكر : « انني أبدو ابله » وتأثر لذلك تأثراً شاقاً . وفكر : « لا بد ان يتسلّوا . رجل يأتي من تلقاء نفسه ، من غير ان يكون مجبراً ، لا بد ان يجدوا ذلك مزاحاً . » كان فيليب واقفاً ، في وضح النور ، وكان ينظر في عيني رجل قصير يحمل أوسمة ، ذي فكٍّ مربع ، ويفكّر في رسكولنيكوف .
ـ هل انت المفوض ؟
قال الرجل : ـ انا سكرتيره .
كان فيليب يتكلم بصعوبة بسبب شفته المتورمة ، ولكن صوته كان واضحاً . وتقدم خطوة وقال بحزم :
ـ أنا فراري ، واني استعمل هوية مزورة .
فحدجه السكرتير بانتباه ، وقال بأدب :
ـ إجلس .
كانت السيارة تجري نحو محطة « غار دوليست » . وسألت ايريك :
ـ سوف تتأخر .
قال ماتيو : ـ لا ، ولكني سأصل على الوقت تماماً . (وأضافه على سبيل الإيضاح) كانت لديّ فتاة .
ـ فتاة ؟
ـ كانت قادمة من لاون لتراني .
ـ هل تحبك ؟
ـ كلا .
ـ وأنت ، هل تحبها ؟
ـ لا : وانما اعطيتها بيتي .

ــ هل هي فتاة جيدة ؟
قال ماتيو : ــ ليست هي فتاة جيدة ، ولكنها ليست سيئة كذلك،
وصمتا . وكانت السيارة تجتاز سوق « الهال » . وقالت ايرين فجأة:
ــ هنا ، هنا ، كان الامر هنا .
ــ نعم .
ــ كان ذلك امس ، يا إلهي ، إنه بعيد ...
وارتمت في جوف السيارة لتنظر عبر الزجاج ، وقالت وهي تستوي في مقعدها :
ــ انتهى .
فلم يُجب ماتيو . كان يفكر في نانسي : إنه لم يزرها من قبل قط .
وقالت ايرين :
ــ انك لا تتحدث كثيراً ، ولكني لا اضجر معك .
فقال في ضحكة مقتضبة :
ــ لقد تحدثت في الماضي اكثر مما ينبغي .
والتفت اليها :
ــ ماذا ستعملين اليوم ؟
قالت ايرين : ــ لا شيء فأنا لا أعمل قط شيئاً : ان صاحبي ينفق عليّ .
وتوقف التاكسي ، فترجّلا ودفع ماتيو . قالت ايرين :
ــ إنني لا أحب المحطات . فهي توحي بالشؤم .
ودسّت يدها فجأة تحت ذراعه . وكانت تمشي بجانبه ، صامتةً أليفةً : وكان يخيّل اليه انه كان يعرفها منذ عشر سنين .
ــ يجب ان اقطع تذكرتي .
واخترقا الجمع . وكان جمعاً مدنياً ، بطيئاً صامتاً ، مع بعض الجنود.
ــ : هل تعرف نانسي ؟

قال ماتيو : ـ لا .
ـ انا اعرفها . قل لي ، الى اين انت ذاهب ؟
ـ الى ثكنة طيران « ايسي ليناسي » .
قلت : ـ أعرفها . أعرفها .
وكان ثمة رجال يحملون القرب ويصطفّون امام نافذة التذاكر .
ـ أتريد ان أذهب فآتيك بجريدة بينما انت تنتظر في الصفّ ؟
قل لها وهو يضغط ذراعها :
ـ لا ، إبقي بالقرب منّي .
وابتسمت له بهيئة سرور . وتقدّما ، خطوة خطوة .
ـ ايسي ليناسي .
ومدّ دفتره العسكري فأعطاه الموظف تذكرة . واستدار اليها :
ـ إصحبيني حتّى البـــاب . ولكني افضّل الاّ تأتي الى رصيف المحطة .
وتقدما بضع خطوات وتوقفا . قالت :
ـ اذن ، وداعاً .
قال ماتيو : ـ وداعاً .
ـ ان ذلك لم يدم الا ليلة .
ـ ليلة . أجل ، ولكنك ستكرنين ذكراي الوحيدة في باريس.
وقبّلها . فسألته :
ـ هل ستكتب لي ؟
قال ماتيو : ـ لا أدري .
ونظر اليها برهة من غير ان يتكلم ، ثم ابتعد . قلت له :
ـ هيه !
فالتفت . كانت تبتسم ، ولكن شفتيها كانتا ترتعشان قليلا :
ـ ولكني لا اعرف حتّى اسمك .

– اسمي ماتيو دولارو :

– ادخلي .

كان جالساً في سريره ، وهو في منامته ، مسرّحاً جيداً على مألوف عادته ، جميلاً على مألوف عادته ، وتساءلت عما اذا كان لا يضع على رأسه شبكة لليل . وكان ينبعث من غرفته عطر الكولونيا . ونظر اليها بهيئة مندهشة ، وتناول على عجل نظارتيه من على طاولة الليل فوضعهما على أنفه :

– ايفيش !

فقالت في طيبة : – اي نعم .

وجلست على طرف السرير وابتسمت له . وكان قطار نانسي يغادر محطة « غار دوليست » ، وفي برلين ، ربما كانت القاذفات قد طارت، « اريد ان أتسلى ! اريد ان أتسلى ! » ونظرت فيما حولها : كانت غرفة فندق ، قبيحة وفخمة . ستخترق القبلة سقف السادس وأرضه : وهنا سوف أموت . وقال في رصانة :

– لم اكن اعتقد اني سأراك ثانية .

– لماذا ؟ لانك تصرفت كما يتصرف القذِر !

– كنا قد شربنا :

– كنتُ قد شربت لأني علمت اني قد سقطت في شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم النبات . اما انت ، فلم تكن قد شربت : كنت تريد ان تأخذني الى غرفتك ؛ كنت ترصّدني .

وكان شارداً ضائعاً تماماً. وقالت :

– حسناً ، هأنذي في غرفتك . فماذا تريد ؟

فأصبح لونه قرمزياً :

– ايفيش !

وضحكت في وجهه :

ـ إن هيئتك لا تبدو مخيفة جداً .

وساد صمت طويل ، ثم لامست قامتها يدٌ مرتبكةٌ . كانت القاذفات قد عبرت الحدود . كانت تضحك حتى الدموع : مهما يكن من أمر ، فلن اموت وانا عذراء .

ـ هذا المكان شاغر ؟

فقال العجوز الضخم : ـ هون !

ووضع ماتيو قربتـه في الشبكة وجلس . وكانت الحافلة ملأى ، وحاول ماتيو ان ينظر الى رفاقه في السفر ، ولكن الجو كان ما يزال معتماً . وظل جامداً لحظة ، ثم حدثت هزّة مفاجئة وانطلق القطار . وانتفض ماتيو انتفاضة فرح ، لقد انتهى الأمر . فغداً ، نانسي ، الحرب ، الخوف ، وربما الموت ، الحرية . وقال : سنرى . سنرى . ووضع يده على جيبه ليأخـذ غليونه ، فاندعك ظرف تحت أصابعه . كانت رسالة دانيال . وكانت به رغبة لإعادتها الى جيبه ، ولكن نوعاً من الحشمة منعه من ذلك : كان ينبغي على اي حال قراءتها . وحشا غليونه ، واشعله ، وفضّ الظرف فأخرج منها سبع اوراق تغطيها كتابة مستوية ملتصقة ، من غير شطب ، وفكر في ضجر : « لقد كتب مسودة : ما أطولها ! » ومن حسن الحظ ان القطار كان قد خرج من المحطة ، بحيث كانت الرؤية أوضح . وقرأ :

« عزيزي ماتيو .

« إنني أتصوّر ذهولك اكثر مما ينبغي بحيث لا يمكنني الا أن أشعر شعوراً عميقاً بمجيء هذه الرسالة في غير أوانها . والحق انني لا ادري انا نفسي تماماً لماذا اتوجّه اليك : يجب ان نفترض ان طريق المسارّاة ، هي كالجريمة ، منحدر زلق . وحين كشفت لك ، في حزيران الماضي ، مظهراً بارزاً من مظـاهر طبيعتي ، فربما جعلت منك ، على غير علم مني ، شاهداً ممتازاً . وسأكون من ذلك على أسف ، لأني اذا كان

صحيحا أنه كان عليّ ان أطبع بخاتمك جميع احداث حياتي ، كنت مجبراً على أن أكنّ لك كراهية فعّالة ، مما سيجعل الأمر متعبا لي ، وضاراً لك . انك تفكر جيداً بأني اكتب هذا وأنا أضحك . فمنذ بضعة ايام ، أعرف خنة رصاصية — اذا كان هذا النعت لا يخيفك — وقد أعطاني « الضحك » نعمة إضافية . ولكن لندع ذلك ، ما دام الذي سأرسمه لك ليس هو العـادي من حياتي ، وانما هو مغامرة عجيبة . وهي لن تبدو لي واقعية تماما من غير شك الا اذا وجدت ايضا بالنسبة لآخرين . وليس مرد ذلك الى اني أعوّل كثيراً على ايمانك ، حتى ولا ربما على حسن ظنك. فان العقلانية التي هي حرفتك منذ اكثر من عشرة أعوام ، اذا طلبت منك ان تضعها جانبا لفترة من الزمن لكي تتبعني ، فاني اشك بان توافق على التخلي عنها . ولكن من اجل هذا ربما اخترت ان انقل هذه التجربة الغريبة الى واحد من اصدقائي هو اقلهم استعداداً لسماعه ؛ ربما وجدت في ذلك حجة مضادة . ولست اقصد ان اطلب منك جوابا : فانه يسوءني ان تعتقد انك مجبر على ان تكتب لي هذه النصائح بالعودة الى العقل التي لم أن اوجهها لنفسي بصوت مرتفع — وارجو ان تشرفني بتصديق ذلك . بل ينبغي ان اعترف لك : انما يهبـط عليّ مَنّ الضحك حين افكر غلبا بالعقل السليم والعلوم الوضعية . والحق اني اعتقد بأن مارسيل ستكون مغمومة اذا وجدت في بريدي رسالة منك ؛ فهي ستظن انها تكتشف مراسلة سرية ، وربما تصوّرت ، وهي تعرفك كما تعرفك ، انك تضع نفسك ببـذل في خدمتي ، لتقود خطواتي الاولى في حياتي الزوجية . ولكن اسمع لماذا يمكن لصمتك ان يخدمني كحجة مضادة : اذا كان بامكاني ان اتصور « بسمتك الكريهة » من غير ان أضطرب ، وأن أتخيّل السخرية الخفية التي ستواجه بها « حالتي » من غير ان اترك الدرب الاستثنائي الذي اخترته ، فسأربح اليقين بأني في الطريق المستقيم . وأضيف، تفادياً لكل

سوء تفاهم ، وشاكراً عالم النفس الدقيق لمساعيه الحميدة ؛ اني هذه المرة انما اتوجه للفليسوف ، لأنّ من المناسب ان اوضح الحكاية التي ارسلها لك على الصعيد الميتافيزيقي . سوف تحكم بلا شك أن هذا من قبيل الادعاء المغرور لاني لم أقرأ هيغل ولا شوبنهاور ، ولكن لا تستأ من ذلك : فاني لن أكون قادراً بالتأكيد على ان اثبت بالتصورات الذهنية الحركات الحالية لفكري ، وأدع لك أمر العناية بذلك ، ما دامت هذه مهنتك ، وسأكتفي بأن أعيش بالتلمّس ما تتصورونه انتم المتبصرين. غير اني لا اظن انك تستسلم بهذه السهولة : فهذا الضحك ، وهذه الأوان من الضيق والقلق والحدس الخفي ، من الارجح مع الاسف ان تجد نفسك مضطراً الى تصنيفها بين « الحالات » البسيكولوجية وان تفسرها على ضوء شخصيتي وأخلاقي ، مستغلا الاسرار التي تركت نفسي افضي بها اليك . ان هذا لا يعنيني : فما قيل يبقى مقولا ، فأنت اذن حر في ان تستخدمه على هواك ، حتى ولو كان من أجل ان ترتكب بحقي اخطاء رئيسية . بل اني اصارحك بأني مستعد بكل سرور ان اعطيك جميع المعلومات الضرورية من أجل إعادة تشكيل الحقيقة ، فيما انا مدرك انك ستستعملها لتستغرق عن تصميم في خطأك .

« لنأت الى الوقائع : ان الضحك هنا يسقط القلم من يدي : دموع من فرط الضحك ! ان ما لا أباشره الا وانا ارتجف ، ما لم أحدث به نفسي قط ، بدافع من حشمة واحترام ، سوف اصرفه في كلمات عامة ، وهذه الكلمات انما اوجهها لك انت ، فهي باقية على هذه الاوراق الزرقاء ، وسيكون بوسعك ان تقرأها بعد عشرة اعوام التماسا للمرح : ويخيل الي اني ارتكب خطأ تدنيس ضد نفسي ، وهذا اشدّ ما لا يغتفر ، ولكني تنبأت بذلك ايضا ، واني اعطيك اياه كما اعطيك الباقي : ان التدنيس يُضحك . ان اشد ما احبه لن يكون عزيزاً علي تماما اذا لم أضحك منه مرة على الاقل : حسنا ، سوف أجعلك تضحك من

معتقدي الجديد ؛ فانا أحمل في نفسي يقيناً ذليلا سيتجاوزك بكل امتداده، وسيكون مع ذلك بين يديك بكليته؛ ان ما يسحقني هنا سيكون مصغراً هناك بمقدار فظاظتك . اعلم اذن ، اذا سررت بقراءة هذه الرسالة ، اني قد سبقتك : انني أضحك ، يا ماتيو ، أضحك ، ان الرب يصبح انساناً متجاوزاً جميعاً الناس ، ومستهزأ به من الجميع ، معلقاً على الصليب ، فاغر الفم ، مخضراً ، أشد بكماً من شبوط تحت السخريات، فأي شيء أجدر بالضحك ، هيا ، هيا ، فمهما فعلت ، فان اعذب دمعات الضحك لن تسيل على خديك .

« لنر اذن ما يمكن للكلام ان يفعله . أتراك ستفهمني اولا اذا قلت لك اني لم أعرف قط ما انا ؟ ان أنفي فوق عيوبي وفوق فضائلي ، فلا استطيع ان أراها ، ولا ان آخذ قدراً من التراجع كافياً ليجعلني اتأمل نفسي كمجموع . ثم اني احس بأني مادة رخوة متحركة تدوم فيها الكلمات ، وما كدت أجرب ان أسمي نفسي حتى كان الذي سمي قد اختلط بالذي يسمي ، وعاد كل شيء من جديد موضع جدال : لقد تمنيت غالباً ان اكره نفسي ، وانت تعلم انه كان لدي اسباب وجيهة لذلك . ولكن كنت ما اكاد اجرب هذه الكراهية على نفسي حتى تغرق في ميعي ، فلا تكون بعد الا ذكرى . ولم يكن باستطاعتي كذلك ان احب نفسي – وانا على يقين من هذا ، بالرغم من اني لم اجربه قط . ولكن كان ينبغي ابداً ان اكون انا نفسي ، كنت عبئي بالذات . ولم يكن عبئاً ثقيلا بما فيه الكفاية ، يا ماتيو ، لم يكن تعلم كذلك . وقد حسبتني ذات لحظة ، في هذا المساء من حزيران الذي راق لي فيه ان اعترف لك ، حسبتني ألمس نفسي في عينيك الذاهلتين. كنت تراني ، وفي عينيك كنت صلباً قابلا للتوقع ، ولم تكن اعمالي ولا حالاتي النفسية الا نتائج جوهر ثابت . وهذا الجوهر انما عرفته انت بواسطتي ، وقد وصفته لك بكلماتي ؛ وكنت قد كشفت لك عن وقائع

كنت تجهلها وهي التي اتاحت لك ان تتعرف عليه . ومع ذلك فانت الذي كنت ترى هذا الجوهر ، وكل ما هو شأني اني كنت أراك تراه. وذات لحظة ، كنت الوسيط بيني وبين نفسي ، أثمن وسيط في الدنيا في نظري ، ما دام هـــذا الكائن الصليب الكثيف الذي كنته ، والذي كنت اريد ان أكونه ، انما كنت تدركه بمثل البساطة والمشاركة اللتين كنت أدركك بهما ، لأنني ، في آخر المطاف ، موجود ، فانا كائن حتى ولو لم أحسني موجوداً ، وانه لتعذيب نادر ان يجد المرء في ذاته مثل هذا اليقين من غير ادنى اساس ، ومثل هذا الفخر من غير مادة. ولقد فهمت آنذاك ان المرء لا يستطيع ان يبلغ ذاته الا بحكم من الآخر، وربما بحب من الآخر ، ولكن ليست القضية هنا هي هذه . فلقــد أكننت لك من هذا الاكتشاف عرفاناً معتدلا . ولست ادري ما هو الاسم الذي تطلقه اليوم على علاقاتنا ، فليست هي الصداقة ، ولا الحقد تماماً. لنقل ان بيننا جثة . جثتي .

« كنت ما ازال في هذه الاوضاع النفسية حين سافرت الى «سوفنبر» مع مارسيل . كنت تارة اريد ان الحق بك ، وتارة أحلم بأن أقتلك ؛ ولكني ذات يوم جميل خطرت بذهني صفة التبادل في علاقاتنا . فماذا عساك كنت تكون بدوني ، الا هذا النوع من المبنى الذي هو انا بالنسبة لي بالذات ؟ فانما بتدخلي تستطيع ان تحزر نفسك احياناً كما انت — في شيء من الغيظ — : عقلاني ، قصير النظر قليلاً ، مطمئن جداً في الظاهر ، اما في الحقيقة فغير واثق ابداً ، ممتلىء بالرضى عن كل ما هو بطبيعته متصل بعقلك ، أعمى وكاذب في كل ما دون ذلك . انك محاكم بدافع الحــذر ، عاطفي بالتذوق ، ضعيف الحس الشهواني ، وبالاجمال مثقف متزن ، معتدل ، ثمرة عذبة لطبقاتنا الوسطى . واذا كان صحيحاً اني لا استطيع ان ابلغ نفسي الا بوساطتك، فان وساطتي ضرورية لك اذا اردت ان تعرف نفسك . لقد رأيتنا آنذاك ندعم

عدمينّا أحدنا بالآخر ، وللمرة الاولى ضحكت تلك الضحكة العميقة التي تحرق كل شيء ، ثم سقطت ثانيةً في نوع من اللامبالاة اسود ، لا سيما وان التضحية التي قمت بها في شهر حزيران ذاك، والتي كانت تبدو لي ساعتئذ بمثابة تكفير مؤلم. قد تكشفت على مدى الزمن قابلة للاحتمال بصورة فظيعة . ولكن ينبغي هنا أن أصمت : فانا لا استطيع ان اتحدث عن مارسيل من غير ان اضحك ، وانا لا اريد ان أهزأ بها معك ، وذلك بدافع من الاحتشام لا بد من ان تقدره . في تلك الفترة وقع لي الحظ الذي هو اوفر الحظوظ جنوناً وعدم احتمال . ان الله يراني يا ماتيو ، وانا احسّه واعرفه . هأنذا قد قلت كل شيء دفعة واحدة ، فأود لو اكون بالقرب منك واستمد يقيناً اقوى ، اذا امكن ذلك ، من مشهد الضحك الكثيف الذي سيهزك لفترة طويلة .

« والآن ، حسبي ذلك . لقد ضحك أحدنا من الآخر بما فيه الكفاية ، واني استأنف حكايتي . لا شك في انك عانيت ، وانت في المترو ، او في باحة مسرح ، او في قاطرة ، احساسا مفاجئا وغير محتمل بأن ثمة خلفك من يترصدك . وتلتفت ، ولكن الفضولي يكون قد غطس أنفه في كتابه ، فلا تستطيع ان تتوصل الى معرفة منذا الذي كان يراقبك . وتعــود الى وضعك الاول ، ولكن تعلم ان المجهول يكون قد رفع عينيه ثانية ، وتحسه عبر تنمّل خفيف في ظهرك ، شبيه بانقباض عنيف وسريع لجميع أنسجتك أجل هذا هو الذي شعرت به للمرة الاولى يوم ٢٦ ايلول ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، في باحة الفندق . ولم يكن ثمة أحد ، أتسمع يا ماتيو ، لم يكن ثمة أحد.ولكن النظر كان هناك . افهمني جيداً : اني لم التقطه ، كما نلتقط وجها جانبيا ، او جبينا او عينين ، لأن ميزته الذاتية هي عدم قابليته للالتقاط. كل ما هنالك اني انقبضت ، وتراكمت ، فكنت في وقت واحداً مخروقا وكثيفا ، كنت موجوداً في حضور نظر . ومنذ ذلك الحين ، لم أكف

عن ان اكون امام شاهد . امام شاهد ، حتى في غرفتي المغلقة ، واحيانا ، كان الاحساس بان هذا النصل يخترقني ، وبأني انام امام شاهد ، يوقظني منتفضا . وبالاختصار ، فقدت النوم تماما . آه ! يا ماتيو ، اي اكتشاف : كان ثمة من يراني ، وكنت اضطرب لأعرف نفسي ، وكنت أحسبني أنسال من جميع الأطراف ، وكنت أطالب بوساطتاك الخفية ، وفي هذه الاثناء ، كان ثمة من يراني ، وكان النظر هنا ، غير معتكر ، فولاذاً لا يرى . وانت ايضا ، ايها الضاحك الجاحد ، انك ترى . ولكنك لا تعرف ذلك . سيكون يسيراً علي ان اقول لك ما هو النظر : لأنه لا شيء . انه غيبة ، خذ مثلا : تصور ليلاً شديد الظلام . ان الليل هو الذي ينظر اليك ، ولكنه ليل باهر ، الليل في وضح النور ، الليل السرّي للنهار . انني اقطر نوراً أسود ، وهو يسيل على يدي وعيني ، وفي قلبي ، ولا اراه . صدقني ان هذا الانتهاك الابدي كان باديء ذي بدء كريها جداً لي : فأنت تعلم أن اقدم احلامي هي ان اكون غير مرئي ، وقد تمنيت مئة مرة الا اترك اي أثر ، لا على الارض ولا في القلوب ، فأي ضيق في ان اكتشف فجأة هذا النظر كبؤرة كونية لا استطيع ان افر منها . ولكن اية راحة ايضاً . انني أعرف اخيراً اني موجود . انني أحوّل لصالحي ، وعلى غيظ شديد منك ، كلمة نبيّك البليدة المجرمة ، عبارة « انا افكر فانا موجود » التي عذبتني طويلا – لأني كلما أمعنت في التفكير ، ضعف احساسي بوجودي – واقول : انني ارى ، فانا موجود. انه ليس لي بعد ان اتحمل مسؤولية انسيالي الدبق : الذي يراني ويوجدني ، انني كما يراني . وأدير نحو الليل وجهي المظلم الخالد ، وانتصب كتحدٍ ، وأقول لله : هأنذا . هأنذا كما تراني ، كما انا . فماذا استطيع : انك تعرفني وانا لا أعرف نفسي . فماذا عساني أفعل الا ان أحتمل نفسي ؟ وانا الذي يهرب مني نظرك ابداً ، احتملني . اي فرحة ، يا ماتيو ،

واي عذاب ! لقد تغيرت اخيراً فأصبحت نفسي . يكرهونني ، يحتقرونني ، يحتملونني ، ولكن حضوراً يدعمني في ان اكون ما انا الى الابد . انني لا محدود وانا مذنب الى ما لا حد ، ولكنني موجود ، يا ماتيو ، موجود . امام الله ، وامام الناس موجود .

« لقد ذهبت ارى كاهن « سوفير » . انه فلاح مثقف داهية ، ذو وجه متخرك متعب يشبه وجوه الممثلين المسنين . وهو لا يعجبني قط ، ولكن لم يكن مزعجا لي ان يتم اتصالي الاول بالكنيسة عن طريقه . وقد استقبلني في مكتب مزين بمجموعة من الكتب لم يقرأها كلها بالتأكيد . وقد اعطيتــه اولا الف فرنك برسم فقرائه ، ورأيت انه يعتبرني مجرماً تائبا . وشعرت انني اكاد أضحك ، فكان علي ان اواجه كل ما كان في وضعي من طابع مأساوي حتى احتفظ برصانتي .

« وقلت له : سيدي الكاهن ، انني لا اتمنى الا معرفة شيء واحد : هل يعلّم دينكم ان الله يرانا ؟ »

« فاجابني مندهشا : انه يرانا . ويقرأ في قلوبنا »

« فسألته : ولكن ماذا يرى فيها ؟ هل يرى هذا الزبد الذي منه تصنع افكاري اليومية ، ام ان نظره يدرك جوهرنا الابدي ؟ »

« فقدّم لي الخبيث العجوز هذا الجواب الذي وجدت فيه حكمة سرمدية :

« يا سيدي ، ان الله يرى كل شيء » .

« ففهمت ان ... »

ودعك ماتيو الاوراق وقد نفد صبره . وفكر : « يا لها من افكار مبتذلة ! » وكان الزجاج قد أُخفض ، فلف الرسالة في كتلة وقذف بها من النافذة من غير ان يمضي في القراءة .

قال المفوض : — لا ، لا ، خذ الجهاز : فانا لا احب ان اتحدث الى هؤلاء الضباط العالين ، فهم يتخذونك خادما لهم .

فقال السكرتير : — اظن ان هذا سيكون اوفر لطفا . ثم اننا في نهاية الأمر نعيد له ابنه ، وهو بالاجمال على خطأ : فما كان عليه الا ان يحسن مراقبته ...

قال المفوض : — سترى ، سترى ، فسيتدبر امره ليكون مزعجا. ولا سيما في الظروف الحاليـــة : ففي عشية حرب ، تستطيع دائما ان تحاول حمل جنرال على الاعتراف بخطأه .

وتناول السكرتير التلفون وركب الرقم . واشعل المفوض سيجارة ، وقال :

— كن لبقا يا ميران . لا تتخل عن اللهجة المهنية ولا تتكلم اكثر مما ينبغي :

قال السكرتير : — آلو ؟ آلو ؟ الجنرال لاكاز ؟

فقال صوت خشن : — نعم . ماذا تريد مني ؟

— انني سكرتير مفوضية شرطة شارع دولامبر :

فبدأ الصوت ينم عن اهتمام اكثر :

— نعم . ماذا تريد ؟

فقال السكرتير بصوت محايد مائع :

— حضر شاب الى مكتبي في الساعة الثامنة من هذا الصباح . وهو يدعي انه فراري وحامل هوية مزورة . والواقع اننا وجدنا معه جوازاً اسبانيا مزوراً . وقد رفض ان يعترف بهويته الحقيقية ، ولكن المحافظة قد اعطتنا صوراً لابن زوجتك فعرفناه على الفور .

وساد صمت ، ثم اضاف السكرتير بلهجة حائرة :

— بالطبع ، ليس هناك ، يا جنرالي ، اي دليل إدانة ضده : هو ليس فراريا ما دام لم يدع لخدمة العلم ، صحيح انه يحمل جوازاً مزوراً ، ولكن هذا لا يشكل جنحة ، لأنه لم يتح له ان يستعمله : ولقد احتفظنا به ليكون تحت تصرفك ، ويمكنك ان تأتي لاصطحابه

متى شئت .
وسأل الصوت الجاف :
ـ وهل ضربتموه ؟
فانتفض السكرتير ، فسأله المفوض .
ـ ماذا يقول ؟
فغطى السكرتير الجهاز بيده :
ـ يسأل عما اذا كنا قد ضربناه .
فرفع المفوض ذراعيه الى السماء ، بينما كان السكرتير يجيب :
ـ لا ، يا جنرالي ، بالطبع ، لا .
قال الجنرال : ـ شيء مؤسف .
فسمح السكرتير لنفسه بضحكة مهذبة . وسأل المفوض :
ـ ماذا يقول ؟
ولكن السكرتير اولاه ظهره نافد الصبر ، وانحنى على الآلة :
ـ سآتي هذا المساء او غداً . فحتى ذلك الحين ، احتفظوا به في المركز . وسيكون ذلك درساً له .
ـ حسنا ، يا جنرالي .
وعلق الجنرال السماعة . فسأل المفوض :
ـ ماذا كان يقول ؟
ـ كان يريد ان نضرب الفتى .
وسحق المفوض سيجارته في المنفضة ، وقال في سخرية :
ـ أعتقد ذلك !
الساعة ١٨ر٣٠ : الشمس على البحر ، وهي لا تكفّ عن الهبوط ، ولا تكف الدبابير عن الطنين ، ولا الحرب عن الاقتراب ، وطردته دبوراً لم يكن ليكف، وكان جاك خلفها لا يكف عن شرب كأسه من الويسكي جرعات صغيرة . وفكرت : « ان الحياة لا تنتهي » وكان

الاب والأم والاخوة والاعمام والعمّات، قد اجتمعوا طوال خمس عشرة سنة متتالية ، في هذا الصالون ، في اصائل ايلول الجميلة ، قساةً بُكماً كصور أسرة ، كانت قد انتظرت العشاء كل مساء ، اولا تحت الطاولات، ثم فوق كرسي صغيرة ، وهي تتساءل ما جدوى الحياة . لقد كنَّ جميعاً هنا ، بعد ظهر كل يوم ضائع ، في الذهب الاحمر لهذه الساعة اللاجدية . كان الاب هنـــا ، خلفها ، يقرأ « التان » . ما جدوى العيش ؟ ما جدوى العيش ؟ وكانت ذبابة تتسلّق في ارتباك على الزجاج، فتتدحرج ثم تصعد من جديد ، وكانت اوديت تتابعها بعينيها ، وكانت بها رغبة في البكاء :

قال جاك : — تعالي اجلسي ، سوف يخطب دلادييه .

والتفتت اليه : كان قد أرق في نومه ، وكان جالساً في الاريكة الجلدية ، وهو في تلك الهيئة الطفولية التي كان يأخذها حين يكون خائفاً . وجلست على ذراع الاريكة . ستكون جميع الايام متشابهة . جميع الايام . ونظرت الى الخارج وفكرت : « كان على حق ، فقــد تغيَّر البحر ».

— ما الذي سيقوله ؟

فهزّ جاك كتفيه وقال :

— سيخبرنا ان الحرب قد أعلنت .

واهتزّت اهتزازة صغيرة ، لا غير . خمس عشرة ليلة . طوال خمس عشرة ليلة قلق كانت قد ابتهلت في الفراغ ، كانت مستعدّة لأن تعطي كل شيء ، بيتها ، صحتها ، عشرة اعوام من حياتها لتنقذ السلام . ولكن لتنفجر ، يا إلهي ! لتنفجر الحرب الآن . ليحدث اخيراً شيء ما : ليدقّ جرس العشاء ، لتسقط الصاعقة على البحر ، وليعلن صوت معتم : لقد دخل الالمان الى تشيكوسلوفاكيا . ذبابة . ذبابة غارقة في قعر فنجان ، ستتداعى للغرق في هذا الأصيل الهادىء ذي الكارثة ،

وكانت تنظر الى شعر زوجها الذي وخطه الشيب ، ولم تكن تفهم بعد جيداً لماذا كان الامر يستحق وقاية الناس من الموت وبيوتهم من الدمار.
ووضع جاك قدحه على الطاولة وقال بحزن :
ـ انها النهاية .
ـ نهاية ماذا ؟
ـ نهاية كل شيء . انني لا اعلم بعد ما الذي ينبغي ان نتمنّاه من النصر او الهزيمة .
قالت باسترخاء : ـ اوه !
ـ اذا هُزمنـا ، فسوف « يجرمنوننا » ، ولكني اقسم لك ان الالمان سيعرفون كيف يفرضون النظام . ولن يبقى على الشيوعيين واليهود والماسونيين الا ان يحزموا حقائبهم . اما اذا انتصرنا ، فسوف يبلشفوننا ، وسيكون ذلك انتصار الفوضى وربما أسوأ (وأضاف بلهجة شاكية) آه ! يجب الا تُعلن هذه الحرب ، يجب الا تعلن !
ولم تكن تسمع كثيراً ما كان يقـوله لها . كانت تفكر : « انه خائف ، وهو شرّير ، وهو وحيد » . وانحنت فوقه وداعبت شعره .
« يا لصغيري المسكين جاك ! »
ـ عزيزي الصغير بوريس .
كانت تبتسم له ، وكانت تبدو في هيئة كريهة ، واحس بوريس ان النـدم يخترق قلبه ، يجب على ان حال ان اخبرها بالأمر .
واستطردت لولا :
ـ انني ثائرة الأعصاب ، وهذا مزعج . وانا راغبة في معرفة ما سوف يرويه لنا ، ولكن ذلك ليس كما لو انك ذاهبٌ على الفور .
ونظر بوريس الى قدميه وأخذ يصفر . كان الافضل التظاهر بأنه لم يسمع ، والا لاتهمته بالنفاق ، بالاضافة الى كل شيء . وكان الوضع يزداد صعوبة بين دقيقة واخرى . سوف تتخذ هيئتها المسكينة الشاردة ،

وستقول له : « لقد فعلت هذا ! فعلت هذا ولم تقل لي كلمة عنه ؟ » (وانتهى الى القول) انني لا اراني مرتاحاً.

قالت لولا : — اعطني قدح مارتيني ؛ وانت ، ماذا تأخذ ؟

— الشيء نفسه .

وعاد يصفر . ربمـــا اتيحت هناك فرصة ، بعد خطاب دلادييه : ستعلم ان الحرب قد اعلنت ، وسوف يدوخها ذلك قليلا دون ريب : واذا ذاك يهجم بوريس فيقول لها : « لقد تطوّعت ! » من غير ان يدع لها مجال استعادة نفَسها . كانت ثمة حالات تحدث فيها المصيبـــة البالغة ارجاعاً غير منتظرة : كالضحك مثلا ، سيكون الامر طريفاً اذا اخذت تضحك . وقال في تجرد : « سيكون مع ذلك منزعجاً بعض الشيء » . وكان جميع زبائن الفندق قد تجمّعوا في الباحة ، بما فيهم الكاهنـــان . وكانوا غارقين في ارائكهم يتخذون هيئات راضية لانهم كانوا يحسون انفسهم مراقبين ، ولكنهم لم يكونوا يمضون طويلا في ذلك ، وقد فاجأ بوريس اكثر من واحد منهم ينظر خفية الى الساعة ؛ حسناً ! حسناً ! ان عليكم ان تنتظروا نصف ساعة اخرى . كان بوريس مستاءً ، انه لم يكن يحب دلادييه ، وكان ينفره ان يفكر بأنه كان في جميع انحاء فرنسا مئات الألوف من الازواج ، ومن الأسر الكثيرة العدد ومن الكهنة ، وهم على استعداد لتلقّي كلام هذا الرجل — الذي نسف « الجبهة الشعبية » — على انه منّ من السماء. وفكر : « ان ذلك يمنحه اهمية لا يستحقها » ؛ والتفت الى جهاز الراديو ، وتثاءب علانية؛

كان الجو حاراً ويدعو الى العطش ، وكان ثمة ثلاثة ينامون : الاثنان القريبان من الممر ، والعجوز القصير الذي كان يبدو وكأنه يصلّي وهو مضموم اليدين . وكان الاربعة الآخرون قد بسطوا منديلا على ركبهم يلعبون الورق ؛ كانوا في سن الشباب ، ولم يكونوا بشعين اكثر مما ينبغي ، وكانوا قد علقوا بالشباك سترّاتهم التي كانت تتأرجح خلف

رقابهم وتناثر شعرهم احياناً . وبين فترة وفترة ، كان ماتيو ينظر من زاوية عينه الى ساعـدي جاره الاسمرين المجعدين ، وهو قصير اشقر كانت يداه بأظافرها العريضة السوداء تتلاعبان بالورق في مهارة . كان عامل مطبعة ، اما الشخص الذي كان الى جانبه ، فهو صانع أقفال . واما الآخران الجالسان قبـالته ، فقد كان احدهما ، وهو الأقرب الى ماتيو، وكيل شركة، وكان الآخر عازف كمان في مقهى في «بواكولومب». وكانت تنبعث من الحافلة رائحة الرجال والتبغ والخمر ، وكان العرق يسيل على وجوههم القاسية ، فيصفرها ويجعلها تلتمع . وكان هذا العرق، على ذقن العجوز القصير المترنح ، بين عروق خديه الصلبة البيضاء ، يبدو اوفر زيتاً وحموضة : افرازاً من الوجه . وكان فيما وراء النافذة ، سهل رمادي منبسط يتمطى تحت شمس غائمة .

ولم يكن عامل المطبعة محظوظاً ، كان يخسر ، وكان ينحني فوق الورق وهو يقوّس حاجبيه في هيئة مندهشة مصدومة ، وكان يقول :

ـ آه ! عجيب !

ولمّ الوكيل الورق بخفّة وخلطه . وكان عامل المطبعة يتبعه بنظره حين كان ينقله من يد الى اخرى . وقال في حقد :

ـ لا حظّ لي !

ولعبوا في صمت . وبعد لحظة ، جمع عامل المطبعة كل ما كان امامهم قائلا في لهجة انتصار :

ـ « أتو » ! آه ، سيتغير الوضع قليلا ، ايها الاولاد ! وقد تثور أعصابي قليلا.

ولكنّ الوكيل بسط اوراقه : « أتو ، اتو ، وراتاتو . لا مشاكل بعد : الملكة الأم لا تريد المشاكل » ؟

فدفع عامل المطبعة اوراقه قائلا :

ـ انني لن ألعب بعد : فانا أخسر اكثر مما ينبغي .

قال صانع الأقفال : — انت على حق ، ثم ان المرء ينزعج اكثر مما ينبغي .

وطوى الوكيل المنديل ووضعه في جيبه . وكان رجلا طويلا سميناً ذا سحنة ممتقعة ، ورأس ضفدعي رخو ، وفكين عريضين ، وجبين ضيق . كان الثلاثة الآخرون يحدثونه بلهجة الاحترام لأنه كان متعلماً وكان رقيباً في الجيش . ولكنه كان هو يحدثهم بلا كلفة . وقد ألقى نظرة استياء الى ماتيو ونهض وهو يترنح :

— اريد ان اشرب جرعة .

— هذه فكرة طيبة .

وأخرج صانع الاقفال وعامل المطبعة زجاجات من قربتيهما ، فكرع صانع الاقفال من زجاجته كرعاً ومدها الى عازف الكمان :

— جرعة خمر ؟

— ليس الآن .

— انت لا تعرف ما هو جيد .

وصمتوا ، مرهقين بالحر . ونفخ صانع الاقفال خديه وتنهد على مهل ، واشعل الوكيل سيجارة هاي لايف . وكان ماتيو يفكر : «انهم لا يحبونني ، فهم يجدونني متكبراً» . ومع ذلك ، فقد احس نفسه مجذوباً نحوهم ، حتى نحو النائمين ، وحتى نحو الوكيل : كانوا يتثاءبون ، ويناموں ، ويلعبون الورق ، وكان الارتجاج يمايل رؤوسهم الفارغة ، ولكن كان لهم قدر ، كالملوك وكالأموات . قدر ساحق كان يمتزج مع الحر والتعب وطنين الذباب : كانت الحافلة المقفلة كالمختنق ، والمحاصرة بالشمس والسرعة ، تحملهم وهي تترجح الى المغامرة نفسها . وكان التماع من ضوء يطرز اذن عامل المطبعة القرمزية ، فكانت شحمتها تشبه حبة فريز دموية ، وفكر ماتيو : «بمثل هذا تصنع الحروب» . وكانت قد بدت له حتى ذلك الحين خليطاً متشابكاً من الفولاذ الملتوي ،

والاعمدة المحطّمة ، والصلب والحجارة . اما الآن فقد كان الدم يرتجف في أشعة الشمس ، وكان إشراق أحمر قد غمر القاطرة : ان الحرب كانت قدَراً من دم ، انها ستُصنع بدم هؤلاء الرجال الستة ، بالدم الذي كان يأسن في شحمات آذانهم ، بالدم الذي كان يجري أزرق تحت جلودهم ، بدم شفاههم . إنهم سوف يُشقّون كالقِرَب ، فتثب جميع القذارات الى الخارج ، وأمعاء صانع الاقفال الماجنة والتي كنت تقرقر وتترك أحياناً ضرطةً صمّاء ، سوف ترتمي في الغبار ، فاجعةً كأمعاء حصانٍ بُقِرَ في الحلبة .

قال عامل المطبعة كأنما يحدث نفسه : ــ اني سأتمشّى قليلا لأزيل خدَر ساقيّ .

ونظر اليه ماتيو وهو ينهض ويخرج الى الممر : لقد أصبحت هذه العبارة تاريخية منذ تلك اللحظة . فلقد نطق بها ميّت بصوت منخفض ، في يوم صيف ، اذ كان حياً . ميت او ما يؤدي الى النتيجة نفسها حيٌ بين الاموات . اموات ــ اموات انتهوا . من اجل هــذا ، لا أجد ما أقوله لهم . كان ينظر اليهم في نوع من الدوار ، وقد كان يود لو يكون منخرطاً في المغامرة التاريخية الكبرة ، ولكنه كان منفياً عنها . كان يُنتِن في حرارتهم ، وسينزف دماً على الدروب نفسها ، وهو مع ذلك لم يكن معهم ، انه لم يكن الا هالةً ممتقعة وخالدة : انه لم يكن له قدَر .

والتفت عامل المطبعة اليهم فجأة ، وكان يدخّن في الممر :

ــ هناك طائرات .

ــ آه ؟

وانحنى الوكيل . وكان صدره يلامس ساقيــه الضخمتين ، وكان مرفع رأسه وحاجبيه .

ــ اين ذلك ؟

ـ هناك ، هناك ! خراء !
قال صانع الاقفال : ـ اني ... آه ! ولكن ، عجباً !
وسأل عازف الكمان وهو يرفع نحو عامــل المطبعة عينيه الجميلتين الشاردتين :
ـ أهي طائرات فرنسية ؟
ـ انها مرتفعة اكثر مما ينبغي ، فهي لا تُرى .
قال صانع الاقفال : ـ لا شك في انها فرنسية . ماذا تريدها ان تكون ؟ ان الحرب لم تعلن .
ومال عامل المطبعة عليهم وهو يستند بكلتا يديه على إطار الباب .
ـ ما يدريك ؟ لقد انقضت احدى عشرة ساعة وانت في القطار . ربما كنت تظن انهم ينتظرون وصولك حتى يعلنوها ؟
فبدا صانع الاقفال مرتبكاً ، وقال :
ـ خراء ! انك على حق ، ايها الحصان الصغير ! ما رأي الاخوان: ربما كنّا في حرب منذ هذا الصباح .
والتفتوا الى الوكيل :
ـ ما رأيك انت ؟ أتظن اننا في حرب ؟
وكان الوكيل في هيئة مطمئنة . وقد هزّ كتفيه بروعة وقال :
ـ ماذا تراكم تتخيّلون ؟ انهم سيقاتلون من اجل تشيكوسلوفاكيا ؟ هل نظرتم الى تشيكوسلوفاكيــا على خارطة ؟ كلا ، اما انا ، فقد نظرت اليها ، واكثر من مرة . ان هذا خراء . وهو كبير كمنديل جيب . ربما كان هناك مليونا رجل مسكين لا يتكلمون حتى اللغة نفسها . اتعتقدون ان هتلر تهمه تشيكوسلوفاكيا ؟ ودلادييه ؟ ان دلادييه ليس هو قبل كل شيء دلادييه : بل هو المئتا أسرة . والمئتا اسرة تمسح مؤخراتها بتشيكوسلوفاكيا .
واجال نظره في مستمعيه وانتهى قائلا :

ـ الحقيقة ان الامر كان يتحرك عندنا وعندهم منذ عام ٣٦ . فماذا فعل أمثال شمبرلن وهتلر ودلادييه ؟ لقد قالوا لانفسهم : سنغلق عليهم، هؤلاء الناس ، ووقعوا معاهدة صغيرة خفية . وكانت عملية هتلر الكبرى هي ان يحشر العمال تحت العلم اذا احتجوا ، وبذلك تخاط افواهم : هل تحتج ؟ اذن ساعتنا تمرين . ما تزال تحتج ؟ خذ ست ساعات اذن. وبعد ذلك ، يكون الفتية راكعين على ركبهم ، ولا يفكرون بعد الا بأن يطيعوا : حسناً ، اما باقي الوزراء فقالوا في انفسهم : سنفعل مثله. فالامر هو : ليس هناك من حرب ، اكثر مما هناك من زبدة على المؤخرات . لا من اجل تشيكوسلوفاكيا ، ولا من أجل التركي الكبير. غير اننا نحن قد جندنا ، وسوف نجرجر انفسنا ثلاثة اعوام او اربعة، وفي هذه الاثناء ، سوف يحطمون في الخلف اضلاع البروليتاريا .

كانوا ينظرون اليه نظرة غير يقينية ، انهم لم يكونوا مقتنعين ، او ربما كانوا لم يفهموا . وقال صانع الاقفال بلهجة مبهمة :

ـ ان ما هو مؤكد هو ان الكبـــار هم الذين يحطمون الاقداح ، وان الصغار هم الذين يدفعون ثمنها .

وهز عازف الكمان رأسه إيماءة الموافقة ، ثم سقطوا في الصمت من جديد ، وانفتل عامل المطبعة فألصق جبينه على احدى مرايا الممر الكبرى. وقال ماتيو في نفسه : « طبعاً ، ليسوا هم متحمسين جداً للقتال » . وكان يفكر برجال الـ ١٤ بأفواههم الفاغرة وبنادقهم المزدهرة . وبعد ذلك ؟ ان هؤلاء هم على حق . انهم يتكلمون بالامثال ولكن الكلام يخونهم ، ففي رؤوسهم اشياء لا يمكن التعبير عنها بالكلام . لقد قام آباؤهم بمذبحة لا معقولة ، وها قد مرّت عشرون عاماً وهنـــاك من يشرح لهم ان الحرب لا تفيد . فهل يراد بهم ، بعد هذا ، ان يصرخوا: الى برلين ! الواقع ان كل ما كانوا يقولونه ، وكل ما كانوا يفكرون به لا اهمية له : انها النأمات صغيرة خفيفة على هامش قدَرهم . سوف

يقال عما قريب : جنود الـ ٣٨ ـ كما كان يقال ؟ جنود العام II ، وجنــود الـ ١٤ . سوف يحفرون حفرهم كالآخرين ، لا احسن ولا أسوأ ، ثم ينامون فيها ، لان ذلك كان نصيبهم . وفكر فجأة : «وانت؟ أنت الذي تجعل نفسك شاهدهم ، من غير ان يطلب اليك احد ذلك، من انت ؟ وماذا ستفعل ؟ واذا نجوت من ذلك ، فمن عساك تكون ؟

ودقّ عامل المطبعة على الزجاج :

ـ انها ما تزال هنا .

فسأله عازف الكمان منتفضاً :

ـ من هي ؟

ـ الطائرات . انها تطوف حول القطار .

ـ تطوف ؟

ـ انني اراها .

قال صانع الاقفال : ـ عجيب ! عجيب !

وكان العجوز القصير قد افاق ، فسأل وهو يكوّر يده على اذنه :

ـ ماذا هناك ؟

ـ طائرات.

ـ آه ! طائرات !

فابتسم للملائكة وعاد الى النوم . وقال عامل المطبعة :

ـ تعالوا ! تعالوا ! ربما كانت ثلاثين طائرة . انني لم ار مثل عددها منذ « فيلاكوبلي » .

وكان صانع الاقفال والوكيل قد نهضا ، فتبعهما ماتيو الى الممر . ورأى زهــاء عشرين حشرة شفافة ، سمكت في ماء السماء . وكانت تبدو وكأنها توجــد بالتقطع : فقد كانت تمحي حين لا تكون في الشمس .

ـ واذا كانت ألمانية ؟

ـ لا تتحدث عن المصائب ، اذن سنكون في وضع لطيف ، فانت تتحدث عن مرمى .
وكان عدد الاشخاص الذين تجمعوا في الممر قد اصبح زهاء عشرين، وانوفهم في الهواء .
وقال الوكيل :
ـ يبدو لي ان الأمر جدّ .
وكان يبدو انهم ثائرو الأعصاب . وكان ثمـة شخص يطبّل على الزجاج ، وكان ثمة آخر يضرب بقدمه في إيقاع . وانعطف سرب الطائرات واختفى فوق القطار .
وقال صوت : ـ اوف !
قال عامل المطبعة : ـ انتظروا ، انتظروا ! لقد سبق ان فعلت ذلك ، واؤكد لكم انها تطوف حول القطار .
ـ ها هي ذي ! ها هي ذي !
وكان رجل طويل ذو شارب قد اخفض زجاجاً وانحنى بالمقلوب عبر الباب . كانت الطائرات قد ظهرت مرة اخرى ، وكانت احداها تترك خلفها خطّاً ابيض .
قال صاحب الشارب وهو يستقيم :
ـ انها طائرات المانية .
وانتصب عازف الكمان فجأة خلف ماتيو ، وأخذ يهزّ النائمين ، ففتح احدهما عينين ورديتين وسأل باسترخاء :
ـ ماذا هناك ؟
قال عازف الكمان : ـ لقد أُعلنت الحرب . وستنفجر الامور : ان فوق القطار طائرات المانية .
شدّت لولا بعصبية على معصم بوريس وقالت :
ـ اسمع ، اسمع !

كان جاك قد امتقع وقال :
– اسمعي ، سوف يتكلم .
وكان صوتاً بطيئاً ، منخفضاً ، أصمّ ، يخنّ قليلا :
« كنت قد اعلنت انني سأصدر هذا المساء بلاغاً للسكان عن الوضع العالمي ، ولكني فوجئت بعد ظهر هذا اليوم بدعوة من الحكومة الالمانية للاجتماع غداً في ميونيخ مع المستشار هتلر والسيدين موسوليني وشمبرلين. وقد قبلت هذه الدعوة .
« وانكم لتدركون ، في عشية مفاوضات هامة كهذه ، لماذا يجب عليّ ان ارجيء الايضاحات التي كنت اود ان أعطيكم اياها . ولكن قبل سفري،أحرص على ان اقدّم لشعب فرنسا شكري لموقفه المليء بالشجاعة والكرامة .
« واحرص خصوصاً على شكر الفرنسيين الذين دُعوا لخدمة العلم على رباطة الجأش والتصميم اللذين دلّلا عليهما من جديد .
« ان مهمتي قاسية . ومنذ بدء المصاعب التي نجتازها ، لم اكفّ عن العمل بكل قواي من أجل الحفاظ على السلام وعلى مصالح فرنسا الحيوية . وسأتابع غداً هذا الجهد وانا واثق بانني متفق تمام الانفـــاق مع الامة » .
قالت لولا : – بوريس ! بوريس !
فلم يجب ، فقالت له :
– افق يا حبيبي ، فماذا دهاك ؟ انه السلام : سيعقد مؤتمر عالمي.
وكانت تستدير نحوه محمّرة مهتاجة . فتمتم على مهل بين اسنانه :
– دين ملعون ! دين ملعون في ماخور خراء !
فسقط فرح لولا :
– ولكن ما بك يا حبيبي : انك مخضرّ .
قال بوريس : – لقد تطوّعت لمدة ثلاثة اعوام .

كان القطار يسير ، والطائرات تدور . وصرخ رجل :

ـ ان السائق مجنون . فماذا ينتظر ليتوقف ؟ انهم إذا اخذوا يرمون قنابلهم ، متنا كالحيوانات .

وكان عامل المطبعة ممتقعاً هادئاً ، وكان يحتفظ برأسه مرفوعاً ولا يكف عن ترصّد الطائرات . وقال بين أسنانه :

ـ يجب ان نقفز .

قال الوكيل : ـ خراء خراء ! نقفز بهذه السرعة ، انني لا اجرؤ. (وأخرج منديله فسح جبينه) الأفضل ان نشدّ على اشارة الخطر.

وتبادل عامل المطبعة وصانع الاقفال النظر ، فقال عامل المطبعة :

ـ افعل ذلك ، انت .

ـ ولكن اسمع : اذا كانت طائرات فرنسية ، فماذا يحدث لنا ؟

وتلقّى ماتيو صدمة في ظهره : كان رجل ضخم يعدو نحوهم وهو يصرخ :

ـ إن القطار يبطيء : الجميع على الابواب !

والتفت عامل المطبعة الى الوكيل ، وكان يأتي بحركات غريبة مرتبكة، وبسم بسمة صغيرة تكشف عن اسنانه . وقال وهو يقلد الوكيل :

ـ انت ترى ، ان القطار يبطيء في سيره : فهي طائرات المانية . ان هذا لا فائدة منه ، هذا لا فائدة منه !

فقال الآخر برخاوة : ـ انني لم اقل هذا ، بل قلت ...

فأولاه عامل المطبعة ظهره واتجه الى مقدمة القطار . وكان الناس يخرجون من جميع الحافلات ويتزاحمون في الممرات ليكونوا اول من يقفز الى الحقول . ولامس احدهم ذراع ماتيو ، وكان هو العجوز القصير . وكان يرفع رأسه نحوه ويتأمله في قلق .

ـ ماذا هناك ؟ ماذا هناك ؟

قال ماتيو مترجماً : ـ لا شيء . عُدْ الى النوم .

واطل من النافذة . وكان شخصان قد هبطا على درجة القاطرة ، ووثب احدهما وهو يصرخ ، فلامس الارض ، وقام بخطوتين جانبيتين، وهو مأخوذ بسرعـة ، فصدم بكفه عموداً تلغرافياً ، وتدحرج على الاكمة ، ورأسه الى الامام ، وكان القطار قد تجاوزه . وأدار ماتيو رأسه ، فرآه ينهض من جديد ، فيبدو صغيراً ، ويرفع ذراعيه في الهواء ويعدو عبر الحقول . اما الآخر ، فكان متردداً وهو منحنٍ الى أمام ، وكان يتماسك بيدٍ عند القضيب النحاسي .

وقال صوت مخنوق : — بربكم لا تدفعوا ! اننا نختنق .

واستمر القطـار في تمهله ، وكان ثمة رؤوس مطلة من جميع النوافذ ، وحول الدرجات ،كان ثمة رجال يتأهبون للتفز . وعند المعطف، ظهرت محطة ، وكانت على بعد ثلاثمئة متر . ولمح ماتيو مدينة صغيرة في البعيد . وقفز رجلان آخران فتجاوزا طريقاً هناك . وكان القطار قد دخل المحطة ، وفكر ماتيو : « بمثل هؤلاء ، سيصنعون ابطالا » .

وكان ضجيج عظيم يصدر عن المحطة ، وكانت اثواب مشرقة تتلألأ في الشمس ، وترتفع ايدٍ ترتدي قفازات من الخيوط البيضاء ، وكان ثمة فتيات فارعات ذوات قبعات من قش يلوحن بمناديلهن ، واولاد يركضون ضاحكين صائحين على طول المحطة . ودفع عازف الكمان ماتيو بعنف وانحنى من النافذة حتى البطن . ثم وضع يديه بشكل بوقٍ حول فمه وصاح في الجمع :

— توقفوا ! توقفوا ! الطائرات !

وكان رجال المحطة ينظرون اليه من غير ان يفهموا . ورفع ذراعه فوق رأسه وأومأ باصبعه الى السماء . فأجابه صراخ عظيم ، ولم يسمع ماتيو باديء الأمر شيئاً ، ثم فهم فجأة :

— السلام ! انه السلام ! ايها الناس !

ورعد القطار برمته :

ـ الطائرات ! الطائرات !
فكانت الفتيات يصرخن :
ـ هوراه ! هوراه !
وانتهى الامر بهن الى رفع ابصارهن نحو السماء ، واخذن يلوّحن بمناديلهن تحية للطائرات . وكان الوكيل يقرض اظافره بأعصاب ثائرة ويتمتم :
ـ انني لا افهم ، انني لا افهم !
وبعد طنتين او ثلاث ، توقف القطار تماماً . وصعد موظف في المحطة على مقعد ، وتحت ذراعه علم احمر ، فصاح :
ـ السلام ! مؤتمر في ميونيخ . دلادييه يسافر هذا المساء .
ويظل القطار صامتاً ، جامداً ، غير متفهم . ثم اخذ فجأة يهدر :
ـ هوراه ! ليعش دلادييه ! ليعش السلام !
واختفت اثواب النفنا الزرقاء والوردية في مدٍّ من السترات السمراء والسوداء ، واضطرب الجمع وضجّ ، كاوراق شجر كثيفة ، وكانت اشراقات من الشمس تتلألأ في كل مكان ، وكانت القبعات القشية تدور وتدور ، فكأنها في رقصة فالس . وراقص جاك اوديت رقصة فالس في وسط الصالون ، وكانت السيدة بيرنانشاتز تضم ايلا الى صدرها وتئن قائلة :
ـ انني سعيدة يا ايلا ، يا صغيرتي ، يا ابنتي ، انني سعيدة.
وتحت النافذة وثب فتى احمر الوجه ، يضحك كأنه مجنون ، على فلاحة فقبلها من وجنتيها . وكانت هي ايضاً تضحك ، مبعثرة الشعر ، وقد ارتدت قبعتها الى خلف ، وكانت تصرخ : « هوراه ! » تحت القبلات . وقبّل جاك اوديت في اذنها ، وكان منتشياً :
ـ السلام . وتأكدي انهم لن يكتفوا بتسوية قضية السوديت. الحلف الرباعي . كان ينبغي البدء من هنا .

وشقت الخادم الباب :

ـ هل استطيع يا سيدتي ان اقدّم الطعام ؟

قال جاك : ـ طبعاً ، قدّميه ، قدّميه ! ثم اهبطي الى القبو فاجلبي زجاجة شمبانيا وزجاجة شمبرتان .

وكان عجوز طويل ذو نظارات سوداء قد جلس على مقعد ، وهو يرفع باحدى يديه زجاجة خمر ، وبالاخرى قدحاً .

ـ قدح خمر ايها الاخوان ، قدح خمر ، نخب السلام ؟

فصاح صانع الاقفال : ـ هنا ، هنا ! ليعش السلام !

ـ آه ! يا سيدي الأب ! انني أقبّلك !

وتراجع الكاهن ، ولكن العجوز ادركته بسرعة ، وفعلت كما قالت ، وغمس غريسيه المغرفة في اناء الحساء : « آه ! يا اولادي ! يا اولادي . انها نهاية كابوس » : وفتحت زيزيت الباب : « هذا صحيح اذن ، يا مدام ايزيدور ؟ » « نعم يا صغيرتي ، صحيح ، لقد سمعته ، وأذاعه الراديو ، ان حبيبك مومو سيعود ، وقد سبق ان قلت لك إن الرب الرحيم لا يريد ذلك » . كان يرقص في محله ، فقد غروره ، فقد غروره ، لقد فقد هتلر غروره ، بل انا اعتقد اننا نحن الذين فقدنا غرورنا ، ولكن كم انا اتأرجح منذ علمت ان القتال لن يقع ، ولكن لا ، ولكن لا ، لقد تنبّهت ، فاشتريت كل شيء في الساعة الثانية ، وكلفني ذلك مئتي ورقة مالية ، اسمعني جيداً يا صديقي ، ان هذه مناسبة استثنائية ، فللمرة الاولى ، تستبعد ارادة اربعة رؤساء دول حرباً كانت تبدو لا مفر منها ، فتتجاوز أهمية قرارهم الساعة الراهنة : ان الحرب هي الآن غير ممكنة اطلاقاً ، وميونيخ هي اول تصريح للسلم ، يا إلهي ، يا إلهي ، لقد صلّيت وصلّيت ، فقلت : « يا إلهي ، خذ قلبي ، خذ حياتي » . وقد استجبت دعائي يا إلهي ، انت الأكبر ، وأنت الأحكم ، وانت الأرقّ . » وتخلّص الأب ، ولكني

قلت لك ذلك دائماً يا سيدتي : ان الله رائع : وطني في التشيكيين ، ليتدبّروا أمرهم وحسدهم ، كانت زيزيت تمشي في الشارع ، كانت زيزيت تغني ، جميع العصافير في قلبي ، كان للناس رؤوس طيبة باسمة ، وكانوا يقولون فيما بينهم « مرحباً » من زاوية العين ، وحتى ولو كانوا لا يعرف بعضهم بعضاً . كانوا يعرفون ، كانت تعرف ، كانوا يعرفون أنها كانت تعرف ، وكان الجميع يفكرون بالشيء نفسه، وكان الجميع سعداء ، فلم يكن ثمة مناص من ان نفعل كما يفعل الجميع، يا للمساء الجميل : وتلك المرأة التي كانت تمر ، انني اقرأ حتى اعماق فؤادها ، وهذا السرير الطيب القديم في قلبي ، منفتحةً كل الانفتاح للجميع ، فالجميع ليسوا الا واحداً ، واخذت تبكي ، كان الجميع متحابين ، وكان الجميع سعداء ، وكان الجميع كالجميع ، ولا بد ان مومو هنـــاك مسرور بالرغم من كل شيء ، كانت تبكي ، وكان الجميع ينظرون اليها ، وكان هذا يبعث الحرارة في ظهرها ، وفي صدرها ، جميع هذه الانظار ، وكانت تزداد بكاءً ما ازدادوا نظراً اليها ، وكانت تستشعر الاعتزاز والشهرة كأم ترضع طفلها.

قال جاك : ــ ولكنك تشربينه صرفاً !

وكانت اوديت تضحك وحيدة . وقالت :

ــ اظن انهم سوف يسرّحون الآن الاحتياطيين ؟

قال جاك : ــ من الآن حتى خمسة عشر يوماً ، أو شهر :

وضحكت ايضاً وشربت جرعة خمر . ثم طفر الدم فجـــأة الى خدّيها ، فسألها جاك :

ــ ما بك ؟ لقد احمرّ وجهك تماماً .

قالت : ــ لا شيء . كل ما في الامر اني شربت اكثر قليلاً مما ينبغي :

لم اكن لأقبّله قط لو كنت أعرف انه سيعود بهذه السرعة :

– اصعدوا ! اصعدوا !

وكان القطار يتحرك ببطء . واخذ الناس يركضون وهم يصرخون ويضحكون ، وكانوا يتعلقون عناقيد بالدرجات . وظهر على النافذة وجه صانع الاقفال يقطر عرقاً ، وكان متشبثاً بالحاجز بكلتا يديه ، وقال :

– يا إلهي ، ساعدوني بسرعة ، سوف افلت .

فرفعه ماتيو ، فتجاوز النافذة ووثب في الممر . وقال وهو يمسح جبينه :

– اوف ، حسبت انني سأترك ساقيّ تحت !

وظهر عازف الكمان بدوره .

– حسناً ، لقد اكتمل العدد .

– هل نلعب الورق ؟

– أحبذ ذلك .

ودخلوا الى الحافلة ، وكان ماتيو ينظر اليهم عبر الزجاج . وبدأوا يتبادلون شرب جرعات صغيرة ، ثم اخرج الوكيل منديله ، فبسطره على رُكبهم :

– انت تُعطي .

فضرط صانع الاقفال وقال :

– اوه ! يا للزرقاء الجميلة (وأشار الى صاروخ وهمي في السقف)

فقال عامل المطبعة بفرح : – يا للممحون !

وفكر ماتيو : « ماذا يفعلون هنا ؟ وانا ماذا أصنع ؟ » كان قدَرهم قد تلاشى ، وكان الزمن قد عاد يجري على هينة ، من غير هدف ، كان القطار يسير بلا هدف ، بدافع العادة ، وبمحاذاة القطار كانت ثمة طريق عائمة جامدة : انها الآن لا تفضي الى ايّ مكان ، وهي ليست بعد الا ارضاً معبدة . وكانت الطائرات قد اختفت . سماء صفراء

كان السلام يستيقظ فيها مع المساء على مهل ، ريفٌ مخدَّر ، لاعبو ورق ، نائمون ، زجاجة مكسورة في الممر ، اعقاب سجابر في مستنقع من الخمر ، رائحة بول قوية ، جميع هذه البقايا التي لا مبرِّر لها..
وفكر ماتيو : « لكأننا في اعقاب عيد » وكان منقبض القلب.

كانت دوس ومود وروبي يصعدن الى « الكانوبيير » وكانت دوس متعشة جداً : فقد كانت تميل دائماً الى السياسة . وأوضحت :

— يبدو أنه كان ثمة سوء تفاهم .كان هتلر يظن ان شمبرلن ودلادييه يريدان به شراً ، وفي هذه الاثناء ، كان شمبرلن ودلادييه يظنّان انه كان ينوي مهاجمتهما. فذهب موسوليني اليهما ، وافهمهما انهما على خطأ. وقد سُوِّي الآن كل شيء : انهم غداً يتناولون الغداء معاً .

وتنهدت روبي : — يا له من غداء لذيذ !

وكانت « الكانوبيير » تبدو في حالة عيد ، كان الناس يسيرون بخطى صغيرة ، وكان فيهم من يضحك وحده . وكانت مود متشائمة. صحيح انها كانت مسرورةً ان يُسوّى كل شيء ، ولكنها كانت تُسرّ خصوصاً من اجل الآخرين . ومهما يكن من أمر ، فعليها ان تقضي بعد ليلةً في غرفتها المنتنة في فندق « جنيافر » ، ثم تأتي بعد ذلك المحطات والقطارات وباريس والبطالة والمطاعم الحقيرة واوجاع المعدة : ان مؤتمر ميونيخ ، مهما كانت نتيجته ، لن يغيِّر في الامر شيئاً . كانت تستشعر الوحدة . واذ مرّت امام مقهى « ريش » ، انتفضت ، فسألتها روبي :

— ما بك ؟

فأجابت مود : — هذا بيار . لا تنظري . انه امام الطاولة الثالثة، الى الشمال . هنا ، انتهى الامر : لقد رآنا .

ونهض ، وكان يشعّ في بذلته الكتّانية ، وكان في مظهره الأرجل والاغنى . وفكرت : « طبعاً ، الآن ليس من خطر بعد » . وحاولت،

فيما هو مقبل عليها ، ان تتذكر وجهه الأخضر في تلك الغرفة التي كانت تنبعث منها في الباخرة رائحة القيء . ولكن الرائحة والوجه كانا قد أكنسا بريح البحر . وحياها ، وكان يبدو واثقاً من نفسه كل الثقة ؛ وكانت تريد ان توليه ظهرها ، ولكن ساقيها المترنحتين حملتاها اليه بالرغم منها . وقال لها باسماً .

ـ اذن ، هكذا نفترق ، حتى من غير ان نأخذ شيئاً ؟

ونظر اليها مواجهة ، فقالت في نفسها : انه جبان . ولكن ذلك لم يكن ليُسرى . كانت ترى شفتين ساخرتين جسورين ، وخدّين رجوليين ، وتلك الحنجرة البارزة .

وتمتم : ــ تعالي . ان ذلك كله حكاية قديمة .

وفكرت في غرفتها بالفندق التي كانت تنبعث منها رائحة الامونياك . فقالت :

ـ يجب ان تدعو دوس وروبي ؛

فتقدم نحوهما وابتسم لهما ، وكانت روبي تحبه كثيراً لانه كان متميزاً . وجلست ثلاث زهرات حول طاولة على سطيحة مقهى « ريش » . كانت حديقة زهور ، زهور ، ووجوه مشمسة ضاجّة ، واعلام ، ونوافير ماء ، وشموس ؛ وخفضت جفنيها وتنفست بعمق : بين هذه الأعين ، كانت شمس تدور ، ليس لنا الحق بأن ندين رجلاً يُحس بدوار البحر ، من اجلها ايضاً ، كان ذلك السلام .

« لماذا لا يحبونني ؟ » كان وحده في القاعة الرمادية ، وكان منحنياً الى امام ، ومرفقاه على فخذيه ، ممسكاً رأسه الثقيل بين يديه ؛ وكان قد وضع بالقرب منه ، على المقعد ، الفطائر وركوة القهوة التي كان الشرطي قد جاءه بها ظهراً . ما جدوى الأكل ؟ لقد انتهى امره ؛ يودّون ان يجندوه بالإكراه ، وسوف يرفض ، وستكون ثمة المشنقة ، او على الاقل ، عشرون عاماً في الزنزانة ، كانت حياته تقف هنا .

كان ينظر اليها في دهشة عميقة : كانت مشروعاً فاشلا من اولها الى آخرها . وكانت افكاره تسيل ذات اليمين وذات الشمال ، مائعة غير ذات لون ، بيد ان فكرة واحدة كانت تظل ثابتة ، سؤالا لا يحتمل جواباً : لماذا لا يحبونني ؟ وحدثت في القاعة المجاورة انفجارات ضحك كبيرة ، لقد كان رجال الشرطة في جذل . وصاح صوت عريض :

ـ هذا جدير بان يُشرب نخبه !

ربما كان هناك شرطة يتحابون فيما بينهم ، ثم الناس ، في الخارج ، في الشوارع والبيوت ، كانوا يتبادلون البسمات ، ويعاون بعضهم بعضاً ، ويتحـادثون في اعتبار ومجاملة ، وكان بينهم من يتبادلون الحب بكل قواهم ، كريزيت وموريس . ربما كان ذلك لانهم كانوا اكبر سناً : فقد اتيـح لهم ان يتآلفوا فيما بينهم . اما الشاب ، فهو مسافر يدخل ليلا الى حافلة نصف ممتلئة : ان الناس يحتقرونه ويتآمرون لحمله على الاعتقاد بأنه ليس ثمة بعد من مكان.مع ذلك ، فان مكاني كان مسجلا، ما دمت قد وُلدت . وإلا فاني قد تعفنت . وعاد الشرطة يضحكون ، خلف البـاب ، ولفظ احدهم كلمة « ميونيخ » . الشوارع والبيوت والقاطرات ومفوضية الشرطة : عالم غاصّ الى حد الانفجار ، عالم الناس ، ان فيليب لم يكن يستطيع ان يدخله . سوف يبقى طوال حياته في زنزانة كهذه ، الحُجر الذي يحفظه الناس لمن لا يريدونهم ، ورأى امرأة صغيرة سمينة ضاحكة ، ذات ذراعين ملساوين ، البغيّ . وفكر : « مهما يكن من امر ، فسوف تحـدّ عليّ » . وفتح الباب ، ودخل الجنرال . وتراجع فيليب على المقعد حتى الزاوية المظلمة ، وصاح :

ـ دعني ، اريد ان انال عقابي ، ولست بحاجة الى حمايتك .

فانفجر الجنرال ضاحكاً . وعبر القاعة بخطوته الجافة السريعة وجاء يتزرع امام فيلب :

ـ تنال عقابك ؟ من تظن نفسك ايها الأبله الصغير ؟

المرفق : نهض المرفق بالرغم من فيليب ، ووقف امام خده ، مستعداً لتفادي الصفعات . ولكن فيليب اخفضه وقال بصوت حازم :

ــ انني فراري .

ــ فراري ! ان هتلر ودلاديبه سيوقعان غداً اتفاقاً ، يا صديقي العزيز : فلن تكون ثمة حرب ، ولم تكن قط فرارياً .

وكان يتأمل فيليب في سخرية مهينة .

ــ ان على المرء ان يكون رجلا يا فيليب ، حتى من اجل ان يفعل الشر ، يجب عليه ان يتحلى بالارادة والتبعات . وانت لست الا صبياً عصبياً وسيء التربية ، انك لم تحترمني على الإطلاق ، واغرقت امك في قلق عنيف : هذا كل ما استطعت ان تفعله .

وكان رجال شرطة ضاحكون يمدّون رؤوسهم من فتحة الباب . ووثب فيليب على قدميه . ولكن الجنرال امسكه من كتفه وقسره على الجلوس .

ــ ما هذا ؟ سوف تستمع الي حتى النهاية . إن تصرفك المنحرف الاخير يدل على انك يجب ان تربى من جديد . وقد اقرت امك هذه اللحظة انها كانت مفرطة الضعف تجاهك . اما الآن ، فانا الذي سأتولى امرك .

وكان قد زاد قرباً من فيليب . ورفع فيليب مرفقه وصرخ :

ــ اذا لمستني قتلت نفسي .

قال الجنرال : ــ هذا ما سوف نراه .

واخفض له مرفقه بيده اليسرى ، وباليمنى صفعه مرتين . فانهار فيليب على المقعد وانخرط في البكاء .

كانت في الممر حركة صغيرة مرحة ،وكانت ثمة امرأة تغنّي «اذهب ايها الضعيف » . كان يكرههن جميعاً . انهن يحطمن رأسي . ودخلت الممرضة ، حاملة العشاء على صينية ، فقال :

ـ لست جائعاً .

ـ آه ! يجب ان تأكل يا سيد شارل ! والا زدت ضعفاً . ثم ها هي انباء طيبة تمنحك القابلية : لقد تجنبنا الحرب . ان شمبرلن ودلاديه سيقابلان هتلر .

فنظر اليها في ذهول : هذا صحيح ، ان قصتهم المتعلقة بالسوديت ما تزال تجرجر نفسها . وكانت محمرة بعض الشيء وعيناها تلتمعان :

ـ واذن : ألست مسروراً ؟

لقد جرّوني خارج بيتي ، وحملوني كرزمة ، وارهقوني ، وهم مع ذلك لا يتقاتلون . ولكنه لم يكن بعد قد غضب : فان ذلك كله أضحى بعيداً جداً . وقال :

ـ ماذا تريدين ان يُحدِث لي ذلك ؟

ليلة ٢٩ الى ٣٠ ايلول

الساعة ١٫٣٠ :

كان السيدان هوبرت مازاريك وماستني، عضوا الوفد التشيكوسلوفاكي، ينتظران في غرفة السير هوراس ويلسون بصحبة السيد اشتون ـ غواتكن. كان ماستني ممتقعاً ، وكان يرشح عرقاً ، وكانت تحت عينيه هالة سوداء . اما هوبرت مازاريك فكان يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وكان السيد اشتون ـ غواتكن جالساً على السرير ، وكانت ايفيش قد انزوت في جوف السرير ، ولم تكن تحس به ، ولكنها كانت تحس بحرارته وتسمع تنفسه ، لم تكن تستطيع ان تنام ، وكانت تعلم انه هو ايضاً لم ينام . وكانت شحنات كهربائية تسري في ساقيها وفخذيها ، وكانت تموت رغبة في ان تنقلب على ظهرها ، ولكن اذا تحركت لمسته ، فما دام يظن انها كانت نائمة ، فسيدعها وشأنها ، والتفت ماستني نحو اشتون ـ غواتكن وقال :

ـ لقد طال الامر .

فاتى السيد اشتون ـ غواتكن بحركة اعتذار ولامبالاة . وصعد الدم الى وجه مازاريك ، فقال بصوت اصم :

ـ ان المتهمين ينتظرون الحكم .

فلم يبد على السيد اشتون ـ غواتكن انه سمع ، وفكرت ايفيش :

« ترى ، الا ينقضي الليل ؟ » وأحسّت فجأة بلحم طريّ يلامس خاصرتها ، كان ينتهز نومها ليحتكّ بها ، فيجب الا تتحرك ، والا لاحظ اني مستيقظة . واندس اللحم بهدوء الى جانبها ، وكان محرقاً طرياً ، إنه ساق . وعضّت بعنف على شفتها السفلى ، وتابع مازاريك:

ـ ولكي يكون الشبه كاملاً ، وضعوا في استقبالنا رجال الشرطة ؛

قال السيد أشتون ـ غواتكن وهو يتخذ مظهر الدهشة :

ـ ولكن كيف ؟

فأوضح ماستني :

ـ لقد أخذنا الى فندق « ريجينا » في سيارة للشرطة .

فقال السيد اشتون ـ غواتكن في توبيخ : « تس ، تس ، تس ! »

واصبحت الآن يداً ، وكانت تهبط على طول خاصرتيها ، خفيفة شبه شاردة ، ولامست الأصابع بطنها ، وفكرت : « ليس هذا شيئاً ، انها حشرة . وانا انام ، انام . أحلم ، ولن اتحرك . » وتناول مازاريك الخارطة التي كان السير هوراس ويلسون قد سلمه اياها . وكانت الاراضي التي ينبغي ان يحتلها الجيش الالماني فوراً مخططة بالأزرق . فنظر اليها لحظة ، ثم رماها على الطاولة في غضب ، وقال وهو ينظر الى السيد اشتون ـ غواتكن في عينيه :

ـ انني ... انني ما زلت غير فاهم:أترانا ما زلنا امة ذات سيادة؟

فهزّ السيد اشتون ـ غواتكن كتفيه ، وكان يبدو وكأنه يريد ان يقول انه لم يكن له دخل في القضية ، ولكن مازاريك فكر بأنه كان أشد انفعالا مما شاء ان يُظهر . وقال ملاحظاً : ـ ان هذه المفاوضات مع هتلر صعبة جداً ، فخذا ذلك بعين الاعتبار .

فأجاب مازاريك بعنف :

ـ ان كل شيء يتوقف على حزم الدول الكبرى .

واحمرّ الانكليزي قليلاً ، فاستقام وقال بلهجة فخمة :

ـ اذا لم تقبلوا هذا الاتفاق ، فيجب ان تتدبروا الامر وحدكم مع المانيا (وتنحنح وأضاف بلهجة ألطف) وربما قال لكم الفرنسيون ذلك في مزيد من اللياقة . ولكن صدقني أنهم من رأينا . ففي حال الرفض ، سيكفّون عن الاهتمام بكم . »

فضحك مازاريك ضحكة استياء ، وصمتوا . وهمس صوت :

ـ هل تنامين ؟

فلم تجب ، ولكن سرعان ما احسّت فماً لدى اذنها ، ثم جسماً برمته يثقل بلصق جسمها . وتمتم :

ـ ايفيش ! ايفيش !

كان ينبغي الا تصرخ ولا تتخبط ، فانا لست فتاة تُغتصب . وانقلبت على ظهرها وقالت بصوت واضح :

ـ لا ، لا انام . وبعد ؟

قال : ـ أحبّك .

قنبلة ! قنبلة ستسقط من علو خمسة آلاف متر فتقتلهم على الفور ! وفُتح باب فدخل السير هوراس ويلسون ، وكانت عيناه خافضتين ؛ إنه منذ وصولهما يخفض عينيه ، وكان يدهشهما وهو مطرق الى الارض وكان لا بد ان يشعر بذلك ، بين الفينة والفينة : ويرفع رأسه فجأة ، ويُغرق في عيونهما نظراً فارغاً .

ـ ايها السادة ، اننا في انتظاركم .

فتبعه الرجال الثلاثة ، واجتازوا ممرات طويلة مقفرة . وكان خادم ينام على كرسي ، وكان الفندق يبدو ميتاً ؛ كان جسمه محرقاً ، واطبق صدره على نهدي ايفيش ، فسمعت صوتاً طرياً يشبه صوت المحجم ، وكانت غارقة في عرقها . وقالت :

ـ اذا كنت تحبني فابتعد عني . اني اشعر بحرّ لا يطاق .

قال السير هوراس ويلسون وهو يتنحى: «هنا» . ولم يكن ليبتعد، بل نزع الغطاء بيد ، وكان يمسك باليد الاخرى كتفها بقوة ، وما لبث ان نام عليها وكان يعجن كتفيها وذراعيها بيديه العنيفتين ، بيدي الفريسة ، فيما كان صوته الطفولي المبتهل يتمتم :

ـ احبك يا ايفيش ، حبيبتي ، احبك .

كانت قاعة صغيرة مضاءة بطريقة حية . وكان السادة شمبرلن ودالاديه وليجيه واقفين خلف طاولة محملة بالاوراق . وكانت المنافض ملأى بأعقاب السكاير ، ولكن الجميع كانوا قد كفوا عن التدخين . ووضع شمبرلن كلتا يديه على الطاولة ، وكان يبدو متعباً . وقال في بسمة ودية :

ـ ايها السادة .

فانحنى مازاريك وماستني من غير ان يتكلما . وابتعد اشتون ـ غواتكن عنها بسرعة ، كما لو انه لم يكن يستطيع بعد ان يحتمل صحبتها ، وذهب يقف خلف السيد شمبرلن مع السير هوراس ويلسون . وكان امام الرجلين التشيكيين الآن خمسة رجال في الجهة المقابلة من الطاولة ، وخلفهما كان الباب وممرات الفندق المقفرة . وحلت لحظة صمت ثقيلة . ولكن ليجيه كان يضع الوثائق في محفظة . وقال السيد شمبرلن :

ـ تفضلوا ايها السادة بالجلوس .

وجلس الفرنسيون والتشيكيون ، ولكن السيد شمبرلن ظلّ واقفاً ، وكانت عيناه ورديتين من النعاس . وقد تأمّل يديه في هيئة مترددة ثم استقام فجأة وقال :

ـ حسناً ... لقد وقّعت فرنسا وبريطانيا العظمى اتفاقاً يتعلق بالمطالب الالمانية في موضوع السوديت . ويمكن اعتبار هذا الاتفاق ، بفضل النية الحسنة لدى الجميع ، تقدماً محسوساً على مذكرة غودسبرغ .

وسعل وصمت . وكان مازاريك جالساً في اريكته جلسة صلبة ،

كان ينتظر . وبدا على شمبرلن انه يريد الاستمرار ، ولكنه هدل ومدّ ماستني ورقة :
- هل تريد ان تطلع على هذا الاتفاق ؟ ربمـا كان الافضل ان تقرأه بصوت مرتفع .
فتناول ماستني الورقة ؛ ومر شخص مـا في الممر بخطىً خفيفة ، ثم ابتعد صوت القدمين . وبدأ ماستني يقرأ ، وكان له جرسٌ محزنٌ رتيب ؛ كان يقرأ ببطء ، كما لو انه كان يفكّر بعد كل عبارة ، وكانت الورقة ترتعش في يديه :
« ان الدول الكبرى : المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وابطاليـا قد اتفقت ، بعد ان اخذت بعين الاعتبار التسوية التي تمت مبدئيـاً بشأن التنازل لألمانيا عن اراضي الالمان السوديت ، عـلى الترتيبات والشروط التالية التي تنظّم هذا التنازل والتدابير التي يحتملها . وتتعهد كل دولة، في هذا الاتفاق ، بتحقيق الطلبات الضرورية لتأمين تنفيذه :
« ١ : يبدأ الجلاء في اول تشرين الأول ؛
« ٢ : اتفقت المملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا على ضرورة انجـاز الجلاء عن الاراضي المذكورة في ١٠ تشرين الاول ، من غـير ان تُهدم اية انشاءات قائمة فيها . وتتحمل الحكومة التشيكوسلوفاكية مسؤولية اتمام هذا الجلاء من غير ان يلحق بهذه الانشاءات اي ضرر ؛
« ٣ : تحدَّد شروط هذا الجلاء في تفاصيلها من قبل لجنة دولية مؤلفة من ممثلين عن المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليـا وتشيكوسلوفاكيا ؛
« ٤ : تبدأ فرق الريخ بالاحتلال التدريجي للاراضي ذات الاغلبية الألمانية في اول تشرين الاول . والمناطق الاربع المشار اليها على الخارطة المرفقة تحتلها القوات الالمانية كما يلي :
« المنطقة الاولى ، يومي ١ و ٢ تشرين الاول .
« المنطقة الثانية ، يومي ٢ ، ٣ تشرين الاول :

« المنطقة الثالثة ، ايام ٣ و ٤ و ٥ تشرين الاول .
« المنطقة الرابعة ، يومي ٦ و ٧ تشرين الاول .
« اما سائر المناطق ذات الاغلبية الألمانية فستحددها اللجنة الدولية وتحتلها القوات الالمانية من الآن حتى العاشر من تشرين الاول »
كان الصوت الرتيب يرتفع في الصمت ، وسط المدينة النائمة . وكان يصطدم ويقف ثم ينطق من غير هوادة مخناً بعض الشيء ، وكان ملايين من الالمان ينامون على مدى النظر حوله ، فيما كان يعرض بدقة الطرق المختلفة لعملية اغتيال سياسي . وكان الصوت المبتهل الهامس ، حبيبي ، شهوتي ، احب نهديك ، احب رائحتك ، هل تحبيني ، يرتفع في الليل ، وكانت اليدان ، تحت جسمها المحرق ، تغتالان .
قال مازاريك : – اريد ان اطرح سؤالاً . ما الذي يفهم من عبارة « ارض ذات أغلبية المانية ؟ »
وكان يوجه سؤاله لشمبرلن ، ولكن شمبرلن تأمله من غير ان يجيب – بهيئة مذهولة بعض الشيء . وكان واضحاً انه لم يستمع الى القراءة . واخذ ليجيه الحديث ، في ظهر مازاريك . وسجل مازاريك حركة استدارة في أريكته فرأى ليجيه من زاوية جانبية .
قال ليجيه :
– المقصود أغلبية معدودة وفق اقتراحات قبلتموها .
وسحب ماستني منديله فسح جبينه ، ثم تابع القراءة :
« ٥ : تحدد اللجنة الدولية المنصوص عنها في المادة ٣ الاراضي التي ينبغي ان يجري فيها الاستفتاء .
« وهذه الاراضي ستحتلها فرق دولية حتى انتهاء الاستفتاء ... »
وقطع قراءته وسأل :
– هذه الفرق ، أتكون حتماً دولية ، ام انها لن تضم الا فيالق انكليزية ؟

وتثاءب السيد شمبرلن خلف يده ، وتدحرجت دمعة على خده ، ثم سحب يده :

ــ هذه القضية لم توضح بعد تمام التوضيح ، فإن اشراك الجنود البلجيكيين والطليان امرٌ وارد .

وتابع ماستني : « كما ان هذه اللجنة ستحدد الشروط التي يجري فيها الاستفتاء انطلاقاً من شروط استفتاء السار . وستضرب بالاضافة الى ذلك موعداً لبدء الاستفتاء لا يمكن ان يتجاوز آخر تشرين الثاني . »

وتوقف مرة اخرى وسأل شمبرلن في عذوبة ساخرة :

ــ هل سيتمتع العضو التشيكوسلوفاكي في هذه اللجنة بحق الاقتراع نفسه الذي يتمتع به الاعضاء الآخرون ؟

فقال السيد شمبرلن في لهجة حسنة : ــ طبعاً .

وكانت لزوجة كدرة كأنها الدم تلطّخ فخذي ايفيش وبطنها ، وانزلق في دمها، لست فتاةً تُغتصب، وانفتحت، وتركت نفسها تُطعن، ولكن بينما كانت رعشات من ثلج ونار تصعد حتى صدرها ، كان رأسها يظلّ بارداً وكانت تصرخ فيه ، في رأسه : إنني اكرهك !

« ٦ : تحدّد اللجنة الدولية التخطيط النهائي للحدود . وستكون لهذه اللجنة كذلك صلاحية ايصاء الدول الاربع : المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا ، في حالات استثنائية ، باجراء تعديلات ذات مدى محصور بتحديد المناطق القابلة للانتقال من غير استفتاء تحديداً اتنولوجيا محضاً . »

وسأل مازاريك : ــ هل نستطيع ان نعتبر هذه المادة بنداً يضمن حماية مصالحنا الحيوية ؟

وكان قد استدار الى دالاديه ينظر اليه في إلحاح ، ولكن دالاديه لم يجب ، كانت تبدو عليه هيئة الشيخوخة والارهاق . ولاحظ مازاريك انه كان قد احتفظ ، في زاوية فمه ، بعقب سيكارة مطفأ . وقال مازاريك بقوة :

— لقد وُعدنا بهذا البند .

قال ليجيه : — يمكن لهذه المادة ، من نحو ما ، ان تعتبر بمثابة البند الذي تتحدث عنه . ولكن يجب ان يكون المرء متواضعاً ، في بدء الامر ، ان قضية ضمان حدودكم هي من صلاحية اللجنة الدولية .

فضحك مازاريك ضحكة مقتضبة وشبك ذراعيه ، وقـال وهو يهز رأسه :

— حتى ولا ضمانة :

وقرأ ماستني : « ٧ : سيكون هناك حق اختيار يتيح للناس ان يُدرجوا في الاراضي المنقولة ، او ان يُبعدوا عنها . وسيجري هذا الاختيار في مهلة ستة أشهر ابتداء من تاريخ هذا الاتفاق .

« ٨ : — تحرر الحكومة التشيكوسلوفاكية ، في مهلة اربعة اسابيع ابتداء من انجاز هذا الاتفاق ، جميع الالمان السوديت الذين يريدون ، من التشكيلات العسكرية او من الشرطة التي ينتمون اليها .

« وفي المهلة نفسها ، تطلق الحكومة التشيكوسلوفاكية الاسرى من الالمان السوديت الذين سجنوا لأسباب سياسية .

ميونيخ ، في ٢٩ ايلول ١٩٣٨ . »

قال : — هكذا : انتهينا .

كان ينظر الى الورقة ، كما لو انه لم ينته من قراءتها . وتثـاءب السيد شمبرلن طويلاً ، ثم اخذ يربّت على الطاولة .

وقال ماستني ثانية — هكذا، انتهى .

كان الامر قد انتهى ، فان تشيكوسلوفاكيا ١٩١٨ قد كفّت عن الوجود : وتابع مازاريك بعينيه الورقة البيضاء التي كان ماستني يوشك ان يضعها على الطاولة: ثم التفت الى دالادييه وليجيه وحدد فيهما بصره، وكان دالادييه مسترخياً في أريكته ، وذقنه عـلى صدره . وسحب سيجارة من جيبه ، فتأملها لحظة ، ثم اعادها الى علبتها . وكان ليجيه

محمراً بعض الشيء ، وكان يبدو نافد الصبر . وقال مازاريك لدالاديه:
— هل تنتظرون تصريحاً او جواباً من حكومتي ؟
فلم يجب دالاديه . وخفض ليجيه بصره وقال بسرعة :
— ان السيد موسوليني مضطر للعودة الى ايطاليا هذا الصباح ، فنحن لا نملك وقتاً طويلا .
وكان مازاريك ما يزال ينظر الى دالاديه . وقال : « حتى ولا جواب ؟ هل ينبغي ان أفهم اننا مجبرون على القبول ؟ »
فأتى دالاديه بحركة متعبة واجاب ليجيه من ورائه :
— ماذا تستطيعون ان تفعلوا غير ذلك ؟
كانت تبكي ، ووجهها متجه الى الجدار ، كانت تبكي في صمت، وكانت الشهقات تهز كتفيها .
وسأل بصوت غير رائق : — لماذا تضحكين ؟
فأجابت : — لأنني اكرهك .
ونهض مازاريك ، ونهض ماستني ايضاً . وكان السيد شمبرلن يتثاءب حتى ليكاد ينزع فكه .

الجمعة ٣٠ ايلول

أقبل الجندي القصير على غرولويس وهو يلوّح بجريدة ، وقال :
ـ إنه السلام .
فوضع غرولويس دلوه :
ـ ماذا تقول ياصاحبي ؟
ـ أقول لك إنه السلام .
فنظر اليه غرولويس بارتياب :
ـ لا يمكن ان يكون هذا هو السلام ما دمنا لم نخض الحرب :
ـ لقد وقّعوا يا عزيزي . وليس لك الا ان تنظر الجريدة :
ومدها له ، ولكن غرولويس دفعها بيده :
ـ لا اعرف القراءة .
فقال الرجل القصير في شفقة :
ـ آه ، يا للمعتوه ! طيّب ، انظر الصورة .
فأخذ غرولويس الجريدة في نفور ، واقترب من نافذة الاسطبل ونظر الى الصورة . فعرف دلادييه وهتلر وموسوليني الذين كانوا يبتسمون : وكان يبدو انهم أصدقاء قدامى .
وقال : ـ طيب ! طيب !
ونظر الى الرجل القصير وهو يقطب حاجبيه ، ثم أخذه الجذل فجأة

وقال ضاحكاً :

ـ ها هم قد تصالحوا الآن! ولم اكن اعرف حتى لماذا كانوا متخاصمين.

فاخذ الجندي يضحك ، وضحك غرواويس ايضاً . وقال الجندي :

ـ الى اللقاء يا عزيزي !

وابتعد ، واقترب غرولويس من الفرس السوداء واخذ يلامس مؤخرتها ، وقال :

ـ لا ! لا ! يا جميلتي !

وكان يحس نفسه غائماً ، وقال :

ـ طيب ، ماذا افعل الآن ؟ ماذا افعل ؟

كان السيد بيرنانشاتز يختبىء وراء جريدته ، وكان يُرى دخان قليل مستقيم صاعداً فوق اوراق منشورة . وكانت السيدة بيرنانشاتز تتململ في أريكتها .

ـ يجب ان أرى « روز » من أجل حكاية آلة التنظيف .

وكانت هي المرة الثالثة التي تتحدث فيها عن آلة التنظيف ، ولكنها لم تكن لتذهب . وكانت ايلا تتأملها في غيرما ودّ . كانت تريد ان تبقى مع ابيها . والتفتت السيدة بيرنا نشاتز الى ابنتها وسألت :

ـ أتظنين انهم سيأخذونها مني ؟

ـ تسألينني عن ذلك طوال الوقت ، ولكني لا ادري ، يا ماما .

وكانت السيدة بيرنا نشاتز قد بكت امس من فرط السعادة ، وهي تضمّ ابنتها وحفيداتها الى صدرها . اما اليوم فهي لا تدري ما عساها تفعل بفرحها ، كان فرحاً ضخماً رخواً مثلها ، لن يلبث طويلا حتى يتحول الى النبوءة ، الا اذا نجحت في مشاركة سواها به .

والتفتت نحو زوجها وتمتمت :

ـ غوستاف !

فلم يجب السيد بيرنا نشاتز :

– أراك لا تحدث اليوم اية ضجة .

فقال السيد بيرنا نشاتز : – صحيح .

ومع ذلك فقد اخفض جريدته ونظر اليها من فوق نظارتيه ، وكان يبدو شائخاً متعباً : واحست ايلا بانقباض في قلبها ؛ وكانت بها رغبة لتقبيله ، ولكن كان من الأفضل الا تبدأ بالتعبير العاطفي امــام السيدة بيرنا نشاتز التي كانت مفرطة الميل الى ذلك . وسألت السيدة بيرنانشاتز :

– هل انت مسرور على الأقل ؟

فسأل في جفاء : – مسرور مم ؟

فقالت وهي تئن : – ولكن اسمع . لقد قلت لي مئة مرة انك لم تكن تريدها ، هذه الحرب ، وانها ستكون كارثة ، وان من الضروري التعاقد مع الألمان ، وكنت احسب انك ستكون مسروراً .

فهز السيد بيرنا نشاتز كتفيه واخذ جريدته من جديد . وحددت السيدة بيرنا نشاتز نظرها الممتلىء دهشة وعتاباً على هذا المتراس من الورق ؛ وكانت شفتها السفلى ترتجف ، ثم تنهدت ونهضت في مشقة وتوجهت نحو الباب . وقالت وهي تخرج :

– انني لا افهم بعد لا زوجي ولا ابنتي :

واقتربت ايلا من ابيها وقبلته بلطف في رأسه :

– ما بك يا بابا ؟

فوضع السيد بيرنا نشاتز نظارتيه ، ورفع رأسه اليها :

– ليس لى ما اقوله . هذه الحرب ، لست في سن تسمح لي بعد في خوضها ، اليس كذلك ؟ اذن فلأصمت .

وطوى جريدته بدقة ، وكان يدمدم كانما يحدث نفسه :

– كنت من مؤيدي السلام ...

– واذن ؟

– اذن ؟...

وحنا رأسه الى اليمين ورفع كتفه اليمنى بحركة طفولية غريبة ،وقال بصوت معتم :

ـ انني اشعر بالعار .

افرغ غرولويس دلوه في الاقذار ، واستخرج بعناية كل ماء الاسفنجة ، ثم وضع الاسفنجة في الدلو وحملها الى الاسطبل . واغلق باب الاسطبل ، فاجتاز الساحة ودخل في المبنى « ب » . كانت الحجرة خالية . وقال غرولويس : « انهم لا يتعجلون الذهاب قط ، فكأن الاقامة هنا تروق لهم » وسحب من تحت السرير بنطاله وسترته المدليين وقال وهو يبدأ في نزع ثيابه : « اما انا فلا تروق لي . » ولم يكن يجرؤ بعد على الابتهاج ، وقال : « هذه ثمانية ايام وهم يبعصونني . » وارتدى بنطاله وصفّ بعناية على سريره حاجاته العسكرية ولم يكن يعرف اذا كان المعلم مستعدا لاخذه ثانية . « ومن الذي يحرس غنمه الآن ؟» واخذ قربته وخرج . وكان امام المغسل اربعة اشخاص نظروا اليه وقهقهوا . فحياهم غرولويس بيده وعبر الباحة . ولم يكن معه بعد درهم واحد ، ولكنه سيعود مشياً على الاقدام . « سأعينهم قليلا في المزارع فيعطونني ما اكسر به الصفرة . » وفجأة رأى السماء ثانية ، مزرقة صفراء فوق اعشاب الكانيغو ، ورأى اليات الخرفان المرتجة فأدرك انه كان حراً .

ـ انت ، هناك ، الى اين انت ذاهب؟

فالتفت غرولويس فاذا هو المعاون الضخم بولتييه قد هرع اليه وهو يلهث ، وقال وهو يعدو :

ـ عجباً ! هكذا اذن !

وتوقف على خطوتين من غرولويس ، وقد احمرّ من فرط الغضب واللهاث ، وردّد :

ـ الى انت ذاهب ؟

قال غرولويس : — اني راحل .

فقال المعاون وهو يشبك ذراعيه : — انت راحل ! انت راحل ! (واضاف بغيظ يائس) ولكن الى اين انت راحل ؟

قال غرولويس : — الى بلدي .

قال المعاون : — الى بلده ! انه راحل الى بلده ! لا ريب في ان لائحة الطعام لا تعجبه ، او ان سريره يصرّ . (واستعار لهجة رصينة وقال) تفضل وارجع ، وبسرعة ! وسوف أعنى انا بك ، يا صاحبي !

وفكر غرولويس : « انه لا يعرف انهم قد تصالحوا » وقال :

— ولكنهم قد وقّعوا على السلام ، يا سيدي المعاون .

فبدا على المعاون انه لا يصدق ما سمع :

— هل تتظاهر بالحمرأة . ام انك تريد ان تخدعني ؟

ولم يكن غرولويس يريد ان يغضب ، فاستدار وتابع سيره . ولكن الرجل الضخم لحق به فشده من كمه ، واقبل يقف امامه ، فلمسه بكرشه وصاح :

— اذا لم تطع فوزاً ، فستحال على المجلس الحربي .

وتوقف غرولويس وحك رأسه . وفكّر في مارسيليا فأخذه الصداع ، وقال في رقّة :

— انقضت ثمانية ايام وهم يعصونني .

وكان المعاون يهزّه من سترته ويهدر :

— ماذا تقول ؟

فصاح غرولويس بصوت راعد :

— انقضت ثمانية ايام وهم يعصونني .

وقبض على كتف المعاون واخذ يصفعه على وجهه . وبعد برهة اضطر ان يمرّ ذراعه تحت إبطه ليُسنده ،واستمر يضربه ، واحسّ بأنه

محاطٌ من الخلف ، ثم قُبض على ذراعيه ولُويتا . فترك المعاون بولتييه الذي سقط على الأرض دون ما نبسة ، واخذ ينفض عنه جميع اولئك الأشخاص المتشبثين به ، ولكن احدهم شغزبه فوقع عـلى الأرض . وبدأوا يضربونه ، وكان يدير رأسه يميناً وشمالاً ليتجنب للضربات ، وكان يقول وهو يلهث : « دعوني اذهب يا اخوان ، دعوني اذهب، ما دمت اقول لكم انه السلام . . »

حك غوميز جوف جيبه بأظافره فأخرج منه بضع قشّات من التبـغ الممزوج بالغبار وبأطراف الخيطان . ووضع ذلك كله في غليونه فأشعله. وكان للدخان مذاق حامز خانق . وسأل غارسان :

ــ هل انتهت مؤونة التبغ ؟

قال غوميز : ــ منذ مساء الأمس . لو كنت اعـلم لجلبت معي كمية اكبر .

ودخل لوبيز ، وكان يحمل صحفاً . ونظر اليه غوميز ثم اخفض عينيه على غليونه . كان قد فهم . ورأى كلمة ميونيخ بأحرف كبيرة على الصفحة الأولى من الجريدة . وسأل غارسان :

ــ ماذا هناك ؟

وكان يُسمع في البعيد صوت اطلاق المدافع . فقال لوبيز :

ــ لقد بُعصنا .

وضغط غوميز بأسنانه على انبوب غليونه . كان يسمع المدفع ويفكر في ليل جوان ليبان الهادىء ، وفي موسيقى الجاز على شاطيء الماء : سيكون لماتيو بعد كثيرٌ من هذه الأمسيات .

وتمتم : ــ القذرون !

ظل ماتيو لحظة عند باب المستودع العسكري ، ثم خرج الى الساحة واغلق الباب ، كان ما يزال يرتدي ثيابه المدنية : فانه لم يكن باقياً اية سترة عسكرية في مخزن الثياب . وكان الجنود يتنزهون زرافـات

صغيرة ، وكان يبدو عليهم الذعر والقلق . وأخذ رجلان كانا متجهين اليه يتثاءبان في الوقت نفسه ، فقال لهم ماتيو :

– اراكما تضحكان وتمزحان !

فأغلق اصغرهما سناً فمه وقال في لهجة اعتذار :

– اننا لا نعلم ما ينبغي ان نفعل .

وقال صوت خلف ماتيو : – مرحباً .

فالتفت ، فاذا هو بذلك الذي يُدعى جورج ، جاره في السرير ، الذي كان ذا رأس قرديّ جميل كئيب . وكان يبتسم له . قال ماتيو :

– وإذن ؟ كيف الحال ؟

قال الآخر : – لا بأس ، لا بأس !

قال ماتيو : – لا تشكُ . فما كان ينبغي ان تكون هنا ، هذه الساعة ، بل كان ينبغي ان تكون في البوم – بوم .

قال الآخر : – صحيح (وهز كتفيه) سواء أكنا هناك او في مكان آخر ..

قال ماتيو : – نعم .

وقال : – انني مسرور لأني سأرى طفلي ، وإلا ... فسأعود الى المكتب ، اني غير متفاهم تماماً مع زوجتي ... سنقرأ الصحف ، وسنقلق بسبب دانتزيغ : فيعود الأمر كما كان في السنة الماضية (وتثاءب وأضاف) ان الحياة متشابهة في كل مكان ، أليس كذلك ؟

– متشابهة في كل مكان .

وتبادلا بسمة رخوة . ولم يكن لديهما بعد ما يقولانه .

قال جورج : – الى اللقاء .

– الى اللقاء .

وكان ثمة من يعزف على الاكورديون في الجهة المقابلة للحاجز ، في الجهة المقابلة ، كانت ثمة نانسي ، وباريس ، واربع عشرة محاضرة

في الاسبوع . وايفيش ، وبوريس ، وربما ايرين ، ان الحياة متشابهة في كل مكان ، متشابهة دائماً . وتوجه بخطى بطيئة نحو الحاجز :
ـ اخطأت !

وأشار له بعض الجنود بأن يبتعد : كانوا قد رسموا خطاً على الأرض وكانوا يلعبون بالدراهم ، في غير حماسة كبيرة . وتوقف ماتيو لحظة : فرأى دراهم تتدحرج ، ثم دراهم اخرى ، ثم سواها : وبين فترة واخرى ، كان درهم يدور على نفسه كالبلبل ثم يتعثر على درهم آخر فيغطي نصفه . واذ ذاك كانوا ينتصبون ويطلقون الصيحات . واستعاد ماتيو سيره .

كثير من القطارات والشاحنات التي تخدّد فرنسا . وكثير من الهمّ ، وكثير من المال ، وكثير من الدموع ، وكثير من الصياح في جميع اذاعات العالم ، وكثير من التهديدات والتحديات بجميع اللغات ، وكثير من المؤتمرات تنتهي بالدوران في ساحة او بقذف الدراهم في الغبار . كان جميع هؤلاء الناس قد مارسوا العنف فيما بينهم ليذهبوا وعيونهم جافة ، وكانوا جميعاً قد رأوا الموت فجأة في وجههم ، وكانوا جميعاً بعد كثير من الارتباك او التواضع ، قد صمموا على ان يموتوا . امــا الآن ، فقد ظلوا مذهولين،ايديهم متدلية ، واقدامهم مشربكة بهــذه الحياة التي ارتدّت عليهم،والتي تُترك لهم لفترة اخرى ، فترة صغيرة، والتي لا يعلمون بعد ماذا هم صانعون بها . وفكر : ان هذا هو نهار المخدوعين . وقبض بكلتا يديه على قضبان الحاجز ونظر الى الخارج : الشمس على الشارع الخالي . منذ اربع وعشرين ساعة ، كان السلام هو الذي حل في شوارع المدن التجارية . ولكن كان باقياً حول الثكنات والقلاع ضباب حرب غامض ينزع الى التلاشي . وكان الاكورديون الذي لا يُرى يعزف « المادلون » ، وتهبّ ريح خفيفة فاترة فتثير على الطريق زوبعة من الغبار . « وحياتي انا ، ماذا عساني اصنع بها ؟ »

كان الامر يسيراً جداً : ففي شارع هويغنز ، بباريس ، كان ثمة بيت ينتظره ، ذو غرفتين ، وتدفئة مركزية : وماء ، وغاز ، وكهرباء وارائك خضراء وعقرب برونزي على الطاولة . سيعود الى بيته ، وسيضع المفتاح في القفل : وسيستعيد كرسيه في ليسيه بوفون : ولا يكون قد حدث شيء : لا شيء على الاطلاق . كانت حياته تنتظره ، مألوفة ، وكان قد تركها في مكتبه ، في غرفة نومه ؛ سينسرب اليها من غير مشاكل – لن يفعل احد مشاكل ، ولن يشير احد الى اجتماع ميونيخ ، وبعد شهر سينسى كل شيء – ولن يبقى بعد الا ندب صغير لا يُرى في دوام حياته ، كِسْرٌ صغير : ذكرى ليلة حسب فيها انه ذاهب الى الحرب .

وفكر وهو يشد على القضبان بكل قواه : « لا اريد ! لا أريد ! لن يكون هذا ! »

وانفتل فجأة ، ونظر وهو يبتسم الى النوافذ المتلألئة بالشمس . كان يحسّ نفسه قوياً ، وكان في اعماقه قلق صغير كان قد بدأ يعرفه ، قلق صغير كان يمنحه الثقة . مطلق انسان ، في مطلق مكان . إنه لم يكن يملك بعد شيئاً ، ولم يكن بعد شيئاً . ان ليلة أمس الاول المظلمة لن تذهب سدى : ولن يذهب ذلك الهياج والاضطراب سدى تماماً . فليغمدوا سيوفهم اذا شاؤوا ؛ ليخوضوا حربهم او ليمتنعوا عن خوضها ، فانا اهزأ بذلك ، انني غير مخدوع ، وكان الاكورديون قد صمت ؛ واستعاد مانيو سيره حول الساحة ، وفكر : « سأظل حراً . »

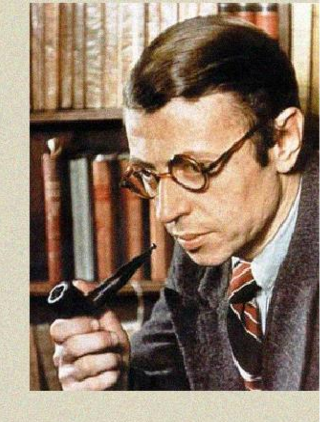
كانت الطائرة ترسم دوائر عريضة فوق بورجيه ، وكان قطرانٌ اسود متموج يغطي نصف أرض الهبوط . وانحنى ليجيه نحو دالادييه وصاح وهو يشير باصبعه :

– أي حشد !

فنظر دالادييه بدوره ، وتكلم للمرة الاولى منذ ذهابهم الى ميونيخ ؛

ـ لقد عادوا ليحطّموا رأسي .
فلم يحتج ليجيه . وهز دالادييه كتفيه :
ـ اني افهمهم .
فقال ليجيه متنهداً : ـ كل شيء يتوقف على رجال الشرطة .
دخل الغرفة ، وكان يحمل صحفاً ، وكانت ايفيش جالسة على السرير ، مطرقة الرأس .
ـ انتهى الامر ، لقد وقّعوا هذه الليلة .
فرفعت عينيها ، وكان يبدو سعيداً ولكنه صمت ، وقد أزعجه فجأة النظر الذي كانت تحدجه به . وسألته :
ـ أتعني انه لن يكون هناك حرب ؟
ـ طبعاً .
لا حرب ، لا طائرات فوق باريس ، ولن تنفجر السقوف تحت القنابل : فينبغي اذن ان اعيش . وقالت وهي تنشج :
ـ لا حرب ، لا حرب ، وتبدو انت مسروراً !
اقترب ميلان من أنّا ، كان يترنّح ، وكانت عيناه ورديتين ، ولمس بطنها وقال :
ـ وهذا واحد لن يكون له حظ .
ـ ماذا ؟
ـ الطفل . اقول انه لن يكون له حظّ .
وبلغ الطاولة وهو يعرج ، فصبّ لنفسه قدحاً . وكان القدح الخامس منذ الصباح .
وقال : ـ اتذكرين حين تعثّرت على الدرج ؟ لقد ظننت انك ستجهضين .
قالت بجفاء : ـ وماذا تقصد ؟
وكان قد استدار إليها ، والقدح في يده ، وكان يبدو وكأنه يحمل

نخباً ، وقال وهو يقهقه :
ـ كان ذلك أفضل !
فنظرت اليه : كان يرفع القد الى فه بيدح ترتجف قليلا ،
قالت : ـ ربما ، ربما كان ذلك أفضل.
كانت الطائرة قد حطت ، وخرج دالاديه في مشقة من بين المقاعد، ووضع قدمه على السلم ؛ كان ممتقعاً . وحدث ضجيج هادر ، وأخذ الناس يركضون ، خارقين صف رجال الشرطة ، مقتلعين الحواجز ، وشرب ميلان وقال ضاحكاً :
ـ نخب فرنسا ! نخب انكلترا ! نخب حلفائنا الامجاد !
ثم قذف القدح بكل قواه الى الجدار ، كانوا يصرخون :
ـ لتعش فرنسا ! لتعش انكلترا ! ليعش السلام !
وكانوا يحملون أعلاماً وباقات ، وكان دالاديه قد توقف عند الدرجة الاولى : وكان ينظر اليهم في ذهول ، والتفت الى ليجيه ، وقال بين اسنانه :
ـ يا للفروج الحمير !



كان ثمة شيء في نفسها بلا
ريب : فإنه لم يسبق لحركاتها أن
كانت على مثل هذه الفجاءة ، ولا
لصوتها أن كان خشناً ، رجولياً ،
كما هو الآن . كانت جالسة على
السرير اسوأ مما لو كانت عارية ،
بلا دفاع ، كأنها إناء ضخم من
الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة
الوردية ؛ وكان يشق على المرء أن
يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي
،

بينما تنبعث منها رائحة قوية
غامضة ، وأخذها ماتيو من
كتفيها وجذبها اليه : إنك آسفة
على ذلك الزمن ؟ فقالت مارسيل
بجفاف : ذلك الزمن ، كلا : بل أنا
أسفة على الحياة التي كان يمكن أن
أحياها .